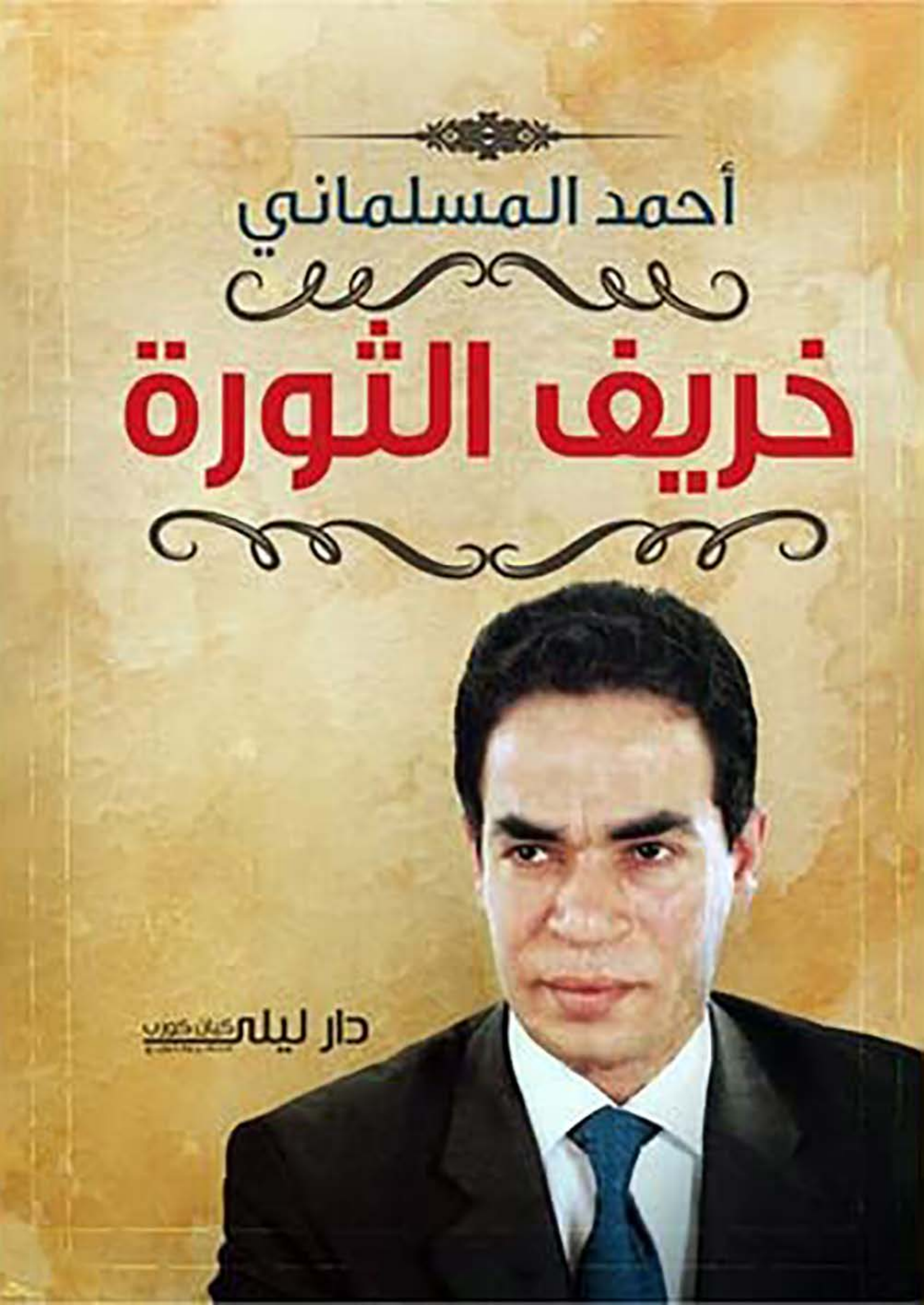

أحمد المسلماني
خريف الثورة
دار ليلى

خريف الثورة

أحمد المسلماني

كيان كورب
للنشر والتوزيع والطباعة
دار ليلى

أحمد المسلماني

خريف الثورة



الفهرس

إهدَاء مَشْروط

إلى كل متَشَدِّد.. لا يقرأ إلا ما يُوافِق ولا يُشاهد إلا ما يتَّفِق.

إلى كل مُنغلِق.. لا يسمعُ إلا صوتَه ولا يرى إلا صورتَه.

إلى كل متعصِّب.. ينظُر إلى العالم من ثُقبِ الباب وينظُر إلى الآخر من ثُقبِ العقل.

إلى كل متطرف.. يعطي الكراهية لعُموم البشر ويحيَا مع نفسه حالة من العَدَم.

"إلى كل هؤلاء.. رجاء.. حاول أن تقرأ هذا الكتاب"

تقديم الإصدار الأول

أدت حالة الانتكاس السياسي التي يعيشها العالم العربي في الوقت الحاضر إلى بدء موجة من المراجعات وإعادة النظر.

وفي الموجة تلاحقت أسئلة عدّة عمّا جرى عبر نصف قرن شكّل عصر الثورات في العالم العربي.

ويقع هذا الكتاب لمؤلفه الأستاذ أحمد المسلماني الكاتب السياسي في صحيفة الأهرام داخل هذه المراجعات، التي تستهدف إعادة قراءة لما كان في شأن الثورة والثائرين، وعن ذلك الطريق الذي صعد بالعالم العربي في سنوات الانتصار ثم هوى به في سنوات الانكسار.

يمرّ الكتاب على عدة ثورات عربية مفصحاً عن تأملات في معالم الخريطة العربية.. من الزمان إلى المكان، ومن القصور إلى القبور! وفي تناوله هذه الإشكالية لا يلجأ الكاتب لمجرد مراكمة المعلومات، وإنما يطرح تساؤله المحوري.. ما الذي جرى للثورة في العالم العربي؟

وحينما يحاول الإجابة على هذا التساؤل فإنه يلجأ لمصادر عدة "الصحف، المجلات، الكتب، المقابلات الشخصية".. ولذا فإجابته على السؤال تأخذ شكل سرد ممتع للأحداث، وحشد واعٍ ومنظم للتفاصيل بطريقة تعطيها دلالة عميقة. ولعل ثراء التفاصيل والمعلومات وعمق دلالتها هو الذي ينقذه من السقوط في الرؤية الإيديولوجية الاختزالية التي تلوي عنق المعلومات وتنتقي منها حتى يمكن حشرها حشراً داخل نمط مسبق.

وقد عبّر الكاتب عن رؤيته من خلال لغة جريئة تقع ما بين صرامة النص العلمي ورحابة النص الأدبي.

وعلى ذلك، فالكتاب الذي يقدم طرحاً جديداً في إعادة قراءة جوانب من تـاريخ العرب المعاصر.. يقع إجمالاً داخـل حقـل الأدب الـسياسي الـذي طالمـا كانـت المكتبـة العربية في حاجة إليه.

باختصار شديد هذا الكتاب عميق ومفيد وممتع، وسواء اتفقت أو اختلفت مـع كاتبه فهو يستحق القراءة المتمعنة.

د. عبدالوهاب المسيري

مصر الجديدة – القاهرة – 2005

خريف الثورة.. مقدمة الإصدار الثاني (2014)

حين قامت ثورة 25 يناير 2011، ووسط كثافة الأحداث.. اتصل بي الصديق "ياسر علوي" الدبلوماسي والباحث وزميلي في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة.. قال لي ياسر: أعتقد أنك أحد الخاسرين الأساسيين في ثورة يناير؛ قلت له: كيف؟ قال لي: سوف يلقى كتابُك "خريف الثورة" مصير كتب "ابن رشد".. فقد بدأ العالم العربي "ربيع الثورة" ولم يعد هناك مكان لـ"الخريف".. وأنصحك أن تذهب أنت من تلقاء نفسك.. وتحرق ما بقى من نُسخ الكتاب، ثم عليك أن تتجاهله تمامًا في سَرْدِك لسيرتك الذاتيّة!

* * *

كان ياسر محقاً في ذلك الوقت.. فعلى الرغم من أن كتابي "خريف الثورة.. صعود وهبوط العالم العربي" قد صدر عن "دار ميريت" للنشر في القاهرة عام 2005.. وكان يتعلق بالثورات العربية في الخمسينيات والستينيات.. إلا أن الربيع العربي 2011 جعل عنوان الكتاب غريبًا وصادمًا.. في الزمان وفي المكان.

* * *

كانت كلمة "الربيع" طاغية في تلك الأثناء.. وكان "الأمل" لدى ملايين الشباب المتحضّرين الذين أرادوا لبلدانهم وضعاً جيدًا ومستقبلاً لائقًا عند أعلى مستوياته. ولم يكن ممكنًا وسط "سطْوة الأمل" أن يكون هناك مكان لمفردات من نوع "خريف" أو "هبوط".

سأعترف بالطبع أنني كنتُ واحدًا من أعداء كتابي.. ذلك أنني كنتُ واحدًا من الملايين الذين رأوا في إسقاط نظام "مبارك"، وإنهاء مشروع مبارك الابن ورفاقه..

نهاية للنفق المظلم، وبداية لإضاءة جديدة وباهرة لربوع الوطن.

* * *

كنتُ أعرف بالطبع نظريات الثورة.. ونماذج الثورات العربية وغير العربية.. وكنت تتبّعتُ في الإصدار الأول للكتاب.. "اللعنات" التي لاحقت الثورات.. و"الربيع" الذي تحول إلى "خريف".. و"الثوار" الذين تحولوا إلى "تجار". كما أنني رصدتُ الصدام الثوري- الثوري والتآكل الذاتي للثورات.. ومحنة الفشل في "الدولة" بعد النجاح في "الثورة".. ثم محنة الحنين إلى الماضي.. أو إلى ما قبل الثورة على أثر النتائج الرديئة لزمن الثورة.

كنتُ أعرف ذلك كله بالطبع.. لأنه ببساطة موضوع الكتاب. لكنني أعرف أيضًا.. أن السياسة هى فن الممكن، وأن التاريخ قد لا يعيد نفسه، وأن الحديث عن "الحتميات التاريخية" هو حديث خارج العلم.

وعلى ذلك.. كنتُ أمضي ضدّ ما سبقَ أن مضيْت، وأرى غير ما سبقَ أن رأيْت، وأطرح خلاف ما سبق أن طرحْت.

* * *

مرّت شهور قليلة.. وبدأ طوفان الأمل ينحسر شيئًا فشيئًا.. وبَدَا الملايين من الشباب النبيل الذي خرج لأجل الحاضر والمستقبل.. مُحبطًا بشأن الحاضر ومفزوعًا بشأن المستقبل.. فقد مضت تداعيات ثورة 25 يناير في طريق غير الذي أعلنته ونقيض الذي أرادته.

كانت جماعة الإخوان المسلمين جاهزةً بالتنظيم في الداخل والتأييد في الخارج، وكانت القوى المدنية غير جاهزة بما يكفي للتوازن أو ضبط المسار.. وفَقَدَت الثورة معالمَ الطريق.

بدأ كثيرون يتحدثون عن "اللامخـرج"، وعـن "لعبـة الـدومينو" الـتي أُغلِقـت بإحكام.. وعن الانهيار التدريجي للبلاد. وكان الطرف الآخـر يحـذّر مـن الوقـوف في وجه منحنى الهبوط لأن البديل هو الفوضى!

لقد عادت ثنائية "مبارك" من جديد: "أنا أو الفوضى".. "أنا أو الدماء".

* * *

كان المتشددون الذين استثمروا أجواء الركود الحضاري في مـصر.. قـد بـدأوا في عملية منظمة لتغيير الشخصية والهوية، وتعديل الصورة التاريخية للدولة المصرية.. مضوا في طريق "اللادولـة" ولكـن الـشعب العريـق مـضى ليوقـف الطريـق.. وليـصحح المسار.. وليدفع العربة التي وصلت إلى حافة الهاوية عن السقوط .

* * *

على نحـوْ مقـولات "توفيـق الحكـيم" كانـت ثـورة 25 ينـاير 2011 بمثابـة "عودة الروح" وجاءت ثورة 30 يونيو 2013 بمثابة "عودة الوعى". كانت ثـورة 30 يونيو تحريرًا لثورة 25 يناير من الاختطاف والانحراف.. وكان ثوار يونيو نموذجًـا فريدًا في التاريخ.. ذلك أنهم نجحـوا فيمـا فـشلت فيـه شـعوب أوروبـا حـين حكمـت الفاشية وسيطر الاستبداد.

* * *

فوجئ المـصريون بحجـم العـداء الإعلامـي الغربـي لثـورة يونيـو.. واصـطفاف صحف ومحطات غربية في جانب "نظام مرسي" ووصف الثورة بـ"الانقلاب".

يتـشكك المـصريون في نوايـا الغـرب، ويـصيبهم الـذهول مـن الإطـراء الغربـي للرئيس السابق "محمد مرسي" دون إدراك لحجم المأساة التي دفع إليها البلاد.

* * *

ربما يدفع المصريون علم السياسة إلى إعادة قراءة وتعريف النظرية الديمقراطية.. ذلك أن علم السياسة لا يجيب على سؤال: ما العمل لو وصلت قوة غير ديمقراطية إلى السلطة بطريق الديمقراطية، ثم بدأت بتدمير قواعد اللعبة والعبث بالمصلحة الوطنية أو الأمن القومي للبلاد؟

لقد فشل الساسة الألمان في زمن جمهورية "فاليمار" في الإجابة.. وكانت النتيجة وصول "هتلر" إلى السلطة.. ولم يخرج إلا مع خروج ألمانيا في دولتين تعيشان خارج الحضارة المعاصرة!

تنتسب "جمهورية فاليمار" إلى مدينة فاليمار وسط ألمانيا، وقد مكثت من عام 1919 وحتى عام 1933.. ويصفها باحثو السياسة بأنها كانت نموذجًا مثاليًا للديمقراطية الفاشلة.. حيث انتهت إلى النازية و"عصر هتلر" ونهاية كل شئ!

* * *

ثمّة نموذج يجدُر بالنقاش في هذا السياق هو نموذج الرئيس الأمريكي الحادي والثلاثين "هربرت روفر" الذي حكم الولايات المتحدة من عام 1929 وحتى عام 1933.

كان الرئيس "روفر" إيديولوجيًا متشددًا، وكان فاقدًا للقدرة على الإدارة والسلطة.. محدود الرؤية في السياسة والاقتصاد.

كل ما كان يعرفه "روفر" هو حفنة ألفاظ وعبارات في الرأسمالية المتطرفة.. لا يريد أن يسمع غيرها.

ما إن تولى الرئيس الفاشل "هربرت روفر" الرئاسة حتى بدأت الأزمة الاقتصادية الأمريكية.. وقد فشل "روفر".. "غير المؤهل" والذي جاء عبر الصناديق في انتخابات ديمقراطية في فهم الأزمة، وعلى ضعف الفهم كان ضعف الأداء.. وزادت

الأمة اختناقاً و"روفر" لايـزال يكـرر نفس العبـارات البائـسة والـشعارات الفارغـة. وكانت النتيجة.. أنه بعد ثمانيـة شـهور فقـط مـن إدارتـه للـبلاد، أصـبحت الأزمـة الاقتصادية المحدودة هى أكبر أزمـة اقتـصادية في تـاريخ العـالم.. وهـى مـا يـسميها مؤرخو الاقتصاد بـ"الكساد الكبير" أو "الأزمة الاقتصادية العالمية 1929".

بقى "روفر" في السلطة حتى جاء حاكم نيويـورك "فـرانكلين روزفلـت" لينقـذ الولايات المتحدة. سيقول البعض: إن "روفر" أكمل مدته.. وهذا صحيح.. ولكـن مـاذا لو كان هو ينتمي إلى جماعة لديها جناح عـسكري ولـديها خطـة محـددة لـن تتنـازل عنها قبل أربعمائة عام!

وماذا لو كان رئيسًا لدولة تـستورد الغـذاء والـصناعات وتعـاني كـل مـشكلات التنمية؟ وماذا لو كان يواجه ضغوطًا إقليمية ودولية تريد العبث ببلاده؟ وماذا لو كان ينتمي إلى حزب ديني أو تنظيم شيوعي يزايد عليه ويدفعه إلى مزيد من التطـرف كـل يوم؟.. ماذا لو بقى رئيسًا لمدّة ثانية بقوة الإيديولوجيا أو السلاح أو الدعم الدولي؟

الإجابة: كان "روفر" سيذهب بالولايات المتحدة إلى الهاوية.. ربما إلى انهيار الحياة تمامًا.. أو "تفكيك" الولايات المتحدة وعودة "الولايات المنفصلة" الأمريكية!

* * *

كان "روفر" مؤمنًا بالرأسمالية التامـة، وعـدم تـدخل الدولـة في الاقتـصاد أيًّـا كانت الأسباب. وكان هو في ذلك امتدادًا لنظريات الاقتصادي الإنجليزي الـشهير "آدم سميث".

إن الولايات المتحدة الأمريكية هى "دُفعة" هذا الكتاب، فقد استقلت الولايات المتحدة عـام 1776 مـع الطبعـة الأولى لكتـاب "آدم سميـث".. "ثـروة الأمـم" – The wealth of Nations – التي صدرت هى الأخرى عام 1776.

أصرّ "روفر" على المضيّ قُدمًا وراء "آدم سميث" مؤمنًا بأن الاقتصاد الرأسمالي يصحِّح نفسه بنفسه.. وأن آلية العرض والطلب تكفُل وحدها التصحيح الذاتي لأخطاء الرأسمالية.. وأن "الأيدي الخفية" تعمل ذلك من تلقاء نفسها دون تدخل الدولة.

لقد وجد "روفر" أن مُرشده الاقتصادي يذهب به من أزمة إلى أزمة.. ولكنه كان يمضي دون وعى أو مراجعة.

جاء "روزفلت" من خارج تلك الرؤية الجامدة للرئيس ومرشده وقرر تدخل الدولة لإنقاذ الاقتصاد.. وتواكب ذلك مع ظهور كتاب "النظرية العامة" للاقتصادي البريطاني الشهير "كينز" الحائز على جائزة نوبل.. والذي دعا إلى زيادة الإنفاق الحكومي والتدخل القوي للدولة فيما أصبح معروفًا بـ"الاقتصاد الكينزي".

سقط الرئيس الفاشل والمرشد الجامد والإيديولوجيا المغلقة. وجاء "فرانكلين روزفلت" منقذًا لبلاده من كارثة كبرى جاءت بها الصناديق!

* * *

لا يثق العرب في الغرب ولا يثق الغرب في العرب.. وهو جانب من ظاهرة أوسع "لا يثق العالم في العالم" أو على نحو ما سبق أن نشرتُ في سلسلة مقالاتي "العالم ضد العالم".

لا يثق العرب في أن الغرب يريد حقًا مصالحه.. ذلك أنه جاء من قبل غازيًا وقاتلاً.. واستغل تقدمّه في تكنولوجيا السلاح ليحتل العالم العربي ويُدخله في نفق الاستعمار البغيض.. ويدرك العرب أن الغرب يريد العودة عبر "الاستعمار السياسي" بعد حقبة "الاستعمار الجغرافي".. وأن "المصلحة" هى الحاكم الأساسي في رؤية الغرب للعرب.. بل إن بعضًا من ملامح "الاستعمار الجغرافي" عادت من جديد!

ولا ينسى العرب الحفاوة المفرطة من قبل الغرب بالنظم الديكتاتورية في العالم

العربي طالما أنها لم تكن معادية – على نحو جادّ– لمصالحه.

كما أنهم لا ينسون التدليل الغربي لشخص مثل "معمر القذافي".. حتى أن أوبرا لندن قدمت عرضًا فنيًا يحكي قصة "القائد معمر القذافي" وكان عنوان العرض "الأسطورة الحية"!

ولا ينسى العرب كيف تواطأ الغرب لتحويل "الثورة السورية" إلى "حرب أهلية".. وكيف أن الهدف لم يكن إلا تدمير الأسلحة الكيماوية.. ولّما كان الملايين يعانون كان الرئيس الأمريكي يقول: ما يحكمنا في سوريا هو "المصلحة والمصلحة وحدها"!

* * *

كان الرئيس الأمريكي "دوايت ايزنهاور" يقول: "لحلّ أي مشكلة.. عليك أن تجعلها أكبر".. وقد ساعد الغرب حقًا في جعل كل المشكلات "أكبر".. لكن "الحل" بات أصعب وأعقد.

وقد ساعد في صعوبة الحل.. تلك الأعراض الجانبية القاتلة للثورة التكنولوجية العالمية التي باتت تغذي الخِلافَ والصِّدام.

لقد أصبحت شبكة المعلومات الدولية "الانترنت" وشبكات التواصل الاجتماعي وعالم "الفيس بوك" عناصر ضغط ومناطق اختراق.. باتت عبئًا على المشكلات.. وتكريسًا للأزمات.. ومانعًا قويًا لاحتمالات الحلّ.

* * *

لم يعد بمقدور الكثير من الأجهزة الالمام أو تحليل ذلك الكم الهائل من المعلومات.. وبات ما كان يتحدث عنه "ألفين توفلر" في كتابه "تحول السلطة" من "محنة وفرة المعلومات" حاصلاً ومذهلاً.

يقول عالم السياسة الأمريكي "جوزيف ناي": إن تأثير ثـورة المعلومـات علـى السلطة والقوة في القرن الحادي والعشرين ستكون حاسمة.. ويذكر "ناي" نماذج لتلـك القفزة في ثورة المعلومات.. فعلـى مـدى ثلاثـين عامًـا كانـت قـدرة أجهـزة الكمبيـوتر تتضاعف كل (18) شهرًا، وبحلول القرن الحادي والعـشرين أصـبحت أسـعارها أقـل من (1) على (1000) من أسعار الثمانينات.. ولو كانت أسعار السيارات قـد هبطـت بنفس السرعة التي هبطـت بهـا أشـباه المواصـلات لكـان ثمـن الـسيارة اليـوم خمـسة دولارات فقط!

ويكمل "ناي": في الثمانينيات كان إجراء المكالمـات الهاتفيـة عـبر أسـلاك مـن نحاس يسمح بحمْل صفحة واحدة فقط من المعلومات في الثانية، واليوم يـستطيع خـيط رفيع من الألياف البصرية نقل (90) ألف مجلد في الثانية!

وفي الثمانينيات – أيضًا – كان تخزين (1) جيجا بايت من البيانـات يحتـاج إلى غرفة كاملة، والآن بوسع المرء أن يضع وحدة تخزين تَسَعْ (200) جيجا بايـت في جيب قميصه!

* * *

لقد فوجئ العالم العربي في عام 2011 بتلـك القـوة الهائلـة لثـورة المعلومـات وبذلك الوزن الكبير للإعلام الاجتماعي والإعلام الجديد.

ولقد كـان واضـحًا منـذ اللحظـة الأولى لانطـلاق "الربيـع العربـي" أنهـا ثـورة "القادرين" قبل أن تكون ثورة "المستضعفين".. وأنها غَضْبة "الأقوياء" التي لحـق بهـا "البسطاء".. هى ثورة الطبقة الوسطى.. ذات التعليم والثقافة والتي باتت ناقمـة علـى أداء نظامها ومكانة بلادها.

ويذهب "فرانسيس فوكوياما" صاحب كتاب "نهايـة التـاريخ" إلى أن "الطبقـة الوسطى الجديدة" الـتي قامـت بـالثورة في مـصر وتـونس بـدأت تنتـشر عالميًـا.. وقـد

تتعرض العديد من الدول للحركات الاجتماعية.. وقد تصبح دولة مثل "فرنسا" في مهب هذه الاحتجاجات الواسعة.. ذلك أن الاقتصاد الفرنسي لا يلبي طموحات الطبقة الوسطى الجديدة.. وهذا دافع رئيسي في موجة "الثورات الجديدة".

وفي تحليل جرئ يقول "فوكوياما": إن الطبقة الجديدة لا تحترم التاريخ النضالي للشخصيات الحاكمة ما دامت هذه الشخصيات غير قادرة على تلبية التطلعات. إن التاريخ النضالي للرئيسة البرازيلية "ديلما روسيف" التي دخلت السجن أثناء الحكم الديكتاتوري.. وهى رئيسة حزب العمال، لا يكفي لكي تكون حاكمة لبلادها!

* * *

يذهب بعض المفكرين أن امتداد "الثورات الجديدة" إلى دول مثل فرنسا والبرازيل وتركيا.. لن يتوقف. بل إن أزمة الاقتصاد.. هى كلها أمور متصلة بأزمة أكبر وأخطر هى أزمة كوكب الأرض.. من تدهور البيئة ونقص المياه والغذاء وغرابة المناخ. وفي كتابه الشهير "التصدّع الكبير" – The Great Disruption – يقول الكاتب الاسترالي "بول جيلدنج": إن النظام الرأسمالي الحالي سيأخذ العالم إلى الانهيار التام.. ذلك أن "هاجس النمو" الذي يحرك الرأسمالية المعاصرة قد وصل إلى حدوده القصوى مائيًا وبيئيًا.. وأن النظام بات يلتهم نفسه حيًّا.. ويتجه بقوة نحو الانهيار المؤلم.. وهذا هو "التصدع الكبير".

وعلى ذلك.. فإن كل الدول قد تتعرض تباعًا لاحتجاجات واسعة أو ثورات جديدة.. بغض النظر عن مستوى الديموقراطية أو مساحة الحرية فيها.. ذلك أن المعضلة باتت أكبر من السياسة.

* * *

إن "التصدع الكبير" الذي تحدث عنه "جيلدنج" ويعني به "تصدع العالم

المعاصر" ربما يكون مناسبًا لوصف حالة أصغر في المساحة.. إنه "التصدع الكبير في العالم العربي المعاصر".

فبعد شهور من "الربيع العربي" عاد البعض ليتحدث عن "الخريف العربي".. وبعد قليل من ثورات كاسحة اندفعت المجتمعات إلى أوضاع كسيحة. لقد مثلت ثورة الثلاثين من يونيو 2013 عملية واسعة لاستعادة الأمل.. لكن الأوضاع في ليبيا وتونس.. وفي اليمن وسوريا كانت تبتعد عن "الأمل" بمسافات متباينة.

* * *

وحين طلب منّى الأستاذ "محمد سامي" ناشر كتابي "مصر الكبرى" و"ما بعد إسرائيل" أن أعيد إصدار كتاب "خريف الثورة" كنت أرى ذلك بعيدًا.

كان كتاب "مصر الكبرى" يمضي إلى الطبعة الخامسة، وكتاب "ما بعد إسرائيل" يمضي إلى الطبعة الحادية عشرة.. ولا يزال الناشر الدؤوب في إلحاحه: أين الإصدار الجديد من كتاب "خريف الثورة"؟

* * *

وها أنذا أقدم "خريف الثورة" الذي صدر في عام 2005 في إصدار جديد في عام 2014 بفارق خمس ثورات وثمان سنوات.. متمنيًا أن يجد فيه القارئ الكريم ما يفيد في النقاش والحوار لموضوع شغل كل التاريخ وسيظل شاغلاً لكل المستقبل.

1. نظرية المؤامرة.. أو اللامبالاة: لا فرق

حين بدأَتْ أحداث الثورات العربية كانت هناك أصوات خافتة تقول إنها "مؤامرة".. بدأت تلك الأصوات ترتفع تدريجيًا مع تدهور "الربيع" إلى "خريف".. ومن الصوت الهامس إلى الصوت الزاعق كان أنصار المؤامرة يتحدثون ويؤكدون.

* * *

كانت ثورة 25 يناير ثورة وطنية مجيدة.. أسقطت نظامًا فاشلاً في مدة زمنية كانت مفاجأة للثوار وللنظام.. معًا.

وقف الغرب إلى جوار مبارك، وساند "أوباما" ووزيرة خارجيته "هيلاري كلينتون" نظامه بقوة وإصرار.. وجاءت تصريحات واشنطن تحمل الكثير من المديح والثناء في مبارك شخصًا وحُكمًا.

لكن الإصرار الأكبر من قبل المتظاهرين في التحرير وعدد من الميادين الأخرى، كان وراء خضوع "مبارك" ونظامه.. وكان وراء تغير واشنطن لمواقفها التي تبدّلت في أيام معدودة من أن "مبارك رجل حكيم" إلى أنه "يجب أن يرحل مبارك الآن".

كانت ثورة 25 يناير مصرية خالصة.. وكان يوم مجدها الحضاري يوم أن قام الثوار بتنظيف ميدان التحرير وإخلاء ساحات التظاهر والعودة السلمية والحضارية إلى حياتهم الطبيعية بعد إسقاط النظام.

لكن مشهدًا آخر جاء ليغطي على مشهد تنظيف الميدان.. إنه مشهد "استعراضات التطرف" التي أسماها الإعلام "جمعة قندهار".. حيث جرى اختطاف الثورة في أقل من ستين دقيقة.. عبر خطبة استعلائية ركيكة ألقاها الشيخ "يوسف القرضاوي".

لقد مثّلت "جمعة قندهار" بداية الاختراق من الخارج والاختطاف من الداخل.. كانت بداية تحوّل بعض القوى السياسية من "المظاهرات" إلى "السفارات" ومن "الوطنية" إلى "التبعية".

* * *

يمكن للبعض أن يرتِّب الأحداث على نحو يقود إلى أن المؤامرة كانت حاصلة منذ اللحظة الأولى.. بل وما قبلها. وظنِّي أن في ذلك تركيبٌ مفتعَل واستنتاجٌ مُختلَق.. وفيها إدعاء للحكمة بأثر رجعي.. قوةً فوق قوتها وسطوةً فوق سطوتها.. وهى طريقة في التحليل يمكن تعميمها على الكثير من الأحداث والأشخاص.

* * *

يميل أنصار "نظرية المؤامرة" إلى "تركيب" الأحداث في ليبيا على النحو التالي:

في يوم جمعة الغضب المصرية 28 يناير 2011 أنشأ الناشط الليبي "حسن الجهمي" صفحة على موقع التواصل الاجتماعي "فيس بوك" يدعو إلى إطلاق الثورة في 17 فبراير.. وهو ما حدث بالضبط. وفي 14 فبراير 2011 صدر بيان من (213) شخصية تطالب بتنحي "معمر القذافي" عن السلطة. وفي يوم 15 فبراير قامت "الجماعة الإسلامية الليبية المقاتلة" التي تعتنق منهج تنظيم القاعدة بتغيير اسمها إلى "الحركة الإسلامية للتغيير" قبل يومين فقط من بدء الثورة.. استعدادًا للدور القادم.

وقد بدا الأمر وكأن هناك ترتيب خاص للمتشددين الإسلاميين في مستقبل ليبيا قبل اندلاع الثورة. فقد كان الإسلاميون مستعدون للمشهد على نحو يثير الشكوك. ثم إن تحوّل الثورة إلى حرب أهلية وهجوم عسكري من حلف شمال الأطلنطي (الناتو).. قد أدى في نهاية المطاف إلى تدمير كافة القدرات العسكرية

للدولة الليبية، وإطلاق سوق السلاح والجريمة في ربوع البلاد.. وهو ما دعا منظمة "هيومن رايتس ووتش" إلى القول: "إنه يجب على الأمم المتحدة أن تتدخل لحماية المدنيين".

إذن.. فإن "صفحة فيس بوك" و"توقيع شخصيات" و"تغير اسم الجماعة المقاتلة" و"قصف الناتو" و"تدمير الدولة الليبية" و"طلب التدخل الدولي في ليبيا بحجة حماية المدنيين".. هى سلسلة في المؤامرة!

* * *

وتميل – أيضًا – "نظرية المؤامرة" إلى تفسير الأحداث في تونس على النحو التالي:

"محمد البوعزيزي".. "أيقونة" الثورة التونسية جرى تقديمه على غير الحقيقة، فقد خالف القانون، وكانت مصادرة عربته إجراءً قانونيًا سليمًا. واتهام الشرطية "فايدة حمدي" بصفعه لم يكن صحيحًا ووقفها عن العمل كان قرارًا ظالمًا جرى اتخاذه دون محاكمة، ولما جرت محاكمتها بعد شهرين من الثورة حصلت على البراءة.. وأقرّت أنها لم تعتد عليه وأنها صادرَت عربته بموجب محضر رسمي.

وتمضي النظرية.. أن ثمة اتفاق مسبق بين حركة النهضة الإخوانية وبين الولايات المتحدة.. حيث سافر الشيخ "راشد الغنوشي" إلى واشنطن عقب فوز حركة النهضة مباشرة.. وهى الزيارة التي وصفها الكاتب السعودي "عبدالرحمن الراشد" بأنها "زيارة طمأنة".

وقد أعقب ذلك إعلان المنطقة الحدودية الجنوبية منطقة معزولة بدعوى مكافحة الإرهاب.. لكن البعض تحدث عن قاعدة أمريكية جنوب تونس تحت غطاء مقاومة الإرهاب.

إذن.. فإن "حادثًا مفتعلاً" و"زيارة غامضة" و"قاعدة أمريكية".. هي سلسلة في المؤامرة!

* * *

ويميل أنصار "نظرية المؤامرة" إلى تفسير الأحداث في سوريا على النحو التالي:

بدأت المظاهرات السورية شبيهة بمثيلاتها في دول الربيع العربي.. لكن قوى إقليمية قامت بتشجيع كتائب من الجيش السوري على التمرّد العسكري.. وإنشاء الجيش الحرّ. وكان ذلك بداية "المأساة السورية".

أعطت تركيا الملاذ للقوات العسكرية المنشقة.. فزادَ غليان الصراع وارتفعت أعداد القتلى إلى أرقام مخيفة.

قالت واشنطن أنها ستدعم الجيش الحر.. وستضرب قوات الأسد، لكنها لم تفعل هذا ولا ذاك.. بل تركت سوريا لتنهي نفسها بنفسها. وحين تعقد الصراع.. قدمت مبادرة الأمم المتحدة للسلام بقيادة "كوفي عنان".. مبادرة لوقف إطلاق النار.. تعقبها مرحلة انتقالية سياسية.. لكن الولايات المتحدة عارضت ذلك.

وحين وقعت أزمة الأسلحة الكيماوية، جرى التشكيك في أن يكون الأسد وراء ذلك وأشارت بعض الدوائر إلى أن واشنطن تعرف الحقيقة وربما كانت شريكة فيها.. ولكن الولايات المتحدة هددت بقصف جوي لسوريا.. ثم انتهى التهديد الأمريكي بعد اتفاق تسليم الأسلحة الكيماوية. وبناءً على الاتفاق تخسر سوريا قوة الردع الأساسية لديها بعد أن سلمت ترسانتها (1300) طن من الأسلحة الكيماوية.

وهكذا – طبقًا لهذا التحليل – فإن القضية برمتها ليست الثورة السورية ولا الشعب السوري.. ولا الديكتاتورية البعثية.. بل هى الأسلحة الكيماوية السورية

التي تمثل تهديدًا لإسرائيل.

ولقد كان لافتًا أن بدأ الغرب يتحدث عن السلاح الكيماوي المصري عقب الاتفاق السوري مباشرة.. وكأن الدور على مصر!

وقال "أحمد أوزومجو" رئيس منظمة حظر الأسلحة الكيماوية وسفير تركيا السابق في إسرائيل: ينبغي على مصر التخلص من أسلحتها الكيماوية لا سيما بعد انضمام سوريا إلى المعاهدة. وتحدثت صحيفة "وول ستريت جورنال" في عدد 14 سبتمبر 2013 عن امتلاك مصر أسلحة كيماوية واعتقاد الغرب أن مصر تحتفظ بترسانة مجهزة من غاز الخردل وغاز الأعصاب. وزعمت الصحيفة الأمريكية أن مصر قد استخدمت الأسلحة الكيماوية في حرب اليمن أثناء حكم الرئيس "جمال عبدالناصر". وانتهت إلى أن "تفكيك ترسانة سوريا يسلِّط الضوء على ترسانة مصر"!

إذن.. فهي "الأسلحة الكيماوية السورية" ثم "الأسلحة الكيماوية المصرية".. أسَاسَا المؤامرة.

* * *

وإذا كان هذا هو سياق "نظرية المؤامرة".. فإن هناك سياقات أخرى للتحليل.. ومن المؤكد أن جانبًا مما تحمله النظرية صحيح تمامًا.. لكن جانبًا آخر لا يمثل "مؤامرة مسبقة" بقدر ما يمثل "مؤامرة لاحقة".. أى عدم الإعداد المسبق للأحداث.. لكنه الاختراق اللاحق للأحدث ومحاولة التوجيه والاستفادة من نقاط الخَلَل ومواطن الوَهَن.

وفي بعض الحالات لا تكون نظرية المؤامرة.. "المسبقة أو اللاحقة" هى الأفضل للتفسير.. فقد يكون الاهمال وعدم الاكتراث من قبل القوى الكبرى وراء التدهور والانهيار.

ويذهل "جيفري ساشيز" مدير معهد الأرض في جامعة كولومبيا ومستشار الأمين العام للأمم المتحدة أن السياسة الأمريكية تجاه سوريا لا يحكمها أى ترتيب وهى "بلا منطق".

* * *

إنها "نظرية اللامبالاة" إذًا.. إلى جوار "نظرية المؤامرة".. ويمكننا الاجتهاد في تعريف "نظرية اللامبالاة" في كوْن الدول الكبرى تمارس السياسة غير الجادة.. وتمارس العداء المختلط بالعبث وعدم المسئولية. وهى تنظر في حساباتها إلى أن فشل سياستها لا يكلفها الكثير.. ومن ثم فلا مبرر لدراسة جدوى مُعمَّقة للسلوك السياسي أو العسكري.

ويبدو الأمر أشبه برجل أعمال يمتلك مليار دولار وأراد أن يستثمر مليونًا واحدًا من المليار في شراء "سوبر ماركت".. إنه لن يلتفت بالطبع إلى تفاصيل الشراء، وربما لا يلتفت لعملية الشراء نفسها.. ثم إنه لن يعطي الكثير من الوقت لمشاعر القلق بشأن احتمالات فشل المشروع الجديد.

وتبدو الدول الكبرى في بعض القرارات مع الدول الصغيرة والمتوسطة أقرب إلى ذلك.. فهى تمارس السياسة إزاءها بقدر عالٍ من عدم الاكتراث. وحين يشرح "هنري كيسنجر" السبب في كثافة النيران وقسوة الحرب في فيتنام فإنه يقول بـ"لامبالاة":

"أردنا أن يشعروا بالألم.. ويتفاوضوا.. لكن ذلك لم يحدث.. فكان دمار فيتنام"!

وفي حالة الحرب على أفغانستان.. قامت الولايات المتحدة بإخراج أفغانستان من التاريخ ونسَفت البشر والحجر.. ثم بعد عقد كامل من الدمار عادت لتقول.. لا مانع من الحوار مع حركة طالبان!

وفي العراق قامت الولايات المتحدة بغزو البلاد تحت دعاوى غير صحيحة..

تتعلق بحيازة أسلحة دمار شامل ودعم "صدام" للقاعدة.. رغم أن أى طالب علوم سياسية مبتدئ يدرك استحالة أن يكون لنظام "صدام" أية علاقة بالقاعدة.. ويدرك أيضًا أن أداء الجيش العراقي لا يشير إلى امتلاكه لأى سلاح استثنائي.

وبعد أن خرج العراق هو الآخر من التاريخ.. قالت واشنطن: إن "صدام" لم يكن على صلة بالقاعدة.. ولم نجد أية أسلحة دمار شامل.. لقد كانت بعض تقاريرنا مغلوطة!.. وقالت صحيفة "نيويورك تايمز": كنا نتصور أننا نحقق الديموقراطية في العراق لكن يبدو أننا نرعى حربًا أهلية هناك!

لقد وصلت تلك "اللامبالاة" إلى عدم تقدير البيت الأبيض للمصلحة الأمريكية ذاتها، حيث قدرت الإدارة الأمريكية تكاليف حرب العراق بأنها لن تزيد عن الـ (50) مليار دولار، لكن التكلفة وصلت إلى ستة تريليونات دولار.. أي أن الخطأ في التكلفة وصل إلى (1200) ضعف التقدير.

وفي سوريا قامت الولايات المتحدة بحضّ المعارضة على الثورة وإبلاغها دعمها سياسيًا وعسكريًا وإعلانها ضرب قوات الأسد.. ولكنها عادت بعد أكثر من مائة ألف قتيل وتسعة ملايين من الجوعى والنازحين واللاجئين لتقول: إنها مسألة داخلية.. وسنعمل طبقًا لمصالح بلادنا!

هى "اللامبالاة" التي يجب البحث في نماذجها وتطبيقاتها.. وهى بالنسبة للولايات المتحدة ليست بعيدة عن إيديولوجيا المغامرة وعدم التقدير التي تأسست عليها الدولة.

* * *

لقد جاءت ثورات الربيع العربي.. تحمل إخلاص الثوار ونُبل المقاصد.. ثم جاءت عليها – وربما معها – سياسات المؤامرة.. وأضيفت إليها ما أسمِّيها: "نظرية اللامبالاة في العلاقات الدولية".. وتعددت – على أثر ذلك – دوافع الخريف وموانع الربيع.

2. النانو دولة.. المشرق العربي الجديد

يقدّر "الأخضر الإبراهيمي" المبعوث الدولي إلى سوريا عدد المجموعات المقاتلة في سوريا بـ(148) مجموعة في عام 2013.

يوجد لدى عدد كبير من هذ المجموعات تصوّر مختلف للدولة السورية القادمة.. ولو تمت الاستجابة لها لتفككتْ سوريا إلى عشرات الدول. ويُلفت "جاسوانت سينغ Jaswant Singh" وزير الدفاع الهندي السابق النظر إلى عودة أجواء التقسيم مع الذكرى المئوية للحرب العالمية الأولى وبعدها اتفاقيات سايكس بيكو التي قسّمت بلاد الشام.. والاستفادة التركية من ذلك الوضع، وسط طموحات "العثمانية الجديدة"، ووسط نفوذ إقليمي لم تشهده تركيا منذ أسس "أتاتورك" الجمهورية.

* * *

من المثير حقًا في هذا السياق هو ذلك السباق في الفكر الغربي نحو "التحطيم النفسي" لشعوب المنطقة قبل "التحطيم السياسي" لجغرافيا المنطقة. فلا يكاد يمرّ يوم في الإعلام الغربي دون الحديث عن حرب "الثلاثين عامًا" أو "المائة عام" أو "المائتي عام".. القادمة في الشرق الأوسط.

يمكن الإشارة إلى "توماس فريدمان" و"فرانسيس فوكوياما" و"دومينيك مواس" و"يوشكا فيشر".. وغيرهم كثيرٌ ممن تسابقوا إلى الترويع النفسي للشعوب العربية وجَلْب جميع الأخبار السيئة.

* * *

تراجع "توماس فريدمان" عن مصطلح "الربيع العربي" وقال إنه كان متعجلاً في هذا الوصف، وأنه لم يعد له مغزى في الوقت الحالي، ويجب تغييره.. فما يعيشه

العالم العربي لا علاقة له بالربيع. وقال "فريدمان" إن المحلل الاستراتيجي "أنتوني كوردسمان" كان محقًا عندما قال إن أفضل مصطلح لوصف ما يحدث الآن هو "العِقد العربي" أو "رُبع القرن العربي" وهو ليس إلا حالة إقليمية من "عدم الاستقرار".

ثم وصل "فريدمان" إلى هدفه: "لقد تسرّعنا عندما قمنا بإجراء مقارنة سهلة بين الربيع العربي وسقوط حائط برلين.. إن المقارنة الصحيحة هى مع حدث أوروبي آخر هو حرب الثلاثين عامًا في القرن السابع عشر.. ذلك الصراع الديني السياسي الذي أدى في النهاية إلى نظام جديد".

ويمضي "فرانسيس فوكوياما" مع "توماس فريدمان": "لقد استغرقت الديمقراطية وقتًا طويلاً في أوروبا لكي تترسخ.. استغرقت مائة عام أو معظم القرن التاسع عشر. إن أوروبا لم تتحول إلى الديمقراطية مباشرة إلا بعد "الصراعات الدينية".. أى أن أوروبا مرّت بالصراعات الدينية لمدة طويلة قبل أن تكون ديمقراطية".

وبدوره يواصل "دومينيك مواس" – "Moisi" كبير مستشاري المعهد الفرنسي للشئون الدولية مسيرة التيئيس: "العالم العربي سيظل مشغولاً بصراع داخلي.. وستشهد المنطقة إعادة إنتاج الحروب الدينية التى اجتاحت أوروبا من عام 1542 وحتى عام 1648 والتي خاض فيها المعارك الكاثوليك والبروتستانت مثلما يخوض السنة والشيعة اليوم".

ويكمل "يوشكا فيشر" وزير خارجية ألمانيا الأسبق: "إن العالم العربي يشهد ثورات إسلامية وثورات مضادة.. وحين مرت أوروبا بذلك لم تتمكن من تجاوز هذه الحالة التفاعلية من الثورات والثورات المضادة وصراعات الدين والمذهب إلا بعد قرنين من الزمان"!

* * *

يواكب ذلك الفكر الغربي الإحباطي.. جهود كبيرة من عملاء محليين يساعدون في تمزيق الجغرافيا وتفكيك الدولة.. تحت دعاوى تستند إلى الدين وأخرى تستند إلى الدنيا.

وبدأت الجماعات والمجموعات الاجتماعية والدينية تتسلح رغبة في التقسيم أو استعدادًا له.. ولقد كانت بعض الفصائل الإسلامية في مقدمة الذين ذهبوا وراء الغرب في طريق التسلح الذاتي وكسر الدولة. وكم كان مفاجئًا أن يكون لدى بعض رموز التيار الإسلامي ممن وصفوا أنفسهم بالاعتدال "تكييف فلسفي" و"رؤية فكرية" في عملية التسليح لجماعات خارج الدولة. واحد من هؤلاء هو الشيخ "راشد الغنوشي" زعيم حركة النهضة التونسية..

يشرح "الغنوشي" رؤيته الصادمة بقوله: "عندما زرت اليمن.. قلت لهم: عندكم أمران حُرمنا منهم هما: القبيلة التي لا يجب التفريط فيها.. والشعب المسلح"!

ويواصل "الغنوشي": "الحرية عندكم – في اليمن – محميّة بالحراب وليس بالنوايا الطيّبة".. "في اليمن.. هناك دولة مسلحة، وهناك قبيلة مسلحة.. ولذا فهناك توازن بين الدولة والقبيلة.. وهذا التوازن هو الذي سمح للمجتمع المدني أن يتنفس.. وهذا مقوّم موضوعي"!

* * *

لقد وجدتْ رؤية "الغنوشي" صدَى في ليبيا ذات التكوين القبلي.. وسَعَتْ القبائل إلى المزيد من التسلح.. ومقاومة قوة الدولة.. وأصبح حديث البعض عن التقسيم والانفصال واصلاً إلى حدّ اللامعقول.

ويرصد الأديب الليبي "أحمد إبراهيم الفقيه" ذلك التدهور في اتجاه "اللادولة" في مقال له بعنوان "مشروع الإمارات الليبية الألف".. يقول "الفقيه":

"الجنوب الذي كان يُسّمى صندوق الرمال انتفض فيه أناس يطالبون بالانفصال، والجبل الغربي الذي لا نعرف فيه أى موارد إلا صيد العقارب ظهرت فيه مطالب انفصالية.. وأناس لم يكن لهم حسّ ولا خبر قالوا إنهم إثنيّات عظيمة ذات حضارة خالدة وتريد الانفصال".

ويواصل الأديب الليبي الأشهر: "خرج هؤلاء الناس الذين باركوا وبايعوا جلادهم معمّر القذافي القاتل لأولادهم ومصاص دمائهم.. والذين لم يكونوا يستطيعون التنفس في حضوره.. خرجوا للانفصال. أين كانت هذه الدماء الاستقلالية والانفصالية أيام الظلم والطغيان والقهر وحُكم الباطل والفُجور؟!"

وينتهي "الفقيه" قائلاً: "وهكذا تتشظّى ليبيا إلى ألف إمارة كما يريد أصحاب الدعاوى الانفصالية.. يحكمها ألف أمير.. وبدلاً من أن نقول: عاشت ليبيا حرة مستقلة.. سنقول: عاشت ليبيا وطن الألف إمارة والألف أمير".

* * *

إنها "النانو دولة" التي يريدها الغرب.. فكرًا وعملاً.. وهو ما دعا ثوار الربيع الطامحون لمستقبل ماجد لبلادهم لأن يقفوا مشدوهين أمام تلك الأهداف الغربية التي تجاوزت السرية إلى الصحف والشاشات.. إنها المؤامرة المعلنة!

ومن السهل أن تقرأ للبروفيسير "دومينيك مواس Moisi" تلك الجملة الصاعقة: "إن إسرائيل قد تكون الرابح الحالي الوحيد من الربيع العربي"!

3- ليسوا سواء.. الجهاد ضد الجهاد

في شهر فبراير عام 2012 قام إسلاميون ليبيون بهدم تمثال الرئيس "جمال عبد الناصر" في بنغازي.. ونشرت صحيفة "ليبيا اليوم" التي تصدرها جماعة الإخوان المسلمين الليبية خبر الهدم على نحو احتفالي بهيج.

بدا الأمر وكأنه رسالة بنهاية حقبة الثورات العربية التي كان رمزها "جمال عبد الناصر"، وتمكين الربيع العربي الذي أرادت الحركات الإسلامية أن تكون عنوانًا له.

* * *

كان لقاء التيار المدني مع التيار الديني فاقدًا للودّ.. كلا التيارين ضد النظم السابقة.. لكنهما يختلفان بشأن النظم اللاحقة.

وظهر لبعض الوقت أن الفرصة سانحة لكي يتعاون التياران معًا ضد التطرف وضد المؤامرات الخارجية لأجل بناء النظم الجديدة.. وتحدث حُكماء في الجانبين عن ذلك التقاسم للسلطة والتعاون في البناء والتنمية.

حتى لقد أطلق الرجل الثاني في نظام "القذافي".. "عبدالسلام جلود" مبادرة من باريس تدعو لإقامة حكم "إسلامي ليبرالي" طيلة الفترة الانتقالية بدول الربيع العربي، على أن يستمر الحكم الإسلامي الليبرالي دورتيْن أو ثلاث دورات برلمانية.. يكون الحكم فيها بالشراكة بغض النظر عن نتائج الانتخابات.. بعدها تكون اللعبة الديمقراطية حرة يلتزم الجميع بنتائجها.

وحَدَثَ أن دعَا قيادات في حزب الوسط المصري جماعة الإخوان المسلمين إلى عدم خوض المرحلة الثانية من الانتخابات البرلمانية المصرية 2011 طواعية والاكتفاء

بما أنجزته الجماعة في المرحلة الأولى.. من أجل التوازن السياسي في مجلس الشعب.. مع تقدير القوى المدنية لقوة الإخوان المسلمين.. ولكن ذلك كان أشبه بصُراخ في ميدان صاخب.

إن ما حدث هو العكس تمامًا.. حيث الانفراد بالسلطة وما جرى تسميته بـ"الأخونة" واعتماد "المغالبة" لا "المشاركة" أساسًا لنظم الربيع العربي.

كانت نقمة التيار المدني نابعة من كوْن التيار الديني الأكثر تنظيمًا واستعدادًا وهو ما جعله يبدو الأكثر شعبية، كما كان من أسباب النقمة حالة الاستعلاء والغرور التي كان عليها الإسلاميون النافذون.. وأضحت حالة الخَيلاء هذه مصدرًا لازدراء الرأى العام، مضافًا إليه نقمة النخب العربية.

وفي مراجعة أمينة يقول الكاتب "ناجح إبراهيم" رئيس "الجماعة الإسلامية": "كان يمكن أن نكسب الجميع بخطاب التواضع والتسامح الذي يكسر العداوات ويخلق المودّات، ولكن خطاب الاستعداء والاستعلاء أفقدنا معظم الأصدقاء، خاصة أننا لم نستطع أن نقدم للشعب المصري شيئًا على الأرض.. فكان يمكن أن نقدم له الكلمة الطيبة، لعله يسامحنا على تقصيرنا في الاقتصاد والأمن والسياحة والصناعة".

* * *

جاءت ثورة الثلاثين من يونيو عام 2013 لتنهي جهود إنهاك الشعب وإنهاء الدولة في مصر.. ولتعيد الثورة إلى الطريق المستقيم، بعد انحراف المختطفين المتدثرين برداء الدين ورداء الديمقراطية. كان الخطاب الديني السياسي لسلطة ما قبل يونيو 2013 واضحًا في التهديد والتخويف، وأن الدماء هى البديل الوحيد لإسقاط النظام.. وأن مليون شهيد جاهزون لأجل الذود عن مكتسبات الدنيا.. باسم الدين!

* * *

كـان الأشـد خطـرًا في ذلـك المـشهد هـو ذلـك الاخـتلاف المخيـف في خريطـة الحركات الإسلامية.. ذلك أن جماعة الإخـوان قـد تحالفـت مـع جماعـات وتنظيمـات أخرى رغم أن المسافة بينهمـا أبعـد كـثيرًا مـن المـسافة بـين القـوى المدنيّـة وجماعـة الإخوان.

وكان من السهل أن تجد في مؤتمرات السلطة الإخوانية من ينتمون إلى القاعـدة ومن ينتمون إلى جماعات التكفير.. على نحو طبيعي ومعتاد.

* * *

كانت شعوب الربيع العربي بدورها ترى التشدد يزداد يومًا بعد يوم، وتـرى الدماء تسيل باسم الله وباسم الشريعة مدينـةً بعـد أخـرى.. وكانـت جماعـة الإخـوان تقول إنها تُدين تلك الأعمال التي ترتكبها هذه الجماعات.

وثار الجـدل عمـا إذا كانـت جماعـة الإخـوان تقـوم بالترتيـب حقًـا مـع هـذه الجماعات، وهي شريكة في سيل الدماء، أم أن هذه الجماعات وجدت "الأمان" في حكم الإخوان فانطلقت تسعى لتأسيس "الإمـارة الإسـلامية" و"الدولـة الإسـلامية".. لكـن تصريحات الكثير من رموز الإخوان والجماعات الأخرى كانـت تـذهب إلى أن الطريـق واحد والهدف واحد.. وأن كلاً يقوم بدوره الذي يُكمِل دوْرَ الآخر.

* * *

إن نظرة واسـعة لخريطـة الحركـات الإسـلامية في العـالم لتـشير إلى أن الأمـر يحمل في بعض الأحايين درجات من التنسيق.. وتحمل في أحـايين أخـرى درجـة مـن المنافسة، بل والصراع. وصولاً إلى الـصدام والقتـال.. إنهـا تلـك المعادلـة الـتي يمكننـا تسميتها بـ"الجهاد ضد الجهاد".

* * *

منذ قررت جماعة "الخوارج" أن تقتل الإمام "على بن أبي طالب" والخليفة "معاوية بن أبي سفيان" بحجة أنهما كافريْن.. والعالم الإسلامي يشهد تلك الجماعات الخارجة التي تُلقي اتهامات التكفير على قارعة الطريق.

وتَمضي الصورة من جماعة إلى أخرى أكثر تشددًا تكفِّر السابقة، إلى أخرى أكثر تشددًا تكفر الجماعة الثانية التي كفرّت الجماعة الأولى.. وهكذا.. سلسلة من الانحطاط المعرفي والجهل الديني.. والعبث بالعلوم الشرعية.

ومع موجة "الجهاد" في العصر الحديث.. وجدَ العالم الإسلامي نفسه إزاء محنة كبيرة.. الجهاد ضد الآخر ثم الجهاد ضد الذات.. أو "الجهاد ضد الجهاد"!

* * *

كانت أفغانستان النموذج المفزع لحالة "الجهاد ضد الجهاد" و"المجاهدون ضد المجاهدين".. حيث التقى المجاهدان بسيفهما.. وقاتل أناس يرفعون راية الشريعة الإسلامية أناسًا آخرين يرفعون راية الشريعة الإسلامية!

كان عهد الرئيسيْن العميليْن: "كارمل" و"نجيب الله" الذي امتد ثلاثة عشر عامًا من عام 1979 إلى عام 1992 هو عُمر الجهاد الأفغاني الذي شهد عصره الذهبي في عهد الرئيس الثاني.

* * *

كان تقدير "نجيب الله" أن الصراع ليس دينيًا وليس متعلقًا بهوية أفغانستان وإنما هو صراع بين القوتين العظمييْن، وتم دفع الأطراف الأفغانية إلى حرب بالوكالة كما تم الزجّ بالدين في جبهات القتال.

وكان أن أعلن "نجيب الله" أن أفغانستان دولة مسلمة تخضع لقوانين الإسلام، ولن تكون هناك أى مظاهر للتغريب أو تغير الحياة المحافظة المتدينة للشعب الأفغاني.. كما أنه لن يسمح بأى مظهر من مظاهر العداء للإسلام في بلاده.

لكن ذلك لم يكن مقنعًا للمجاهدين الذين واصلوا "الجهاد" حتى إسقاط حكومة "نجيب الله" في كابول.. لكن "نجيب الله" رأى أنه يمكنه الدخول إلى قلب جماعات المجاهدين واستثمار الخلافات بينها لأجل تمديد عُمر نظامه.

ونجح "نجيب الله" في السنوات الأخيرة من عام 1989 وحتى عام 1992 في الدخول في مفاوضات مع المجاهدين!

* * *

سقط الاتحاد السوفيتي ونجح المجاهدون في إسقاط حكم "نجيب الله" الذي امتد ست سنوات خاض المجاهدون خلالها عددًا لا نهائيًا من المعارك.

* * *

كان ينبغي لتلك اللحظة أن تكون الأفضل.. ها قد نجح المجاهدون وها قد سقط الشيوعيون.. لكن الأمر لم يكن كذلك.. إذْ سرعان ما بدأت معارك "المجاهدين ضد المجاهدين".. إنها الحرب على الغنائم والقتال على السلطة.. إنها معركة الإجابة على سؤال: مَن يحكُم كابول؟!

أصبح "صبغة الله مجددي" أول رئيس لحكومة المجاهدين عام 1992.. وبعد قليل أصبح "برهان الدين رباني" رئيسًا لأفغانستان في العام نفسه 1992.. وقد مكث "ربّاني" في السلطة حتى عام 1992 حيث سقطت حكومة المجاهدين برئاسته على يد حركة المجاهدين الجديدة "حركة طالبان" برئاسة "الملا عمر".

* * *

مع بداية حكم المجاهدين الأفغان، نشبت الحرب بين الحزب الإسلامي "الجهادي" بزعامة "قلب الدين حكمتيار" وبين حزب الجمعية الإسلامية "الجهادي" بزعامة "برهان الدين رباني".. وامتدت الحرب بينهما إلى بداية الحرب الجديدة بين حكومة "رباني" (الجهادية) وبين حركة "طالبان" (الجهادية)!

كانت حرب المجاهدين ضد المجاهدين عنيفة وقاسية، ويقول البعض إنها كانت أشد قسوة ما بين المجاهدين والشيوعيين. بل إن "قلب الدين حكمتيار" أحد أبرز قادة الجهاد الأفغاني ضد الحكم الشيوعي قد تحالف مع القائد الشيوعي "عبدالرشيد دوستم" ضد حكومة المجاهدين برئاسة "رباني"!

ويذكر "جمال خاشوقجي" في مجلة "الوسط" (22 أغسطس 1992) أن بعض العرب قد توسطوا لدى "حكمتيار" لوقف القتال ضد "رباني".. وقالوا له: إن صواريخك تقتل الأبرياء في كابول.. ولكنه كان عنيفاً ويرد بحسم: "أنا أعرف أين تسقط صواريخي".

وكان "نواز شريف" رئيس وزراء باكستان يقول مستغربًا: مَنْ يقاتل حكمتيار في كابول؟.. ثم كان أن أعلن "حكمتيار" عزل "رباني" وأعلنَ "رباني" خيانة "حكمتيار"!

* * *

كان "حكمتيار" يقول إن "حكومة المجاهدين" برئاسة "رباني" عقبة في طريق الدولة الإسلامية، وأنه هو وحده الذي يملك الخطة الكاملة لإقامة الدولة الإسلامية في أفغانستان. وكان "رباني" يقول: إن "الحزب الإسلامي" بزعامة "حكمتيار" عقبة في طريق الدولة الإسلامية، وأنه هو وحده الذي يملك الخطة الكاملة لإقامة الدولة الإسلامية في أفغانستان!

لقد كان مخيفاً للغاية ذلك الهدف والشعار الذي وضعه حكمتيار لحربه مع حكومة المجاهدين في كابول.. كان الهدف يتلخّص في كلمتين: "فتح كابول"!

ولقد كان هذا المصطلح صادمًا.. كيف يمكن فتح عاصمة مسلمة لدولة مسلمة حكومتها جهادية.. باسم الإسلام والجهاد؟!

* * *

إن "حكمتيار" الذي قال إنه يريد "فتح كابول" لطرد الميليشيات الشيوعية تحالف مع الشيوعيين لإسقاط الحكومة الإسلامية، وهو الذي أفتى بكفر الشيعة وطالب بطردهم من أي سلطة في البلاد، هو نفسه من تحالف مع حزب الوحدة الشيعي لإسقاط الحكومة السُنيّة في كابول!

وتشير بعض الدراسات إلى أنه حرب المجاهدين ضد المجاهدين ما بين عامي 1992 و 1996 قد قُتِل فيها أكثر من (50) ألف شخص، وجرى تدمير (70٪) من مدينة كابول.. حتى جاءت حركة طالبان فأسقطت جميع الإسلاميين وأنهتْ حُكم المجاهدين!

* * *

هرب "حكمتيار" إلى إيران التي كانت بالنسبة له "دولة كافرة".. ثم عاد للظهور مع الحرب الأمريكية على أفغانستان حيث أعلن مساعدته في هروب "أسامة بن لادن" من جبال تورابورا عام 2001.. وإيصاله إلى ملاذ آمن.

اختفى "حكمتيار" مرة أخرى ثم عاد للظهور عام 2013 بعد هروب استمر طويلاً.. حيث تحدث إلى صحيفة "ديلي تيليجراف" البريطانية.. محذراً من الانحدار نحو الفوضى، وأنه لابد من "الانتقال السلمي" للسلطة عبر "انتخابات" حرة وعادلة.. ومن يفوز يجب أن "يقبل" به الجميع.. وقال إن الحزب الإسلامي بزعامته مستعد لخوض الانتخابات الرئاسية 2014!

وهو ما دعا الصحيفة البريطانية للقول: "إن أمير الحرب الدموي يتحدث عن "ديمقراطية" و"انتقال سلمي".. كأنه مراقب انتخابات يعمل في الأمم المتحدة!

* * *

لقد مضت سنوات على حرب المجاهدين ضد المجاهدين.. وكان اغتيال "أحمد شاه مسعود" وزير الدفاع ونائب "رباني" – أحد أبرز قادة الجهاد الأفغاني – حدثًا

مباغتًا جديدًا.. كان ذلك قبل يومين فقط من أحداث 11 سبتمبر 2001.. ففي 9 سبتمبر 2001 جرى اغتيال "أحمد شاه مسعود" وقال الناجي الوحيد من حادث الاغتيال: إن أسامة بن لادن كان وراء الاغتيال..

كان القائد الجهادي "أحمد شاه مسعود" قد خاض حربًا ضد حركة طالبان ومعها تنظيم القاعدة حيث وصفهما بالتشدد والإرهاب. ويقول الكاتب "فهمي هويدي": "حين حارب أحمد شاه مسعود حركة طالبان.. ساءت سمعته في العالم العربي، وأشاعوا أنه ضد الحركة الإسلامية، وهذا ليس صحيحًا على الإطلاق، الرجل لم يكن ينام إلا متوضئًا.. وكان الشيخ عبدالله عزام والشيخ عبد رب الرسول سياف يشيدون بالقائد الشهيد أحمد شاه مسعود والتزامه الفرائض الدينية والطاعات.. أما دوره في الجهاد الأفغاني فلا اختلاف عليه"

لكن القائد الجهادي المتوضئ.. والملتزم الطاعات والمؤدي الفرائض جرى اغتياله من قبل تنظيم القاعدة، لصالح حركة طالبان في نموذج مروع لـ"الجهاد ضد الجهاد"!

* * *

لقد مرّت سنوات أخرى وجرى اغتيال "برهان الدين رباني" هو الآخر في سبتمبر 2011 بفارق عشر سنوات تامة بين اغتيال "مسعود" واغتيال "رباني". قام جهاديون باكستانيون وأفغان بترتيب اغتيال "رباني".. حيث قام انتحاري بتفجير استهدف منزل في كابول حيث قُتِل "رباني" ومعه ثلاثة من أفراد حرسه في الهجوم!

وقد جاء الاغتيال بعد زيارته إلى مكتب الإرشاد في جماعة الإخوان المسلمين في مصر.. وهجومه على حركة طالبان ووصفها بالتشدد وبأنها لا تريد حلاً في أفغانستان.. حيث كان رباني رئيسًا للمجلس الأعلى للسلام بقرار من الرئيس "حامد قرضاي" وكان يشرف مع (70) عضوًا في المجلس على الحوار مع الجماعات المتقاتلة.

وكتبت المواقع الجهادية عقب مقتله: "اغتيال الخائن برهان الدين رباني"!

جرى تعيين "صلاح الدين رباني" نجل "برهان الدين رباني" وسفير أفغانستان في تركيا رئيسًا لمجلس السلام خلفاً لوالده.. وأما "رباني" الأب فقد قوبل اغتياله بشماتة واضحة في المواقع الجهادية.. التي أعلنت الخبر بهذه الصيغة: "اغتيال الخائن برهان الدين رباني..العميل الذي دخل كابول على متن الدبابات الأمريكية"!

ويشرح الجهادي "هاني السباعي" مدير ما يسمى بـ"مركز المقريزي للدراسات التاريخية" في لندن رؤية الجهاديين لـ"رباني" والإخوان بقوله: "إن برهان الدين رباني وعبد رب الرسول سياف أعضاء في التنظيم الدولي لجماعة الإخوان المسلمين.. وقد دخل الإخوان "تحالف الشمال" المدعوم بقوات الاحتلال الأمريكي إبّان حكم طالبان عام 2001.. ثم دخل "الإخوان" كابول فوق الدبابات الأمريكية.. وأصبحا عضوًا الجماعة البارزيْن: ربّاني وسيّاف في وضع تحالف مخزي مع قرضاي والأمريكان. وهو أمر يشبه – حسب السباعي- دخول الإخوان المسلمين في تحالف مع الاحتلال الأمريكي للعراق.. حيث أصبح قادة الإخوان المسلمين في العراق "محسن عبدالحميد" و"صلاح الدين بهاء الدين" أعضاء في مجلس الحكم المؤقت الذي قامت بتعيينه قوات الاحتلال.. كما أصبح الإخواني "حاجم الحسني" المقرب من الحاكم الأمريكي "بول بريمر" رئيسًا للجمعية الوطنية، وأصبح الإخواني "طارق الهاشمي" نائبًا لرئيس الدولة في ظل الاحتلال!

ويزيد "السباعي" إلى القول بأن "الإخوان" قد عملوا ضد الجهاديين.. أو أنهم تركوا قضية الجهاد تمامًا. وكانت إجابة خالد مشعل زعيم حركة حماس حين سُئل في موسكو عن مسألة الشيشان: إنها مسألة داخلية.. بل إن "حماس" خاضت في عام 2009 حربًا ضد السلفية الجهادية.. وقامت بقصف مسجد ابن تيمية بالآر بي جي وقتلت الشيخ عبداللطيف موسى (أبو النور المقدسي) أمير جماعة "جند الله"!

* * *

تمثّل بعض الحركات الإسلامية الجهادية في كشمير نموذجًا آخر للصدام المحدود واحتمالات الصدام الواسع.. حتى لقد ضاقت الحكومة الباكستانية الداعمة لها بسياسات هذه الحركات.. وقال وزير الداخلية الباكستاني "معين الدين حيدر": "إن هذه الأحزاب الكشميرية المسلحة تسبب متاعب وإحراجًا لباكستان مع الغرب". وقد ردّت هذه الأحزاب بالسخرية من الوزير على المساجد، وطالبوه بإرسال ابنه للجهاد بدلاً من تصريحاته. ويرصد باحثو الحركات الإسلامية وجود مسافة كبيرة في التنظيم والتفكير بين الحركات الجهادية في كشمير.. من "حزب المجاهدين" إلى جماعة "معسكر طيبة" إلى تنظيم "جيش محمد" إلى "حركة الأنصار" إلى حركة "مجاهدي بدر".. وبينها وبين باكستان الداعمة لها، وهي مسافة قد تقود إلى صدام بين الداعم والمدعوم!

يمتد تنوع وتفرق الحركات الجهادية في أفغانستان وكشمير إلى باكستان نفسها التي تحولت إلى "دولة ما قبل فاشلة" بفعل "الصراع الإسلامي- الإسلامي" في البلاد.. ويقدّر الكاتب الباكستاني "أحمد راشد" أن "باكستان على وشك السقوط".. وتقول مؤسسة "راند" البحثية الأمريكية: إن باكستان ستسقط في أيدي الحركات الجهادية في غضون خمس سنوات.. وأن الولايات المتحدة تخطط لتوجيه ضربة عسكرية إلى باكستان لمنع وصول المتشددين إلى الترسانة النووية الباكستانية.

* * *

إن القنبلة النووية الباكستانية التي جرى وصفها ذات يوم بـ"القنبلة الإسلامية" باتت الآن أسيرة خيارَيْن مُفزعيْن.. أن تقع في أيدي المتطرفين أو أن تقع في أيدي الولايات المتحدة.. وفي الحالتين لم تعد القنبلة النووية "إسلامية".. وربما لم تعد "باكستانية".

* * *

هنا محنة "الجهاد ضد الجهاد" الـذي تحـول إلى التـدمير الـذاتي للخلايـا في الجسد الإسلامي.. نجح الغرب في أن يجعل العنوان الرئيسي للعالم الإسـلامي اليـوم: الإسلام ضد الإسلام.. أو الجهاد ضد الجهاد.

وهنا كانت واحدة من مِحَن الربيع العربي.

4- الإسلام الحضاري.. ما بعد الإخوان المسلمين

لقد أدّت تلك الخريطة المخيفة من حركات الإسلام السياسي.. والتي تتقاتل مع الجميع تقريبًا.. مع الآخر البعيد ومع الآخر القريب.. ومع الذات.. إلى عودة التفكير في أطروحات "الإسلام الحضاري" بديلاً لحركات "الإسلام السياسي".

* * *

تمثّل الحضارة الإسلامية محورًا أساسيًا في تاريخ الحضارة.. ومساحةً كبرى في جغرافيا الحضارات.. وبينما تنتسب (57) دولة إلى منظمة التعاون الإسلامي.. فإن أكثر من مليار ونصف مليار نسمة من المسلمين حول العالم يتطلعون إلى استعادة مجد الحضارة الإسلامية في الفنون والآداب وفي العمارة والصناعة وفي العلوم والاقتصاد.. والتي استندت على ثورة فكرية عالمية صاغها المسلمون الحضاريون.

يرى عالم السياسة الدكتور "حامد ربيع" أن الإنسانية قد عرفت ثوراتٍ فكرية ثلاث: الثورة الفكرية الأولى.. وقد نبعت من التصور الروماني للسياسة وصاغها الفيلسوف "شيشرون" في كتابه الشهير "القوانين".

والثورة الفكرية الثانية هى الدعوة الإسلامية بمبادئها وإنجازاتها.. وأما الثورة الفكرية الثالثة فهى الثورة الفرنسية والتي لازلنا نعيش في نتائجها.

وهكذا فقد فصَلَت ستةُ قرون بين الثورة الفكرية الرومانية بعد مقتل "شيشرون"، وبين الإسلام.. الثورة الفكرية العالمية الثانية.

* * *

يقول مؤرخو الحضارات أن الحضارة الكلاسيكية هى الجذر التاريخي للحضارة المعاصرة وتشمل "الحضارة الكلاسيكية" الحضارتين "اليونانية"

و"الرومانية".

وقــد ســاهمت اليونــان بفكــرة "الجمهوريــة" وســاهمت رومــا بفكــرة "الإمبراطوريــة".. كمـا سـاهمت اليونـان بفكـرة "الحريـة" وسـاهمت رومـا بفكـرة "القانون".

ويقول المؤرخون: إن اليونانية والرومانية واليهودية قد شكلّت معًا ما يُسمى "العالم المسيحي". وقد ظل استخدام مصطلح "العالم المسيحي" قائمًا حتى القرن التاسع عشر.

وقد أدى انشطار "العالم المسيحي" أثنـاء الإصـلاح الـديني إلى: "الكاثوليكيـة" و"البروتــستانتية" إلى تحــوّل مــصطلح "العــالم المــسيحي" إلى مــصطلح "الحــضارة المسيحية".. ثم كان التحول مـن "الحـضارة المـسيحية" إلى "الحـضارة الغربيـة". ولأن "الحضارة الغربية" لم تعد – الآن – تخصّ الغرب وحده.. بل أضحت بعـد "العولمـة" تشمل منـاطق عديـدة حـول العـالم.. فقـد تحـوّل الاسـم مـن "الحـضارة الغربيـة" إلى "حضارة الحداثة".. أو "الحضارة العالمية".

وفي "حضارة الحداثة" لم يعد الدين المسيحي هو عَـصَب الحـضارة، بـل أصـبح مفهوم "التنوير" بالمعنى الغربي هو عماد "حضارة الحداثة"، وهـو مفهـوم بعيـد عـن الدين المسيحي.

* * *

أصبحت معظم "الحضارة العالمية المعاصرة".. "حداثة بلا دين".. وفَقَدَ الإنسانُ المعاصر مقوّمات الروح.. وبات العديد من المفكرين يعيدون النظـر في مجمـل المعادلـة.. وكان الفيلسوف الوجودي "هايدجر" يقول: إن الحضارة الغربية تمرّ بمأزق حقيقي.. إن عصر هذه الحضارة "يبدو مثل قصر شامخ، في منظر كئيب، يعاني سادتهُ من الأرق والقلق، ويقاسي خُدّامه من الجوع والجهل والمرض".

يفسر الفيلسوف الإسلامي "رشدي فكار": المشكلة الأساسية بقوله: إنها ليست مادية أو اقتصادية.. بل هى ماثلة في غياب الإنسان في عملية البناء الحضاري.. فالحضارة الغربية بلا قلب ولا وجدان ولا مشاعر.. هى حضارة تتحرك على حساب الآخرين.. أو هى حضارة في غيْبة الإنسان".

ويكمل "رشدي فكار": "إن الحضارة الحديثة قدمت نفسًا جفّت في أعماقها.. انتهت إلى مصادرة النفس البشرية في مشاعرها وعواطفها وصدقيتها وقناعاتها الإيمانية.. لتتحول إلى جهاز يعطي حيثيات تبريرية للنقيض كالزيّف والغشّ والمضاربة".. "إن الحضارة الغربية تعيش تناقضية صارخة غير مسبوقة في جوهر منظومتها".

ثم ينطلق "رشدي فكار" إلى ما يمكن وصفه بالطريق إلى "الإسلام الحضاري".. يقول "فكار": "ينقسم المسلمون في تعاملهم إلى مجموعات ثلاث: مجموعة تعكس مشكلاتها النفسية على الإسلام، ومجموعة ثانية تتعامل مع الإسلام بشكل "موسمي" لحاجة في نفس يعقوب، ومجموعة ثالثة تتجمد على قشور النصوص ولا تسبُر أغوار الجوهر المضئ".. "هذه المجموعات الثلاث لا فائدة ترجى منها.. ولابد من قيام مجموعات مستنيرة تقود مسيرة الإسلام الخالدة القادرة".

* * *

لقد أدرك رجال مثل "مهاتير محمد" و"عبدالله بدوي" في ماليزيا.. هذا المأزق وهذا الاحتياج.. وقد طرح الدكتور "عبدالله بدوي"رئيس وزراء ماليزيا السابق مشروع "الإسلام الحضاري" خلال رئاسته للحكومة.. وقال إنه يعني "تحريك الأمة نحو التقدم والتطور والريادة الإنسانية .. وكذلك مكافحة التطرف، ودمج المسلمين في الاقتصاد الحديث" . ومشروع "الإسلام الحضاري" _ الذي شارك في صياغته الدكتور "عبدالله زين" وزير الثقافة الإسلامية الماليزي والحاصل على شهادة الدكتوراة من

جامعة الأزهر _ هو طبقًا لواضعيه "مشروع لإحياء الأمة.. ويهدف إلى الاستقرار السياسي والسلام الاجتماعي واستدامة النمو في ماليزيا".

* * *

تحتاج مصر ووراءها العالم الإسلامي أن يكون مشروع "الإسلام الحضاري" عالميًا.. لا ماليزيًا فحسب.. وتحتاج القاهرة بعد ثورتي 25 يناير 2011 و30 يونيو 2013 أن تستلهم روح الثورة الفكرية العالمية الثانية بحسب تعبير "حامد ربيع".. لأجل عودة الحضارة.. مادة وروحًا.. بعد المِحْنَة الجامعة التي شملت الأخلاق والاقتصاد معًا.

* * *

لقد فشلتْ حركات الإسلام السياسي في أن تعيد الروح أو أن تبني المادة.. فلا نهضة أمام العالم، ولا صفاء أمام النفس. بل حديث متواصل عن "الكم" لا "الكيف".. عن "الصناديق" و"المقاعد" و"السلطة"، وحديث لا ينقطع عن القتال والدماء وعن الإجبار والمغالبة!

وإذا كانت موجة الربيع العربي.. قد طرحت أخطاءَ وأخطارَ حركات "الإسلام السياسي" التي تنظر إلى عموم المسلمين وما يملكون بمنطق "الغنائم"، فانها تطرح أيضًا.. ضرورات البحث الحقيقي في إحياء علوم الدين والدنيا، وفي عودة الروح إلى المسلمين، حتى يمكنهم منحها للآخرين.

فإذا كانت "حضارة الحداثة" خالية من الإيمان.. فإن العالم الإسلامي قد فَقَدَ كل شئ.. من ضعف الجسد إلى انكسار الروح.

* * *

لقد كتب رئيس وزراء فرنسا الأسبق "ميشيل روكار" مقالاً بعنوان "المسجد أم الحداثة؟"

ولقد سبق لي أن طرحتُ الإجابة في كتابي " الحداثة والسياسة" قبل سنوات.. إنها ببساطة: الأمرْين معًا.. الإيمان والصناعة.. المسجد والحداثة.

* * *

إن الكثير من حركات التشدد الإسلامي لا ترى ما نراه في "الحضارة الإسلامية" ويرون فيها "حضارة جاهلية".. ولا يرون في كل منجزاتها إلا مخالفةً للدين وبُعدًا عن الإسلام.

إنها نظرة عدميّة قاتلة.. تقتلُ كل التاريخ الإسلامي.. وتقتلُ كل مْجد المسلمين.. إنها تقتل "الفخْر" وتصادر "الأمل".

لا مستقبل لنا.. إلا بالجهاد الحضاري.. بالخروج من "خريف الحضارة" الذي امتد طويلاً.. إلى "ربيع الحضارة" الذي حان الوقت لأن يجئ.

إن "خريف الثورة" هو الخطأ الأصغر.. وأما "خريف الحضارة" فهو الخطيئة الكبرى.. والتاريخ لا يغفر لمن يفهم متأخرًا.

* * *

إنني لمدين في هذا الكتاب بالكثير من العرفان إلى أصدقاء كثيرين كان للحوار معهم دافع حقيقي للتفكير، إلى الإعلامي الجزائري "عبد القادر الجريدي"، الذي تفضل بتقديمي إلى الرئيس "أحمد بن بلة"، وإلى المثقف السوداني "عباس مصطفى صادق"، الذي زاملته في عمل طويل عن ثورة يوليو المصرية وعصر "عبد الناصر."

وإلى شقيقتي "زينب المسلماني"، التي زادت دفء الحياة بما ساعدت في توفير أجواء ملائمة للتفكير والإنجاز.. وإلى الأستاذة "ليلى أحمد عبد الرحيم"، التي كان تأييدها لإطلاق الإصدار الثاني من هذا الكتاب عاملاً أساسيًا في الصدور والظهور.

يبقى امتناني الكبير لأستاذنا المفكر الراحل الدكتور "عبد الوهاب المسيري"،

الذي تفضل بالقراءة، ثم زاد فضلاً فأنار العملَ بما كتب عن خريف الثورة.. وهو فضلٌ ممتد من المفكر الرمز إلى أجيال من القرّاء والكتّاب، سيظل موضع إكبار وتقدير.. بلا حدود.

* * *

إنني مدين لعائلتي وإلى بلدتي، كفر الدوار مركز بسيون محافظة الغربية.. تلك الحسناء.. الواقعة بين النيل والقمر!

أحمد المسلماني

بسيون – الزمالك – يناير 2014

خريف الثورة.. مقدمة الإصدار الأول 2005

في العالم العربي.. لا مكان لعلم السياسة، وحين يتأمل المرء معالم الخريطة لا يملك إلا ابتسامة ساخرة.. من الزمان إلى المكان ومن القصور إلى القبور!

عصر كامل، أجيال وأفكار، خلايا وأوطان.. انتهى كله إلى الفراغ.. أو كما يقول الشاعر: هذا الزحام لا أحد!

فما الذي جرى؟ هل كان عصر الثورات عصرًا من الأساطير؟ وهل كانت قيامةُ العالم في القرن العشرين قيامةً في غير موعدها.. أو نهوضًا حيث كان يجب القعود؟!

يبدو للمتابع – في أحيان كثيرة – أن ما جرى كان خطأ، كانت الثورة خطأ، والتمرد خطأ، والصراخ خطأ.. وأن الملوك والمستعمرين لم يكونوا وحدهم في ساحة الخطيئة، بل إن الثوريين والمناضلين قد أضافوا من عندهم ما تجاوز الاستبداد وفاق الاستعباد!

وكثيرًا ما كان الثوريون المخلصون يصيبهم اليأس من العمل؛ فلا الساسة على ما ينبغي ولا الشعوب على ما يُرام، ولا أبسط الأهداف صار بالإمكان. وينسب بعض الساخرين إلى الزعيم المصري "سعد زغلول" – قائد ثورة 1919 في مصر – أنه نادى زوجته "صفية زغلول" وهو على فراش الموت، ثم طلب منها أن تسدل عليه الغطاء وردد في اقتناع عميق: "مفيش فايدة!".

إنه المعنى ذاته الذي قاله ثائرون آخرون في معارك أخرى، وتنسب بعض الروايات إلى القائد العسكري الذي أشرف على إعدام "جيفارا" قوله: "إن الثائر الكبير بدا يائسًا لحظة الموت، ثم قال: أنا تشي جيفارا.. لقد فشلت"!

وقد سمعت من الرئيس "أحمد بن بلة" وصفًا طويلاً لضياع الحلم الثوري في

الجزائر، وكيف أن قادة الثورة لم تسعهم الفرحة طويلاً، فالتقى المجاهدان بسيفيهما وانقلبت الثورة على الثورة، وكيف أنه هو نفسه قد طرد الاستعمار إلى فرنسا ثم طردته الثورة إلى السجن!

وحين سألته عمَّا رأى بعد أن خرج من سجنه الطويل، قال: "لقد شعرت بغربة شديدة، وتمنيت العودة إلى السجن، فليست هذه هي الجزائر التي عرفتها.. هذه جزائر أخرى"!

وقد سمعت العبارة نفسها من السيد "سامي شرف" – أحد رجال "عبد الناصر" الكبار ومدير مكتبه لسنوات طويلة – قال لي وهو يشير إلى خارج شرفة منزله: "ليست هذه مصر التي نعرفها، إنكم تعيشون في مصر أخرى غير مصر التي عشناها وعرفناها"!

والمؤكَّد أن ما قاله الرجلان صحيح؛ فليست هذه مصر الثورة ولا هذه هي جزائر الثورة، ولكن الذي لم يقُله أي منهما هو: لماذا؟ هل كانت الثورة سببًا فيما جاء لاحقًا بعد عقود من حكم الثوريين، أم الابتعاد عن قيم الثورة وتراث أبطالها كان السبب فيما حلّ وبقي؟

ذلك أن أشخاصًا كثيرين كانوا مؤمنين بالثورة في بلدانهم، ودفعت عائلاتهم ورفاقهم ثمنًا باهظًا لأجل الاستقلال والتنمية، لتمرّ السنون ويعود العالم العربي سيرته الأولى.. تبعية حلت محل الاستقلال، وتخلف أطاح بكل شيء.

* * *

أذكر أنني التقيت الشريف "علي بن الحسين" عشية سقوط بغداد، وكان "الشريف" ينتظر مقعده ملكًا على العراق.. ليكمل حكم أسرته الذي أطاحت به ثورة يوليو في العراق عام 1958، قلت للملك المحتمل: ربما تكون هناك انتقادات كبيرة لعصر الثورة في العالم العربي.. لكنها استطاعت – على الرغم من الأخطاء – أن تطيح

بالاستعمار وأن تنهي حكم الملوك التابعين للمستعمر، وهذا بمفهوم الوطنية أمر جليل.

أجاب الرجل في هدوء: "انظر الآن إلى الحكام الوطنيين الذين جاءت بهم الثورات، وانظر إلى علاقاتهم بالولايات المتحدة، هل ترى فارقًا؟

إن العصر الملكي العربي لم يكُن عصرًا عميلاً للاستعمار، ولكنه كان عصرًا غير متكافئ بين غرب كاسح وشرق يتطور، وعلى الرغم من ذلك، كانت علاقة الملوك بلندن وباريس فيها من التكافؤ أكثر مما بين الزعماء الثوريين وبين واشنطن. وإذا ما أخذنا في الاعتبار الأمور الأخرى، كالحريات والاقتصاد والتقاليد السياسية المتماسكة.. وجدنا أن عصر الثورة في العالم العربي كان وبالاً.. وأن الثوار إذا دخلوا دولة أفسدوها"!

ولا شك أن كثيرًا مما يقوله الشريف العراقي غير صحيح، ولكن رؤيته جاءت محظوظة بظروف عصيبة حلّت بعصر الثورة وبالفكر القومي العربي، كما أنها جاءت وسط سقوط بغداد في أيدي أبنائها والولايات المتحدة.. معًا..

والشاهد أن عصر الثورة قد فشل، وأن مجمل الثورات العربية لم يحقق شيئًا، ومن عبث الأقدار أن الميزة العظمى التي ابتلع العرب من أجلها كل شيء – وهي ميزة الاستقلال وقيم النظام الجمهوري – سرعان ما تآكلت بعد نصف قرن فقط، لتبقى مآسي عصر الثورة وترحل فضيلتها الوحيدة.. في هدوء!

فما الذي جرى؟ قامت ثورة يوليو 1958 في العراق وانتهت إلى "صدام حسين" و"دونالد رامسفيلد"، وعانت ثورة اليمن 1961 طويلاً وانتهت إلى بؤس عظيم غادرت فيه البسمة وجه اليمن السعيد!

وحتى الثورة الجزائرية – دُرّة الثورات العربية – لم يصمد رجالاتها طويلاً حتى شرعت المذابح والمآسي وتوالى ركام القتلى وانتهت الثورة إلى نكبة، أما ثورة

الفاتح من سبتمبر 1969 التي قادها "القذافي" في ليبيا، فقد دخلت تاريخ العبث واللامعقول منذ اللحظة الأولى.. وبقيت هناك.

* * *

الواقع أن الثورات العربية قد نجحت في الخارج وفشلت في الداخل، أو أنها نجحت في وقائع القتال الأولى ثم فشلت في معارك البناء التالية، وأنها قد تسلّمت بلدانًا محتلة من الخارج ومحتلة أيضًا من الداخل.. فأنهت احتلال الخارج وأبقت احتلال الداخل، أي أنها بدّلت المستعمرين الأجانب وقامت بصياغة "استعمار وطني" جديد، احتل فيه الثوريون السلطة ليبدأ إحساسٌ عامٌّ بالنشوة والانطلاق، ثم أتت النوازل تباعًا.. كارثة وراء الأخرى.

لقد وصل بؤس الحكم الوطني بعد الاستعمار حدًّا جعل من الحنين إلى عصر الاستعمار والملكيات الفاسدة مزاجًا يتزايد كل يوم، بل إن ملايين كثيرة في العالم العربي بدأت تراجع ما لم يكُن يقبل المراجعة، وتجادل فيما كان مقدسًا لا يطوله رأي ولا جدل.

وكان مفهوم "الوطن" ذاته في مهب الحوار والنقاش الذي اعتصر العالم العربي في أثناء محنة العراق.. فما الذي يعنيه الوطن إذا كان سجنًا كبيرًا، أو إذا كان حكرًا على رجل واحد أو حفنة عائلات؟ وفي عبارة واحدة.. ما الذي يعنيه الوطن إذا تم إلغاء المواطن؟

مثلُ هذه التساؤلات كان حاضرًا في بكائية بغداد 2003، بعد أن وجد الناس أنفسهم فجأة أمام احتلال أجنبي خلّصهم من احتلال داخلي؛ فعينٌ تبكي من فرحة الخلاص، وعينٌ تبكي من نكبة الوطن، وفي الوقت الذي بكت فيه عواصم عربية بعين واحدة ضد الاحتلال، فإن عين الخلاص كانت الوحيدة تقريبًا في العراق.. ومثل هذا العوار في الداخل والخارج كان من معالم مراجعة المحنة أو محنة المراجعة!

وأذكر أنني كنت موجودًا في غرفة الأخبار بقناة أبو ظبي – التي نالت شهرة عالمية في تغطيتها للحرب – حين قصفت قوات التحالف الأمريكي – البريطاني بغداد في أول مساء للحرب، كانت بغداد تحترق، وكانت الصور الحية التي ينقلها مراسلو القناة تبدو أقرب إلى فنون الجرافيك والألعاب النارية أكثر منها إلى واقع مروِّع يلخص كلمة الحرب. في تلك الأثناء قهرنا دموعنا وأمسكنا بقلوبنا كالقابضين على الجمر؛ لأن بغداد تغادر تاريخها أمام عيوننا.

نظرت في وجوه زملائنا العراقيين باحثًا عمَّا يُقال في عزاء الحروب، وكانت المفاجأة أن أحدًا من العراقيين لا ينتظر المواساة، بل إنهم كانوا يتابعون الحرب طيلة أيامها المريرة وهم ينتظرون الهزيمة بفارغ الصبر، وحين لم يخذلهم "صدام حسين" طويلاً، وأدى في ساحة القتال أداءً يليق بما كان عليه في ساحة السياسة، عارًا وراء عار، راح العراقيون يهنئون أنفسهم في كل مكان، وحدث في بعض مدن الخليج أن عراقيين خرجوا ليل التاسع من أبريل 2003 – يوم سقطت بغداد – إلى الفنادق والنوادي الليلية يبحثون عن أمريكي أو بريطاني ليتوجهوا إليه بالشكر!

لقد كانت جملة المشاهد هذه غائبة تمامًا عمَّا كان عليه الحال في مصر، التي عاشت في حرب العراق 2003 أجواء حرب 1967، ولا يوجد مصري واحد – تقريبًا – يمكنه أن يصدق أو يتصور مثل تلك الروايات عن العراق والعراقيين.

وقد قال لي "أيمن جاب الله" – رئيس تحرير قناة "العربية" وكبير مراسليها في بغداد أثناء الحرب –: "لم يخطئ الأمريكيون حين قالوا إن العراقيين سيقابلوننا بالزهور.. فالعراقيون يشعرون فعلاً بامتنان كبير للولايات المتحدة، وقد وجدت العراقيين، على وجه العموم، مؤيدين للولايات المتحدة، وقد غلب شعورهم بالتخلص من صدام على شعورهم بوجود الاحتلال، وبالطبع فإن هناك أقلية ضد الولايات المتحدة، لكنها تظل أقلية إلى جوار التيار العام الذي يرى أن "صدام حسين كان جهنم

الحقيقية وأن الاحتلال وغيره ليس إلا مستصغر الشرر"".

ويضيف "هشام بدوي" – مراسل قناة أبو ظبي في بغداد أثناء الحرب وأول صحفي ينقل للعالم مشهدها الافتتاحي –: "كان بعض العراقيين يدهشوننا بتصرفاتهم، كنا نسمع منهم كلامًا ضد صدام حسين قبل التصوير، كانوا يكيلون له السباب واللعنات ويحمدون الله أن خلصهم منه ومن نظامه اللعين، لكنهم حين يبدأون الحديث معنا على الهواء كانوا إذا سألهم المذيع: إذًا أنتم مع الولايات المتحدة؟ ينقلبون مائة وثمانين درجة ويهاجمون الولايات المتحدة بضراوة"!

* * *

هكذا دفع الاستبداد الناس لإعادة النظر في كل شيء؛ فما رآه المصريون عدوانًا أمريكيًّا على العراق، رآه عدد كبير من العراقيين عونًا أمريكيًّا للعراق.. وما رآه المتظاهرون العرب شرقًا وغربًا سقوطًا لبغداد، رآه عدد واضح من العراقيين سقوطًا لـ"صدام"، وما اعتبره العالم العربي في التاسع من أبريل 2003 يوماً للنكبة، حيث تمت هزيمة العراق، رآه أول مجلس للحكم في العراق يوم عيد وطني يشير إلى عودة العراق بعد عقود طويلة من السبي والاختطاف!

وحين نقلت ذلك إلى الفيلسوف المصري الدكتور "حسن حنفي"، عارضًا تلك الأفكار حول بؤس الاستبداد الذي جعل المواطن عدوًّا للدولة.. فلما جاء أحد من الخارج يقاتل الدولة وجد المواطن فيه سندًا ومعينًا.. وحتى لو كان القادم عدوًّا، فإنها حرب الأعداء.. فليهلك الله الظالمين بالظالمين!

قال لي الدكتور "حسن حنفي": "إن ذلك يخلط الأمور خلطًا كبيرًا.. ويذهب تمامًا بقيمة الوطنية والإخلاص للوطن.. مثل هذا الشعور أو السلوك، أي التحالف مع عدو خارجي للقضاء على "عدو" داخلي، هو خيانة واضحة لا جدال فيها.. ولا يجوز للخيانة أن تكون وجهة نظر"!

* * *

والواقع أن السؤال خطأ، ومن محنـة الأقـدار أن تطـرح أمـة علـى نفـسها هـذا السؤال.. ولسوء حظ الكثيرين في العالم، فإن تلك التساؤلات ستظل مطروحة إلى حـين طويل؛ فالتاريخ – وهو يمضي إلى حقبة جديدة – إنما يهيل التراب علـى أمـم وأقـوام طالت بهم القرون العجـاف؛ فالعـالم الثالـث لم يعِـش يومًـا واحـدًا دون عنـاء؛ فمـن مرحلة البؤس العام إلى مرحلة الاستعمار، إلى عصر الثورة، إلى عصور الفشل.

وما هو مطروح الآن من أوضاع سياسية مرتبكـة في العـالم الثالـث إنمـا تعـود جذورها إلى عصر الاستعمار الذي نقـل شـعوب هـذا العـالم مـن احتمـالات التقـدم إلى حتمية التخلف.

وإذا كان عصر الاستعمار هو الذي منح عصر الثورة والتحرير أسباب الغـضب والانفعال، وكذلك الرعونة والانفلات، فإن كلتا المرحلتين قد أسـهمتا في أزمـة العـالم الثالث.. الآن.

كان بإمكان مصر والعراق وبلاد الشام وبلدان المغرب العربي، كما كان بإمكـان الهند وبنجلاديش ودول آسيا وأفريقيا، أن تكون جزءًا مـن حـضارة العـصر، لـولا أن أعاقها الغرب.. ثم ترك لها فرصة أن تعيق نفسها بإخلاص شديد.

* * *

جاءت حقبـة الاسـتعمار لتقطـع الطريـق إلى المـستقبل ولتجعـل الغـرب غربًـا والشرق شرقًا ولتجعل العالم طبقات جامدة لا مخرج منها.

ويرى الفيلسوف الأمريكي "ناعوم تشومسكي"، في مجمل الزمن الطويل الممتـد من نهاية القرن الخامس عشر وحتى نهاية القرن العشرين، تعبيرًا عن حقبة واحـدة لها سماتها وقسماتها المشتركة، وهي حقبة اعتداء الغرب على العالم ثـم تركـه جثـة هامدة.

ويذهب "تشومسكي"، في كتابه المهم "سنة 501"، وهو يعني بذلك عام 1992، حيث بدأ النظام العالمي القديم مع اكتشاف أمريكا ورأس الرجاء الصالح عام 1492 فيما يسمى الحقبة الكولومبية، نسبةً إلى "كريستوفر كولومبس" البحار الإيطالي الشهير، وانتهى بعد 500 عام.. ليبدأ في "عام 501" نظامٌ عالميٌّ جديدٌ..

يذهب "تشومسكي" – في كتابه هذا – إلى أن الاستعمار الأوروبي قد ألحق الفقر "التاريخي" بالعالم الثالث، وأن محنة اليوم ليست إلا من جرَّاء عصر الاستعمار الذي يُعد الأسوأ في تاريخ الإنسانية.

وينقل "تشومسكي" عن الزعيم الهندي "جواهر لال نهرو" – أول رئيس وزراء للهند بعد الاستقلال ووالد السياسية الشهيرة "أنديرا غاندي" – قوله: "يمكن رسم خريطة تبين الصلة الوثقى بين طول مدة الحكم البريطاني والنمو الشديد للفقر".. لقد صارت الهند مستعمرة زراعية لإنجلترا الصناعية، وتمدنت أوروبا وتريَّفت الهند التي كانت صناعية، وهذا هو السبب الحقيقي والأساسي وراء الفقر المرعب للشعب الهندي.

ويقول "تشومسكي": إن كلكتا وبنجلاديش اليوم هما رمزان للبؤس والشقاء، بينما كان التجار المحاربون الأوروبيون قد رأوا البنغال واحدة من أثمن المناطق في العالم.. وقد وصفها زائر إنجليزي في وقت مبكر بأنها "أرض رائعة لا تستطيع الحروب ولا الأوبئة تدميرها".. وقبل ذلك بزمن، كان الرحالة المغربي "ابن بطوطة" قد وصفها بأنها "بلاد مترامية الأطراف، ينمو الأرز فيها غزيرًا، وفي الحق فإنني لم أرَ مكانًا في الأرض كلها يفيض خيرًا مثلها".

وفي عام 1757، وصف أحدهم مدينة دكا بأنها واسعة مكتظة بالسكان وغنية مثل لندن. وفي هذا العام وقعت معركة "بلاسي" التي استولى فيها الإنجليز على البنغال، ومنها إلى الهند كلها. وفي عام 1840 كان سكان مدينة دكا قد انخفضوا من مائة وخمسين

ألفًا إلى ثلاثين ألـف نـسمة، وأصـبحت المدينـة فريـسة للملاريـا. وقـال الـسير "تـشارلز تريفيليان" – أمام لجنة من مجلس اللوردات البريطاني –: "لقد سقطت دكـا.. مانشـستر الهند، من مدينة بالغة الازدهار إلى بلدة صغيرة شديدة الفقر".

وكتب الاقتصادي الشهير "آدم سميث" بعد ذلك: "إن بـلاد البنغـال الخـصبة وقليلة السكان قد عرفت موت ثلاثمائـة ألـف أو أربعمائـة ألـف مـن سـكانها بـسبب الجوع في سنة واحدة".

* * *

وهكذا فقد أتت القوة العسكرية الأوروبية على الإنسان والمكان.. على الوجـود وعلى الحدود. ويذكر "تشومـسكي" أن الأوروبـيين كـانوا يحـاربون بهـدف القتـل لا مجرد الانتصار.. وكـان الـسكان الأصـليون يندهـشون مـن وحـشية المـستعمرين.. وأن نهوض بريطانيا، بوصفها الطفل الأعجوبة في أواخر القرن السابع عشر وبدايـة القـرن الثامن عشر، لم يكن إلا نتيجة الفظاظة والهمجية اللتين كانت عليهما في تعاملها مع الشعوب الضعيفة.

ومن المؤسف أن حقبة الاستعمار هذه قد تمكنت من العالم ومـن غـير تكـاليف حقيقية دفعها المحتلون؛ فقد كانت قوتهم العسكرية، أمام القوة البدائية التي كانت عليها شعوب العالم وقتئذ، تجعل من المعارك أمرًا بالغ الـسهولة.. فهنـاك قـوة تبيـد وتذبح.. وهناك آخرون لا يملكون غير الموت.

ويقطع "تشومسكي" بأنه من المنظور الأوروبي، فإن غزو العالم قد تكلف عددًا من الحروب الصغيرة لا أكثر.. فغـزو المكـسيك احتـاج إلى "1500" إسـباني.. أمـا الإطاحـة بإمبراطورية آلانكا فقد احتاجت أقل من مائتين فقـط، وكانـت الإمبراطوريـة البريطانيـة كلها – من اليابان إلى جنوب أفريقيا – تُدار وتُحرس بأقل من عشرة آلاف أوروبي!

* * *

وإذا كان هذا هو حال هذه الموجة من الاستعمار، فإن مجيء الثـورة الفرنـسية فيما بعد وما أشاعت من مبادئ وقيم جديدة قد مثَّل الأمل في الخلاص.

كانت فرنسا تعيش حياة مستقرة وزاهية في عهد لـويس الرابـع عـشر، الـذي اهتم بالفنون والآداب وحاز احترام الشعب.. ثم كان التدهور الذي مثَّله عـصر لـويس السادس عشر الذي قامت الثورة الفرنسية في عهده.

وفي يوليو 1789، سقط سجن الباستيل، وفي أغسطس تم إعلان حقوق الإنـسان من الحرية إلى الإخاء والمساواة، وفي سبتمبر تم إسقاط الملكية وإعلان الجمهورية، ثـم توالت الأحداث بإعدام لويس السادس عشر وزوجته الشهيرة "ماري أنطوانيت".

واشتهر مع الثورة رموز الفكر والأخلاق في فرنسا من "جـان جـاك روسـو" إلى "فولتير" و"منتسكيو" لتصبح الثورة الفرنـسية فيمـا بعـد ثـورة مقدسـة تمثـل الحلـم الأكبر للثوريين، وكثيرًا ما سلك الثوريون طريقها في العموم والتفاصيل حتى لا يبعـد الظل عن وهج الأصل.

إن هذه القراءة الرسمية الـشائعة للثـورة الفرنـسية لا تبـدو قـراءة أخـيرة لمـا جرى؛ ففضلاً عـن أن الشائرين سـرعان مـا بـدأوا المرحلـة الأكثـر ضـراوة مـن تـاريخ الاستعمار، فإن كثرة من المؤرخين أضافوا إلى ذلـك مأسـاة الـداخل والتفاصـيل الأليمـة لوقائع الثورة الفرنسية.

* * *

ويذكر المـؤرخ "روبـرت دارنتـون" – الـذي يعمـل أسـتاذًا للتـاريخ في جامعـة برنستون الأمريكية – أن سـجن الباسـتيل كـان خاليًـا، تقريبًـا، مـن الـسجناء وقـت الهجوم عليه، وأن الثوار قتلوا مدير السجن لمجرد أنـه مـن النـبلاء، أمـا عـن إنهـاء الثورة لعصر الإقطاع فذلك أيضًا قول غير صحيح؛ ذلك أن الإقطـاع قـد انتهـى بالفعـل وقت أن أعلنت إلغاءه!

ويصف المؤرخ الفرنسي "بيير كارون" – في كتاب صدر له عام 1935 – ما جرى من أحداث في أثناء الثورة الفرنسية، بأن الدهماء قد أقاموا من أنفسهم محكمين وقضاة ومحلفين في فناء السجون، وكان مجرد تردد أو اضطراب الشخص دليل إدانة وعليه يتم إعدامه، وكان الذي يصدر الحكم شخص عادي أو عابر سبيل، وكان الإعدام يُنفذ طعنًا بالخناجر والسيوف والهراوات الثقيلة ثم تُنزع عنه ملابسه ويُلقى فوق كومة من الأجساد!

ويرى آخرون أن سجن الباستيل، وقت إسقاطه، كان يحوي سبعة مساجين فقط.. منهم ثلاثة مجانين، وأنه قد تبع ذلك مجزرة واسعة قُتل فيها ثلاثمائة ألف فلاح!

وتضيف دراسات الفكر السياسي، إلى ذلك، المقولات العنصرية لرموز الثورة أنفسهم، والأشهر في ذلك تبرير "مونتسكيو" للعبودية. يقول "مونتسكيو": "أولئك الذين يعملون في الزراعة ليسوا غير أقوام من السود لا يستحقون شيئًا من الرحمة.. إنني لا أتصور أن الله بحكمته السامية قد وضع في تلك الكائنات السوداء أرواحًا يمكن أن تكون طيبة"!

والحادث أن العالم لم يأخذ من مبادئ الثورة الفرنسية قدر ما أخذ من هذه التصورات الرديئة، التي كانت الأساس لموجات أخرى من الاستعمار؛ فبعد تسع سنوات كان نابليون في مصر لتبدأ ثنائية فرنسا وبريطانيا في العالم ولتمتد إلى أكثر من مائة وخمسين عامًا.

* * *

ودخل العالم في موجة مضادة من التظاهرات والثورات، وهكذا بدلاً من أن يؤدي الغرب وظيفته الحضارية تجاه العالم الأقل تقدمًا، فإذا به يقطع الطريق على أي فرصة للتطور ويُغرق العالم في أزمات بقيت ثم تكاثرت، ولا سبيل.

وخاض العالم العربي، ضمن الخائضين، شوطًا طويلاً في محاولات الاستقلال، وازدحم تاريخ العرب بالثورات والثائرين.

وكان المصريون يطلقون النكات على ولع الثورة المصرية عام 1952 بأية ثورة في العالم والمسارعة بالإعلان عن تأييدها، وكان الرئيس "عبد الناصر" يقول في بيان التأييد: إن أي اعتداء على هذه الثورة اعتداء علينا.

وتقول إحداها: إنه عند عرض فيلم "ثورة على السفينة بونتي" قيل إنه أيّد هذه الثورة، وقال: "إن أي اعتداء على السفينة بونتي اعتداء على الجمهورية العربية المتحدة"!

وربما كانت ثورة 1919 – بقيادة "سعد زغلول" – أكثر رشدًا من ثورة 1952 التي قادها "عبد الناصر"؛ فقد كانت ثورة 1919 من الثورات القليلة في التاريخ التي التزمت الحكمة وأقامت مشروعًا إصلاحيًّا بارعًا دون أن تدفعها ضغوط الحاجة إلى انفلات القدرة.

* * *

كان لـ"سعد زغلول" أثر كبير في الزعيم الهندي "المهاتما غاندي"، الذي ابتكر صيغة المقاومة السلمية قائلاً: "إن عدم العنف هو أكبر قوة يملكها الجنس البشري".. ومضى "غاندي" في طريقه يستثمر قوة الضعف ويقود المقاومة السلمية حتى نجح مسعاه واستقلت الهند.

إن "غاندي" ليبدو أسطورة، إلى الحد الذي جعل العالم الشهير "ألبرت أينشتاين" يقول: "إن الأجيال القادمة لن تصدق أن شخصية مثل غاندي كانت موجودة بشحمها ولحمها، وأنها سارت فوق الأرض".

وقد كان من الحظ السيئ لتطورات تاريخ العالم أن الاستعمار لم يترك فرصة لنجاحات كثيرة على غرار تجربة "غاندي"، وكان على الثائرين أن يدفعوا الكثير في

عمليات المقاومة المسلحة، ومن هنا أتت نكبة عصر الثورات؛ فقد أصبح المشروع الإصلاحي عاريًا أمام المشروع الثوري بعد أن جذب الأخير جموع الناس ليبدأ ما سماه "جلال أمين": "عصر الجماهير الغفيرة".

ومع "عصر الجماهير الغفيرة" كان مأتم الثورات في حجم المزايدات الرخيصة التي أضاعت الثورة والدولة.. كما حوَّلت عصر الجماهير إلى عصر المماليك؛ حيث حلت إقطاعيات جديدة محل أخرى قديمة، وورث الثوريون ركام الظلم وعدم الاستقامة.. ليعود الطغيان سيرته الأولى.

وليس أبلغ من فداحة دور الثوريين المزايدين من دورهم في كارثة العراق عام 2003؛ فقد كان المسئولون الذين عارضوا أي تحول ديمقراطي هم أول من هرب من ساحات القتال، وكان بعضهم يتعامل مع المخابرات الأمريكية على امتداد فترة طويلة من العمل السياسي..

وراح وزراء "صدام حسين" ومساعدوه يروون قصصًا أسطورية حول دورهم في نقد "صدام حسين" ومحاولة تعديل مساره، وعن قلة حيلتهم إزاء ما كان يجري.

على أي حال.. فإن فشل عصر الثورة في العراق، الذي امتد من عام 1958 إلى عام 2003، قد واكب تداعي حقبة اليسار العالمي.

وعلى أثر ما يصفه البعض – مبالغةً – بخروج اليسار من التاريخ، بدأت مرحلة أخرى من الصدام، لا يواجه فيها اليسار اليمين قدر ما يواجه فيها اليمينُ اليمينَ.. واحتل وضع الصدارة في المواجهة رجل الدين والسياسة العربي "أسامة بن لادن"، الذي اختار أن يكون عنوان المرحلة صراعاً بين اليمين الديني في الإسلام واليمين الليبرالي في الغرب.

* * *

نجح "بن لادن" في أن يواجه الغرب بصورته وخطبه، لا أكثر.. وحسب الروائي المصري "جمال الغيطاني" فإن "أسامة بن لادن" قد رسم لنفسه في وجدان الرأي العام العربي صورة ممتازة للثائر الأرجنتيني "تشي جيفارا"، الذي أصبح بطل الثورة الكوبية ورمز مقاومة الهيمنة الأمريكية.. إنها صورة رجل تخلَّى عن الثراء وينتقل للجبال من أجل القتال.

وتكرر وكالة الأنباء الفرنسية "10 أكتوبر 2001" المعنى نفسه: فقد كان لدى "بن لادن" الشباب وملايين الدولارات، كان بإمكانه امتلاك القصور في أجمل بقاع الأرض وطائرات خاصة ويخوت فخمة وفتيات جميلات، لكنه تخلى عن كل شيء للذهاب إلى أفغانستان.

وإذا كان "بن لادن" قد جاء في الوقت الخطأ ليقود المعركة الخطأ، فإنه كان محظوظًا من الناحية النفسية؛ حيث جاءت مشاغباته في ظل شعور نفسي عالمي بالغضب تجاه الولايات المتحدة، وكان لكل شعب حساباته في أسباب الغضب ومبررات الاستياء.

وقد لخص هذا الغضب نجم الكرة الأرجنتيني "دييجو مارادونا" بقوله: "إن الأمريكان يخنقون الشعوب ويمتصون دماءهم، والعالم يشهد ما يفعلونه في الشعوب دون ملل.. وإن أمريكا بوش تمارس الإرهاب حتى قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر".. "وليس الحصار ضد كوبا إلا نوعًا آخرَ من الإرهاب، وهو حرب قذرة تمارسها الولايات المتحدة ضد كوبا، وبسبب ذلك الحصار فإن هناك أطفالاً في حاجة إلى الدواء محكومًا عليهم بالموت بسبب عدم توافر تلك الأدوية".

ثم اختتم "مارادونا" – في حديثه إلى الصحيفة الإيطالية واسعة الانتشار "كوريري ديلاسيرا" في 2 يوليو 2002، بينما كان يتابع مباريات كأس العالم في اليابان –: "إن الولايات المتحدة ليس من حقها أن تقرر مصير الشعوب ولا أن تحدد

من الذي يجب أن يعيش ومن الذي يجب أن يموت".

وإذا كانت شهادة "مارادونا" هي شهادة العامة في العالم، فإن شهادة الخاصة من مثقفي العالم وساسته لم تكن بعيدة تماماً.

ولما جادلت الرئيس "أحمد بن بلة" في مدى الموضوعية في كراهية الولايات المتحدة قال منفعلاً: "إذا كانت أمريكا من هنا فأنا من هناك.. دون تفكير!".

* * *

والحاصل أن عصر الاستعمار كان السبب في عصر الثورات، وعلى قدر جرائم المستعمرين جاءت أخطاء الثوريين، حتى غاب الخيط الفاصل بين طغاة الغرب وطغاة الشرق، أو الطغاة القادمين والطغاة القابعين.

وهكذا عاش العالم العربي مع العوالم الأخرى المأساة مرتين: مرة بأيدي الغرب الذي كان عليه أن يمد يد التطوير فمد يد التدمير، ومرة أخرى بأيدي المناضلين الذين أفشلوا الثورة وأرهقوا الدولة!

وقد دُهشت لما قاله ليّ "السيد صادق المهدي" – وريث الثورة المهدية رئيس وزراء السودان الأسبق – حين سألته تقييمًا عامًّا لعصور الثورة في العالم العربي، فقال لي: كانت مخيبة للآمال؛ فعلى الرغم من كل تبريرات قيامها لكن الثورات كانت تترك الأوطان وهي أسوأ حالاً مما أرادت، وحتى الثورتان الفرنسية والبلشفية، فقد كانتا مجيدتين بالمعنى الإنساني لكن نتائجهما جاءت مخيبة للآمال؛ فالثوريون حين يتولون السلطة يتحولون إلى محافظين، ثم تخلق الثورة مشاكل بحجم المشاكل التي قامت لحلها!

* * *

وبعدُ.. فإن سطور هذا الكتاب تحاول فهم تلك المعضلة، معضلة الثورة التي فشلت والدولة التي ضعفت.. مشكلة المناضلين الذين عصفوا في طريقهم بالفاسدين

والمصلحين دون تفرقة.. ثم إذا الفساد يعود أكثر وجودًا وأوسع حدودًا مما كان.. إنها أيضًا مشكلة الحاضر.. كيف ينجح الإصلاحيون في العالم العربي؟ ومن المؤكد أن فكرة هذا الكتاب إنما تحتاج إلى جهد أوفر ونتاج أضخم؛ ذلك أن كل ثائر هو كتاب بمفرده، وكل ثورة هي مكتبة بذاتها.

غير أن الغاية من هذا الكتاب قد وقفت عند إثارة الأسئلة والنظر في إعادة النظر، أو بتعبير أحدهم من المؤلفين القدامى: "أخذُ العِبَر فيمَن غَبَر".

وسيلاحظ القارئ أنني لم أخُض في قضايا كان يتوجَّب الخوض فيها، كالثورة الفلسطينية ونثريات ثورية هنا وهناك.. كما أنني مررت سريعًا على ثورة ثرية كالثورة العراقية. ولم أقف على ذكر الثورة المصرية 1952 إلا عند الضرورة متحاشيًا الإفاضة في مسارها ومصيرها.

وقد كان لذلك كله ما يبرره في هذا المقام، إلى أن يتسنى بحث ذلك في أعمال لاحقة.

وهنا مضى الكتاب طريقه في عشرة فصول: فصلان في العموم، هما الأول والثاني، وفصول ستة انتقلت من العام إلى الخاص؛ فالفصل الثالث عن الجزائر، والرابع عن العراق، والخامس عن اليمن، والسادس عن ليبيا، والسابع عن تونس، والثامن عن سوريا. ثم فصل تاسع يتضمن محاورة مع الرئيس الجزائري الأسبق "أحمد بن بلة"، وأمَّا الفصل العاشر فيتضمن محاورة مع رئيس وزراء السودان الأسبق السيد "الصادق المهدي". وقد كان "بن بلة" في قلب الثورة الجزائرية في سنوات الانتصار والانكسار، وورِث "الصادق المهدي" ثورةً بعيدة هي الثورة المهدية التي كانت فاتحة الثورات العربية، لكنه لم يمضِ بالميراث طويلاً، وأطاحت بسلطته ثورة أخرى.. أو هكذا بدت الأمور.

أحمد المسلماني

القاهرة 2005

الفصل الأول



خريف الثورة.. ملامح الغروب

لم تكن هناك كلمة أكثر جاذبية وبريقاً من كلمة "الثورة"، كما لم يكن هناك فضل يفوق فضل هؤلاء "الثوريين" و"المناضلين"، وقد بدا الأمر في أحيان كثيرة وكأن كلمة "ثوري" أو "مناضل" تشير إلى مهنة أو وظيفة، أو أنها تشير إلى احتراف للتمرد.

وبالمقابل، فإن مفهوم "الإصلاح" كان مفهومًا هزيلاً خائر القوى، يقع ما بين البلادة والخيانة. وقد غالى الثوريون في تصنيفاتهم لقوائم المخلصين والسارقين، حتى أصبح الثوريون أنفسهم موضع علامات استفهام من قِبَل كل الثوريين الآخرين، ولم يوجد ذلك الثوري الذي لم يصل إليه شك أو يناله عتاب أو لوم، وبات على كل ثائر أن يضع على جدول أعماله توثيق شهادات بإبراء الذمة على مدار الساعة!

وقد كان هذا الشك الواسع وعمليات التخوين الجماعية من بين أسباب فشل المشروع الثوري في كل مكان؛ فقد فشل الثوريون المخلصون في أن يعدلوا من آرائهم وأفكارهم، حينما اتضح لهم خطأ المسار أو سوء المنقلب!

ولما جاءت وقائع القرن العشرين مؤيدة للمقشددين وطاردة للمفسدين والمصلحين – معًا – فقد كان مستحيلاً وقف هذا الإعصار الكاسح أو حتى التنبؤ بمساره.

* * *

كانت الملكيات تسقط والجمهوريات الثورية تسود، ونداءات الإصلاح والديمقراطية تذوب، وتراءى مصير العالم وكأنه يُساق إلى قدر غالب ومصير محتوم.

وفيما كانت النظم الملكية تحكم العالم في مطلع القرن العشرين، فإن الحروب والثورات قد جعلت السيادة للعصر الجمهوري؛ ففي عام 1910 سقطت الملكية في البرتغال، وفي عام 1912 أعلنت الصين قيام الجمهورية بعد أربعة آلاف عام من

حكم العائلات، وفي عام 1917 سقط الحكم القيصري في روسيا، وفي عام 1919 سقط عرش القيصر "غليوم" في ألمانيا، وسقطت السلطنة العثمانية عام 1922، ثم سقطت الملكية في بلغاريا ورومانيا عام 1945. وفي مصر عام 1952، وفي العراق عام 1958، وفي اليمن عام 1961، وفي عام 1967 سقطت الملكية في اليونان ورحل عنها الملك "قسطنطين".

هذا بالإضافة إلى ما أسفرت عنه حركات التحرير في العالم الثالث من إطاحة بحشد من الملوك في قصور كثيرة.

وقد فعل التاريخ فعلته واستدار، وبعد عقود طويلة من عصر الثورة، راح يغذّي الثورة على الثورة، وبعد أن كان المزاج الثوري الجمهوري هو الغالب على العالم، تسرب مزاج آخر بعد أن انتهت عصور الثورة بالفشل، وأصبح من السهل أن ندرك ذلك المزاج المتزايد نحو التخلص من آثار ذلك العصر، بل إن بعض العواصم زاد فيها المزاج إلى حنين لعصور الملكية الفاسدة.

وحين سقط حكم الديكتاتور "نيكولاي شاوسيسكو" في رومانيا، عام 1989، قالت استطلاعات الرأي العام: إن الملك الروماني "ميشيل"، الذي أُجبر على التخلي عن عرشه عام 1945 وهو في الثامنة عشرة، قد بات يتمتع بشعبية كبيرة.

وفي بلغاريا، استقبل أكثر من مائة ألف شخص، احتشدوا في الميدان الرئيسي بالعاصمة صوفيا، الملك السابق "سيميون"، الذي فقد عرشه في بلغاريا عام 1945 وهو في الثامنة من عمره، بالترحاب الشديد ومظاهرات التأييد.

ولمَّا سقط حكم الديكتاتور اليوغوسلافي "سلوبودان ميلوسيفيتش"، استقبل الشعب في أكتوبر عام 2000 "ألكسندر كاراديور ديفيتش"، ولي عهد يوغوسلافيا السابق، بحفاوة بالغة، وجرى انتخاب رئيس جديد هو "فويسلاف كوستونيتشا"، المؤيِّد لعودة الملكية إلى يوغوسلافيا.

وقد امتد هذا الحنين إلى عصور الملكية باتجاه دول أخرى، مثل أفغانستان التي سقط الحكم الملكي فيها عام 1973.. ثم توالت الأقدار عليها إلى أن جاء الثوريون الإسلاميون لتتحول أفغانستان معهم إلى نموذج الدولة الفاشلة.

ومن كابول إلى بغداد، وربما طهران التي يحاول فيها الأمير "رضا بهلوي" – ولي عهد "إيران" السابق – أن يستوعب الطلاب الثائرين ضد الثورة الإيرانية، واجدًا تعاطفًا محدودًا.. وآملاً في المزيد.

* * *

ويشرح الشريف "علي بن الحسين" – راعي الحركة الملكية العراقية – ما يجري من حنين إلى النظم الملكية واغتراب عن النظم الثورية.. واصفًا الأمر بأنه كان استعجالاً من الشعوب نحو التطور، ثم جاءت النتائج المحبطة.

"كانت الشعوب مستعجلة في ذلك العصر، وتملَّكها التفاؤل في عقدي الخمسينيات والستينيات بأنها ستحصل على نتائج إيجابية بسرعة، لكن الأنظمة التالية تأكدت أن الطريق كان خطأ"..

"لقد نجحت الأنظمة الملكية، بالمقابل، في الوصول ببلادها إلى الاستقلال والاستقرار في فترة قياسية، وإذا كانت هذه الأنظمة مرتبطة بعلاقات خاصة فرضها عليها المستعمر، فإنها لاحقًا أحلّت الانفتاح محل الخضوع للاستعمار، ثم إن التحالف مع قوى عظمى تحميها وتسلح جيوشها لم يكن حكرًا على النظم الملكية؛ فمعظم النظم الثورية قامت على علاقات خاصة بالقوى العظمى، وبعد خمسين عامًا، وصلت إلى النتيجة نفسها التي كانت قديمًا تعتبر تبعية واستعمارًا، والآن تسمى تعاونًا ونقلاً للخبرات ودعمًا اقتصاديًّا ودوليًّا".

* * *

ويصل البعض في نقمتهم على العصر الثوري العربي إلى أن ذلك العصر هو الذي أدى إلى ضياع فلسطين، وأن الحلول التي طرحها "المعتدلون العرب" فيما قبلُ، والتي قبلت تقسيم فلسطين إلى دولتين، قد وجدت طريقًا مسدودًا أمام تعنت الثوريين.

وهنا تتبدى محنة أخرى من محن الثورات؛ ذلك الفهم المحدود بطبيعة النظام الدولي وتفاعلاته؛ فالثورة بطبيعتها هي عمل جذري في التغيير، وهذه الجذرية تشمل الداخل والخارج معًا، وكانت العادة أن الثورة بما تحوز من سلطات كانت تملك القدرة على التغيير الجذري في الداخل، غير أنها كانت تفشل في الخارج إذا قررت الانطلاق.

وحتى في غير هذه الحالات كانت القوى الرئيسية في النظام الدولي تبادر بالعداء والصدام.

ويذكر الملك "أحمد زوغو" – ملك ألبانيا – في مذكراته التي نشرها المرافق الخاص "حسين سلماني" عام 2003، أنه نصح العرب في وقت مبكر باستيعاب حقائق النظام الدولي وقبول دولتين في فلسطين.

تقول المذكرات: إن الملك "زوغو" – الذي أقام في المنفى بدءًا من عام 1944 بعد أن وصل الحزب الشيوعي للحكم هناك – قد قرر، في إحدى الليالي، دعوة أصدقائه إلى عشاء في مقر إقامته بالإسكندرية ليقول لهم آخر ما عنده، وشارك في هذا اللقاء الملك "فاروق" والملك "عبد الله الأول"، ملك الأردن، والرئيس السوري "شكري القوتلي" ورئيس حكومته "جميل مردم" بك ومفتي القدس "أمين الحسيني" والوزير اللبناني "كميل شمعون".. وقال لهم:

"عليكم أن تدرسوا كيف تصلون إلى حل أفضل، لا تلجأوا إلى العنف؛ لأنه بالقوة لا يمكن أن تفعلوا شيئًا، بل سيؤدي بكم ذلك إلى مزيد من الخسارة.. لا تنسوا

أن الإنجليز والأمريكيين هم الذين جاءوا باليهود إلى هنا، ولن يسمحوا لكم بأن تتخلصوا منهم، لقد ضمنوا لهم المساعدة السياسية والمالية، ولا يمكن لأحد أن يمسّهم.

عليكم أن تعرفوا شيئًا أكثر من هذا.. اليهود يلعبون اليوم دورًا مهمًّا في العالم؛ إذ أنهم يسيطرون على عالم المال؛ لذلك أرى، كصديق، أن التوجه لاستخدام القوة سيضر بكم، لن تقدروا على شيء، بل ستخرجون من الحرب بخسائر كبيرة".

ويكمل الملك "زوغو" حديثه، الذي يعود إلى عام 1947: "إنني معكم بكل قلبي.. لكن طريق الحرب لن يؤدي إلى أي حل بأي شكل وإن كانت معكم روسيا السوفيتية.. هؤلاء اليهود وراءهم أمريكا وبريطانيا وفرنسا.. إن تفكيركم خاطئ تمامًا.. وسيؤدي فقط إلى أن تتحملوا وزر مليون فلسطيني ستطردهم إسرائيل"!

وقد توالت السنوات بعد ذلك لتتحقق رؤية الملك الألباني وليخسر الإطار الأخلاقي أمام النظام الدولي.

* * *

وعلى نحو عام، فإن موضوع الثورة يلفت الانتباه إلى عدد من المفارقات التي تستدعي الوقوف أمامها طويلاً..

المفارقة الأولى تتمثل في أن عددًا كبيرًا من الثوريين الذين حملوا أرواحهم على أكفّهم لحظات الإعداد والانفلات لم يبقوا طويلاً بعد نجاح ثوراتهم، بل واصل حشد آخر لم يشارك معظمه في لحظات الخطر وأوقات الشدة.

وربما يعود ذلك إلى أن الثوريين الأوائل ممن تحملوا المخاطر كانوا أكثر مسئولية تجاه الواقع، وربما أقل اندفاعًا في طريقهم المغامر نحو الأفضل، ما دعا الآخرين لإزاحتهم خشية الفشل.. أو أن يكون ما جرى تعديلاً أو تجميلاً يخرج من باب الثورة إلى باب التطوير.

وربما يعود إلى صراع السلطة بعد أن تحول الثوريون في زمن خاطف من أناس من المستضعفين إلى نخبة من الحاكمين، فيكون لوقْع السلطة ومذاقها الأثر الأكبر في إدارة القوة والثورة في البلاد.

ولعله يعود إلى وعي من قِبَل بعض الثوريين بأنه في حالة النجاح لن يكون هناك استعداد ولا تخطيط واضح لتلك المرحلة، ما يستدعي التجهيز لها، حتى إذا انطلقت الفرحة في كل مكان كان هناك من يحوّل الفرحة إلى سلطة، وخطاب الانبهار إلى سلاح وقرار. ولعله أيضًا يعود إلى صدفة وأقدار لا وعي فيها.. فانتهز البعض ساحات الغضب الواسعة ليعيد تنظيم الفوضى وإدارة الغضب.

ويذكر المصريون غياب الرئيس "محمد نجيب" و"يوسف صديق" ثم "عبد اللطيف البغدادي" عن واجهة الثورة المصرية بعد نجاحها، كما يذكر الجزائريون غياب الرئيس "أحمد بن بلة" عن الثورة الجزائرية بعد أن حازت مكانة دولية مرموقة، ويذكر العرب وغيرهم نماذج كثيرة لهذه الشُهُب التي خبا وميضها لحظة الانطلاق.

المفارقة الثانية: أن معظم الثورات كانت قاسية على أبنائها، فتحت دعاوى التطهير و"اغتصاب المغتصبين" و"لا حرية لأعداء الشعب" و"اقتلوا الخونة والرجعيين".. راحت الثورات تعصف بأبنائها، وفي بعض التجارب تكوّنت أجهزة استخبارات متوحِّشة انحصرت مهمتها في تصفية ما استطاعت من المواطنين حمايةً للثورة والثائرين. وإذ يتجلى هنا نموذج الزعيم السوفيتي "جوزيف ستالين" الذي قتل عدة ملايين تحت دعاوى مشابهة، فإن هذا النموذج يتباين حجمًا ويتماثل وجودًا في معظم الثورات الأخرى.

بل إن بعض الثورات كانت أكثر دفئًا وحنينًا تجاه الخارج، في الوقت الذي كانت فيه أكثر ضراوة وخشونة تجاه الداخل، ويرى بعض المثقفين أن تجربة الرئيس "جمال عبد الناصر" كانت بالغة المودَّة ناحية الشعوب العربية، لكنها كانت جافَّة في

مواجهة المصريين، أما الرئيس "صدام حسين"، الذي ورث الثورة العراقية، فقد كان ودودًا مع الشعوب العربية ومجرم حرب في مواجهة الشعب العراقي، ويذكر ملايين المصريين الذين توافدوا على بلاده في عقد الثمانينات أنه كان أكثر انحيازًا للجالية المصرية وللعرب المقيمين مما كان تجاه جموع العراقيين.

المفارقة الثالثة: أن معظم الثورات بدأت طَموحًا نحو الخارج، وتحت شعار تصدير الثورة انطلقت خطب الثوريين تهاجم النظم الحاكمة المجاورة، وكان أبرز شعارات التصدير هو الوحدة، وبرز لدى أغلب الثورات حلم إمبراطوري بالتوسع والانتشار، والتحول من ثورة إلى سلطة ومن سلطة داخل بلد واحد إلى سلطة متعددة الجنسيات تحكم جماهير لا شعبًا، وأمة لا دولة.

وقد حدث أن تحول الحلم الإمبراطوري إلى فشل واسع وعادت الثورات ببلدانها إلى حدودها وربما أقل، وبدءًا من الإمبراطورية الفرنسية، التي حاول "نابليون" تأسيسها عقب الثورة الفرنسية، إلى الإمبراطورية السوفيتية، التي حاول "لينين" و"ستالين" تأسيسها عقب الثورة الشيوعية، إلى ثورات أخرى أقل حضورًا وتأثيرًا.. كان الفشل الإمبراطوري هو الناتج العام.

وقد فشلت الثورة المصرية في تكوين أمة عربية واحدة إلى حد احتلال جزء من الأراضي المصرية من قِبَل دولة ناشئة عام 1967، كما فشلت الثورة الجزائرية في طموحها الإمبراطوري نحو القارة الأفريقية على الرغم من سمعتها الكبرى هناك، وانتهت الثورة بعد عقود محدودة إلى أزمة داخل الدولة خلّفت أكثر من مائة ألف شهيد يضافون إلى مليون ونصف مليون آخرين.. غير أن الشهداء الأوائل رحلوا على طريق الاستقلال، والشهداء الأواخر رحلوا على طريق الاستقرار.

وليس أكثر سخرية في هذا الإطار من تجربة الإمبراطور "هيلاسلاسي" في إثيوبيا؛ فقد قاد الثائر الإثيوبي الثورة ضد الملك "ليج ياسو" لأنه اعتنق الإسلام،

وأجبره على النزول عن العرش لابنه "منليك"، وجعل نفسه وصيًّا عليه، وفي عام 1930 توَّج "هيلاسلاسي" نفسه إمبراطورًا على إثيوبيا.

ومضى الإمبراطور يقوِّي الإمبراطورية الأفريقية التي توهمها، ثم كان سقوطه في السبعينيات على يد الثائر اليساري "منجستو هيلا ماريام"، الذي رأى أن يكمل الحلم بطريقته، إلى أن سقط هو الآخر في نهاية الثمانينيات على يد الثائر "ميلس زيناوي".

ومن "هيلاسلاسي" إلى "هيلا ماريام" إلى "زيناوي"، ثلاث تجارب ثورية بدأت بأحلام الإمبراطورية، وانتهت بانقسام إثيوبيا نفسها بعد استقلال إريتريا على يد ثائرين آخرين.

وإلى جوار إثيوبيا لا تقل تجربة الصومال إثارةً للاهتمام والسخرية معًا؛ فقد انتهى على خلاف ما بدأ حكم الثائر الماركسي "محمد سياد بري"، الذي بدأ حياته عضوًا في الحزب الشيوعي البريطاني في أثناء دراسته فيها، وعاد بانقلاب عسكري محاولاً تطبيق مبادئ الثورة الشيوعية على الصومال. ويقول "حسين مروّه": "إنه مع قلة الكوادر لديه، فقد حاول أن ينفذ خطته للتنمية على الطريقة السوفيتية، وإنه كان يحاول أن يوفِّق بين الفكر الشيوعي والطابع الإسلامي للبلاد، وقد أقدم على الانضمام إلى جامعة الدول العربية بهدف الحصول على مساعدات منها، وقد مهَّد لذلك بتحويل الحروف السواحيلي إلى حروف عربية، ما كلفه كثيرًا، وأحدث "بري" تحولات مهمة، لكنه انهزم بحكم الفقر والتخلف والجفاف". وقد انتهى الحكم الإمبراطوري عند "سياد بري"، الذي استهدف ضم أجزاء من إثيوبيا وكينيا وأوغندا فيما يسمى "الصومال الكبرى" إلى انقسام الصومال على نفسها مرات عدة يتقاتل فيها أربعون جيشًا!

* * *

المفارقة الرابعة: أن عددًا من الثورات قد اندلعت وهي تحمل الكثير من الغضب والقليل من الفكر؛ حيث لم يكن الثوريون يمتلكون ما هو أكثر من الطريقة المثلى للهدم.. ولأنه ليس من طبائع الثوار أن يقفوا عند الهدم تاركين لآخرين مهمة البناء، فإنهم قد انطلقوا في وقت محدود يحاولون صياغة نظريات أو استيراد أفكار لتكون عونًا على البناء والتشييد. ومن نادر الأمور أن تجد ثورة بلا نظرية مهما حملت تلك النظرية من الخلط والتهافت، وإذا كان بعض الثورات يبدأ الرحلة على هدى من نظرية سابقة، فإن بعضها يبدأ العمل ثم يبحث لاحقًا عن الأفكار.

وقد كان الرئيس "جمال عبد الناصر" – زعيم ثورة يوليو 1952 في مصر – أقل إلمامًا بالجوانب النظرية والإطار الفكري لثورته حين اندلعت ونجحت واستقرت، وقد تحصَّل لاحقًا على أفكار شتى من حزب البعث العربي ومن الأحزاب الشيوعية وبعض الأفكار العامة لدى عموم المصلحين ليصنع منها فلسفة الثورة.

وتذكر بعض الدراسات أن "عبد الناصر" لم يكن شغوفًا بالنظريات، وأنه كان يمل من التعقيدات النظرية لحزب البعث، وكان يعتبرها نوعًا من السفسطة ولغو الخطاب، وقد كان يميل في تكوين إطاره الفكري إلى آلية الاستماع والحوار.. لا سيَّما ما كان يسمعه من الكاتب الصحفي "محمد حسنين هيكل" ومن المنظرين السوريين، لا سيَّما "صلاح البيطار" و"أكرم الحوراني".

كما كان "عبد الكريم قاسم" – قائد ثورة يوليو 1958 في العراق – يحمل فكرًا عشوائيًّا داخل المجال العام لليسار، ما جعله يتفق ويصطدم مع الجميع في آنٍ واحد.

ولم يتمتع الرئيس "أحمد بن بلة" – رمز الثورة الجزائرية – بأية مزايا نظرية ذات طابع استثنائي فيما عدا المبادئ العامة للتحرر الوطني.

وتشير بعض الدراسات إلى أن "فيدل كاسترو" لم يكن شيوعيًّا حين بدأت الثورة الكوبية؛ فقد كان مجرد ثوري حالم وابنٍ للطبقة البرجوازية التي لم تكن

رغبتها الأولى الإطاحة بالطبقة الإقطاعية التي كانت تسيطر على مزارع السكر والموز وغيرها، وقد وصف الحزب الشيوعي الكوبي "فيدل كاسترو" وقتها بأنه "مغامر ينتمي إلى البرجوازية الصغيرة، أو في أحسن الأحوال رومانتيكي عاشق للعمل السري".

لم يكن "كاسترو" - الذي تخرج في مدارس الجزويت لأبوين إسبانيين مهاجرين وحصل على ليسانس الحقوق وعمل بالمحاماة - عضوًا بالحزب الشيوعي الكوبي - كان هدفه إقامة مجتمع أكثر عدالة، ولم يكن بأي حال يفكر في نظام ماركسي لينيني.

غير أن إغلاق أمريكا أبوابها قد دفع "كاسترو" للبحث عن موسكو؛ حيث نجح بدعمها في إقامة مجتمع متقدم يتمتع بنظام صحي متميز وخالٍ من الأمية. وتحول نظام "كاسترو" من نظام ليبرالي كان يسعى للتفاهم مع واشنطن إلى نظام شيوعي استفاد من موسكو وبقي بعدها.

* * *

المفارقة الخامسة: تلك الصناعة الماكرة لأسطورة الرأي العام؛ حيث لا توجد ثورة استطاعت أن تفلت من واقعة اختطاف الرأي العام؛ فالحديث باسم الجماهير الغفيرة وتأسيس الخطاب السياسي بكامله تحت دعوى أنه مجرد إملاء من الرأي العام واستجابة لآراء وأفكار الشعب، هما أبرز ما يميز خطاب الثورات.

والواقع أن أسطورة الرأي العام هذه تحوي جانبًا من الحقيقة؛ إذ تنشد الشعوب في ثوراتها مستقبلاً أفضلَ للعامة من الناس، غير أنها تحوي كذلك ما تبذله الثورات في تضليل الرأي العام تحت وطأة الفشل في تحقيق الآمال.

وتبدأ سلسلة من الحروب الرمزية مع "أعداء الشعب" و"أعداء الثورة" و"فلول الرجعية والاستعمار"، ما يزيح الانتباه عن ضعف الثائرين وفشل السياسات الثورية

ويدفعها باتجاه معارك هامشية لا نهاية لها. ولم تكن عبارة "بالروح بالدم" الشهيرة إلا عنوانًا لذلك الاحتيال الثوري على الرأي العام.

ومن المدهش في هذا الإطار أن جانبًا كبيرًا من الثوريين كان يتقن عملية اختطاف الجماهير إلى الحد الذي يجعله مصدقًا لما يجري. وسرعان ما يستبين الأمر إذا اهتزت سلطة الثائرين وانطلق الرأي العام الكامن خلف الرأي العام الرسمي.

وينقل "محمد حسنين هيكل" عن أحد صناع القرار في واشنطن قوله: تتحدثون عن عالم عربي فيه أكثر من عشرين دولة، ولكن هناك في تقديرنا "4" أو "5" دول فاعلة في المنطقة العربية وليس أكثر، وفي الدول الأربع أو الخمس هذه تنحصر دائرة صنع القرار في "35" إلى "40" شخصًا فقط.. هذا هو عدد الناس الذين يؤثرون فعلاً.. أنت تتحدث عن رأي عام وجماهير حاشدة، ونحن لا نرى غير "35" شخصًا على أكثر تقدير في أربع أو خمس دول يصنعون القرار ويوجهون الدفة ويقبلون ويرفضون!

* * *

المفارقة السادسة تتمثل في ذلك الزهو الثوري الدائم بالفضيلة السياسية ومكارم الأخلاق؛ إذ لا تخلو ثورة من ادعاءات أصحابها بالنزاهة والشفافية ومكافحة الفساد والقضاء على المفسدين، ثم تجيء النتائج في نظم ثورية كثيرة بعكس ذلك الادعاء.

فقد اتسم قطاع واسع من النظم الثورية بالفساد السياسي والاقتصادي، وتحولت الجمهوريات الثورية إلى ملكيات مستبدة شاع فيها نهب المال العام، وتكوين الطبقة السياسية من أهل الثقة والولاء، ولم يكن بإمكان أحد في النظم الثورية أن يراجع أحدًا فيما يفعل أو أن يسأله عن مصدر ثروته أو حدود ما يملك ويدير.

وقد امتد الفساد المالي والسياسي إلى فساد أخلاقي واسع، من تجاوزات أجهزة الاستخبارات ومؤسسات الأمن إلى تأليه الحاكم والذين معه وازدراء الطبقات الكادحة

التي لم تعد إلا حشدًا بشريًّا في المظاهرات والانتخابات. ووصل الملوك الثوريون إلى مدى لم يصل إليه الملوك الرجعيون في تدمير الثروة الوطنية والوصول إلى سقف أسطوري من سفه الإنفاق، فيما ترتفع تماثيلهم وصورهم في كل مكان.

وكان لـ"صدام حسين" "2350" تمثالاً وأكثر من مليون صورة تتوزع في العراق، بعد أن نجح في تحويل أغنى دولة عربية إلى واحدة من إقطاعيات العصور الوسطى!

* * *

المفارقة السابعة تكمن في ذلك الإلهام الزائف الذي يستوحيه الثوريون من نماذج مستحيلة؛ فكثيرًا ما اعتاد خطباء الثورات أن يؤكدوا واقعية ما يسعون إليه، وأن هناك آخرين قد فعلوا ما هو أشد وأقسى، وأنهم ليسوا في طموحهم شاردين ولا عابثين، ولعل الوحي الأكبر في هذا النطاق يتأتى من النموذج الفيتنامي الشهير.

فقد تُمثل حرب فيتنام المثال النقي على نجاح المستضعفين الثوريين في هزيمة أكبر قوة في العالم؛ إذ جنَّدت الولايات المتحدة الأمريكية ثمانية ملايين جندي على مدى أحد عشر عامًا "1964-1975" قُتل منهم خمسون ألف جندي وأصيب ربع مليون آخرون، وانتهت الحرب بهزيمة الولايات المتحدة.

ومعضلة هذا النموذج تكمن في تلك الأساطير الثورية التي انطلقت من فيتنام إلى بقية العالم؛ فلم تذكر النظم الثورية طبيعة النظام الدولي التي ساعدت الثورة الفيتنامية في الانتصار، أو تلك التضحيات الجسام التي بذلها الفيتناميون التي زادت على مليون ونصف المليون قتيل، لكن الذي روَّجت له النظم الثورية في معاركها غير الضرورية أنها ستكون "فيتنام" أخرى.

ويذكر الصحفي الإيراني "أمير طاهري" أنه التقى ديكتاتور هايتي "راؤول سيدراس"، عام 1984، وكانت واشنطن وقتها تهدد بلاده بالغزو وإسقاط النظام،

وقال "سيدراس": "إن الأمريكيين لا يستطيعون فعل شيء؛ لأن هايتي ليست جرينادا"، و"جرينادا" جزيرة كاريبية صغيرة غزتها أمريكا قبل عشر سنوات.

وبعد عشر سنوات "1994"، قال الجزار الصربي في البوسنة "رادكو ملاديتش": "إن البوسنة ليست هايتي.. سيحفر الأمريكيون قبورهم بأيديهم إذا تدخلوا.. وسنقاتل حتى آخر نقطة دم". وتدخل الأمريكان وهرب "ملاديتش".

وبعد سنوات، قال القائد الصربي "سلوبودان ميلوسيفيتش": "إن صربيا ليست البوسنة.. وسنقاتل حتى آخر نقطة دم".. وتدخل الأمريكيون وسيطروا على كوسوفا دون خسائر، ثم سقط "ميلوسيفيتش" في بلجراد، وبعدها بشهور حل ضيفاً على أحد السجون في لاهاي.

وفي سبتمبر 2001، قال "الملا عمر": "إن أفغانستان ليست صربيا.. وسنقاتل حتى آخر نقطة دم"، وفي يناير قال "صدام حسين": "إن العراق ليست أفغانستان، وسنقاتل حتى آخر نقطة دم!"

وينتهي "أمير الطاهري" إلى أن "هايتي كان يراد لها أن تكون فيتنام الكاريبية، وللبوسنة وصربيا أن تكونا فيتنامي البلقان، وأفغانستان فيتنام وسط آسيا، والعراق فيتنام العرب.. ولكن لم تصبح أيٌّ من هذه فيتنام أخرى.. ثم لنفرض أن هذه البلدان صارت فيتنامات أخرى، إن فيتنام ما زالت بلدًا متخلفًا تقمعه الشيوعية وأغلب شعبها يعيش على دولارين في اليوم".

إذا كان الحكم الأخير على فيتنام حكمًا حادًّا؛ ذلك أن فيتنام التي استقلت رسميًّا عام 1945 قد خاضت حروبًا ضد الفرنسيين عشر سنوات، حتى عام 1955، ثم عقدًا ونصف عقد من الحروب ضد الولايات المتحدة من عام 1960 إلى عام 1975.

وحتى عندما تحرر الجنوب وتوحدت البلاد عام 1976، ثارت المسألة الكمبودية والحرب الفيتنامية – الصينية من عام 1978 إلى عام 1982، ثم جاءت

بعدها مرحلة البريسترويكا التي خفضت فيها موسكو المساعدات لفيتنام وطالبتها بتسديد ديونها، وهو ما حرمها من أي فرصة للتنمية، في الوقت الذي تدفقت فيه الاستثمارات الأمريكية واليابانية في دول آسيا الأخرى.

إذا كان الحكم المذكور حادًا في عباراته، غير أنه صحيح في مضمونه؛ فبغض النظر عن الأسباب التي قادت، فإن فيتنام لم تكن نموذجًا في معاركها؛ فالظروف الدولية قد لا تتكرر، والتضحيات الكبرى بمليون ونصف المليون قتيل قد لا تُطاق، كما أنها وقد فقدت وضعية "النموذج الممكن" في البداية فإنها قد فقدتها أيضًا في النهاية؛ حيث لا يمكن للفقر والفشل أن يكونا نموذجًا إيجابيًّا، مهما كان يحمل من تاريخ ناصع أو تراث نبيل.

وامتدادًا للدراما الفيتنامية، فقد كان من بؤس التفكير ذلك التمادي الثوري في العناد الدولي دون رغبة في الصمود ولا قدرة عليه!

لقد صعدت فيتنام فيما بعدُ، وحققت معجزة اقتصادية كبيرة، لكن المعجزة جاءت من فكر الدولة وليس من فكر الثورة.

* * *

المفارقة الثامنة تقع في دائرة التنافس الثوري؛ ذلك أن عددًا من الثورات قد اصطدمت بالأخرى، وأن ثورات قد واجهت ثورات مجاورة أكثر مما واجهت الرجعيين والمعادين.

والمثال الأشهر عالميًّا هنا هو ذلك الصراع الطويل بين الثورتين الشيوعيتين الروسية والصينية.. والمثال الواضح عربيًّا تنافس الثورتين المصرية والجزائرية لبعض الوقت، وصدام الثورتين المصرية والعراقية، وحرب الثورتين الإيرانية والعراقية.

* * *

ويشهد "كريم مروّه" بأن الشيوعيين العراقيين حلفاء "عبد الكريم قاسم" تمادوا في العداء للتيار القومي كرد فعل على موقف "عبد الناصر" السلبي من النظام الجديد ومن الشيوعيين خصوصًا، وكان "عبد الناصر" قد بدأ يصطدم مع الشيوعيين السوريين والمصريين في ظل الوحدة بين مصر وسوريا.

ويذهب "فتحي الديب" – أحد مؤسسي جهاز المخابرات المصرية – إلى أن التيار البعثي قد واصل عداءه لنظام الثورة المصرية حتى حاول "صدام حسين" اغتيال الرئيس "جمال عبد الناصر".

يقول "فتحي الديب"– الذي أذاع للمرة الأولى تفاصيل هذه المحاولة في مقالة نشرها في الذكرى الحادية والثلاثين لرحيل الرئيس "عبد الناصر"–: "إن البعثيين العراقيين قد شكّلوا خلايا في القاهرة يصل عدد أعضائها إلى أكثر من "700" شاب وفتاة، ومعظمهم قد جاء بحجة تلقي العلم والدراسات في جامعات مصر ما بين القاهرة والإسكندرية، وكانت كل خلية لا يزيد عددها على عشرة أفراد، وكان من بين مهام هذه الخلايا: خلق نوع من البلبلة في أوساط المصريين الغاضبين إثر هزيمة 1967، وقد انخرط بعض المصريين في حزب البعث ومن بينهم كتاب وشعراء ونقاد.

وكان من عناوين منشوراتهم: "سيتحقق الحلم البعثي في مصر بعد أن كان يعتبره البعض خرافة مستحيلة"، وبالطبع فقد كانت هناك أموال تُضخ على شكل مساعدات تشجيعية وهدايا من العراق لتكريم المبدعين من الشعراء والكتب والنقاد. وقد تدرب أعضاء التنظيم على استخدام السلاح في مناطق صحراوية بغفلة عن المخابرات المصرية.

تم اختراق التنظيم البعثي في مصر باستخدام بعض أعضائه من البعثيين أنفسهم، فتمت معرفة أسمائهم جميعًا وأماكن تحركاتهم، اتصلت بالرئيس عبد الناصر ثم ذهبت إليه في بيته، وقبل أن يتناول الإفطار رويت له تفاصيل المؤامرة، وفيها عملية اغتيال عبد الناصر نفسه.

لم يصدق عبد الناصر، بل شكك في الأمر؛ فآخر ما كان يتصوره أن يلعب البعثيون في عقر الملاعب الناصرية ويسعون إلى تصفيته، لكن عبد الناصر اطلع على الوثائق وتأكد من المؤامرة، وصدرت الأوامر بالقبض عليهم.

وبعدها وصلت رسالة من السفير المصري في بغداد، لطفي متولي، تحمل استرحامًا رفعه أهالي الذين قاموا بالتخطيط لمؤامرة اغتيال عبد الناصر يستنكرون فيها ما فعله أبناؤهم ويلتمسون منه الصفح بالعفو عن أولادهم الذين غررت بهم السلطة البعثية في بغداد".

وهكذا مثّلت ظاهرة التنافس الثوري ملمحًا أساسيًّا في عصر الثورات، وقد تراوحت مظاهرها من التنافس الخطابي وحتى الصدام العسكري، على نحو ما ذهب النظامان الإيراني والعراقي في عهدي "الخوميني" و"صدام حسين".

وعلى الرغم من ادعاءات النظامين بأن كليهما ضد النظم الملكية الإمبريالية الأمريكية والصهيونية العالمية فإنهما التقيا بالسلاح بمثل ما التقيا في الأفكار.

إنها الصورة نفسها في التنافس الثوري بين نظامي "عبد الناصر" و"بومدين"، وهي نفسها عند القرن الأفريقي؛ حيث اصطدمت الثورتان الإثيوبية والإريترية وخاضتا حربًا نحيلة أعياها الطريق.. وهي الصورة الكبرى بين بكين وموسكو.. حين التقتا في الشيوعية واختلفتا في كل شيء.

وهي على صعيد الإسلام السياسي، صراع وصدام الجماعات الثورية الإسلامية والإخوان المسلمين إلى الجماعة الإسلامية وفصائل الجهاد إلى جماعات الفوضى الدينية.

إن حالة التنافس الثوري هذه كان يمكن ضبطها لو أنها كانت مقصورة على التنافس بين الثورات، غير أنها تمتد – وهذه مشكلة أكبر – للتنافس الدموي داخل الثورات، وتمثلها تلك المزايدات التي لا تنتهي داخل أروقة الجماعات والهيئات

الثورية، وتلك الانشقاقات الواسعة التي تعقبها انشقاقات أوسع.. وهي حالة في مجملها أقرب إلى الاتهام الذي وصفت به الجماعةُ الإسلامية المصرية جماعةَ الإخوان المسلمين ذات يوم: "يكرهون أن تخرج كلمة الإسلام إلا من أفواههم".

ومن الطبيعي أن يجد المرء فرصة كبيرة لأن تلتقي فصائل المحافظين السياسيين واليمين الليبرالي، على الرغم مما يحكمها من مصالح وفلسفة عملية، أكثر مما يمكن أن تلتقي جماعة ثورية واحدة أو حزب يساري واحد.

وربما يعود بعض السبب في ذلك إلى تلك البلاغة العامة التي يتمتع بها الثوريون؛ فمثل ذلك الإحساس بالوعي الزائد يجعل من الانضواء تحت تنظيم واحد أو مشروع واحد أمرًا مستحيلاً.

وربما يعود أيضًا للطبيعة النضالية لليسار، وهي الطبيعة التي تجعله حالة انفعالية إلى جوار كونه حالة معرفية وحركية، غير أن الناتج النهائي لظاهرة التنافس الثوري هو الجفاء حتى النهاية والصدام حتى الحرب.

* * *

المفارقة التاسعة تكمن في ذلك الخلط الشائع بين الجيش والسياسة، بعد أن فقدت الهيئات العسكرية احترافها وأدار العسكريون ضعاف الموهبة شئون السياسة، ما قاد إلى فشل السياسات وهزائم الجيوش. وفي خلاصات معبرة لتلك المفارقة يقول المشير "محمد عبد الغني الجمسي" – وزير الدفاع المصري الأسبق–: "إن الخطأ الرئيسي لثورة يوليو أنها كانت سياسية أكثر مما يجب، فانحرفت القوات المسلحة وانزلقت للعمل المدني، وتطلع رجال الثورة للعمل في الشركات، حتى كانت هزيمة 1967، وظهرت تساؤلات حول القادة العسكريين ودورهم المفترض"..

"لقد ترقى عبد الحكيم عامر من رائد إلى لواء، وكانت رتبته أعلى من مستواه وخبرته، وهناك من الضباط الأحرار من حصل على معاش وزير وهو قد ترك الجيش برتبة نقيب"!

وهكذا فسدت السياسة بمثل ما فسدت الحياة العسكرية من جرَّاء ذلك الدور السياسي للعسكريين في النظم الثورية، فيما كانت النظم غير الثورية واضحة في الفصل بين المؤسستين المدنية والعسكرية، ما جعل فرصة لكلتا المؤسستين للفعل في أوقات الحرب والسلام.

وعلى قول أهل اللغة، فإن الاستثناءات الواردة على ذلك لا تعدو أن تكون إلا تأكيدًا للقاعدة لا نفيًا لها.

* * *

المفارقة العاشرة تتمثل في مأزق الطرح الإصلاحي؛ حيث تبدو مجمل النظم الثورية مستعصية على الإصلاح؛ ذلك أن الإصلاح هو إنهاء للثورة في نهاية المطاف!

عادة ما يكون السيناريو كالتالي: ثورة.. ثم مراجعات ثورية.. ثم تيار إصلاحي معتدل من داخل الثورة.. ثم تيار أكثر اعتدالاً من داخل الثورة.. ثم تيار إصلاح من خارج الثورة.. ثم نهاية حقبة الثورة بعد حقبة المراجعات.

وهذا هو المأزق الحقيقي الذي يواجه النظرية الثورية؛ فالإصلاح الثوري يعني نهاية الثورة؛ لذا فمن الطبيعي أن يتخذ المتشددون حيال الإصلاحيين مواقف قاسية، وأن يجدوا في رؤاهم الإصلاحية نهاية لفريق النضال المستقيم. ومن الطبيعي أيضًا أن يطلق الإصلاحيون على حركاتهم وصف الثورة، وأن تشيع شعارات من نوع: ثورة التصحيح، تعويم الثورة، الثورة الثانية، الثورة الحقيقية.

والمثال العالمي الأشهر على مأزق الإصلاح داخل الثورات يتمثل في تجربة "ميخائيل جورباتشوف" في الاتحاد السوفيتي؛ إذ بدأ بسياسات المصارحة والتطوير وانتهى بحقائق الانهيار الفاجعة.

وفي مصر، كانت ثورة التصحيح التي قادها الرئيس "السادات" عام 1971 ضد رجال الرئيس "جمال عبد الناصر" بمثابة التمهيد لنهاية ثورة يوليو وتجربتها.

وفي إيران، رأى المحافظون الموالون للمرشد العام للثورة الإسلامية "علي خامنئي" أن "محمد خاتمي"، بمشروعه الإصلاحي، إنما يقف خارج الثورة، وبات "خاتمي" نفسه ثوريًّا متشددًا إذا ما قورنت أفكاره بأفكار الحركة الطلابية والمثقفين ورجل مثل "حسين الخوميني" – حفيد الإمام "الخوميني" – ممن يرجون لبلادهم دولة ذات طابع أمريكي.

وفي الجزائر، انتهى المشروع الإصلاحي، الذي تصوره الرئيس الأسبق "الشاذلي بن جديد" – وريث الثورة الجزائرية – إلى حرب أهلية جاءت على الثورة والدولة معًا.

وربما تظل الصين النموذج الأكبر لذلك التحول الهادئ نحو الإصلاح من رحم الثورة، غير أن شيوعيين كثيرين يرون أن الثورة الشيوعية لم تعد قائمة في الصين، وأن نهاية الثورة سبقت رأسمالية الدولة، كما أن الإصلاح الحالي، الذي بدأه ساسة كبار بحجم "شوا ين لاي" في السبعينيات، هو تطور من داخل الأفكار الرأسمالية التي لا صلة لها بنظرية الثورة وشعاراتها.

والحاصل إذًا أن المشروع الإصلاحي الشامل لا يمكن أن يكون مشروعًا إصلاحيًّا من داخل الثورة أو امتدادًا ثوريًّا في ثوب إصلاحي؛ لذا فإن ازدحام جدول الأعمال بالنسبة للثورات يجعلها متعثرة في ثوبها وغير قادرة على الحركة، كما يجعل من الإصلاح ثورة أخرى لا تقبلها الثورة الأولى.. فتكون نهاية إحداهما حسب قدرة الأخرى.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن من حسن حظ الشعوب ألا تكون ثوراتها جذرية وشاملة وعاصفة على نحو كامل؛ فالثورات "الإجرائية" التي تقنع بجدول أعمال واقعي من شأنها أن تكون أكثر إفادة من الثورات الجذرية الساخنة ومن المشاريع الإصلاحية الباردة.

وكان من رأي الأديب العالمي "توفيق الحكيم" أن ثورة يوليو المصرية التي انطلقت في يوليو 1952 قد انتهت في أكتوبر 1956 مع حرب السويس، وما بعد ذلك كان نظامًا سياسيًّا له طبائعه ومطامعه، وكان ينبغي للثورة أن تقف عند هذا العام "1956".

ومن رأي أنصار الديمقراطية أن الثورة المصرية قد انتهت قبل ذلك بعامين حين انتصر الجناح العسكري على الجناح السياسي عام 1954، وفشلت الثورة والديمقراطية معًا.

* * *

وخلاصة القول في هذا المقام: إن "الثورات" هي ضرورة في التاريخ؛ فالاستبداد والفساد قد تمكّنا من حركة التاريخ تمكُّنًا جعل من التمرد والمقاومة والانقلاب والانفلات أمرًا حتميًّا، وقد بدا لكثير من الناس أن المشروع الإصلاحي لا يكفي للحل؛ ذلك لأن السلطة لن تسمح للمصلحين إلا بأن يكونوا جزءًا من النظام لا يملكون من أمرهم شيئًا.

لقد بدا ضروريًّا في سياق كهذا، استعصى فيه الحاكم على الإصلاح، وتخلّت فيه السلطة عن وظيفتها، أن يكون الحل هو العنف والإطاحة الكاملة.

غير أن ما اتضح لاحقًا هو أن الأمر الذي بدأ صائبًا حتى في ثأره وفي غضبه.. في أحقاده وفي انفعالاته، قد انتهى إلى إثارة أحقاد أخرى وثارات أخرى.. بعد أن حل طغاة محل طغاة.. وبقي المظلومون، والمظلومون الجدد، على حالهم يشكون الحاكمين والثائرين.

وبعد عقود من ثورات باهرة، بات ظاهرًا أن التشخيص الذي كان صائبًا لم يمنع خطأ العلاج.. وبدأ عصر من إعادة النظر، بعد أن صارت الثورة عبئًا على ذاتها، واجتمعت ملامح الغروب مؤذنة بنهاية الثورة، أو بموسم طويل من الخريف!

* * *

الفصل الثاني



من الشيوعية إلى الإسلام..

بقاء العدو!

إذا جاز وصف الثورة الفرنسية بالثورة العالمية الأولى، فإن الثورة الشيوعية في روسيا قد مثّلت الثورة العالمية الثانية.. لم تكن أي من الثورتين ثورة محلية، أزالت نظامًا وخلقت آخر، كما لم تكن ثورة إقليمية امتدت آثارها إلى المحيط القريب وبقيت هناك، بل مثلت ثورة عالمية امتدت تداعياتها في جنبات العالم وبقيت في التاريخ مصدر إلهام واقتباس.

وما يفرق الثورة العالمية الأولى عن الثانية، كون الأولى قد خلقت فكرًا سياسيًّا، بينما خلقت الثانية نظامًا سياسيًّا، بالطبع فإن الثورة الفرنسية قد خلقت النظام في وقت لاحق، كما أن الثورة الشيوعية كانت مرحلة تطور عملاق في الفكر السياسي.

غير أن ما بقي من الأولى هو قيمها ومبادئها أكثر من وقائع السياسة فيها؛ فبقيت مبادئ الحرية والإخاء والمساواة، وانزوت وقائع الإرهاب والفوضى، وتخلصت الثورة الفرنسية من حقيقتها الدامية لتبقى أفكارها المجيدة.

لكن الثورة الشيوعية – التي أتت بمبادئ العدالة والمساواة ومنع الاحتكار ومعاداة رأس المال المستغل ودعم الفقراء وإيصالهم للسلطة – لم تبقَ منها مبادئ تُذكر، بل بقي نظامها السياسي القمعي وما تضمنه من انتهاك لحقوق الإنسان وإبادة الأشخاص والممتلكات وإلغاء حكم القانون.

ومع الوقت تجردت الثورة من مبادئها المجيدة لتبقى الحقائق المفزعة لنظامها السياسي الذي بقي ثلاثة أرباع القرن ولا يزال صداه ماثلاً في عواصم أخرى.

ولأن الثورة الفرنسية بدت كثورة عنصرية تطلب الحرية والإخاء والمساواة للفرنسيين، لكن سرعان ما أعقبها عصر الاستعمار الفرنسي المتوحش في العالم العربي وأفريقيا.. فإن نصيب العالم العربي منها لم يكن يدفع للحفاوة وحسن الاستقبال.

وباستثناء بعض الآثار الإيجابية للحملة الفرنسية على مصر، التي دامت ثلاث سنوات، رحل فيها "نابليون" عن مصر ورحل قائدها الثاني "كليبر" عن الدنيا ورحل قائدها الثالث "مينو" إلى الإسلام، فإن عصر الثورة الفرنسية لم يسفر في العالم العربي عن كثير.

لذا، كان التأثير الأكبر في العالم العربي للثورة العالمية الثانية لا الأولى.. ودخل العالم العربي القرن العشرين بثورة عربية كبرى في المشرق تواكبت مع الثورة الشيوعية في روسيا، ثم بموجة من الثورات العربية في منتصف القرن العشرين كانت في مجملها تستلهم روح الثورة الشيوعية.

* * *

تدين الثورة الشيوعية في روسيا بالفكر السياسي إلى "كارل ماركس" وصديقه "فريدريك إنجلز"، وكلاهما وُلد ومات في القرن التاسع عشر، وتدين بالفعل السياسي إلى "فلاديمير لينين"، الذي أنجز الثورة عام 1917 وبقي زعيمًا لها حتى وفاته في عام 1924، وإلى الرجل القوي "جوزيف ستالين" الذي توفي عام 1945. وعلى ذلك فإن الثورة مدينة لأربعة رجال: اثنان من الفلاسفة، واثنان من الثوار الحكام.

وأهم أدبياتها كتابَا "ماركس": "البيان الشيوعي" عام 1848، و"رأس المال" عام 1868، وفي الكتاب الأخير اكتشاف لسبعين قانونًا من قوانين الرأسمالية من القيمة الزائدة إلى الريع العقاري.

كما تدين الثورة إلى حشد من الأدباء الكبار يتقدمهم "مكسيم جوركي"، الذي شارك في ثورة عام 1905 ضد القياصرة ورحل بعد فشلها وبقي في الخارج داعيًا إلى رحيل القياصرة، ولما حدث ذلك عام 1917، كان "جوركي" أشد المتحمسين للثورة. وفي روايته الخالدة "الأم"، أفصح عن وضع الثائر الذي يؤثر على الجماهير من خلال أبطاله، وقد توفي "جوركي" عام 1936.

* * *

وتشير كتاباتٌ – معظمها غير جاد – إلى دور رئيسي لليهود في إشعال الثـورة الشيوعية؛ فقد كان "كارل ماركس" يهوديًّا، وجده هو الحاخام "مردخاي مـاركس"، وقد كان "لينين" – بحسب بعض الآراء – يهودي الأصل، وكان يحمل اسمًا يهوديًّـا، أما "تروتسكي" فإن اسمه الحقيقي "بروشتاين" وكان يهوديًّـا، وحـين تـشكل المكتـب السياسي الأول للثورة البلشفية كان ستة من بين أعضائه السبعة من اليهود!

ومن هـذا الـرأي "ونـستون تـشرشل"، الـذي قـاد الحلفـاء في الحـرب العالميـة الثانية ضد النازية؛ حيث اتَّهم اليهود بالتآمر لإشعال الثـورة البلـشفية في الاتحـاد السوفيتي.

وقد وصل الاعتقاد بالدور اليهودي في الثورة العالميـة الثانيـة إلى قـول الـبعض بدور سابق في الثورة العالمية الأولى؛ حيث يرى الكاتب الفرنسي "آب برويل" – وهـو مسيحي متطرف – أن اليهود كان لهم دور رئيسي في إشعال الثورة الفرنسية!

* * *

وقد نجحت الثورة الشيوعية عام 1917 في إزالة حكم القياصرة وإقامـة نظـام شيوعي، أصبح بموجبه الاتحاد السوفيتي يمثل القوة العظمى الثانيـة في العـالم، كمـا أصبح – بالتعبير الشيوعي الرائج – سدس العالم حاليًّا وكل العالم فيما بعد!

ولم تتقبل الشيوعية الـسوفيتية أشـكال الـشيوعية الأخـرى، وأطلـق "لينـين" علـى الحركات الشيوعية المتطرفة، مثل الماوية والتروتسكية والفوضوية، وصف اليسار الطفولي.

كان "ماو تسي تونج" في البداية امتدادًا للثورة الشيوعية الروسية، وقـد كتـب في منتـصف الأربعينـات مقـالاً بعنـوان "إن وجـود الاتحـاد الـسوفيتي ضـرورة للنـوع البشري".

ويـرى الماركـسيون أن "مـاو" قـد تخلَّـى عـن شـعاراته تلـك وتنكـر للمبـادئ الأممية، ثم ارتكب خيانة مكشوفة مارستها قيادة "ديـنج شيـانج" الـتي جعلـت مـن

الحزب الشيوعي الصيني مؤسسة تابعة يديرها "كيسنجر" و"نيكسون"!

ويقدِّر الماركسيون – وهو تقدير غير صحيح – أن الاقتصاد الصيني الذي خططه "دينج شيانج" قد انتهى إلى تدمير القاعدة الاقتصادية الوطنية التي أرستها الثورة الشيوعية في الصين ما بين عامي 1949 و1979، وذلك لحساب الاستثمار المشترك مع الأجانب.

وقد أدى الخلاف الكبير بين العملاقين الشيوعيين – الاتحاد السوفيتي والصين – إلى ارتباك الشيوعية في العالم، وأصبح للثورة الشيوعية نموذجان كبيران متصارعان وحفنة نماذج متناثرة.

ويقول الشيوعي اللبناني "كريم مروّه" – في كتاب "صقر أبو فخر" "ما يشبه السيرة"، الذي صدر في دمشق عام 2002-: "كان هذا الأمر مؤذيًا لنا ولمجمل الحركة الشيوعية والثورية، ولم يكن أمام الأحزاب الشيوعية أي مخرج إلا الاختيار بين الاتحاد السوفيتي والصين. وحده الحزب الشيوعي الإيطالي استطاع أن يحدد نوع العلاقة الواقعية بين جباري الحركة الشيوعية في ضوء مصلحته.

وقد انحزنا – نحن الشيوعيين العرب – إلى السوفيت لدورهم في دعم بلداننا وقضايانا، أما الصين فلم يكن لها دور مهم على الصعيد العالمي، ما عدا الدور المشاكس وغير المؤثر في السياسة الدولية".

وقد نجح الاتحاد السوفيتي في احتكار الشيوعية في العالم، ولم تصبح الصين – على الرغم من ضخامتها – إلا دولة كبرى شيوعية لا عاصمة الإمبراطورية الشيوعية ولا القلب منها.

* * *

كان الأفضل "نيكيتا خروشوف"، لكنه لم يبقَ طويلاً، وكان الأسوأ "ليونيد بريجينيف"، وقد بقي حتى فقد الاتحاد السوفيتي معظم دوره وإمكاناته. وعلى

الرغم من أن "يوري أندربوف" قد حاول، خلال الأشهر القليلة التي أمضاها في السلطة، أن يُحدث بعض التغييرات فإنه توفي قبل أن يعرف أحد إلى أين كان سيقود الاتحاد السوفيتي، وجاء بعده "قسطنطين تشيرنينكو" الذي كان مريضًا هو الآخر، ولم يعِش إلا فترة قصيرة في موقع الأمين العام.. وجاء "جورباتشوف".

يقول "كريم مروّه": "إن جورباتشوف، الذي جاء فجأة إلى السلطة، لم يكن مؤهلاً لقيادة التغيير؛ فبدلاً من أن يقوم بالتغيير بشكل تدريجي وواقعي طرح كل أفكاره الراديكالية دفعة واحدة، ولم يأخذ في الاعتبار أنه لا الحزب ولا الدولة ولا المجتمع كانوا مؤهلين لذلك.. إن جورباتشوف الذي ظهر فجأة دمر الحزب والدولة قبل أن ينشئ البديل".

ولما انهار الاتحاد السوفيتي، أفاق الفكر السياسي الثوري وعموم الفكر الماركسي على فجيعة ما جرى، وكالعادة في مثل هذه الأحوال رأى البعض أوجه الخلل في النظرية ورأى البعض أنها في النظام السياسي لا في الفكر السياسي.

جاء رأي البعض أن "لينين" قد أدار ظهره لكل الشروط التي حددها "ماركس" للاشتراكية، ومن هذا الرأي: الفيلسوف الفرنسي "إيفون كينيو". ورأى "روجيه جارودي" أن الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي لم يتحقق منها إلا واحد من شروطها الاقتصادية، ولم يتحقق أبدًا أي من شروطها على صعيد الديمقراطية وحرية الإبداع.

ورأى آخرون أن في الماركسية أكثر من تيار، وأن اللينينية الماركسية ليست سوى أحد هذه التيارات، وكان يمكن أن يتغير المجرى التاريخي لو طبقت التيارات الأخرى، أو لو بقي "لينين" متعايشًا معها ولم يلفظها.

ومن هذا الرأي "نذير جزماتي"، الذي يرى أن الخلل كان في النظام لا في سواه، ويذكر في كتاب "هل كانت ثورة أكتوبر ثورة اشتراكية؟" – الذي أصدره مثقفون شيوعيون في دمشق عام 2001 – أنه "إذا كان بمقدور عدد صغير من الأفراد

أن يقلبوا كل شيء رأسًا على عقب في بلد مضى على انتصار الثورة الاشتراكية فيه خمسة وسبعون عامًا، وبلغ عدد أعضاء الحزب فيه خمسة وعشرين مليونًا من الأعضاء، ألا يدل ذلك على أن ما بُني هو النظام لا غيره؟".

ويكمل "عبد الكريم أبا زيد" الرأي ذاته، قائلاً: "إن انهيار الاتحاد السوفيتي ليس ذنب البريسترويكا، بل ذنب ذلك النظام الذي لم يدافع عنه أحد من عشرات الملايين من الشيوعيين والشبيبة الشيوعية المسجلين رسميًّا.. لم يتصد أحد من المليون شيوعي في موسكو لـ"يلتسين" عندما أعلن حل الحزب الشيوعي. إن "يلتسين" لم تكن تخيفه الدبابات، ولكن كان يخيفه لو أحاط به عُشر هؤلاء ويعلنون رفضهم لحل الحزب وإغلاق صحيفته المركزية.

لماذا لم تخرج الطبقة العاملة السوفيتية هي الأخرى، وعددها عشرات الملايين، والتي حققت بالفعل مكاسب ملموسة في عهد النظام السابق؟".

"لقد تحولنا إلى شيوعية أصولية بكل معنى الكلمة، نصفع محدثنا باستشهادٍ بـ"لينين" أو "ستالين" أو "ماركس" يعود – في أحسن الأحوال – إلى قرن مضى أو نصف قرن.

مأساتنا – وقد انهار الاتحاد السوفيتي – أننا عندما يسألنا سائل: ما الاشتراكية التي تنوون بناءها؟ كنا في السابق نضع يدنا على أطلس العالم ونقول: هل تشاهدون سدس المعمورة هذه، أي الاتحاد السوفيتي؟ إننا ننوي بناء مجتمع مثله، وعندما انهار الاتحاد السوفيتي لم نعد نعرف بماذا نجيب.. إننا في أحسن الأحوال أصبحنا نقول بالمحافظة على القطاع العام وتطويره.. مسخنا نظرية جبارة.. فحولناها إلى مهزلة"!

* * *

لقد غابت الثورة الشيوعية بعد أن سادت العالم فكرًا وممارسة.. إما بالولاء وإما بالبراء.. بالتطبيق أو بالتطويق.

ومع فشل النظام الذي قام على أثرها، تشوّهت الثورة الشيوعية ذاتها، وجرى التعامل مع مبادئها بمثل ما يجري التعامل مع الجيوش الخاسرة، وأصبحت مبادئ العدالة والمساواة وغيرهما من إيجابيات قيم الثورة الشيوعية هي مبادئ مهزومة، ولم يعد ممكنًا الدفاع عنها إلا بعد مقدمة طويلة في الهجوم على الشيوعية، وبكون الدفاع الجديد عن العدالة دفاعاً إنسانيًّا لا صلة له بالتجارب الاشتراكية السابقة.

تحولت الثورة إلى شبهة، وانهزمت مبادئها بمثل ما انهزمت نظريتها وأنظمتها قبل الانهيار.. كانت الثورة الشيوعية هي الإطار النظري لعصر الثورات في العالم العربي بعد طورٍ من التعديل وإعادة الصياغة.

استطاع الثوريون العرب أن يكونوا اشتراكيين دون أن يكونوا شيوعيين، وأن يمجِّدوا الماركسية والتجربة السوفيتية مع تأكيد الخصوصية والهوية العربيتين.

وكان المنقذ النظري للثوريين الاشتراكيين العرب في مسلكهم هذا ما سموه "الاشتراكية العربية"، وهي النظرية التي استندت إلى فكرة نظرية جذابة هي فكرة التطور اللارأسمالي.

يشرح "كريم مروّه" ذلك قائلاً: "إن مصدر مقولة التطور اللارأسمالي هو قرارات المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي عام 1956، المتعلقة بتعدد طرق الانتقال إلى الاشتراكية بشكل عام، والإفساح في المجال أمام الأحزاب المختلفة لكي تبدع طرق انتقالها الخاصة بها إلى الاشتراكية. ومنذ ذلك الحين بدأت الأحزاب تبحث بأشكال مختلفة عن هذه الطرق الخاصة.

وفي الستينيات طرح بعض الماركسيين والشيوعيين، وحتى من قبل الرئيس

جمال عبد الناصر، فكرة تأسيس اشتراكية عربية، لكن السؤال هنا: كيف يمكن الانتقال من نظام قبل رأسمالي إلى نظام اشتراكي، أي من دون أن تكون قد توافرت القاعدة المادية لهذا الانتقال؟ من هنا انبثقت فكرة التطور اللارأسمالي..

ونقطة الانطلاق هنا: أن التحالف مع الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية هو الكفيل بأن يسمح لهذه البلدان بأن تتطور تطورًا غير رأسمالي عن طريق الاشتراكية. واستند البعض في دعم هذه النظرية إلى أن "إنجلز" قد تحدث عن إمكان انتقال روسيا من النظام الإقطاعي إلى الاشتراكية دون المرور بالرأسمالية، وإن كان "لينين" في كتابه "تطور الرأسمالية في روسيا" يقول بعكس ذلك، وبأن روسيا قد مرت بالرأسمالية قبل الاشتراكية".

ويستطرد "كريم مروّه": "لقد تلقف بعض المفكرين العرب هذه الفكرة وقالوا إن عبد الناصر وبن بلة وسوكارنو ونهرو وسيكوتوري وموديبوكيتا.. هم "الديمقراطيون الثوريون" الذين يستطيعون، بالاستناد إلى التحالف مع موسكو، أن يقودوا عملية التطور اللارأسمالي حتى من دون أن يكونوا شيوعيين، ما يستلزم تقديم هذا الدعم لهم من قِبل شيوعيي هذه البلدان، بما في ذلك إمكانية حل أحزابهم والانضمام إلى التنظيمات التي أنشأها هؤلاء، وهو ما أدى إلى صراع داخل بعض الأحزاب الشيوعية".

يمكن القول هنا: إنه لو لم تكن الشيوعية وما تسرب إلى عصر الثورات العربية منها لكان العالم العربي أفضل حالاً؛ فقد أخذ الثوار العرب من الشيوعية نظامها القمعي وخطابها الصاخب. وهو ما دعا الرؤساء الثوريين في العالم العربي إلى أن يزايدوا على الإصلاحيين بحجة "الثورية"، وعلى الشيوعيين بحجة "الخصوصية".

* * *

مـرَّ العـالم بثـورتين عـالميتين: الفرنـسية والـشيوعية، ومـر العـالم العربـي بحقبـتين ثـوريتين.. الأولى: جملـة الثـورات المـصرية.. مـن ثـورتي القـاهرة الأولى والثانيـة ضـد الاحـتلال الفرنـسي إلى الثـورة العرابيـة إلى ثـورة 1919 في مـصر، بالتوازي مع الثورة العربية الكبرى في الجزيـرة العربيـة عـام 1916. وإذا كـان مـن رمز لهذه الحقبة الثورية الأولى فهي ثورة 1919 في مصر، وإلى الأسفل منهـا الثـورة العربية الكـبرى. وأمـا الحقبـة الثوريـة الثانيـة فتـشمل جملـة الثـورات العربيـة في منتصف القرن العشرين ورمزها الأكبر ثورة 1952 في مصر.

كانت الثورة العرابية في مصر 1881 هي الثـورة العربيـة الأولى الأكثـر نقـاءً والتزامًا، لكنها بحكم الوقت المبكـر وانعـدام الثقافـة الجمهوريـة وتهافـت الأوضـاع العامة قد فشلت في وقت محدود..

ولم يتجرأ الزعيم المصري "أحمد عرابي"، الذي رأى خيانة الخديوي "توفيق" للثورة والبلاد وكـذلك خيانـة وتواطـؤ الـسلطان العثمـاني في إسطنبول، علـى إسـقاط الرجلين وإعلان الجمهورية في مصر.

وإذا كانت الثورتان المصريتان ضد الاحتلال الفرنسي ثم الثـورة العرابيـة همـا عماد الفعل الثوري المصري في القرن التاسع عـشر، فـإن ثـورتي 1919 و1952 همـا عماد الفعل الثوري المصري في القرن العشرين.

جـاءت ثـورة 1919، بقيـادة "سـعد زغلـول"، ثـورة شـاملة ضـد الاحـتلال البريطاني وضد الأوضاع المتخلفة السائدة، وهي من الثـورات القليلـة في التـاريخ الـتي يصح عليها وصف الثورة الإصلاحية؛ فهي ثورة قام بها إصلاحيون؛ لذا كـان طبيعيًّـا أن تشهد نتائجها استقلالاً رسميًّا، بالتوازي مع نهـضة ثقافيـة وفكريـة واجتماعيـة وضعت مصر في مكانة مرموقة وفتحت أمامها آفاق التطور السياسي والاقتصادي.

وبالطبع، فإن ثورة 1919 قد أخطأت في جانب الفقراء والمعدمين، ولم تلتفت بالقدر الكافي إلى أوضاع الفلاحين والطبقات الدنيا، وهو ما أفسح المجال للتيارات المتشددة مثل الإخوان المسلمين و"مصر الفتاة" لاستثمار الغضب لدى الطبقات.

يجدر القول هنا: إن ثورة 1919 في مصر والثورة العربية الكبرى 1916، وإن كانتا من الأحداث العربية الرئيسية في القرن العشرين، غير أنهما تمثلان روح القرن التاسع عشر أكثر مما تمثلان الروح الثورية للقرن العشرين.

فقد صبغت الاشتراكية نظرية الثورة في القرن الأخير، ولم يعد ممكنًا قبول فكرة الثورة اليمينية في العالم؛ فالثورة بطبيعتها صارت يسارية.

لكن ثورة سعد زغلول في عام 1919 كانت ثورة يمينية ذات طابع إصلاحي أكثر منها ثورة يسارية ذات طابع راديكالي.

وبالمثل، فإن الثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف "حسين بن علي" في الحجاز، متعاونًا مع بريطانيا ضد الأتراك في أثناء الحرب العالمية الأولى، هي الأخرى ثورة يمينية؛ فهي تستهدف إقامة نظام ملكي وراثي، وترى ضرورة الانفتاح على الغرب.

ومن المؤكد أن هناك فوارق كبيرة بين الثورتين، ثورة "سعد زغلول" كانت إصلاحية ذات أفق ورؤية حضاريين، أما ثورة الشريف "حسين بن علي" فهي ثورة سلطة ضد السلطة وملكية هاشمية ضد ملكية عثمانية، ولم يكن لهذه الثورة طرح إصلاحي أو أفق بعيد عن السلطة على نحو ما كانت عليه ثورة 1919.

* * *

كان "حسين بن علي" – المولود في إسطنبول عام 1853 – شريفًا على مكة، ويعود منصب الشرافة في مكة إلى القرن العاشر الميلادي، وقد اعترفت الدول الإسلامية المتعاقبة للهاشميين بالإمارة على مكة حتى بدايات القرن العشرين.

أجرى الشريف "حسين" مراسلات مع "مكماهون"، المعتمد البريطاني في القاهرة، بدءًا من عام 1914، واتفقا على أن يعلن الشريف "حسين" الثورة على الأتراك، مقابل أن يمنح الإنجليز العرب الاستقلال بعد نهاية الحرب.

سلّم الشريف "حسين" قيادة جيوشه لأبنائه "علي" و"عبد الله" و"فيصل"، وفي أكتوبر عام 1918 دخل جيش "فيصل بن الشريف حسين" إلى دمشق، وفي 8 مارس 1920 تم إعلانه ملكًا على سوريا، وفي اليوم نفسه تم إعلان الأمير "عبد الله بن الشريف حسين" ملكًا على العراق. وفي 24 يوليو 1920 سقطت الملكية في سوريا بعد هجوم الفرنسيين عليها في موقعة "ميسلون" الشهيرة التي سقط فيها وزير الدفاع "يوسف العظمة".

غادر "فيصل" إلى أوروبا وعاد ملكًا على العراق في مارس 1921 بعد دعم "تشرشل" لإقامة ملكية في العراق بقيادة "فيصل" وإقامة دولة مستقلة شرق الأردن بقيادة "عبد الله".

وأما الشريف الأب "حسين بن علي" فقد هُزم أمام السعوديين فغادر إلى الأردن وأعلن ابنه "علي بن الحسين" ملكًا على الحجاز.

وبعد خمسة عشر شهرًا، سقط الملك "علي" فغادر إلى أخيه الملك "فيصل" في العراق، وأصبح الملك "عبد العزيز آل سعود" ملكًا على كل الأراضي الممتدة من الخليج إلى البحر الأحمر، وتأسست المملكة العربية السعودية عام 1934.

توفي الشريف "حسين بن علي" عام 1931 في عمان، وفي عام 1946 أصبحت إمارة شرق الأردن المملكة الأردنية الهاشمية، واغتيل ملكها "عبد الله الأول" في عام 1951، وتم خلع ملكها الثاني "طلال" عام 1953، وتوفي ملكها الثالث "الحسين بن طلال" عام 1999.. وتولى الملك "عبد الله الثاني بن الحسين بن طلال بن عبد الله بن الشريف حسين بن علي" السلطة عام 1999.

أما الملك "فيصل الأول" فقد خلفه الملك "غازي"، ثم الملك "فيصل الثـاني"، ثـم سـقطت الملكيـة عـام 1958.. ولم يمكـث الملـك "علـي" في الـسلطة أكثـر مـن شـهور. وهكذا.. ملكٌ أب وثلاثة أبناء ملوك لم يبقَ من مُلكهم إلا الأردن.

* * *

وإذا كان الخروج على سُلطة الأتراك عملاً ثوريًا، فـإن الأحـداث والأهـداف لا تجعل من الثورة العربية ثورة بالمعنى الحقيقي؛ فقد كان هناك جيش يحـارب وملـك طموح، والغاية هي السلطة.

أما ثورة 1919 في مـصر، فقـد كانـت ثـورة المـثقفين والـشعب معًـا، وكانـت تستهدف التطوير والتحديث وكفاءة التعامل مـع العـالم.. وقـد مثـل زعيماهـا "سـعد زغلول" و"مصطفى النحاس" نموذجًا في كفاءة التوازن بين متطلبات الثورة والتزامـات الدولة، وبين ما هو ممكن من المبادئ وما هو متاح من الحركة.

وهو ما يجعلنا نميل للقـول بـأن ثـورة 1919 في مـصر هـي الثـورة اليمينيـة الإصلاحية الأم في العالم العربي، وأنها في مبادئها وسياساتها وما أسفرت عنه كانـت تمثل المشروع الممكن للنهضة.

لكـن ثـورة 1919 لم تـتمكن مـن إصـلاح أخطائهـا، ومـن منـع الفـساد بـين السياسيين الذين ورثوها، ومن تحقيق إصلاحات اجتماعية حقيقية تنزع الفقر وتعيـد الاعتبار إلى المحرومين من عامة الشعب.

وهنا جاءت ثورة 1952 بمثابة الثـورة المنقـذة، بـل إنهـا بـدت وكأنهـا الثـورة المكملة، أو أنها ثورة 1919 الثانية؛ فقـد أبقـت علـى حريـة التعـبير والعمـل الحزبـي والمزاج الإصلاحي، وأسقطت أسوأ ما في تجربة 1919 من احتلال وملكية فاسدة، والأهم أنها أسقطت ذلك الإهمال الواسع للشعب من فلاحين وعمال وحرفيين، وجـاءت قـرارات الثورة الأولى ذات الطابع الإصلاحي المعتدل لتحظى بشعبية شديدة وبقبول واسع.

لكن ثورة 1952 سرعان ما قطعت الصلة مع ثورة 1919، وأسست لحقبة ثورية جديدة، وهي حقبة ثورية أطلت برأسها إلى الخارج لتستلهم التجربة الثورية الاشتراكية، ما وسَّع المسافة بين المشروع الإصلاحي – الذي كان قد تطور في مصر عبر أكثر من مائة وخمسين عامًا من الثورات والأفكار– والمشروع الثوري الذي خطا بعيدًا.. وكانت في كل خطوة عقبة، وفي كل قفزة كبوة، حتى انتهى عصر الثورات بأسوأ مما بدأ!

* * *

تحوّل الثوّار إلى تجار، والثورات إلى مجلات وإذاعات، هي موضع للغو الخطاب وتعبئة لمن يمكن تعبئتهم ضد من يمكن معاداتهم. وأكلت الثورات العربية ثوارها، وبقي الأسوأ في ميدان الفعل والقول.

لقد أطاح الذين لم يضحوا بالذين ضحوا، وساد خطاب المنافقين على نداء الثوريين، وبتعبير عضو مجلس قيادة الثورة المصرية "حسين الشافعي": "هناك أناس صنعوا الثورة، وهناك أناس صنعتهم الثورة، أما الذين صنعوها فهم حريصون عليها، وأما من صنعتهم الثورة فهم حريصون على أنفسهم فقط. وهؤلاء لا تستطيع أن تحصيهم"!

وحين اصطدم الرئيس "السادات" بالثوريين الذين صنعتهم الثورة – حسب تعبير "الشافعي"– فوجئ الثوريون بوقفة الجماهير الغفيرة إلى صالح "السادات" الذي انقلب على الثوار، ويقول "حسين الشافعي" – الذي يصل في كراهيته لـ"السادات" إلى مدى بعيد–: "لو نجحت مجموعة علي صبري في إقصاء أنور السادات، لكانت الأمور قد أصبحت أسوأ، إنهم عبارة عن مديري مكاتب، ولو امتلكوا السلطة لكانت خيبة ما بعدها خيبة"!

* * *

أخذ عصر الثورة العربي من الثورة الشيوعية أعداءها، من الإقطاع والفساد والرأسمالية في الداخل إلى أمريكا والغرب في الخارج.

وعلى الرغم من أن أجندة الإصلاح الداخلي كانت مزدحمة وصعبة، فإن الثوار العرب آثروا أن يجعلوا أجندة الخارج إلى جوارها. ومن سوء حظ العالم العربي أن وُجدت إسرائيل في قلب هذا البركان.

اختطفت إسرائيل الذهن العربي، واستهلكت أجندة الإصلاح العربية بوجودها وحدودها، وداخل عملية الاختطاف هذه، ارتكب حزب البعث واحدًا من أخطائه الكبرى؛ إذ دفع "جمال عبد الناصر" إلى وحدة عاجلة ثم انفصال عاجل ثم إلى مزايدات قادت "عبد الناصر" إلى اليمن ثم إلى 1967.

* * *

والواقع أن "جمال عبد الناصر" كان زعيمًا مميزًا منذ قيام الثورة وحتى عام 1956، ثم توالت الأخطاء بفعل المزايدات الثورية وعدم المسئولية البعثية، إلى أن أفاق "عبد الناصر" على فجيعة النكسة، وهنا يعود "عبد الناصر" مرة أخرى زعيمًا مميزًا من خلال خوضه حرب استنزاف ناجحة وإدارة سياسية عاقلة.. إلى أن رحل في عام 1970.

ثمة "اثنان" من "جمال عبد الناصر": "عبد الناصر" الثوري المنضبط، ومدته سبع سنوات من 1952 إلى 1956، ومن 1967 إلى 1970. و"عبد الناصر" الثوري الذي خضع للمزايدات، ومدته أحد عشر عامًا، من 1956 إلى 1967.

* * *

وهكذا، أسهم ضعف التعامل مع الخارج في المغالاة في تقدير العداء للغرب والتمادي في المزايدة على المنظومة الاشتراكية.

وأضاع العالم العربي فرصة ذهبية للتوازن وتحصيل الأفضل حين كان "جون كينيدي" في البيت الأبيض و"خروشوف" في الاتحاد السوفيتي.. لقد مر "كينيدي" دون التفات عربي إلى وزنه الاستثنائي وإطاره الإنساني، وجاء "بريجينيف" في موسكو ليسلم الإمبراطورية في هدوء إلى الإمبراطورية الأمريكية.

لقد حلّ الآخر والخارج عدوًّا أكثر مما كان ينبغي له أن يحل، وانزاح الداخل أمام الخارج أكثر مما كان عليه أن ينزاح، وأصبحت معظم التظاهرات والمنشورات والمقالات تعنى بالحرب بين القوتين العظميين وبقدرات موسكو في مواجهة واشنطن، أكثر مما تعنى بمشكلة الفقر والمرض أو تأسيس دولة عصرية!

* * *

لقد كان التمادي في عداء الغرب تماشيًا مع الموقف الاشتراكي دافعًا لاختزال جدول أعمال الثورات العربية، ولأن الغرب، وعلى رأسه الولايات المتحدة، كان يرتكب الخطأ وراء الخطأ، فقد وجد التيار الثوري العربي في المواقف الأمريكية والأوروبية مبررًا لتكريس مفهوم العدو الدائم.

ولمَّا مضى التاريخ دورة كاملة، وانهارت الاشتراكية بسقوط الاتحاد السوفيتي ومن معه، وفقدت ثورات اليسار الكثير من بريقها في العالم العربي، جاءت موجة جديدة من المزاج الثوري الإسلامي.. بقي العدو هو العدو.. الولايات المتحدة الأمريكية والغرب الذي كان إمبرياليًّا ثم صار صليبيًّا كافرًا.

إن الشيوعية والثورات اليسارية في العالم العربي كانت وراء توريث الثورة إلى الإسلاميين؛ فقد أدى عداء الشيوعية للدين إلى استنفار القوى الدينية والمشروع السياسي الديني.

التقت الرأسمالية والأصولية الإسلامية في بداية الأمر؛ فقد اجتمع الطرفان ضد الاشتراكية، ولما سقطت الاشتراكية اعتقد الطرفان أنهما صارا وجهًا لوجه.

ومثّلت العمليات التي نفذها الأصوليون الإسلاميون، وفي مقدمتهم أعضاء تنظيم القاعدة، بداية الشعور بأن ثمة قطبًا ثانيًا ضعيفًا، لكنه يمكن أن ينهك القطب الأول القوي.. وأن انتظام قطرات الماء على الرأس كفيل بتدميره.

أصبحت الثورة الإسلامية في إيران هي الثورة الإسلامية الأم، وأصبح تنظيم القاعدة هو التنظيم الأم، وبينهما توالت أعداد هائلة من التنظيمات الثورية الإسلامية في الجهات الأربع.

وهكذا ورث التيار الثوري الإسلامي سلفه الثوري اليساري في مقاومة العدو ذاته، وبقيت الرأسمالية التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية هي العدو.. لفلسفتين مختلفتين وخصومات متباينة!

* * *

أسهم التاريخ في أن يرث الإسلاميون اليسار في العداء للغرب؛ ذلك أن "الصليبية" حلّت محل "الإمبريالية" في توصيف العدو، وبقي الموصوف على حالته. وكان بإمكان الطرفين أن يجدا في التاريخ دلالات كثيرة على حروب ساخنة وباردة بين الإسلام والغرب.

ويذكر "فريد هاليداي" أن مصطلح الحرب الباردة كان يتعلق بالصراع بين المسيحيين والمسلمين في إسبانيا، وذلك في كتابات "خوان مانويل" في القرن الرابع عشر، لكن ذلك الاستحضار ليس صحيحًا.

يرى "هاليداي" أن الإسلام يفتقر إلى القدرة الاستراتيجية والعسكرية والاقتصادية لحرب باردة، ولا حاجة للاعتقاد بأن هناك سياسة إسلامية مشتركة أو تنظيمًا دوليًّا موحدًا مثلما كان للشيوعية من عشرينيات القرن الماضي إلى سبعينياته.

ويمضي "هاليداي": إن الدين لا يحكم السياسات الخارجية للدول المسلمة، وليس من أثر مهم للتضامن الإسلامي إذا كنت كرديًّا مسلمًا تواجه أنظمة مسلمة في

ثلاث من الدول "تركيا وإيران والعراق" لا تعترف بحقوق الأكـراد.. وفي أفغانـستان، كان كثير من الأفغـان يوجهـون غـضبهم إلى المـسلمين الأجانـب، أي المقـاتلين العـرب والباكستانيين، ويتهمونهم باحتلال بلدهم، والثورة العربية على الحكم العثماني لم ينسَها الأتراك حتى الآن.

وإذا كان هناك إجماع إسلامي على دعم الفلسطينيين فليس هنـاك مـا يـشابهه تجاه قضايا إسلامية أخرى، مثل الموقف التركي من قبرص وقضيتي كشمير وكوسوفو. وتُقَدِم إيران مثالاً مثيرًا للاهتمام عن مدى مرونة دولة مسلمة؛ ذلك أن دستور 1980 للجمهورية الإسلامية يؤكد التضامن مع الأمة الإسلامية، لكـن إيـران – الـتي تتخـذ موقفًا قويًّا تجاه قضية فلسطين – تميل فيما يخص كشمير إلى الهند ولـيس باكـستان، كما تميل في النزاع مع "ناجورنو كاراباخ" إلى أرمينيا ولـيس أذربيجـان، ولا يبـدو أن لها الكثير مما تقوله عن قضية الشيشان أو سنكيانج.

وبالمقابل، فإن واشـنطن – الـتي قـد تكـون معاديـة للعـراق أو للفلـسطينيين – كانت مستعدة للتدخل لمصلحة شعوب مسلمة في الكويـت والبوسـنة وكوسـوفو، مثلمـا دعمت المجاهدين الأفغان في الماضي.

ويصل "هاليداي" إلى نفـي أن تكـون الأصـولية الإسـلامية وريثًـا للـشيوعية في مواجهة الغرب.

* * *

إن ما يقوله "هاليداي" صحيح ودقيق؛ فلن تكون الأصولية الإسلامية وريثًـا في الوزن، لكنها صارت وريثًا في الرمز. لقد ورثت الثورة الإسلامية بجميع أطيافهـا مـن الشيوعية مسمى العدو، وهي وإن كانت ضعيفة إلا أنها قد ورثت الهدف والطريق.

إنهـا تمتـاز عنهـا في كونهـا الأسـهل حركـة والأقـل مـسئولية؛ فلـيس لـدى تنظيمات الثائرين الإسلاميين ما يخشونه أو يخافون عليه، وهم بتعبير "ابن خلدون"

أشبه بالبدو، في حين تشبه الولايات المتحدة وأوروبا حالة الفلاحين؛ لذا فإن الطرف الثاني يحسب الخطى ويتملكه الجبن من جرَّاء الخوف على ما يملك ويحوز، أما الطرف الأول فلا يملك ولا يحوز سوى خيمة أو شبه خيمة.. يحملها في جنح الظلام ويرحل.

وأيًّا ما كان مستقبل الإسلام والغرب أو الأصولية الإسلامية والولايات المتحدة، فإن الحادث أن العالم العربي، بعد موجة من المد الثوري اليساري الفاشل، قد بدأ يلين إلى موجة من المد الثوري الإسلامي؛ فبعد أكثر من نصف قرن على عصر الثورات العربية، فإن التيارات الإسلامية هي الأكثر حضورًا واحتمالاً في مصر والجزائر وسوريا وليبيا، وربما العراق واليمن.

* * *

جاءت الثورة الإسلامية في إيران عام 1979، وانقلاب الإسلاميين على السلطة في السودان عام 1989.. ليجعلا من طموحات الثوريين الإسلاميين أكثر إمكانية من ذي قبل؛ ففي عشر سنوات سقطت عاصمتان – ما بين شيعية وسنية، وما بين فارسية وعربية – تحت سطوة الثوار الإسلاميين، في الوقت الذي انتصر فيه المجاهدون المسلمون في أفغانستان قبل أن ينهزموا أمام أنفسهم، وتوالت حركات الإسلاميين نفوذًا واتساعًا في كل عواصم العالم الإسلامي تقريبًا.. جاء المد الإسلامي الثوري المواكِب لسقوط الشيوعية ليطرح نفسه مناوشًا أو مقاتلاً للرأسمالية والعولمة، وليطفئ الكثير من بريق اليسار في العالم.

كان اليسار من تلقاء ذاته ينطفئ في أماكن كثيرة، وظهر يسار جديد أقرب إلى الأفكار الإنسانية العامة المتعلقة بالعدالة ومقاومة الفقر والجوع، ومقاومة طغيان القطب الواحد والاهتمام بقضايا المرأة والبيئة وحقوق الإنسان.. وهو على ذلك غير اليسار السابق الذي كان يطرح إيديولوجيا الاشتراكية وديكتاتورية البروليتاريا

وإلغاء القطاع الخاص وإزالة النظم الرأسمالية.

ويُرجع "فيدل كاسترو" بداية التحول إلى اليسار الإنساني إلى سقوط الاتحاد السوفيتي وخلل الموازين في العلاقات الدولية.

وفي ديسمبر عام 2000، قال "كاسترو" وهو يستقبل الرئيس الروسي "فلاديمير بوتين" في هافانا: "كان من الصعب على الكوبيين أن يصدقوا أن الاتحاد السوفيتي يمكن أن ينهار، كان الأمر بمثابة أن يقال لنا إن الشمس لن تشرق غدًا، وفجأة على الفور لم تشرق الشمس.. وبقينا وحيدين في مواجهة القوة العظمى الوحيدة مع نفوذها الاقتصادي والسياسي والعسكري الضخم"!

ويرى "كاسترو" أنه "لم يعد هناك من وجود لنموذج يُحتذى في السياسة، وأن لا أحد يدرك اليوم ماذا أصبح يعني مفهوم الاشتراكية"، وقال "كاسترو": "إن الأحزاب اليسارية في أمريكا اللاتينية قد قررت – خلال المنتدى الأخير المنعقد في ساوباولو – عدم استخدام كلمة "اشتراكية" بعد اليوم؛ لأنها تحولت سببًا للتفرقة". ويقول "كاسترو": "إن شرعية مناهضة العولمة الليبرالية لا تبرر أي لجوء للعنف".. وهكذا يصل "كاسترو" إلى مدى يجعله يمينيًّا إزاء اليسار الجديد المناهض للعولمة، ولم يعد "كاسترو" يطالب بتصدير الثورة بل أصبح يدين مجرد العنف إزاء الأعداء الرأسماليين!

وفي رصده للتجربة الكوبية، يلاحظ "إيجناسيو رامونه" – في مقال له في مجلة "لوموند ديبلوماتيك" – أن كوبا قد تغيرت كثيرًا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي؛ فقد تخلت عن جوانب كاملة من الاشتراكية المتشددة، وتم تعديل القوانين الزراعية وجرى الاعتراف بالمبادرة الاقتصادية الخاصة وتشجيع السياحة. وقد أوقفت كوبا منذ زمن طويل تصدير ثورتها للخارج.

من الملاحَظ أيضًا أن الرئيس البرازيلي اليساري "لويز إيجناسيور دا سيلفا" "لولا" – الذي تولى الحكم عام 2002 – لم يتحدث عن ثورة أو انتفاضة، وإنما عن انتخابات وصناديق الاقتراع وعن حلول لمشكلة الجياع الذين يصلون إلى "25" مليون جائع من بين "175" مليون نسمة!

ويقول الرئيس "لولا" اليساري –عن نائبه "خوسيه ألينكار" اليميني–: "إن نائبي رفيق كبير". وعاد "لولا" يلح على مشكلة الغذاء والفقر: "على الأسواق أن تعرف أن البرازيليين يحتاجون إلى طعام ثلاث مرات في اليوم، وكثير من الأشخاص في البرازيل جائعون"، واتصل "لولا" بالكثيرين في العالم لحل أزمات بلاده، حتى إنه قد طلب من لاعب كرة القدم "رونالدو" – المهاجم في فريق "ريال مدريد" الإسباني – مساعدته في برنامج إغاثة لتوزيع إعانات غذائية.

وما يلفت النظر هنا أن "لولا" اليساري قال عن نائبه اليميني إنه رفيق، إنه النائب الذي فاجأ المراقبين برأي يساري بحت في قضايا عدة من بينها قضية العرب وإسرائيل.

وكان لتصريح نائب الرئيس عن أن "الحل الوحيد للصراع العربي – الإسرائيلي هو أن يغادر اليهود إسرائيل، وأن يشتروا أرضًا أخرى في مكان ما من هذا العالم لإقامة دولتهم عليها، وإلا فإن الصراع سيستمر في تلك المنطقة".. كان لهذا التصريح صدى واسع لدى الجالية اليهودية التي قالت إنها ستضطر للنوم بعين واحدة!

وإلى جانب الرئيسين "لولا" و"كاسترو"، فإن "فلوتشيو جوتيريز" – رئيس الإكوادور اليساري الذي قاد الانقلاب على فساد السلطة عام 2000 بدعم الحزب الماركسي واليسار المتطرف والنقابات والهنود – قال إنه ليس شيوعيًّا بالمعنى الكلاسيكي، وإنه مسيحي مؤمن، ويحترم الملكية الخاصة، وإنه لن يعارض كون

الدولار العملة الرئيسية في البلاد أو يقف ضد الولايات المتحدة في استخدامها القواعد الموجودة على أراضي الإكوادور لاستخدامها في حربها ضد المخدرات.

وقريبًا من الحرص نفسه على عدم الالتصاق بالشيوعية، قال "هوجو شافيز" – الرئيس اليساري لفنزويلا الذي تولى السلطة عام 1998–: "إنني أخرَق وقبيح، لكنني لست شيوعيًّا؛ فالشيوعية لا تصلح في بلاد منتجة للنفط مثل فنزويلا".

وعلى الرغم من أن الرئيس "شافيز" – الذي قام سابقًا بمحاولات انقلابية وقامت ضده لاحقًا محاولات انقلابية أخرى – هو من أكثر المعادين للولايات المتحدة وسياسات الرأسمالية العالمية غير أنه يعمل من خلالها وينفي كونه اشتراكيًّا أو شيوعيًّا.. ولكنه فحسب مدافع عن الفقراء، أو بتعبير الرئيس "شافيز": "أنا المتحدث الرسمي باسم الفقراء في العالم".

ومثل البرازيل، تعاني فنزويلا فقرًا شديدًا لدى طبقات عريضة منها، على الرغم من كونها دولة نفطية، وقد وصف أحد سكان الأكواخ في فنزويلا عمق الأزمة وسخريتها قائلاً: "العمل الوحيد الذي أجيد القيام به هو النشل، لكن لا أعرف من أستطيع أن أسرق هنا"!

* * *

إذا كان هذا هو حال التبرُّؤ اليساري اللاتيني من الشيوعية مع قبول وصف اليسار، فإن حزب العمال البريطاني ممن يتجنبون تسمية اليسار نفسها.

وتقول الكاتبة الفرنسية "شانتال موف" في كتابها "التناقض الديمقراطي": "إن حزب العمال البريطاني يتجنب تسمية اليسار في خطاباته وتحركاته في الميدان، إن حزب العمال هذا لم يستطِع تحقيق العدالة الاجتماعية بين المواطنين، والإحصاءات تبين أن الطبقة العمالية قد صارت تعاني أكثر البطالةَ وعسف المؤسسات التابعة للقطاع الخاص الرأسمالي؛ فالضمان الاجتماعي لم يتطور، والحد الأدنى

للمرتبات جامد، والعمال لا يملكون النقابات التي تدافع عنهم"!

* * *

إن اليسار ما بعد الاشتراكي يلتقي بعض تيارات اليمين؛ فقد أصبحت مرجعية الحفاظ على الإنسان هي الهدف المشترك، بعد أن انتهت طموحات الثورة العالمية والقضاء على الرأسمالية وإنهاك الولايات المتحدة وأوروبا.

وأصبحت الأمميات الجديدة لا تختلف عن التيارات الإسلامية المعتدلة والليبرالية المعتدلة ومجمل الفكر السياسي الوسطي في العالم؛ فقد انتهت الصبغة الشيوعية لمعارضي الرأسمالية.

ويشرح المفكر اليساري الهولندي "بيتر ووتر مان" – في كتابه "العولمة.. الحركات الاجتماعية والأمميات الجديدة" – ما جرى بقوله: "إن حركات معارضة العولمة ليست حركات محصورة في الإيديولوجيات الماركسية كما كان الحال من قبل، بل إن هدفها الأساسي محاربة الليبرالية الجديدة، أي العولمة التي تحتقر الإنسان والفقراء والمهمشين والعاطلين، سواء في الدول الرأسمالية ذاتها أو في دول العالم الثالث.

وهي ليست حزبًا نمطيًّا ببغائيًّا يقول الشيء نفسه على كل شيء.. على الطريقة الشيوعية السابقة، وإنما نجد فيها الاتجاهات كلها: من أحزاب الخضر المدافعة عن البيئة، إلى الأحزاب الاشتراكية، فالحركات السلمية، فالحركات الإنسانية، فحركات تحرير المرأة".

وإذا كان هذا هو حال مناهضي العولمة الذين ابتدأ بهم القرن الحادي والعشرون في سياتل عام 1999، فإن اليسار ما بعد الاشتراكي، في كوبا والبرازيل وفنزويلا وغيرها، لم يعد على تناقض تام مع أوساط الليبرالية والإسلامية العامة..

ولعل التعبير الأبلغ عن ذلك هو قول "كاسترو" نفسه: "هناك ثائران في هذا العالم، الأول مهاتير محمد والثاني هو أنا".. "إن ماليزيا دولة حكيمة ثائرة على النظام الدولي غير العادل، إن كوبا وماليزيا قد حققتا تقدمًا على الرغم من ثورتهما على النظام الدولي"، وزاد "كاسترو" – في محاضرة ألقاها في "المعهد الدولي للدبلوماسية والعلاقات الدولية" في كوالالمبور–: "إننا في أمريكا اللاتينية نحتاج إلى روح الثورة في ماليزيا لنحقق إنجازات نواجه بها الليبرالية الجديدة التي تتشكل بصورة معقدة بهدف النهب".

والغزل ذاته بين كوبا "كاسترو" وماليزيا "مهاتير" تكرر بين "كاسترو" و"خاتمي"، وحين ذهب "كاسترو" إلى إيران قام بزيارة مرقد الإمام "الخميني"، وأكد رغبته في تعلم الحقائق القرآنية والتعرف على تاريخ الإسلام، وحين زار "حسن الخميني" – حفيد "آية الله الخميني" – كوبا، شارك "كاسترو" وهو يحمل علم كوبا في مظاهرة المليون كوبي احتجاجًا على السياسة الأمريكية حيال بلادهم!

* * *

الحاصل إذًا أن العالم قد انشغل بالثورة الشيوعية في القرن العشرين بمثل ما انشغل بالثورة الفرنسية في القرن التاسع عشر، وأن العالم العربي قد شهد ثورة يمينية رئيسية هي ثورة عام 1919 بقيادة "سعد زغلول"، وإلى الأسفل منها انقلاب ثوري يميني مثَّلته الثورة العربية الكبرى عام 1916 بقيادة الشريف "حسين بن علي".

ولأنه لم يقدر لثورة 1919 أن تستكمل مشروعها الإصلاحي باتجاه التطور السياسي والاقتصادي ودعم حالة الفلاحين والعمال، فجاءت ثورة 1952 وجملة الثورات العربية في الخمسينيات والستينيات، آخذة من الثورة الشيوعية العداء الإيديولوجي للغرب.

ثم كان أن فشلت مجمل الثورات العربية في جدول أعمالها بعد أن اختطفها التجار وانزاح الثوار.

ولما فشلت الثورة الشيوعية نفسها بانهيار الاتحاد السوفيتي، كانت محاولات الإسلاميين المتشددين لإطلاق ألف ثورة إسلامية – على غرار "تشي جيفارا" – قد نجحت في لفت الأنظار وإطاحة الثورية الاشتراكية، ناصرية وبعثية، من واجهة المجتمع السياسي العربي.

لقد تغيرت أشياء كثيرة، غاب ثوار وجاء ثوار، وتهاوت وعود وحلت وعود، وسقطت عواصم وهي في طريقها لتحرير عواصم.. سقطت شعوب في معركة الحرية، وسقطت حريات في معركة الوحدة.

* * *

الفصل الثالث



الجزائر.. من الثورة إلى الدولة

«لو طلبت مني فرنسا أن أقول لا إله إلا الله.. ما قلتها»..

الشيخ "عبد الحميد بن باديس"

* * *

الجزائر بلدٌ ساحر يسكنه شعبٌ جسور..

من الصعب فهم الجزائر من خارجها؛ ذلك أن الجزائريين هم ثوريون بالضرورة، ولم تكن الثورة الجزائرية إلا الموجة الأعلى في موجات الرفض المستمرة لدى الشخصية الجزائرية.

وفي اللغة الاجتماعية من السهل أن تجد تلك العبارة: "لقد ثُرتُ فيه ثورة جزائرية"، ويقول الرئيس "أحمد بن بلة": "إن الجزائري إذا غضب يقول لك: "أطلع على الجبل"، أي سأعمل ثورة، ولو كان وحده لا ينزل إلا إذا مات.. هذه تقاليد".

إن الجزائريين قاتلوا "130" عامًا، هذا ما لم يفعله شعب آخر، وما بين احتلال واستقلال الجزائر، فقدت الجزائر سبعة ملايين شخص. وفي تحليل جاذب وعميق، يقول الروائي الجزائري الشهير "الطاهر وطار": "إننا شعب لم يصنع حضارة، بحكم أننا لا نمتلك أنهارًا ولا استقرارًا، ولا نمتلك وحدة جغرافية، لكننا نجد أنفسنا باستمرار في خضم الحضارة..

هناك أسرة بربرية حكمت مصر الفرعونية ثلاثة قرون.. وحين دخل المسلمون إلى الجزائر قادت الكفاح ضدهم امرأة، وأنجزت شيئًا لم يُنجَز في بلد آخر.. لقد أحرقت البلاد.. هذه لا يعلمها إلا جزائري.

إن عقبة بن نافع لم يُقتل إلا في الجزائر، الثائرون على الكنيسة الرومانية جزائريون، أقمنا دولة للخوارج – دولة عبد الرحمن بن رستم – والخوارج لم

يستطيعوا أن يقيموا دولة في العالم الإسلامي، كلهم جاءوا إلى الجزائر فأقاموا الدولة الرستمية، وفي التاريخ الجزائري عبقرية لا توجد في جهة أخرى، تجعل الجزائريين باستمرار في خضم الحدث الحضاري الموجود ودون أن يكون له رصيد.

أنا أستغرب أن يغني شاب "صعلوك"، ليس بالمعنى السلبي للكلمة، بل بالمعنى الإيجابي، يسمى الشاب خالد، فيطرب له أولاد سيد درويش وفريد الأطرش وأم كلثوم ويطرب العالم. هذه ظاهرة جزائرية..

أنا رجل بدوي وأعمالي مترجمة في جميع أنحاء العالم.. هواري بومدين وأحمد بن بلة غير مؤهلين أصلاً، لكنهما وجدا نفسيهما في خضم الحدث في مستوى الآخرين".

وينتهي "الطاهر وطار" في وصف الجزائري إلى أنه "رجل في جيبه: إما أن يخرج مالاً ليكرمك أو سلاحًا ليقتلك.. إنه رجل لا يعرف الوسطية".

* * *

والحادث أن ما يطرحه الأديب الشهير بشأن عدم وسطية الشخصية الجزائرية كان يمكنه أن يلقى تعديلاً أو تغييرًا، لو أن التطور التاريخي في الجزائر لم يخُض تلك الثورة الحتمية ضد الاحتلال الفرنسي؛ فقد أدى القتال المرير عبر سنوات طويلة وبأجساد مليون ونصف مليون شهيد إلى الإحساس بضرورة الاستقلال الشخصي قبل الاستقلال العام، وبتغليب المقاومة على المعاملة والرفض على الحوار.

ولأن الثوار العظام لم يمكنهم التحول إلى سياسيين عظام، فإن بطولة الشعب لم تضعها القيادة الثورية على طريق البناء، وبقيت من الثورة الجزائرية قيم التضحية دون قيم الإنجاز.

وعلى الرغم من أن الثورة الجزائرية هي الأعظم قاطبة بين الثورات العربية، وهي واحدة من الثورات العظيمة في التاريخ، فإن نتاج الأمر يبدو بعيدًا.

* * *

يذهب المؤرخون إلى أن البربر هم أول من استوطن المنطقة المعروفة حديثاً باسم الجزائر، وفي عـام 1100 قبـل المـيلاد، أقـام الفينيقيـون قرطـاج في تـونس الحاليـة، وخلال الحرب بين قرطاج وروما تحالف زعـيم البربـر مـع رومـا لإنـشاء أول مملكـة جزائرية، واسمها "نوميديا"، وقد خضعت للحكم الروماني.

دخل المسيحيون الجزائر في القرن الثالث الميلادي، ودخلها المسلمون في القـرن السابع، وفي القرن الثامن أسس البربر مملكة إسلامية مستقلة، وعند القـرن الـسادس عشر احتل الإسبان الجزائر.

ثم كان الحكم العثماني والمطامع الغربية، حتى احتلت فرنسا مدينة الجزائـر عام 1830، وقدم الأمير "عبد القادر الجزائري" نفسه على أنه رمز للأمة الجزائرية في مواجهة فرنسا، وكان الأمير "عبد القادر" يحارب في آن واحد كـلاً مـن الفرنـسيين الغزاة والجزائريين ذوي النزعة الانعزالية المتمردين على كل سلطة خارجية.

ويذكر المؤرخ الجزائري "محمد حربـي" أن الجزائـريين كـانوا قـد تـأقلموا في دولة طائفية في إطار العالم الإسلامي، وكانت هـذه الدولـة لا مركزيـة معقـدة؛ حيـث تسمح بالتعايش بين سلطة مركزية وبعض بؤر السلطة التي تحكـم نفـسها بنفـسها.. وتلك هي المبادئ التي استوحاها النظام العثماني الذي دام حكمه فيها ثلاثة قرون.

ويرى "ألبرت حوراني" – في كتابه "الأقليات في العالم الإسلامي"، الذي صدر في لندن عـام 1947 – أن مجـال عمـل الدولـة في الجزائـر كـان محـدودًا؛ إذ لم يكـن يتجاوز المدن والسواحل وبعض الأودية والسهول التي يمكن الوصول إليها.

وعشية الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830 كانت هناك "200" قبيلة مـن أصـل "516" قبيلـة علـى مجمـل أراضـي الجزائـر قـد انقطعـت علاقاتهـا بالـسلطة المركزية.

وعلى وجه العموم، يحظى الأتراك العثمانيون بحضور إيجابي في الذاكرة الجزائرية، وخلافًا للمشرق العربي فإنهم كانوا محبوبين هناك، وفي أثناء الاحتلال الفرنسي كان الجزائريون ينظرون برضا واحترام للأتراك، وحتى حين وصلت حركة تركيا الفتاة إلى السلطة وتهيئتها الأجواء لسقوط الخلافة العثمانية، كان الجزائريون لا يزالون ينظرون لتركيا باعتزاز شديد.

ويؤكد المفكر الجزائري "محمد الميلي" أن حركة تركيا الفتاة قد وجدت صدى واسعًا في الجزائر؛ فتضامنَ الجزائريون مع الأتراك في حربهم مع الإيطاليين، ودعوا لمقاطعة التجار الإيطاليين، كما دعوا السكان إلى الاكتتاب لمصلحة الحكومة التركية. واحتفل الرأي العام الجزائري حين سمع بهجمات السنوسيين على الإيطاليين.

في هذه الأثناء، ظهرت فكرة القومية الجزائرية من خلال عدد من الجزائريين الذين تعلموا في المدارس الفرنسية في أثناء الاحتلال ثم لم يتساووا مع الفرنسيين المستعمرين.

وتمددت الفكرة إلى أن شكل "أحمد بن بلة" وثمانية من رفاقه "جبهة التحرير الوطنية" في مارس عام 1954، وفي نوفمبر 1954 بدأت الجبهة أعمالها.. وبدأت الثورة الجزائرية انطلاقتها.

"1" أحمد بن بلة.. حديقة الثورة

جاء "أحمد بن بلة" رمزًا للثورة الجزائرية، وقبلهما كانت الجزائر بلدًا محتلاً تقوم هويته على الدين، فلم تكن الدولة حاضرة أبدًا في تاريخ الجزائر، بل كان الدين هو قاعدة الهوية وسماء المجتمع.

جاء "بن بلة" والثوار الجزائريون على شعب بلا دولة، وعلى وطن يذوب مواطنوه بين المستعمر وشدائد الحياة.

جاءوا جميعًا بالثورة، ثم جاءت الثورة بالدولة.. ثم مضت السنون ليحاول المخلصون إبقاء روح الثورة وحماية بناء الدولة.

وُلد "أحمد بن بلة" عام 1916، ودخل الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي عام 1937، وخرج منه عام 1940، وفي عام 1937 تم استدعاؤه مجددًا للخدمة العسكرية، وقاتل عن الجيش الفرنسي في الحرب العالمية الثانية، واستحق عن أدائه أوسمة نال أحدها من الزعيم الفرنسي "شارل ديجول".

وحين انتهت الحرب العالمية الثانية، خرج الجزائريون في 8 مايو 1945 يحتفلون بنهاية الحرب ويطالبون بالاستقلال، وعلى الرغم من أن فرنسا قد لاقت هزيمة مهينة أمام ألمانيا وراحت كل أراضيها تحت حكم "هتلر" وخرجت من معارك الحرب بخسارة لا حدود لها وبدت باريس في الحرب العالمية الثانية مثل قرية تواجه جيشًا لم يجد معاناة في احتلالها، فإن الجيش الفرنسي الذي لقيّ هذه الإهانة من قِبَل الجيش الألماني وتلقى درسًا في معنى الاحتلال وفقدان الحرية وإهانة الشعوب، سرعان ما نسي الأمر، وكأن الهزيمة والعبرة كانتا تخصان بلدًا آخر وجيشًا آخر.

ولما كان احتفال الجزائريين بنهاية الحرب ومطالبتهم بالاستقلال، ارتكب الفرنسيون مجزرة أليمة بحق الشعب الجزائري راح ضحيتها "45" ألف جزائري!

وكانت المذبحة تلك من بين الأسباب الأقوى لقبول فكرة المقاومة المسلحة وخوض حرب التحرير. هنا رفض "أحمد بن بلة" عرضًا بأن يعمل ضابطًا في الجيش الجزائري بعد نهاية الحرب، وخرج نهائيًّا من الخدمة العسكرية، وانضم في العام نفسه إلى حزب الشعب الجزائري، برئاسة الزعيم الوطني الجزائري "مصالي الحاج".

وفي عام 1947، تولى "بن بلة" رئاسة المنظمة العسكرية السرية التابعة للحزب، واسمها "المنظمة الخاصة"، لكنه سرعان ما تم إلقاء القبض عليه وإدخاله السجن بعد أن حُكم عليه بسبع سنوات.

هرب "بن بلة" من السجن ورحل إلى مصر في أغسطس عام 1953، وبعد شهر من إقامته في مصر التقى "جمال عبد الناصر" للمرة الأولى بواسطة ضابط مصري.

وكان "فتحي الديب" – أحد مؤسسي جهاز المخابرات العامة المصرية – وكذلك "زكريا محيي الدين" – أول رئيس للجهاز – و"على صبري" هم ضباط الاتصال معه.

ومنذ اللحظة كانت القاهرة موطن انطلاقة الثورة الجزائرية، وكان "بن بلة" وكذلك "حسين آيت أحمد" – السياسي الجزائري – و"عبد الكريم الخطابي" – مسئول الإعداد لتحرير المغرب العربي – موجودين في مقر الثوار الجزائريين في شارع عبد الخالق ثروت بالقاهرة.

وكالعادة في خلايا الثورات والمنظمات النضالية، كانت الانشقاقات والتغيرات تجري باستمرار؛ فمن حزب الشعب برئاسة الزعيم الوطني "مصالي الحاج" إلى "حركة انتصار الحريات الديمقراطية"، إلى جناحين للحركة وجناح ثالث باسم

"اللجنة الثورية للوحدة والعمل" إلى أن كان الاجتماع التاريخي لهذه اللجنة في 23 أكتوبر 1954 في القاهرة لتغيير اسمها إلى الاسم الذي لا يزال إلى الآن: "جبهة التحرير الوطني" الجزائرية.

وتم تحديد الأول من نوفمبر عام 1954 موعدًا لبدء الثورة الجزائرية، وفي الموعد المحدد شنَّ الثوار ثلاثين هجومًا بينما كانت إذاعة صوت العرب تبث بيان "الأول من نوفمبر" تعلن قيام الثورة الجزائرية.

وخلال عامين، كانت الثورة الجزائرية تمضي في بلائها الحسن بلا انقطاع، وفي عام 1956 حدثت ثلاثة تطورات أساسية؛ حدث أن أرغم سلاح الجو الفرنسي طائرة مغربية كانت تتجه إلى تونس على الهبوط واعتقل خمسة من ركابها من قادة الثورة، بمن فيهم "بن بلة"، وهنا سطع نجم "بن بلة" زعيمًا وطنيًّا.

وحدث أن أعلن السياسي الجزائري الأشهر "فرحات عباس" حلَّ حزبه السياسي والالتحاق بجبهة التحرير الجزائرية التي وحَّدت الاتجاهات السياسية الجزائرية، وهو تطور رفع من المكانة الدولية لجبهة التحرير التي سرعان ما وصلت إلى الأعلى باعتبارها الممثل الوحيد عالميًّا للثورة الجزائرية، وذلك في مؤتمر باندونج لدول عدم الانحياز في عام 1956.

وحدث أيضًا أن تشكلت ثلاث حكومات جزائرية في المنفى: حكومة "فرحات عباس"، وحكومة "يوسف بن خدة" الأولى، ثم حكومة "يوسف بن خدة" الثانية. والحكومة الأخيرة هي التي وقَّعت معاهدة إيفيان مع فرنسا في 18 مارس عام 1962 لتستقل الجزائر بعد "130" عامًا من الاستعمار الفرنسي في السابع من يوليو عام 1962.

حين وضعت الثورة أوزارها، كانت هناك ثلاث قوى ثورية مسلحة: جماعة "تلمسان" بقيادة "أحمد بن بلة"، وجماعة "تيزي أوزو" بزعامة "حسين آيت أحمد"،

والحكومة المؤقتة برئاسة "يوسف بن خدة". وبتأييد جيش التحرير ومعظم الولايات لجماعة "تلمسان"، دخلت قواتها العاصمة واستولت على السلطة في الثالث من أغسطس عام 1962. وفي الشهر التالي تم انتخاب "بن بلة" رئيسًا لأول حكومة وطنية مستقلة وفيها "عبد العزيز بوتفليقة" وزيرًا للخارجية.. وفي يونيو 1965 قامت الثورة بإنهاء حكم "بن بلة" وخوض الطريق بعيدًا عنه.. وكان ابتعاد "بن بلة" هو نهاية للثورة وبداية للدولة.. أو هكذا تم الاعتقاد.

* * *

لا يحظى الرئيس الجزائري الأول "أحمد بن بلة" بمثل ما يحظى به الرئيس الثاني "هواري بومدين" من شعبية وانتشار داخل بلادهما، غير أن شهرة "بن بلة" خارج الجزائر لا تقارن بها شهرة "بومدين" ولا أي زعيم جزائري آخر في العصر الحديث.

وهنا تكمن إحدى المفارقات الكبرى في نظرية الثورة على وجه العموم؛ فالثوار المناضلون الذين يبدأون حياتهم مقدِّمين الموت على الحياة وحاملين أكفانهم في كل لحظة وغير آملين في عودة أخرى بعد كل جولة، لا يكون من نصيبهم الشهرة والذيوع والإجلال الذي يحظى به الجناح السياسي للثورة، حتى ليبدو للعالم وكأن السياسيين والإعلاميين والممثلين الدبلوماسيين للحركات الثورية وحركات التحرير هم القادة الحقيقيون في الميدان، وأنهم الذين حكموا بعد أن ضحوا، وأداروا السلطة بعد أن كانوا على وشك الرحيل في لحظات القتال.

ثم يبدو أيضًا وكأن الثوار الحقيقيين والشهداء الناجين من القتل والمنتصرين في المعارك مجرد أرقام وأنفار في تاريخ الثورة، أو كأنهم خلفية بشرية زاهية لا يظهرون إلا في أعياد الاستقلال وفي الاجتماعات السنوية لجمعيات المحاربين القدماء. وهنا أيضًا يكمن ذلك السيناريو المتكرر.. انقلاب الثوريين الحركيين على

الثوريين النظريين، أو انقلاب الجنرالات على الساسة والجيش على السياسة.

ويمثل سيناريو انقلاب "بومدين" على "بن بلة" نموذجًا لتلك المفارقة؛ حيث أحس "بومدين" ورفاقه المقاتلون بأن السياسيين قد سرقوا الثورة، وأن العالم إذ يحتفي فإنه يحتفي بأصحاب الياقات البيضاء الذين يتحدثون عن الاستعمار والنضال أكثر مما أسهموا في حرب التحرير ووقائع القتال.

وحيث لا يحتفي العالم إلا بالرؤساء ورجالاتهم، لا بالمجاهدين في خنادقهم ولا بساحات الجندي المجهول، فإن شعور المقاتلين بالحاجة إلى إعادة الثورة المسروقة وإعطاء السلطة لمن بذل الجهد فيها.. يصبح ضرورة نفسية.

وما جرى في الجزائر هو تطبيق لذلك على مرحلتين: مرحلة إقصاء "بن بلة" ورجاله للتيار الوطني الإصلاحي، ثم مرحلة إقصاء "بومدين" ورجاله للرئيس "بن بلة" والثوريين الأوائل.

* * *

لقد أسكت "بن بلة" صوت الإصلاح السياسي لصالح الثورة، وأسكت "بومدين" صوت الثورة لصالح الدولة.. إلى أن جاء "الشاذلي بن جديد" تاركًا صوتًا واحدًا، هو السلطة، بعد أن سكت صوتا الثورة والدولة.

ويُذكِّر ناقدو عصر الرئيس الجزائري الأول بأن "بن بلة" – الذي انتخبته الجمعية الوطنية الأولى عام 1962 برئاسة "فرحات عباس" رئيسًا لأول حكومة وطنية مستقلة – قد وعد بإعطاء الجمعية السيادة المطلقة في وضع الدستور واحترام الحريات ومسئوليتها على نحو كامل.

لكن "بن بلة" عاد وأخلف وعده، وأعطى السلطة لجبهة التحرير لا للجمعية الوطنية، أي أنه أعطاها للجيش لا للشعب.

لم يكن "بن بلة" ممن يمنحون "فرحات عباس" التقدير الكافي، وكان يرى أنه ذو فضل عليه، على الرغم من أنه لم يكن ثوريًا ولا وطنيًا قبل الثورة. وعلى ذلك يرى "بن بلة" أن قراره كان صائبًا.. ويشرح ذلك على النحو التالي: "إن جبهة التحرير هي الأساس، بل هي البرلمان أيضًا لا الجمعية الوطنية، والحزب هو الذي عليه عمل الدستور لا الجمعية، وبعد عمل الدستور توافق الجمعية عليه. أما رئيس الجمعية فرحات عباس فأنا الذي عيّنته في المكتب السياسي.

وقد كان من رأي فرحات عباس أن الجزائر ليست موجودة، ويقول إنه فتش عن الجزائر في المقابر وفي التاريخ فلم يجد لها وجودًا، ثم إنه طلب الجنسية الفرنسية، أما جبهة التحرير فهي التي أخرجت فرنسا، وفيها تمثل كل التيارات؛ لذا كان من حقها أن تضع الدستور وتحكم، لا أن يكون فرحات عباس الذي لم تكن له أغلبية برلمانية هو من يقوم بذلك.

لقد التحق بنا فرحات عباس عام 1956، والحكومة المؤقتة برئاسته بدلاً من أن تعمل شيئًا مخالفًا لشارل ديجول، عملت العكس، كانت حكومة فرحات عباس تأخذ الطلبة خريجي الجامعات الفرنسية وذوي اللغة الفرنسية، وذلك لتأسيس الدولة الجزائرية بالفرنسية، وكان ديجول في العام نفسه "1958" يعد جهازًا إداريًا ضخمًا يحل محل الإدارة الاستعمارية السابقة من خريجي الجامعات الفرنسية".

والواقع أن ما يذكره الرئيس "بن بلة" عن السياسي الإصلاحي "فرحات عباس" هو صحيح، غير أنه غير دقيق؛ فقد كان "فرحات عباس" ذات يوم يرى أن الجزائر خرافة، لكنه رجع عن قوله لاحقًا وأسهم في قيادة الحركة الوطنية نحو الاستقلال.

تذكر المصادر أن "فرحات عباس" قد مر بثلاث مراحل سياسية.. في الأولى كان يدعو إلى مساواة الجزائريين بالفرنسيين في الحقوق والواجبات في إطار الدولة

الفرنسية. لم يكن وقتها مؤمنًا بالجزائر ولا يرى غير فرنسا بلدًا للشعبين، وفي عام 1936 كتب يقول: "إن الجزائر كوطن وأمة هي خرافة لا وجود لها".. "لقد سألت التاريخ والأحياء والأموات والمقابر.. ولم يحدثني أحد عن هذه الأمة والوطن"!

وفي المرحلة الثانية، تراجع "فرحات عباس" وصار يدعو لاستقلال الجزائر رسميًّا، وصاغ عام 1943 مع الزعيمين الوطنيين الكبيرين "مصالي الحاج" – رئيس حزب الشعب – و"البشير الإبراهيمي" – رئيس جمعية العلماء المسلمين – "البيان الجزائري" الذي ينادي باستقلال الجزائر وتقرير مصيرها.

وفي المرحلة الثالثة، انضم إلى جبهة التحرير الوطنية التي أعلنت الثورة على الاستعمار، وعُيِّن عضوًا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية عام 1956، ثم ترأس أول حكومة جزائرية مؤقتة في المنفى عام 1958، وبعد الاستقلال صار أول رئيس للجمعية الوطنية "البرلمان".. إلى أن استقال وعارض "بن بلة"، ثم استمر معارضا لـ"بومدين" ومكث بعيدًا عن الثورة والدولة.. إلى أن توفي عام 1985.

* * *

وإذا كان "بن بلة" في مراجعاته لعصر الثورة لا يبدي راحة إزاء "فرحات عباس" مجترًّا من الذاكرة مرحلته الأولى تاركًا تطوره السياسي والوطني فيما بعد، فإن "بن بلة" لا يفعل الشيء نفسه مع الزعيم الإصلاحي "مصالي الحاج"؛ ذلك أن "بن بلة" هو تلميذ في مدرسة "مصالي الحاج" الوطنية.

فقد تخرج في حزب الشعب الذي كان يترأسه "مصالي الحاج"، وقد حدث الاختلاف حين أقرت اللجنة المركزية للحزب النضال السلمي ضد فرنسا، على اعتبار أن الثورة لم يحِن وقتها بعدُ، وأنها لو بدأت الآن لكانت مغامرة ولفشلت المساعي الجزائرية للاستقلال.

ويقول "أحمد سويسي" – المستشار الخاص لـ"بن بلة"–: "إن الرئيس بن بلة يحترم مصالي الحاج كثيرًا، وكان أول من زاره بعد أن خرج من السجن؛ ذلك أن بن بلة يدرك جيدًا أن مصالي الحاج كان مع الثورة، وكان رأيه ضد رأي اللجنة المركزية للحزب، التي يترأسها، وكان الفرنسيون قد اخترقوا اللجنة وأقنعوها بفكرة النضال السلمي.

إن بن بلة يدرك هذه التفرقة جيدًا، وهو يختلف مع مصالي في أمور كثيرة، لكنه لا يرى أنه تعاون مع الفرنسيين.. كان مصالي الحاج يريد الحفاظ على وحدة الحزب، وهذا سبب سوء التقدير له، والآن هناك إعادة اعتبار له.. وبن بلة يفعل ذلك بنفسه". ويقول "بن بلة": "أنا أحترم مصالي الحاج، وهو رجل عظيم، وأنا ابن النظام الوطني".

لقد عاش "مصالي الحاج" – الثوري والإصلاحي معًا – أوقاتًا عصيبة، واتهمه البعض بالخيانة، لكنه مضى في طريقه إلى أن مات لاحقًا في فرنسا.

وعن بقية الرفاق يقول "بن بلة": "كان حسين آيت أحمد رجلاً فاضلاً، وكان معي في الثورة، لكنه يقف وراء مصيبة الأمازيغية.. وقد راح إلى فرنسا من أجل ذلك".

"أما محمد بو ضياف – الذي تولى الرئاسة ثم اغتيل فيما بعد – فقد شكَّل حزبًا ماويًا، وأنا لم أقبض عليه، لكنه كان رهن الإقامة الجبرية، وقد هرب لاحقًا.. وهو رجل فاضل.. ولكن كانت نقيصته أنه جاء بأفكار ماركسية في بلد مسلم تمامًا".

"وأما بوتفليقة، فقد كان من الذين أدخلوني السجن، ثم سلَّمني وهو رئيس أعلى وسام جزائري".

ويشرح "بن بلة" سبب شهرته التي فاقمت العلاقة بين الساسة والجنرالات، أو بين وجه الثورة وباطنها.. يقول: "لم أكن أفكر أن أعيش أو أكون رئيسًا أو

مشهورًا.. معظم من كانوا معي استشهدوا.. إن من أعطاني الشهرة هو العدو".

وعن سيطرة جماعته على السلطة بعد نجاح الثورة، يقول "بن بلة": "لولا التزام الحكومة المؤقتة عدم المقاومة، لكانت حربًا أهلية بين الجيش والحكومة المؤقتة، لكنها كانت حكومة ضعيفة وغير قادرة على القتال، لم تحدث أي مواجهات، ودخلنا العاصمة وكلهم موجودون".. "وأما عن التعددية والحزب الواحد، فلم يكن مطروحًا – وقت ذاك – التعددية السياسية، كانت الجبهة فيها تيارات سياسية، وكان جهاز الثورة فيه كل القوى الثورية، لكننا كان يهمنا في ذلك الوقت جهاز الدولة، لا الثورة".

* * *

وهكذا تبدو الصورة كالتالي: فكرة الثورة انتصرت على فكرة النضال السلمي، ما أطاح بنفوذ حزب الشعب وبنفوذ زعيمه "مصالي الحاج"، أحد الرواد الكبار للحركة الوطنية الجزائرية.

ولما قامت الثورة احتاجت يد العون ممن اختاروا التحول إلى الأفكار الوطنية الثورية.. فاحتفت الثورة بـ"فرحات عباس" الذي ترأس أول حكومة مؤقتة، التي كانت بداية تأسيس للدولة الجزائرية، وقد حظيت باعتراف الصين، وأحس الجزائريون معها أن لهم حكومة لا مجرد حزب تحرير.

ولما نجحت الثورة رأت أنه لا حاجة لمن دخلوا الثورة متأخرًا، ولا للذين كان لوجودهم سند سياسي كبير دون أن تكون لهد قدم في ميادين القتال، وعُومل "فرحات عباس" كالمؤلَّفة قلوبهم أو الذين أسلموا من بعد الفتح، وكان استذكار مرحلة الجاهلية أمرًا أساسيًّا في فكر الثورة التي أرادت إزاحتهم بدعوى أنهم من الثوريين المتأخرين أو أنهم كانوا ذات يوم عند رأي آخر.

ولما استقرت الثورة أخذت طريقها إلى اليسار، لكنها لم تقبل اجتهادًا يساريًّا آخر مثل التيار الماوي ممثلاً في "محمد بو ضياف" وتيارات يسارية أخرى.

إذًا فقد بقي "بن بلة" في الساحة، وراح المشروع الإصلاحي أو إرهاصاته مما كان يمكن أن يمثله ويطوره ساسة مثل "مصالي الحاج" و"فرحات عباس".

لكن الثورة – التي صمدت في الداخل على الرغم من تقطيعها المستمر لأطرافها – كانت تصطدم في الخارج بما هو أشد وأقوى.. كان العالم خارج النوافذ يعج بالحركة ولم تكن الثورة الوليدة الجانحة قادرة على المرور أو السيطرة.

* * *

عانت الثورة الجزائرية في الداخلِ الاشتباكَ بين الجيش والسياسة، وعانت في الخارجِ طموحَها الكبير الذي اصطدم بعالم معقَّد وعنيف.

وقد كان منطق الثورة في الخروج منطقًا مفهومًا؛ فالاستقلال لا يعني البناء، والبناء ليس شأنًا داخليًّا فحسب، بل هو جزء من عالم يمتلئ بنظريات الهدم والتشييد.. وبحشد من المقاولين الذين لا يكترثون كثيرًا لمفهوم الوطن.

ومثل اليسار عمومًا، ومثل الثورات الشقيقة.. رأت الثورة الجزائرية أن الحل يكمن في الاشتباك مع النظام العالمي.. وحيث لا فرصة لصادرات الإنتاج أن تدعم الاشتباك فكان الطريق إلى صادرات الغضب.

سألت الرئيس "أحمد بن بلة" عن معالم الطريق فقال: "خرجنا من الثورة بدولة.. علم ونشيد ورمز.. لكن وجهًا لوجه مع النظام العالمي بلا أي قدرة، وعلى الرغم من ذلك قررنا أن تستمر الجزائر وأن تدعم الآخرين، وقد حدث".

"كان واضحًا أن الجزائر ناقصة الاستقلال على الرغم من الاستقلال، إن اتفاقية "إيفيان" مع فرنسا جعلت كل الممتلكات الفرنسية لا تمس.. فماذا نفعل؟

عملنا سياسة التسيير الذاتي، لكن النظام العالمي لا يوافق على التسيير الذاتي.. فماذا نفعل مرة أخرى؟".

"لقد أرجعنا الأرض بالتأميم.. لكن كيف نبني البيت؟ طرحت الأسئلة على نفسي، إنها الأسئلة التي كانت مطروحة عند جمال عبد الناصر، كان تيتو في يوغوسلافيا يتصور أن بإمكانه أن يعمل فردوسًا أرضيًّا بمفرده، وهذا لم يكن ممكنًا".

"لقد أعطت باندونج "1" الحرية والاستقلال، لكن السؤال: كيف ندير مرحلة الاستقلال؟ ماذا نفعل بعد الحرية؟ لذا دعونا إلى باندونج "2" لنعرف كيف نواجه هذا النظام العالمي.. كانت باندونج "1" في إندونيسيا، وأعددنا لباندونج "2" في الجزائر؛ لأن الوضع الدولي القائم لا يسمح بتنمية حقيقية".

"كانت باندونج "1" لإرجاع الأرض، وقد رجعت.. وماذا بعدُ؟ ويا ويل الذين يسألون هذا السؤال: وماذا بعدُ؟ ويا ويله الذي يملك مقومات للإجابة: غاز أو بترول؛ فالغرب يريد هذه المقومات. إذًا ما الحل؟ فأنت عندك ذلك، وليست عندك تكنولوجيا، والذين عندهم تكنولوجيا لن يعطوك شيئًا.. إذًا فطريقك هو الاستدانة وأن تدخل في مشكلة تبعية ومديونية".

"باختصار شديد.. لقد عانينا سبع سنوات ونصف السنة حربًا، قُتل منا "1.5" مليون شهيد، دمروا لنا "9" آلاف قرية، وأخذوا نصف مليون سجين ونصف مليون مهاجر، ولدينا "2.5" مليون مستوطن موجودون في الجزائر وممنوع علينا دخول أماكنهم، لم يكن هناك بترول، وفرنسا تركت لنا شيئًا تافهًا.. شيئًا لا يطاق!

نحن ثورة أتت وبذلت الكثير، بذلنا الكثير من أجل كرامتنا أولاً، لقد منعنا التسول تمامًا، منعنا ماسحي الأحذية، وإلى الآن لا يوجد في الجزائر ماسح حذاء، وعندما حاولنا الانتقال من صون كرامتنا إلى ضمان نجاحنا في الحياة.. لم يسمح لنا العالم بذلك.. ليس مسموحًا لك بالمزيد".

وإذا كانت الثورة الجزائرية قد نجحت في امتحان الحرية على نحو ما ذكر الرئيس "بن بلة"، فإن امتحان التنمية كان قاسيًا؛ فمفاتيح التنمية كانت في الخارج، أو هكذا رأت الثورة، والخارج إذا كان قد أجاز امتحان الحرية رغم أنفه، فإنه لم يكن ليسمح باجتياز امتحان التنمية.

كان طموح "بن بلة" وزعماء مرحلة الاستقلال أن تكون باندونج "2" في الجزائر أساسًا لنظام اقتصادي عالمي جديد، بمثل ما كانت حقبة الثورات والتحرر الوطني أساسًا لنظام سياسي عالمي جديد، وكان ينبغي أن يكون يوم 21 يونيو 1965 موعدًا لذلك النظام الجديد.

لكن النظام لم يأتِ، والرئيس "بن بلة" لم يستمر.. تمت الإطاحة بالرئيس ولم تنعقد باندونج "2" وجاء "بومدين" إلى السلطة.

* * *

يذكر الرئيس "بن بلة" أن الإطاحة به كان سببها الأول هو ذلك النظام الاقتصادي العالمي الذي أراد، وأنه بعد الإطاحة به تمت الإطاحة بآخرين في موجة انقلابية معادية للثورات شملت "22" انقلابًا عسكريًّا، من بينها الانقلاب الذي أطاح بـ"سوكارنو" في إندونيسيا.

يقول "بن بلة": "لو لم يفعلها بومدين لأطاح بي شخص آخر؛ لأنه ممنوع قيام كتلة معادية للغرب.. وحتى الاتحاد السوفيتي كان يرى في قيام باندونج "2" مشكلة له، كانت موسكو ترى قيام حركة ضد الغرب، لكن ليست كتلة ثالثة بين الكتلتين، كان الاتحاد السوفيتي يبحث عن حليف قوي لا قطب ثالث.. وقد كان هذا خطأً كبيرًا من الاتحاد السوفيتي".

ويقول "أحمد سويسي"، مستشار "بن بلة" في المنفى: "لقد مثّل بومدين حركة الانكفاء المطلوبة للجزائر.. وبعد أن اهتزت علاقة الجزائر بمصر، قام بومدين

بالخطيئة الأساسية: الانكفاء، أي وضع الثورة في قمقم"!

"كان الخلاف بين بومدين وبن بلة جوهريًّا، وهو يشبه الخلاف بين جيفارا وكاسترو.. كان حول الثورة والدولة. كان بن بلة جزءًا من حركة دولية، ولديه أفق دولي، وكان يعتقد مع عبد الناصر أن النظام الدولي لا يسمح بالحركة بعيدًا عن الاستقلال".

"حاول عبد الناصر وتيتو ونهرو وسوكارنو وشواين لاي، ومعهم بن بلة، أن يجعلوا من العالم الثالث قوة ثالثة في العالم. كانوا يريدون بناء ذلك، كانوا يريدون بناء نظام عالمي جديد، وهذا ما أفشله انقلاب بومدين. وقد لاقى بومدين تأييدًا من الولايات المتحدة وفرنسا والقوى الغربية الذين اعترفوا بنظام بومدين.. هم أحسوا بأهمية حركة بومدين في تحقيق أهدافهم، ولو لم يكن بومدين قد فعل ذلك لفعلها غيره. كذلك كانت حرب 1967 في مصر جزءًا من هذا السياق".

"كان عبد الناصر محاصَرًا، وكان كلُّ حلفائه محاصَرين.. من سوكارنو في إندونيسيا إلى نكروما في غانا، ومن موبيكيتا وحتى شواين لاي في الصين.. كان هذا الفكر النظري كله موضع حصار".

"كان شواين لاي يرى أن تكون الصين قوة لنظام جديد لا قوة في النظام القائم، لكن الصين تعمل الآن من داخل النظام لا من خارجه، وإذا حققت منافسة مع الولايات المتحدة فهي من داخل النظام العالمي ذاته.. مثلما كان الحال بين فرنسا وبريطانيا داخل العصر الاستعماري. وإذا كان شواين لاي جزءًا من نظرية عدم الانحياز ومثّل رحيله خسارة كبرى لفكرة القوة الثالثة.. فإن الاتحاد السوفيتي وجميع الأحزاب الشيوعية في العالم كانت ضد عدم الانحياز".

* * *

على أي حـال، فقـد سـلك الـرئيس "بـن بلـة" طريقـه إلى الـسجن، وأطاحـت الانقلابات المتناثرة بالثوريين الأوائل في كل مكان، وجاء الجيل الثـاني مـن الثـورات العربية.. لينقل الثورة إلى الدولة.. ولتبدأ معه مسيرة الانهيار!

* * *

"2" هواري بومدين.. أشواك الثورة

جاء الرئيس "هواري بومدين" إلى السلطة بانقلاب على الرئيس "بن بلة" في 19 يونيو عام 1965، ولزم الرئيس السابق مقر إقامته الجبرية إلى حين خروجه راويًا وحاكيًا ما رأى وما يرى؛ حيث تذكر المصادر أن الرئيس "هواري بومدين" – واسمه الحقيقي "محمد بو خروبة" – قد وُلد في ولاية عنابة في الشرق الجزائري عام 1932، أو عام 1925، لأسرة ريفية غير ميسورة.

وقد ذهب في الرابعة عشرة من عمره إلى قسنطينة للتعلم، وتم تسجيله في مدرسة قرآنية يشرف عليها أنصار "مصالي الحاج" – زعيم حزب الشعب.

مر "هواري بومدين" بتونس، ثم عاش أربع سنوات في مصر ابتداءً من 1949، تابع خلالها دروسًا في جامعة الأزهر، ودروسًا مسائية في إحدى المدارس الثانوية بالقاهرة.

وفي مصر، استهوته حركة الإخوان المسلمين، لكنه لم يذهب بعيدًا في ذلك، كما اهتم بأفكار البعثيين، غير أنه كان سريع التعب من المناقشات الفلسفية.

وفي عام 1951 جاء إلى القاهرة "محمد خيضر" – وهو أحد القادة التاريخيين لجبهة التحرير الوطني – فأمر "بن بلة" بأن يكون "خيضر" مسئولاً عن الوفد الخارجي، وأن يتولى "محمد بو خروبة" "هواري بومدين" إرسال أسلحة إلى الجزائر. وفيما بعدُ اعتُقل "خيضر" مع "بن بلة" عام 1956، وفي عهد الاستقلال تولى مسئولية جبهة التحرير، ثم تم اغتياله في مدريد عام 1970.

جاء عام 1955 محبطًا؛ فقد هدأت الانتفاضتان التونسية والمغربية، وحصلت تونس على الاستقلال، وعاد الملك "محمد الخامس" إلى عرشه، وفي هذا العام قاد

"محمد بو خروبة" مجموعة قرب الحدود المغربية – الجزائرية، وهنا غيّر اسمه إلى "هواري بومدين".

و"هواري" اسم شائع في وهران، و"بومدين" اسم ولي المسجد الكبير في تلمسان، وتغيير الاسم يترتب عليه إتلاف كل وثائق الهوية، ما يصعِّب على الإدارة الفرنسية التعرف على هوية الأشخاص، ويظل المناضل هكذا إلى أن يسترجع هويته بعد الاستقلال. وحين كان "بومدين" يقود هذه المجموعة كان "محمد بو ضياف" و"كريم بلقاسم" و"العربي بن مهيدي" هم قادة الثورة في الداخل.

في عام 1957 أصبح "بومدين" مسئولاً عن الولاية الخامسة "قرب وهران" وأصبح عقيدًا وعمره 25 عامًا. وفي عام 1960 أصبح قائد القوات المسلحة لجيش التحرير الوطني.

إن صعود "بومدين" عسكريًّا على هذا النحو إلى حين إطاحته بالحكومة المؤقتة عام 1962 فيما يسميه البعضُ الانقلابَ العسكريَّ الأول لـ"بومدين"، ثم إطاحته بالرئيس "بن بلة" في الانقلاب العسكري الثاني، قد أثارا شكوك بعض المحللين حول "بومدين" وحقيقة دوره.

* * *

وفي شهادة الرائد "الأخضر بو رقعة" – أحد القادة العسكريين في الولاية الرابعة، ضمَّنها كتابه "شاهد على اغتيال ثورة"، وقد نُشر الكتاب في بداية التسعينيات ولم يُطبع بعدها – يثير "الأخضر بو رقعة" اللغط حول دور "بومدين" ودور "جيش الحدود" الذي كان قائدًا له. ويذهب شاهد الاغتيال – حسب وصفه لدوره – إلى أن "بومدين" كان يقتل الثوار الجزائريين بغير اكتراث وأنه قد صعد في الجيش والسلطة صعودًا مريبًا.

يقول "الأخضر بو رقعة": "لقد منع جيش الحدود، أو ما كان يُعرف رسميًّا بأركان الجيش، المنتشر في تونس، الأسلحة الموجَّهة إلى مقاتلي الولاية الرابعة عن طريق البحر. وحصل أن أُعدم معظم الجنود الذين كانوا يوفدون إلى تونس مخاطرين بأنفسهم؛ حيث يخترقون الأسلاك المكهربة، من أجل استقدام السلاح ونقله إلى الولاية الرابعة، وكان جيش الحدود، الذي يترأسه بومدين، هو الذي يصدر أحكام الإعدام بعد محاكمات متسرعة بناء على تهم واهية".

"أما حالة جيش التحرير في الداخل فقد كانت حالةً يُرثى لها، ووصل الأمر إلى الحصار الشامل، من العدو أولاً ثم من جماعة جيش الحدود ثانيًا، وحصل أن واصل البعض القتال حافي القدمين ولا يقتات إلا من الأعشاب".

"لا أحد كان يتوقع الصعود المثير لقوة ونفوذ بومدين على رأس جيش الحدود، وانتقاله فجأة من الشرق إلى الغرب – في المغرب قريبًا من الحدود مع الجزائر – وذلك عشية التوصل إلى اتفاقية إيفيان وقرار وقف إطلاق النار يوم 19 مارس 1962؛ حيث تحالف مع ضباط الغرب الجزائري، وكان بومدين مستعدًّا للاستيلاء على السلطة في الجزائر على حساب الحكومة المؤقتة برئاسة يوسف بن خدة، الذي فضل التنازل بدلاً من الدخول في حرب أهلية".

"كانت المواجهات ستتوسع لو أصر أنصار الحكومة المؤقتة على عدم التنازل عن الشرعية والتسليم بأول انقلاب عسكري مموَّه، وقد حال بينهم وبين خروج الشعب إلى الشوارع صارخًا "سبع سنين بركات"، أي: سبع سنوات حرب مع الاستعمار.. هذا يكفي!".

وما يدعم شكوكًا كهذه، موقف الرئيس "بومدين" ممن يسمون "ضباط فرنسا" ويُقصد بهم الضباط ذوو الأصل الجزائري العاملون في الجيش الفرنسي، الذين عادوا للعمل في جبهة التحرير، وطغى نفوذهم في سنوات حكم "بومدين"، وهم الذين أداروا

الأمور بعد استقالة "الشاذلي بن جديد" عام 1992.

وحسب بعض المصادر، فقد احتفظ الضباط الجزائريون في جيش جبهة التحرير بغيظ تجاه "ضباط فرنسا"، خاصة أنهم شاهدوا بأعينهم ثمرة الاستقلال تتهاوى تحت وطأة تحالف جيش الحدود سابقًا برئاسة "بومدين" وبين "ضباط فرنسا" الذين التحقوا بجيش التحرير في سنوات الحرب الأخيرة وانضم بعضهم إلى الصفوف عشية إبرام اتفاقية إيفيان مع فرنسا.

وتذهب بعض الكتابات بعيدًا، فترى أن محاولة انقلاب "طاهر زبيري" – رئيس أركان الجيش في ديسمبر عام 1967 – التي أسفرت عن مقتل ألف شخص بعد أن تدخل سلاح الجو وأفشل المحاولة.. أنها جاءت ردًّا على تهميش نظام "بومدين" لضباط جيش التحرير وإفساحه المجال لضباط فرنسا، وتصل الكتابات في هذا الأمر إلى حد اتهام "ضباط فرنسا" بتدبير اغتيالات ضباط حرب التحرير مثل العقيد "سعيد عبيد" في البليدة والعقيد "عباس" و"محمد خيضر" في مدريد.

* * *

وبالعودة إلى شهادة الضابط "بو رقعة"، الذي ربط ذلك كله في إطار تخويني للرئيس "بومدين"، فمن الصعب قبول شهادته في رسالتها العامة؛ ذلك أن التفاصيل وإن كانت صحيحة في بعضها، فإنها غير دقيقة في أخراها، فإن الرسالة تكاد تتهم "بومدين" بخيانته الثورة، وهي رسالة غريبة ومنكرة على وجه الإجمال.

فإذا كان "بومدين" قد انتقل بجيش الحدود من الشرق إلى أقصى الغرب، فإنها ليست المرة الأولى له، وقد ذكرنا أنه قام بأولى عملياته الأساسية في المكان نفسه من الحدود المغربية – الجزائرية عام 1955، قادمًا من القاهرة، وهي العملية التي تحول فيها اسمه إلى "بومدين".

ثم إن هدف السلطة نفسه، واعتبار الثوار الذين دفعوا الثمن لأنفسهم بأنهم الأولى بالسلطة من غيرهم في الجناح السياسي المترف، هما أمران يفتقدان الكمال، غير أنهما اتساق كامل مع الطبيعة البشرية وطبائع السياسة.. فالصراع على السلطة أمر مكروه ولكنه مشروع، وهو لا يشير إلى خيانة أو فساد قدر ما يشير في حال خطئه إلى سوء تدبير وتفكير.

أما ملف "ضباط فرنسا"، فإن هؤلاء في نهاية المطاف ضباط جزائريون، ثم إن ما تمتعوا به من نفوذ زائد قد يعود، فضلاً عن دعم "بومدين"، إلى كفاءتهم العامة وإلمامهم بشئون الإدارة والمعرفة الحديثة. وربما كانت الطبيعة الغامضة للرئيس "بومدين" هي الداعية إلى مثل هذا الاجتهاد الخاطئ في الرأي والرؤية.

وحسب تعبير صحيفة "لوموند" "5 سبتمبر 1962"، بعنوان "المجهول بومدين"، فإنه كان "من الشخصيات الأكثر غموضًا في السلك السياسي العسكري لجبهة التحرير الوطني".. "إنه رجل كتوم.. يفشل كل الأقاويل والشائعات، ويعرف كيف يجعل ما يُقال عن حياته لا يتجاوز جانبها العمومي".. "لا يعرف عن ماضيه كمناضل إلا الشيء القليل، وكذلك عن حياته وسماته.. ليس إلا كتابات متفرقة وقصيرة للغاية".

وفي عبارة واحدة، وصف أحدهم "بومدين" بأنه كان "متحفظًا كتومًا خجولاً معتزلاً"! وفي كلمة واحدة فقد كان الرئيس "بومدين": "جزائريًّا".. إنه لم يذهب إلى فرنسا، ولم يتعلم في المدارس الفرنسية، وحتى الحي اللاتيني الشهير في باريس الذي خرج منه الثوريون لم يدخله ذات يوم، كان "بومدين" أقل الزعماء الجزائريين باريسية؛ فقد نظر إلى الجزائر انطلاقًا من الجزائر نفسها.

* * *

كان "بومدين" هو الرجل القوي حتى في ظل حكم الرئيس "بن بلة"، ومرة

قالت صحيفة "لوموند" وقتها: "إن بومدين هو الرجل الأول مكرر؛ فهو من قوة الشخصية والإمكانات ما يجعله ليس رقم "2" ولكن رقم "1" مكرر".

ويذكر الباحث "رشيد مصالي" في كتابه "هواري بومدين.. الرجل اللغز" – الذي نشرته "دار الهدى الجزائرية" عام 1991 – أنه منذ ذلك الوقت لم يكن "بومدين" في حاجة لأكثر من سنتين لتحويل هذا التنبؤ من رقم "1" مكرر إلى رقم "1" لا أكثر.

ويذهب "مصالي" – مُبرِّرًا – إلى أن ذلك قد وضع حدًّا لثلاث سنوات من التردد والمراوغة والغموض، التي مثلت عصر "بن بلة"؛ فقد عرفت الجزائر جوًّا من التوتر والمؤامرات السياسية التي كادت تؤدي إلى حرب أهلية حقيقية.. بسبب التعطش إلى السلطة الذي استبد فجأة بمختلف المجموعات التي كانت متلاحمة بفضل كفاح التحرير الوطني.

كانت القوة الوحيدة المنظمة في هذه الفوضى هي الجيش، وقد أسر "بومدين" لأحد أصدقائه قائلاً: "بجيش مثل هذا يمكن الوصول إلى رأس الرجاء الصالح".. وقد فعلها "بومدين" الذي كان وزيرًا للدفاع منذ 28 سبتمبر 1962 ونائبًا للرئيس منذ يونيو 1963، وأطاح بسلطة "بن بلة"، وأصبح السيد الرئيس.

يشرح "بومدين" ما فعل: "كان يجب فرض سلطة الدولة ووقف الفوضى وإعادة النظام وإصلاح الاقتصاد والتخلص نهائيًّا من مناهج الماضي؛ حيث لم تكن السياسة الخارجية مطابقة للسياسة الداخلية.. نريد قبل كل شيء أن نهتم بمشاكلنا وبالجزائر التي لا يجب أن تكون أبدًا جزائر رجل واحد".. "لقد تكلمنا كثيرًا، ولكننا عملنا كثيرًا.. قلنا إنه لا يجب أن تعتمد الجزائر إلا على نفسها، ولا يمكن أن تكون الجزائر "ماو" و"كاسترو" أو "عبد الناصر".. ولكن الجزائر جزائرية فقط".

وقد عاد "بومدين" لهذا القول مرات كثيرة.. القول بأن الجزائر ليست دولة رجل واحد، وبأنه قد حان الوقت للانتقال من الثورة إلى الدولة.

يقول "بومدين" – في حوار نشرته صحيفة "الأهرام" في 19 يونيو 1965 –: "في يوم كان بن بلة ينسب لنفسه اشتراكية كاسترو، وفي الغد يقول عن نفسه بأنه اشتراكي جزائري، وفي مناسبات أخرى يدعي أنه اشتراكي مسلم، ولم تكن تلك سوى ديماجوجية".

ويقول – في خطاب له في أول يوليو 1965–: "لا تكونوا في خدمة رجل ولا تهتفوا باسم شخص، اهتفوا باسم الجزائر والثورة الاشتراكية"، وفي خطاب له في 6 مارس 1966: "لا زعامة ولا زعيم، لا رسالة ولا رسول، إنما انسجام وتناسق بين القيادة والقاعدة".

ويقول – في خطاب له في 22 أبريل 1966 –: "نعتبر تشييد الدولة الجزائرية شرطاً أساسيًّا لكل تقدم. لن يستطيع هذا المجتمع أن يتقدم ويتطور إلا إذا توصَّل إلى تشييد دولة بأتم معنى الكلمة.. إننا عندما نعطي أوامر ونخطط سياسة، فإن تلك السياسة لا يمكن أن تطبق إذا لم تكن هناك دولة".

ويقول "بومدين": "نحن براجماتيون "عمليون"، لم تكن لدينا فكرة واضحة عن كل ما سيأتي، ولكننا كنا نعلم ما نريد عمله في العاجل".

ويرى البعض أن "بومدين" كان النقيض تمامًا من الرئيس "بن بلة"، وبحسب وصف أحد الكتاب الفرنسيين، فقد كانت الجزائر أيام "بن بلة" مرحلة "الحديقة الوطنية" وأن "بومدين" نقلها إلى مرحلة "المجتمع الدولي المعاصر".

والواضح من الفكر السياسي للرئيس "هواري بومدين" أن الرجل كان حانقًا على واحدية الرئيس "بن بلة" في السلطة والشهرة، ومعترضًا على بقاء الثورة في ثوبها الفضفاض دون التحول إلى دولة منضبطة.

كان "بومدين" ضد الاشتراكية المرتبطة بالخارج، كما كان مفرطًا في حساسيته إزاء الرئيس "جمال عبد الناصر" في مصر.

* * *

لقد وقعت الفجوة بين "جمال عبد الناصر" و"هواري بومدين" من جرَّاء العلاقة الخاصة التي ربطت "عبد الناصر" و"بن بلة"، وقد بلغ استياء "عبد الناصر" من إقصاء "بن بلة" حدًّا جعله يرسل طيارين إلى الجزائر لاستعادة "6" طائرات "ميج 15" كانت قد أُهديت إلى الجزائر في عهد "بن بلة"، ولم يكن موقف "عبد الناصر" هذا مجرد موقف انفعالي إزاء الانقلاب، بل جاء بعد فشل الجهود المصرية لإطلاق سراح الرئيس "بن بلة" واستضافته في مصر.

وقد استمر هذا الفتور إلى أن قام "بومدين" بزيارة مصالحة إلى مصر، لفتح صفحة جديدة في العلاقات. ويذكر الكاتب الجزائري "محمد تامالت"، في كتابه "العلاقات الجزائرية – الإسرائيلية" الذي صدر عام 2002، أن "بومدين" كان إيجابيًّا وفعالاً في مواقفه لدعم الموقف المصري في مواجهة إسرائيل وفي دعمه العام للقضية الفلسطينية، ما جعله امتدادًا ثوريًّا في هذا النطاق لا انقلابًا على الثورة.

ففي مايو 1967، أرسل "بومدين" العقيد "طاهر الزبيري" – رئيس الأركان – إلى القاهرة ودمشق لاستطلاع الاحتياجات العسكرية للبلدين، وبعد عودته عقد اجتماعًا للقيادة الجزائرية تقرر فيه إرسال وحدة عسكرية إلى الشرق الأوسط.

وفور بدء العدوان، أعلن "بومدين" أن بلاده قد أصبحت في حالة حرب ضد إسرائيل، غير أن القوات الجزائرية لم تتمكن من المشاركة في حرب الأيام الستة؛ فقد صدرت الأوامر إلى "3" أسراب من الطائرات: "14" طائرة "ميج 17"، "15" طائرة "ميج 21"، "12" طائرة "يوشن 18"، وأمرت الأسراب الثلاثة "41" طائرة بالتوجه إلى مصر صباح يوم 6 يونيو 1967، لكن عواصف رملية في ليبيا جعلتها تعود.

أمـر "بومـدين" بـإنزال الطـائرات في تـونس، وعـادت للمواصـلة ووصـلت إلى القاهرة في 7 يونيو، وأقام طياروها في أحد فنادق مصر الجديدة، وبوقف إطـلاق النـار رحلوا وتركوا الطائرات إهداءً لمصر.

وعلى صعيد القوات البرية يذكر "محمد تامالت" أن الكتيبة المدرعة الثامنـة، بقيادة اللواء "خالد نزار"، وهي أقوى كتائب الجيش الجزائري، قـد أخـذت موقعهـا على الجبهة، وسقط منها أكثر من عشرين شهيدًا، وفي منتصف يوليو 1967 أرسـلت إسرائيل للأمين العام للأمم المتحدة تطالبه بأن يحترم الجزائريون وقف إطلاق النار.

وفي 11 يونيو 1967، سافر "بومدين" إلى موسـكو، وطلـب مـن قادتهـا دعـم وتعويض القدرة التسليحية المصرية، ولهذا الغرض دفع للسوفيت قيمـة "60" طـائرة مقاتلة، و"150" سيارة مصفحة، و"100" دبابة سوفيتية.

كما قطعت الجزائر علاقاتها الدبلوماسية مـع الولايـات المتحـدة وبريطانيـا؛ لأنهما تساندان إسرائيل، ولم تعد إلا بعد عودتها إلى مصر بفترة طويلة.

على أن "بومدين" – الذي قدم هذا الدعم للقتال – سرعان ما انقلب على رؤيـة "عبد الناصر" في العمل السياسي والاستفادة مـن أفكـار ومبـادرات التـسوية الـسلمية. وقام "بومدين" بسحب قواته من مصر عام 1970.

وفي فبرايـر عـام 1972، اسـتقبل الـرئيس "بومـدين" الفريـق "سـعد الـدين الشاذلي" – رئيس أركان الجيش المصري – الذي أقنعه بأن "السادات" سيحارب وبأن مصر تجهز للمعركة.

وفي سبتمبر عـام 1973، عـاد الفريـق "سـعد الـدين الـشاذلي" وزار الجزائـر والتقى "بومدين"، وقال له: إن الحرب أوشكت، لكنه لم يعطه موعدًا محددًا.

وفي 7 أكتوبر عام 1973، وصلت أول طائرة جزائريـة مـن بـين "16" طـائرة "ميج 12" إلى مطار "جاناكليس"، غرب مصر. ووصل سرب آخر "مـيج 17" إلى أحـد

المطارات بالجيزة، وإلى قاعدة بلبيس وصل سرب من طائرات "سوخوي"، وإلى قاعدة حلوان سرب من طائرات "ميج 17" "حسب معلومات الطيار "محمد الطاهر بوزغوب"، الذي نقل عنه "محمد تامالت"".

وفي 14 أكتوبر 1973، زار "بومدين" موسكو والتقى "بريجينيف"، وعندما أبدى الزعيم السوفيتي اندهاشه من حجم المطالب العربية قال "بومدين": "لقد كنت أتصور وأنا أستمع إليك أنني في البيت الأبيض وليس في الكرملين".. ثم أعطاه صكًّا ماليًّا بقيمة ديون مصر.

وينسب "محمد تامالت" - في كتابه "العلاقات الجزائرية - الإسرائيلية" - إلى "بومدين" فكرة المقاطعة، وأنه هو الذي أقنع الملك "فيصل" بتبني الفكرة على اعتبار أن السعودية هي كبرى الدول إنتاجًا للبترول على المستوى العربي، وقد استُثنيت فرنسا من المقاطعة نظرًا لمواقف "ديجول" المعتدلة في هذه الأثناء.

* * *

إن التفكير الذي تبعث عليه قراءة عهدي "بن بلة" و"بومدين" في الجزائر.. لَيحتاج إلى إعادة تفكير؛ ذلك أن الأمور مشتبكة ومعقدة.

فالرجلان كلاهما خاض ثورة وحربًا ضد الاستعمار، وكلاهما كان يحمل حياته على راحتيه في كل لحظة إلى أن تحقق الاستقلال، وكلاهما عمل من أجل الجزائر، ولم يقع أي منهما في مستنقع الفساد المالي أو السرقات التي اعتادها أمراء الحروب والثورات.

كما أن ما رآه "بن بلة" من ضرورة لباندونج "2" من أجل تغيير النظام العالمي وتأسيس القوة الثالثة على الخريطة الدولية.. لم يقُل به "بومدين"، الذي آثر أن يكون أقل طموحًا وشرودًا وأكثر فعلاً وإنجازًا.. غير أن ما قاله "بن بلة" ولم يفعله فعله "بومدين" ولم يقُلْه.

وما عرضناه بشأن موقفه العملي من الصراع العربي - الإسرائيلي إنما يشير إلى أن الرجل الذي استضاف "عرفات" للمرة الأولى متحدثًا باسم الشعب الفلسطيني، وإرسال العتاد والجنود للمساعدة في الحرب ضد إسرائيل، لم تكن غضبته على "بن بلة" غضبة على المضمون أو الوجود بقدر ما كانت غضبته على الشكل وعلى الحدود.

وإذ يبدو الرجلان بعيدين إلى حد التناقض، فإنهما قريبان إلى حد التكامل، كلاهما يعمل من الفكر القومي العربي وضد إسرائيل والغرب الإمبريالي، ومع بناء الداخل الذي أنهكته مائة وثلاثون عامًا من القتال.

كان الرجلان أقرب لبعضهما من الآخرين، وليس مدهشًا أن يكون "بومدين" هو من وضع "بن بلة" في السلطة، ثم وضعه في السجن؛ ففي الأولى كان الرجلان معًا ضد الحكومة المدنية المؤقتة التي كان يترأسها "يوسف بن خدة"، كان كلاهما ضد أن يترك الثائرون السلطة للمشاهدين أو المتحدثين الرسميين.. إنها الأزمة المتجددة نفسها.. بين الطرح الثوري إذا تمكن والطرح الإصلاحي إذا لم يجد سندًا.

وقد يكون من العجلة أن توصف حكومة "يوسف بن خدة" بأنها المعبرة عن الطرح الإصلاحي، لكنه من المقبول وصفها مع رموز البرلمان كـ"فرحات عباس" بذلك؛ فهي والبرلمان تشتملان على كوادر سياسية سبق لها العمل ولديها خبرة الإصلاح ونوايا التقدم، غير أنها بدت فاترة وضعيفة أمام إبهار الانتصار الذي حققه حَمَلة السلاح، وإبهار الآمال التي أطلقوها بعد الانتصار.

والثابت في هذا أن الطرح الإصلاحي التدريجي الذي مثلته نخبة ما قبل الاستقلال قد فشل في المعركة وانسحب، وأن الطرح الثوري قد فاز وانتصر، وأن "بن بلة" و"بومدين" هما سياق ثوري واحد مع فارق في التفاصيل. وبغض النظر عمَّن في السلطة ومن يتصدر كاميرات التصوير؛ فقد تطور الطرح الثوري من حديقة الثورة إلى أشواك الدولة.. وهنا فقد "بومدين" بعضًا من جماليات الحديقة، غير أنه أفاد في نزع

الكثير من الأشواك وتهيئة التربة للإصلاح.

إذًا لنتساءل: هل انتهت الثورة عند "بن بلة" أم انتهـت عنـد "بومـدين"؟ أي هل كان "بن بلة" هو "محمد نجيب" الجزائر الذي بإطاحتـه انتهـت الثـورة وبـدأت الدولة، أم أن الرجلين يمثلان معًا حقبة الثورة؟

والأرجح أن ثورة "جمـال عبـد الناصـر" في مـصر قـد جـاءت علـى دولـة، وأن الثورة الجزائرية قد جـاءت علـى فـراغ لتنـشئ منـه الدولـة، وإذا كـان رأي "توفيـق الحكيم" بأن ثورة يوليو المصرية قد انتهت عام 1956، فإن الأمـر لا ينـسحب تمامًـا على التجربة الجزائرية، وربما تكون الأخطاء التي أطاحت بتراث الثورة الجزائريـة ليست من فعل أي من الرجلين – "بن بلة" و"بومدين" – وإنما من فعل الذين تعـاقبوا من بعدُ.. أولئك الذين تسلموا ثورة ودولة.. ثم سلموها إلى الفوضى!

لم تفشل الثورة الجزائرية بإبعاد "بن بلة"، لكنها فشلت برحيل "بومـدين"؛ فالروح الثورية التي استطاعت هزيمة فرنسا بعـد تـضحيات لا يحتملـها شـعب آخـر سرعان ما غابت.. وجاءت روح أخـرى مـن التعـصب والانغـلاق.. ومـن قـسوة الطبـاع وفـساد العقـل واليـد.. أطاحـت بـروح الجزائـر التاريخيـة.. وإذا كانـت الـسياسات الخاطئة تقبل التصحيح والساسة الفاسدون يمكن إطاحتهم.. فما أصعب الطريق إذا مـا كان الهدف استعادة الوعي أو عودة الروح!

"3" ما بعد "بومدين".. نهاية الثورة

بنهاية السبعينيات انتهت الثورة الجزائرية وانتهى الدور الأخلاقي لجبهة التحرير الوطنية.. إذا ما أردنا تعسفًا في التحليل.. فلنقل إن عام 1980 هو عام نهاية الثورة الجزائرية؛ ففي هذا العام تم إطلاق سراح الرئيس "أحمد بن بلة" وخرج الرجل ليجد الرئيس "الشاذلي بن جديد" وقد مضى عليه عامان في السلطة. وبدأ "بن بلة" يعيش على تاريخه بعد أن بدا له تمامًا أن هذه ليست حقبته ولا مرحلته.. أو بالتعبير الذي سمعته منه "هذه جزائر أخرى!".

جاء "الشاذلي بن جديد" إلى الحكم عام 1978، وكان قد سبقه لأربعين يومًا السيد "رابح بيطاط" رئيسًا مؤقتًا للدولة بعد رحيل "بومدين"، وكان "بيطاط" رئيسًا لمجلس الشعب.

جاء "بن جديد" وقد غاب "بن بلة" ورحل "بومدين".. إذًا فقد غاب شريكا الثورة، وغابت معهما تجربة النضال المؤكدة وتجربة البناء المحتملة. ولأن تراث الثورة لم يكن كافيًا ليعيد "بن بلة" إلى السلطة، أو أن روح الثورة قد انطفأت عمَّا كانت تحت وطأة الدولة جسدًا وأطرافًا، فإن عصرًا من الدولة الإدارية قد بدأ.. وعصرًا من الثورة قد انتهى.

وبدأ الثوريون الأوائل يقولون بنهاية الثورة أو بحلول الثورة المضادة، وهو مصطلح قديم بضع سنين؛ فقد كان أنصار "بن بلة" يقولونه على الأعداء السياسيين، ثم شاع في عصر "بومدين" وصفًا لأنصار "بن بلة".

ويقول "أحمد سويسي": "كنت مندوبًا للحركة الوطنية اللبنانية في الخارج وقتها، وزرت الجزائر في هذا الإطار، وكان بن بلة في السجن وبومدين في السلطة.. لم

أجد هاتفاً ولا فاكسًا ولا فندقًا.. لم أجد أي فندق في كل مدينة الجزائر، رحت ونمت في منزل لصديق، وقلت للمندوب الجزائري الذي يصحبني: يا أخي.. ما هذا؟ قال: إنها الثورة المضادة. قلت له: يا أخي.. إذا كانت الثورة المضادة بهذه القوة، أي أنها تملك كل مفاتيح البلد، من الأمن إلى الفندق، ومن المطار إلى الشوارع.. فكيف تكون ثورة مضادة؟!".

وقد تعاقب من بعد "بومدين" ثلاثة آخرون، حتى جاء أبرز وزرائه وأقرب مساعديه إلى السلطة رئيسًا عند مفترق القرنين؛ فبعد "الشاذلي بن جديد" – الذي تولى السلطة ما بين عامي 1978 و1992 – جاء واغتيل الرئيس "محمد بو ضياف" عام 1992، ثم جاء "على كافي" لعامين حتى 1994، ثم الرئيس اليميني "زروال" حتى عام 1999؛ حيث جاء السياسي البومديني البارز "عبد العزيز بوتفليقة".

يلفت الانتباه في هذه المسيرة ذلك الوقت وتلك النهاية التي كانت من نصيب رجل الثورة أبرز المناضلين فيها، الرئيس "محمد بو ضياف"؛ فقد كان "بو ضياف" من قادة الثورة الكبار، ولأن للانتصار ألفَ أبٍ فيما يخيم اليتم على الهزائم، فإن "بو ضياف" قد أُبعد عن غنائم الانتصار لما يحمل من فكر مختلف أو لأسباب أخرى تتعلق بجغرافيا الغنائم.

وحل "بو ضياف" ضيفاً على المنفى مدة ستة وعشرين عامًا، قضى الوقت قبل المنفى وبعده معارضًا للرئيسين "بن بلة" و"بومدين"، أي أن الثوري قد صار معارضًا للثوار، أو هي الثورة ضد الثورة.. وظل الرجل كذلك إلى أن اضطربت الجزائر، بعد أن ترك "بن جديد" السلطة والدولة في محنة غير مسبوقة في عمرها المحدود.

وأراد الذين جاءوا بالرئيس "محمد بو ضياف" أن ينقذوا الدولة بالثورة، وأن يرمموا السياسة بالتاريخ.. وجاء الرجل إلى السلطة شهورًا ثم جرى اغتياله في مشهد أليم، وكانت وقائع الاغتيال ذاتها شاهدة على نهاية عصر بأفكاره وأشخاصه.. فقد

قضى الثائر العجوز نحبه وسط الجميع، وجاء إطلاق الرصاص من قِبَل حراسه الرئاسيين.. فلا أنقذه الذين التصقوا به ليحرسوه ولا تلك الجماهير الغفيرة التي هتفت ذات يوم ثم صمتت في اليوم التالي.

وهكذا جاء عام 1992 مؤكدًا لعام 1980، خرج "بن بلة" من السجن إلى المنفى، وخرج "بو ضياف" من المنفى إلى الموت!

* * *

إن ما جرى في العقود اللاحقة لانتصار الثورة الجزائرية ليبعث على الأسى وإعادة النظر؛ فقد انكشف النظام الاجتماعي أمام أزمات المعيشة المتلاحقة، وانكشف النظام الوطني أمام صعود الأمازيغية ونفوذ حركة القبائل القومية، ثم انكشف النظام الفكري تحت وطأة جماعات الإسلام السياسي وتنظيمات الإرهاب والعنف السياسي، وانكشف معه النظام المدني أمام عودة الجيش قوة وحيدة في البلاد.

ويذهب المؤرخ "محمد حربي" – في مقال كتبه في صحيفة "لوموند ديبلوماتيك" في عدد 30 ديسمبر عام 2002 – إلى أن "بومدين" قد استفاد من عشر سنوات هادئة بعد إجهاضه محاولة الانقلاب التي قام بها "طاهر الزبيري" عام 1967، وهذا الاستقرار قد نعم به بفضل القمع من ناحية، وبفضل تلبية المطالب الاجتماعية كالأجور والتعليم والصحة من ناحية أخرى، وهي ما أراد "الشاذلي بن جديد" إلغاءها، ثم جاء الانخفاض في أسعار النفط ليفضح هشاشة النظام الاقتصادي، وبات العنف هو الأفق المفتوح للاحتجاج في الشوارع والجبال.

ومنذ عام 1988، أصبح الجيش والإسلاميون والقبائل هم اللاعبين الأساسيين في الساحة.

وتذهب تحليلات كثيرة إلى تحميل مؤسسة الثورة، أي جبهة التحرير الوطني، المسئولية في نهاية عصر الثورة الجزائرية والوصول إلى محنة الإرهاب في

سنوات التسعينات؛ فالجبهة التي استأثرت بالسلطة دَبَّ فيها الفساد والتدهور السياسي والأخلاقي.. ما جعل الثورة بلا وجه والدولة بلا جسد!

ويصف الروائي "الطاهر وطار" محنة الجزائر آنذاك بأنها "انتقام التاريخ من حركة وطنية تحررية تفتقد الكفاءة، احتالت على التاريخ وسرقت منه، وإذا عدنا إلى حركة التحرير الجزائرية بأشخاصها وظروفها، وهو ظرف تحرير الشعوب في العالم وحللنا قادتها شخصًا بشخص، وتعرفنا عليهم مناضلاً مناضلاً، نتعجب كيف أن هؤلاء استطاعوا أن ينتزعوا من التاريخ وطنًا كبيرًا يمتد من البحر المتوسط إلى أعماق أفريقيا"!

وتحت عنوان "لماذا فشلت أعظم الثورات العربية وتحول الثوار إلى تجار؟"، ذهب الكاتب التونسي "رياض صيداوي" إلى أن "كثيرًا من رجال ثورة الجزائر الخالدة قد تحولوا إلى مجرد رجال أعمال أو أقل، كان أغلبهم من أصول فلاحية شديدة الفقر، ولم يكونوا جبناء، بل كانوا أسودًا في مواجهة آلة الاستعمار الفرنسي العسكرية ذات النصف مليون ضابط وجندي، لكن أغلبهم الآن أصبح يعمل في التجارة، لقد أصبحت شرعية المشاركة في الثورة غنيمة مستديمة".

ويعتبر "صيداوي" العام 1975 نهاية للثورة وبداية للأزمة؛ "فمنذ ذلك العام انهار التوازن بين الجبهة والجيش لصالح الجيش، ومع اغتيال عباس رمضان انهارت الجبهة كنموذج ثوري يمكن أن يقدِّم إلى العالم أدبيات جديدة في القدرة على اندماج القوات المسلحة في التنظيم السياسي، وإنهاء التمييز المتعارف عليه بين العسكري والسياسي. لقد فشلت التجربة بينهما وانقلب العسكري على السياسي وأزاحه من كل شيء.

وبعد عصر بومدين بدأ تزايد نفوذ ضباط الجيش الفرنسي "ضباط فرنسا"، وعودة بعض القبائل إلى الصفوف الأولى، ونتج عن ذلك ابتعاد جبهة التحرير

تدريجيًّا عن المشهد السياسي والبحث عن أحزاب وشخصيات ومنظمات أخرى توفر الغطاء السياسي للجيش"..

وقد ذهبت الأحداث بعد ذلك إلى استقطاب من نوع جديد؛ "فالجماعات الإسلامية المسلحة أثبتت قدرتها على الاستقطاب والتعبئة، كأن جبهة التحرير الوطني تكرر نفسها في جبهة الإنقاذ الإسلامي، وكأن التاريخ يعيد نفسه.. لكن هذه المرة في شكل مهزلة"!

لكن الباحث الفرنسي "هيو روبرتس" قد وصل إلى أبعد، ورأى أن جبهة التحرير وجبهة الإنقاذ ليستا في حالة تناقض بل تكامل؛ ففي دراسته "الجزائر بين الطريق المسدود والحل الأمثل" – التي نشرها مركز الإمارات للدراسات الاستراتيجية – يرى الباحث أن "الدولة التي أسستها جبهة التحرير الوطنية لم تكن قط دولة علمانية، وأن الجبهة الإسلامية للإنقاذ ليست العدو اللدود لجبهة التحرير الوطنية التاريخية، وإنما هي في الحقيقة فرع من هذه الجبهة وامتداد لجانبيها الإسلامي والشعبي".

والشاهد أن الإسلام في الجزائر هو مكون رئيسي في الشخصية وجوهر في بنية الروح، وحتى الحقبة الثورية الاشتراكية في الجزائر لم تذهب بعيدًا عن الدين وقواعد الإيمان؛ فالرئيس "أحمد بن بلة" عاد بعد ذلك وأسس حزب "الحركة من أجل الديمقراطية" وهو حزب يصنِّفه البعض ضمن الأحزاب الإسلامية.

والرئيس "هواري بومدين" كان يعطي تقديرًا لدور الدين، وينقل بعض مرافقيه في زيارته إلى سراييفو، بعد لقاء له مع "تيتو"، طالبًا دعم "عبد الناصر" بعد 1967، أنه مكث طويلاً في مسجد سراييفو، ثم كتب في سجل الزيارة كلمة مطولة ختمها بالآية الكريمة "وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ".

وكان من اللافت في اختيار الرئيس "بوتفليقة" لرجال حكمه تعيينـه لـرئيس البرلمان الأسبق "عبد العزيز بلخادم" – ذي التوجـه الإسـلامي – في جبهـة التحريـر وزيرًا للخارجية.

وإذا كان من تناقض وصدام بين الجماعات الإسلامية والـسلطة في التـسعينيات وما بعدها، فإنه لا يعود إلى كـون الطـرفين ينطلـق أحـدهما مـن الإسـلام والآخـر مـن خارجه، بل هي الأزمة الممتدة على امتداد الأرض الإسلامية.. مـن صـراع بـين رؤيـة للإسلام تتوافق مع الحداثة واللحظة الحضارية، وبين رؤية للإسلام تقف ضد الأمرين لصالح ركام من الآراء والأفكار تبدأ بعيدًا عن الحاضر وتنتهي بعيدًا عن المستقبل.

لقـد كـان هـذا المـأزق بـين مدرسـتين للـتفكير دافعًـا للـرئيس "عبـد العزيـز بوتفليقة" ليقفز خطوة إلى الأمام وخطوتين إلى الوراء.. جامعًـا مـن الخطـوات الـثلاث اجتهادًا جديدًا ربما كان منقذًا من دعاة الإنقاذ!

* * *

حـاول الـرئيس "بوتفليقـة" – في خطـوتين إلى الـوراء – أن يـستعيد عـصر "بومـدين"، وبخطـوة للأمـام أن يـدعم العـودة الجديـدة لأفكـار "بومـدين" بقـدر مـن الليبرالية، إنها محاولة لاستدعاء روح الثورة وخلطها بـروح العـصر.. أو هـي سـعي متدرج إلى ثورية ليبرالية أو ما شابه، ابتعادًا عن الثورية التي كانت دومًا – وبحكـم التعريف – اشتراكية لا سواها.

وليس معروفًا ما الذي كان يمكن أن يفعلـه الـرئيس "بوتفليقـة" لـو أنـه كـان الرئيس الثالث لا الرئيس السابع.. بعيدًا عن عصر الثورة وإشعاع الدولة.

لقد أثار استدعاء "بوتفليقة" لروح "بومـدين" انتقـادات قويـة مـن قِبـل أعـداء عصر "بومدين".. وافتقد الكثيرُ من النقدِ الموضـوعيةَ تحـت الرغبـة في مناهـضة حكـم الرئيس "بوتفليقة" أو الانتقام من حكم الرئيس "بومدين".

ويشرح الكاتب الجزائري "يحيى أبـو زكريـا" – في مقالـة بعنـوان "بوتفليقـة يستنسخ عهد بومدين ورجاله"، نشرها الموقع الإلكتروني "بوابة العرب" – المحاولة البوتفليقية – البومدينية، فيقول: "كان بوتفليقة غداة وفاة هواري بومدين يتوقع أنه سيكون الخليفة التلقائي له، غير أن جهـاز الاسـتخبارات العـسكرية، الـذي أشرف بومدين على تكوينه تكوينًا فولاذيًّا في ضوء تجربة الاستخبارات الروسية، قد أوصل إلى قصر المرادية – قصر الرئاسة – شخصًا لم يكن اسمه واردًا على الإطلاق.

وعندما تولى بوتفليقة الرئاسة وصل به الأمر إلى أن تصور أن الزمن قد عاد بـه إلى الوراء وتولى الحكم مباشرة بعد وفاة بومدين إلى الاسـتعانة بالأرشيف البومـديني على صعيدي النهج والرجال؛ فعيَّن محمد شريف، أحـد رجـال بومـدين، علـى رأس مجلس الأمة خلفًا لبشير بو معزة، الذي اختلف مع بوتفليقة، وقبل ذلك عيَّن محيـي الدين عميمور، الذي كان مستشارًا لبومدين، وزيرًا للإعلام والثقافة.

وبات بوتفليقة يقلد بومدين في تفاصيل تعاملاته مع الناس في أثناء زياراته مـا عدا مسألة مركزية هي تفضيله اللغة الفرنسية علـى عكـس بومـدين الـذي لم يـسمعه أحد متحدثًا بها. وحاول بوتفليقة التوفيق بين ضرورة الإفادة من المدرسـة الليبراليـة وأمجاد عصر بومدين، بعد أن انفتح بوتفليقة في أثناء وجوده في الخليج وأوروبـا علـى المدرسة الليبرالية وأبدى إعجابه بها دون التنكر لعهد بومدين ذي الصبغة الحمراء".

وفي نقـد أوضـح، ذهـب بـاحثون آخـرون إلى أن اعتقـاد الـرئيس بوتفليقـة أن التخلي عن نهج بومدين كان خطـأ وأنـه يكفـي لاسـتعادة الجزائـر وضـعها الطبيعـي العودة إلى عهـد بومـدين كـان اعتقـادًا خاطئًـا؛ فلـم تكـن أحـداث خريـف 1988 إلا انتفاضة على ذلك التفكير وعلى نظام الحزب الواحد وموظفيه.. قبل أي شيء آخر.

وعلى ذلك، فـإن "مـن بـين الأوهـام: الاعتقـاد بـأن عهـد بومـدين كـان عهـدًا ناجحًا، وأنه أسس لجزائر حديثة؛ ذلك أن مصائب الجزائر بدأت في ذلك العهد بعـد

ما أسس لها العهد القصير لأحمد بن بلة، وبعد ذلك لم يمتلك أي سياسي شجاعة القول بأن ما بُني على خطأ لا يمكن أن يستمر".

* * *

الواقع أن الثورة والدولة لم يتم بناؤهما على خطأ، كانت الثورة ضرورة الضرورات، وكانت الدولة على القدر ذاته من الأولوية التي لا يسبقها شيء.

وبعض المشكلات التي جاءت لاحقًا كانت هي الأخرى حتمية؛ فالواقع الأمازيغي والمشكلة القبائلية وقضايا الفرانكفونية والتعريب.. كانت آتية لا ريب، لكن الخطأ يكمن في الثورة وهي تبني الدولة.. أغفلت المشكلات، وراح قادتها يتصارعون على الصوت والصورة وعلى مقاعد السلطة التي لا تدوم. والأهم من ذلك المهم هو ملف الاقتصاد والحرية.. هذان الملفان اللذان كانا السبب الأكبر والكافي لنهاية عصر الثورة.. دون كثير من الدموع!

* * *

إذًا كان ذلك هو المشهد في السياسة: ثورة قادها الجميع، وسلطة احتكرها القليل.. "بن بلة" الذي شهد ربيع الثورة، و"بومدين" الذي شهد صيفها القائظ إلى "بن جديد".. خريف الثورة.. ثم إلى "بو ضياف" الذي كان حضوره وانطفاؤه كشهاب مرَّ وحيدًا في الفراغ، فلا عين رأت ولاإذًا سمعت.. إلى "بوتفليقة" الذي أراد عودة الثورة في ثوب قشيب.. شيء من "بومدين" وآخر من رياح العولمة.

* * *

رحلة كثيفة مزدحمة، جبهات وتصفيات وترقيات، رؤساء وجنرالات وملثمون.. ضياء واسع على امتداد القارة، ثم ظلام دامس عند حدود القدمين.. حلم إمبراطوري بتغيير العالم، ثم يأس كامل من تغيير الذات.. شهقة عميقة بعد ملايين الشهداء في أكثر من مائة عام.. ثم زفرة أليمة بعد أن جاءت الدماء على الدماء،

وزاحم القادمون مقابر الشهداء.. شهقة كانت ذات صفاء ونقاء؛ ذلك أنها كانت خالصة كاملة ضد عدو لا تخطئه عين ولا شفاعة له ولا مكانة، ثم زفرة جريحة قاسية.. أتت من قتال النفس للنفس كأن يدًا تطعن وجهًا في جسد واحد!

* * *

مضت سنوات الغليان.. كأن الثورة لم تكن، وكأن الدولة لم تجئ.. وكأن المنافي والمآسي ليست حكرًا على زمن الاستعمار.. لم تعد الرؤية ممكنة ولا الرؤيا ممكنة.. على كثرة الأقوال والأحلام.. إنها حالة أشبه بقول "الطاهر بن جلون": "تلك العتمة الباهرة"!

"4" الجماعات الإسلامية.. إحياء الثورة

انتهت الثورة الجزائرية إلى دولة حُبلى بالمشكلات، ومن بين إجابات كثيرة عن سؤال واحد: ما الحل؟ رأت فصائل في التيار الإسلامي أن الحل هو الثورة، وإذا كانت الثورة الأولى ضد الاستعمار العسكري، فهذه الثورة ضد الاستعمار الفكري، وإذا كان مجال الأولى هو الأرض الجزائرية وضد فرنسا، فلا حدود لمجال الثانية؛ فالعدو يشمل جموع المستكبرين ويشمل الفكر السياسي في الإعلام والقوى المعبرة عنه في النظام الدولي.. أو بالتعبير اللاحق لزعيم تنظيم القاعدة "أسامة بن لادن" هي حرب بين فسطاطين: فسطاط الإيمان وفسطاط الكفر.

وحملت ما سمَّاها بعض فصائلها "الثورة الإسلامية" أفكارًا متناثرة من بقايا الأفكار التي حملتها الجماعات الإسلامية في المشرق، من تكفير الحاكم إلى تكفير المحكومين، ومن قتال الطائفة الحاكمة إلى قتال عموم الناس. وفقدت الجزائر في سنوات معدودة أضعاف ما فقدته الثورة الفلسطينية في مواجهة الصهيونية وإسرائيل عبر مائة عام من الصراع!

وقد جاءت الثورة الإسلامية المزعومة مثيرة للدهشة والصدمة؛ فلم تكن الجزائر دولة علمانية حتى تحتاج إلى ثورة دينية، كما أن الرؤساء المتعاقبين على البلاد لم يواجهوا الإسلام بما يضعف من قدره أو يذهب بدوره وحضوره.

وعلى الرغم من أن مشروع "بن بلة" و"بومدين" كان قائمًا على إقامة دولة ذات مؤسسات حداثية؛ فإن "بومدين" جاء ممثلاً لثقافة إسلامية مع خلفية عسكرية وطبيعة ثورية، ما جعل البعض يصفه بأنه "ممثل الإسلام الثوري"؛ ذلك أن "بومدين" كان يقول بالولاء الكامل للإسلام كدين، ومتفهمًا.. ومعتقدًا في حتمية

الإيمان لدى الشعب الجزائري.

ويصف "بومدين" رؤيته للإسلام الثوري – في خطبة له بتاريخ أول مايو 1976 – بقوله: "إن غاية الإسلام الأساسية هي نشر العدل، وإن الدين الذي نعنيه هو الدين الذي بشَّر به الرسول "صلى الله عليه وسلم"؛ لأننا لا نؤمن بدين الزوايا والمشعوذين، وإنما نؤمن بالدين الذي أتى لمحو الاستعباد".

ولا تبدو صيغة "الإسلام الثوري"، التي مثلها "بومدين"، معبرة عن تنظيمات "الثورة الإسلامية" اللاحقة؛ فقد كان "بومدين" مؤمنًا بالدولة وبالمؤسسات الحديثة وبالقيم العامة للحداثة التي لا تختلف عن المبادئ العامة للإسلام، ولم يكن "بومدين" يعتقد أن ثَمَّة تناقضًا بين الإسلام والحداثة، ولا بين الثورة والإسلام.. وأن مشروعه الثوري الإسلامي الحداثي هو طرح بارع؛ فهو يحمي الإسلام من الاغتراب، ويحمي الثورة من الغياب، ويحمي الحداثة من الانفلات.

ويذهب المؤرخ الجزائري "محمد حربي" إلى أن مشروع "بومدين" كان أقرب إلى الحداثة منه إلى أي فكر آخر، وأن "ما يجمع الخصمين: بن بلة وبومدين، هو اتفاقهما على الحداثة؛ فقد كان هناك مشروعان كبيران داخل جبهة التحرير: اليسار والجيش، دعا الطرف اليساري إلى بناء الحداثة من أسفل بواسطة الإدارة الذاتية وعبر دور للنقابات، وكان ذلك مشروع بن بلة، ودعا العسكريون إلى تحديث سلطوي من فوق تنفذه النخب الحاكمة، وذلك مشروع بومدين.. وكلا المشروعين يؤيد العلمانية والمساواة بين الجنسين، ومشروع بومدين هو الذي انتصر عام 1965".

وما يقوله "محمد حربي" دقيق فيما عدا استخدامه لمصطلح العلمانية في هذا السياق؛ ذلك أن النظام الجزائري كان حداثيًّا ولم يكن علمانيًّا وكان "بومدين" يعتبر الإسلام أساسًا في حكمه وفي تكوين الشخصية الجزائرية، فضلاً عن أنه هو نفسه مَن وضع كلمة "الإسلام" في مواثيق الدولة الجزائرية في أثناء الثورة وبدايات الدولة؛

فإليه – وقت أن كان قائد جيش الحدود وقبل نجاح الثورة – يعود الجهد في وضع عبارة "المبادئ الإسلامية".

لكن مشروع "بومدين" في التوفيق بين الإسلام والثورة والحداثة، وعدم الحكمة الكافية في اختيار رجاله ومجيء مَن بعده، قد أدَّيا إلى الانفلات فيما بعدُ.. وراح البعض ينضم إلى تنظيمات إسلامية متطرفة.. تأتي على صيغة "بومدين"، وتعود إلى الوراء؛ حيث أفكار ورؤى فقهية وفكرية منتقاة من عصور التدهور.. ما كان – على الدوام – سببًا في سقوط الدول الإسلامية.

وتوازيًا مع أفكار "أبو الأعلى المودودي" شرقًا، و"سيد قطب" مشرقًا.. راحت جبهة الإنقاذ ثم الجماعة الإسلامية، ثم الجماعة المسلحة في الجزائر، تقطع الطريق وتبدأ عصرًا من المحنة وزمنًا كاملاً من الابتلاء.

وقد جاء ذلك على عكس الماضي الذي مهَّد لانتصار الإسلام في مواجهة الاستعمار، حين كان الشيخ الإمام "عبد الحميد بن باديس" يكمل مسيرة الشيخ الإمام "محمد عبده"، متجاوزًا جماعات الإسلام السياسي سعيًا وراء أصول الدين.. وأصول الدنيا.. معًا!

"5" عبد الحميد بن باديس يتقدم حسن البنا!

لما جاء الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر، كانت الخلافة العثمانية قد تخلت يوم الزحف، وتركت الجزائر للفرنسيين.. وجهًا لوجه!

غادر الأتراك، وبدأ النضال تحت قيادة الأمير "عبد القادر الجزائري"، والتف الثوار الأوائل حول الأمير الذي انتصر، ثم كان للسلاح الغلبة على الجرأة، وللجنرالات الغلبة على المجاهدين.

توالت من بعد ثورة الأمير "عبد القادر" ثورات وانتفاضات، ثم كان الهدوء، وعلى الرغم من أن بعضًا من الثوار ظلوا في رباط دائم، فإن أغلب الشعب الجزائري، الذي رأى دولة الخلافة وقد رحلت والعدو الفرنسي وقد انتصر، دخل في غيبوبة طويلة من التدين الجاهل، ساد أنحاء البلاد.

ويذكر "محمد علي دبوز" في كتابه "أعلام الإصلاح في الجزائر" – الذي صدر في قسنطينة عام 1974 – أن بعض الشيوخ في الزوايا والمريدين قد أغرقوا البلاد في صوفية عدمية ساعدت الاستعمار وأجهضت النضال، وكان عدد الزوايا وقتئذ نحو "349" زاوية فيها "295" ألف مريد.. "وكانت العامة إذا زارت المشايخ الأحياء تزحف على وجوهها من مسافة بعيدة قبل وصول مجلسهم.. أما قبور المشايخ فهي أماكن الرحمة والبركات، ترى الواحدة منهن قبل أن تصل إلى قبر الشيخ تتمسح بجدار مقبرته وتخشع وتنادي به باكية: يا سيدي فلان.. جئتك مستجيرة فاغفر لي ذنبي واقضِ حوائجي ودمر أعدائي"!

وكان منهم من يقول: "إن الاستعمار قدر الله، ومقاومة الاستعمار مقاومة لقدر الله"! وهكذا تحوَّل دور التصوف، الذي كان إيجابيًّا في بناء دولة الموحدين التي

أعادت لمنطقة المغرب العربي اعتبارها واستردت الأندلس من الأوروبيين، إلى دور سلبي في الجزائر عمل في خدمة الاستعمار!

* * *

واللافت للنظر هنا.. أن الاستعمار الفرنسي، الذي كان من الناحية الفكرية ممثلاً لفكر الحداثة والتنوير، قد عمل قدر طاقته لدعم هذه الصوفية العابثة، بل وزاد على ذلك بأن تحول هو نفسه في الجزائر إلى فكر مسيحي متطرف لا صلة له بما هو كائن في باريس. أبقى الفرنسيون الحداثة في بلادهم، وأداروا صراعًا دينيًّا بآليات دينية خارج أسوار فرنسا!

وما أكثر التصريحات الفرنسية الرسمية التي تصف احتلال الجزائر بأنه "حملة صليبية جديدة"، وقد جرى إرسال البعثات التبشيرية المسيحية والتركيز على تحويل الأطفال الجزائريين إلى المسيحية، كما تم بناء الكثير من الكنائس، حتى ليذكر أحد المراقبين وقتها أن "القرى الجزائرية كانت حافلة بالكنائس ذات الأجراس، ولا تلمح في بلاد المسلمين مئذنة جامع واحد"، وبشهادة مراقب آخر، فإن "القسيس الذي كان محارَبًا في بلاده في ظل الحكومات العلمانية أصبح الساعد الأيمن لمدير المستعمرات والبطل المقدام في معركة الغزو الفكري"..

وقد غالى الفرنسيون العلمانيون في تديين الصراع في الجزائر؛ فدخلوا المساجد وحوَّلوا بعضها إلى كنائس.

ويذكر "بسام العسلي"، في كتابه "عبد الحميد بن باديس"، أن "روفيجو" – وزير الشرطة في عهد "نابليون بونابرت" المعين حاكمًا على الجزائر – قال لضباطه: "أريد أجمل مسجد في المدينة – قسنطينة – لنجعل منه كنيسة للمسيحيين".. وتم تحويل مسجد "كتشاوة" التاريخي، الذي يقع في ساحة "بن باديس" حاليًّا، إلى كنيسة، وظل المسجد كنيسة إلى أن استعاده المسلمون عام 1962 وأعادوه مسجدًا.

ويصف الشيخ "محمد البشير الإبراهيمي"، في "عيون البصائر"، تلك المسيحية الصليبية الاستعمارية البعيدة عن الرومانية والحداثة معًا بأنها "مسيحية أوروبا الماديَّة التي قطعت روما صلتها بروحانية الشرق، وجففتها من مائيته.. واتخذها الطغاة سُلَّمًا إلى الملك والتسلط".

ولما كان الأمر على هذا الحال.. خلافة تتولى يوم الزحف، وأمير يخوض جهادًا يائسًا ضد الاستعمار، ومواطنون يقطنون قبور الأولياء.. كان لا بد من رؤية كبرى للإصلاح.. إفاقة النائم وجمع الشارد.. إحياء العقل وإعادة التربية.. والاستعداد ليوم عظيم.. وهنا جاء الشيخ "بن باديس".

* * *

وُلد الشيخ "عبد الحميد بن باديس" لأسرة مرموقة في قسنطينة عام 1889، ويعود نسبه إلى أسرة أمازيغية مالكة هي أسرة "المعز الصنهاجي"، وكانت أسرته تتعامل مع الإدارة الاستعمارية.. فجده "مكي بن باديس" كان قد تحصل على وسام من يد "نابليون الثالث" عام 1864، وأبوه "محمد المصطفى بن مكي بن باديس" كان عضوًا في المجلس الأعلى للجزائر.

أتم "بن باديس" حفظ القرآن الكريم في السنة الثالثة عشرة من عمره، ثم أكمل دراسته في جامع الزيتونة في تونس؛ حيث درس هناك من عام 1908 إلى عام 1912، وكان طموحه أن يكوِّن حلقة دراسية يتفرغ لها في قسنطينة مثل التي شهدها في تونس، وتفرغ بالفعل إلى حلقات الدرس في الجامع الأخضر.

وفي عام 1925، أسس "بن باديس" صحيفة "المنتقد"، أول صحيفة تصدر بالعربية في الجزائر، كما أنشأ المطبعة الجزائرية الإسلامية في قسنطينة عام 1925، لتقوم بمختلف أنواع الطباعة، إضافة إلى طبعها مجلتيه: "الشهاب" و"البصائر"، كانت مجلة "الشهاب" ملكًا لـ"بن باديس"، وكانت "البصائر" لسان حال جمعية

العلماء. وفي عام 1940، رحل الشيخ "بن باديس"، وقد جمع "عمار الطالبي" آثار "بن باديس" في جزأين صدرا بعد ربع قرن من وفاته.

* * *

كان "بن باديس" هو الإمام المجدِّد في الجزائر، وهو الامتداد المباشر لأستاذه الإمام "محمد عبده" في مصر. ويمكن القول عمومًا بأن حركة التجديد في الفكر الإسلامي قد تصدرها في مطلع ذلك الزمن الحافلِ الشيخُ "جمال الدين الأفغاني"، ثم الإمام "محمد عبده"، ثم الشيخ "رشيد رضا"، إلى أن ورث الأستاذ "حسن البنا" تراث الفكر الإصلاحي ليذهب به إلى طريق السياسة.

ومن بين الثلاثة يظهر جليًّا أن الشيخ "محمد عبده" هو الداعية الأكثر علمًا ومسئولية، وهو في ذلك يفوق كثيرًا ما كان عليه أستاذه "الأفغاني" ويفوق أكثر ما جاء به لاحقًا تلميذه "رشيد رضا" الذي مهَّد لحركات الإسلام السياسي.

كان "رشيد رضا" ثم "حسن البنا" أكثر قربًا لـ"الأفغاني"، ولم يجد الإمام الأعظم "محمد عبده" امتدادًا له في مصرَ قدر ما وجده خارجًا؛ حيث جاء الشيخ "بن باديس" في الجزائر.

امتلك الإمام "محمد عبده" رؤية استراتيجية إزاء إحياء العالم الإسلامي، وأدرك أنها التربية والإصلاح الاجتماعي، وهي الاعتدال ومواكبة العصر، وهو غير ما كان عليه "الأفغاني" وحركة الإسلام السياسي من بعدُ، التي اختزلت الغاية في السياسة والسلطة.

وعلى هذا النحو من الوعي بذلك الفارق بين مشروع "محمد عبده" ومشروع "الأفغاني" وتابعيه، يقول الفيلسوف الإسلامي "مالك بن نبي"، في كتابه "وجهة العالم الإسلامي": "كان الشيخ محمد عبده أزهريًّا، ومصر منذ عصور سحيقة أمة زراعية مرتبطة بالأرض، أي أنها كانت على طول التاريخ مجتمعًا يتكون فيه الفرد

وسط جماعة؛ فهو لذلك مزود بغريزة الحياة الاجتماعية، والأزهر من ناحية أخرى كان يمد الحياة الاجتماعية بعقليات متمسكة بدينها.. وبهذا التكوين واجه الشيخ محمد عبده مشكلة الإصلاح؛ فبعد أن أدرك حقيقة المأساة، وجد أنه من الضروري أن ينظر إليها كمشكلة اجتماعية، على حين أن أستاذه الأفغاني ذا العقل القبلي العفوي قد تناولها من الناحية السياسية"..

"والفضل في نشأة الحركة الإصلاحية واتجاهها الذي اصطبغت به يعود إلى تلك الاستعدادات الأصيلة لدى الشيخ المصري الذي كان بحق أستاذ تلك المدرسة.. كان الشيخ محمد عبده يعلم علم اليقين أنه لكي يتحقق الإصلاح يجب أن يبدأ خطوته الأولى من الفرد".

ويزيد "مالك بن نبي"، في كتابه "مشكلة الثقافة": "إن ريح الإصلاح التي هبَّت على العالم الإسلامي منذ محمد عبده وتلامذته، كـ"بن باديس"، بشائر ذلك التحديد لأسباب ضعفنا وعوامل انحطاطنا".

وقد امتد الزمن فيما بعدُ ليذهب "سيد قطب" ثم جماعات الإسلام السياسي إلى أبعد وأبعد، وليبقى صدى "بن باديس" في الجزائر وحدها، فيما يصل صدى "سيد قطب" – عبر تنظيم القاعدة – إلى جنبات الأرض، ثم ليذهب صدى "بن باديس" نفسه في بلاده.. بعد أن جاء "عباس مدني" ورفاقه بأفكار أخرى وسياسات أخرى أضاعت حصاد الثورة وعصر الإصلاح.

* * *

كانت الحركة الإسلامية الجزائرية في زمن الكفاح ضد الاستعمار ذات طابع حضاري، وكانت تسعى للتقرب حتى إلى أولئك الذين يختلفون مع النهج والسعي، وهو ما انتهى حين اشتعلت حروب داخل الجماعات الإسلامية، إلى جوار حروبها مع المجتمعات المسلمة.

في زمن "الإسلام الحضاري"، قبل زمن "الإسلام السياسي"، التقى الشيخ "بن باديس" رفيقه الشيخ "محمد البشير الإبراهيمي"، والرجلان هما دُرَّتا العقد في بناء جمعية العلماء التي كان لها فضل التربية والتحرير.

والشيخ "البشير الإبراهيمي" من مواليد 1889، شأن رئيسه الشيخ "بن باديس"، وقد التقى الاثنان في المدينة المنورة التي زارها "البشير الإبراهيمي"، بعد أن زار مصر وتعرف على الفكر الإصلاحي فيها، ثم التقاه "بن باديس" قادمًا من الطريق نفسه إلى المدينة المنورة عام 1913.

وقد ذهب "الإبراهيمي"، بعد ذلك، إلى دمشق ليلقي دروسًا في المسجد الأموي عام 1916، وهناك تعرَّف على "رشيد رضا"، تلميذ الإمام "محمد عبده". أما الإمام ذاته فقد تعرف عليه "بن باديس" عام 1903 في أثناء زيارة الإمام للجزائر في إطار رحلة له في المغرب العربي.

وكان من أصدقاء الشيخين "بن باديس" و"الإبراهيمي".. العالم التونسي "أحمد توفيق المدني"، المولود معهما عام 1889، وقد التقوا جميعًا في حلقات العلم في جامع الزيتونة.

و"المدني" هو الصديق الحميم للأمير "شكيب أرسلان"، المؤرخ والمصلح اللبناني والملقب بأمير البيان، الذي وُلد قبلهم بعشرين عامًا في 1869 وتوفي بعد "بن باديس" بست سنوات في 1964.

وقد كان للأمير "شكيب أرسلان" صلة بالفيلسوف "مالك بن نبي"، عن طريق صديقهما "فريد زين الدين"، الذي أصبح نائب وزير الخارجية في دولة الوحدة المصرية – السورية.

أما تعارف الفيلسوف "مالك بن نبي" والشيخين "بن باديس" و"الإبراهيمي" فقد كان في باريس، حين ذهب الشيخان يطالبان بالمشاركة البرلمانية، وفي باريس

تعرف "بن نبي" على المستشرق "ماسينيون" والزعيم "المهاتما غاندي" والأزهري المصري "محمد عبد الله دراز"، وفي القاهرة التقى "جمال عبد الناصر" وعاش في منطقة المعادي بالقاهرة بضع سنين.

ويذكر الباحث الجزائري "سمير الإدريسي" أن الشيخ "البشير الإبراهيمي" قد تم تقديمه في مصر كعضو شرفي في جماعة الإخوان المسلمين وأنه ألقى خطبة فيهم ولاقى إعجابهم بفصاحته وحضوره، وكان ذلك في طريق عودته من دمشق.

وقد كان "البشير الإبراهيمي" مثل الشيخ "الورتلاني"، الذي كان له دور كبير في الثورة اليمنية، كان كلاهما وآخرون أعضاء في الجماعتين.. جماعة الإخوان، بزعامة "حسن البنا" في مصر، وجمعية العلماء، بزعامة الشيخ "بن باديس" في الجزائر.

* * *

سبق الأستاذ "حسن البنا" الشيخ "بن باديس" بثلاث سنوات في تأسيس الجماعة؛ فقد تأسست جماعة "الإخوان المسلمين" علم 1928، وتأسست "جمعية العلماء الجزائرية" عام 1931.

وبدأ "البنا" جماعته بأفق عالمي لكل المسلمين، غير أن "بن باديس" اكتفى في جماعته بتحرير التراب الجزائري من الاستعمار وتربية المسلم في الجزائر. وتبدو التسمية الرسمية نفسها مفسرة لتفاوت النطاق بين الرجلين والجماعتين؛ فجماعة الأستاذ "البنا" سُمِّيت الإخوان المسلمين.. وكفى، لكن جمعية الشيخ "بن باديس" تحددت باسم "العلماء الجزائريين".

لكن جماعة الأستاذ "البنا" – المتأثرة بـ"الأفغاني" و"رشيد رضا" أكثر من الإمام "محمد عبده" – احترفت السياسة، وبقيت جمعية الشيخ "بن باديس" على مشروعها الإصلاحي الحضاري.

يقول المستشرق الإنجليزي "جيب": "ذهب الجزائريون إلى أبعد مما ذهب إليه مذهب صاحب المنار "رشيد رضا"؛ فزيادة على دعايتهم، شرعوا في إحياء المدارس القرآنية الابتدائية وإنشائها في جميع أنحاء البلاد للتأثير في الجيل الصاعد، وقد تكللت جهودهم بالنجاح، إذا ما أخذنا في الاعتبار العراقيل التي اصطدموا بها".

ويذكر الشيخ "البشير الإبراهيمي"، في آثاره، أن "الثورة التعليمية التي أحدثها الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس، بدروسه الحية والتربية الصحيحة التي كان يأخذ بها تلاميذه، والتعاليم الحقة التي كان يبثها في نفوسهم الطاهرة النقية، والإعداد البعيد المدى الذي كان يغذي به أرواحهم الوثابة.. كان لها الأثر الإيجابي الكبير في بناء الجزائر".

وقد كان "بن باديس" أشبه بالفيلسوف اليوناني "سقراط" في بث تعاليمه بين الناس، أخذ من الإمام "محمد عبده" الطرح الإصلاحي ومركزية التربية في الإصلاح، وأخذ من "سقراط" سعيه بين الناس بالعظة والحوار.

وتذكر الكتابات أن مسئولاً فرنسيًّا استعماريًّا استدعاه بصفته رئيسًا لجمعية العلماء وهدده قائلاً: "إما أن تقلع عن هذه الأفكار وإلا أغلقنا المسجد الذي تنفث فيه سمومكم ضدنا". فقال "بن باديس": "لن تستطيع ذلك؛ فأنا إن كنت في عُرس علَّمت المحتفلين وإن كنت في مأتم وعظت المعزِّين، أو في القطار علَّمت المسافرين، أو في سجن أرشدت المسجونين.. فأنا معلم مرشد في جميع الميادين".

* * *

جاء "بن باديس" في أجواء فكرية وسياسية صاخبة، كانت الثورات تتلاحق والفشل يلاحقها، وكان الاستعمار الفرنسي يمعن في القتل والاستيطان. ضيَّق الاستعمار على الأرياف وجرَّد الفلاحين من الأراضي وأرهقهم بالضرائب ودمَّر التضامن الاجتماعي بين سكان الريف.

في عام 1847، انتهى كفاح الأمير "عبد القادر الجزائري"، وبقيت محاولات التمرد على الاستعمار، وعندما استولى "نابليون الثالث" على الحكم في فرنسا عام 1852 كانت هناك مناطق شاسعة من الجزائر لا تزال خارجة عن النفوذ الفرنسي.

وفي الفترة من عام 1860 إلى عام 1870، اجتاحت الجزائر مجاعة شديدة، كان عدد الأوروبيين قبلها "220" ألفًا، زادوا بعدها إلى "289" ألفًا عام 1872، وكان عدد الجزائريين قبلها "2.7" مليون نسمة نقصوا بعدها إلى "2.1" مليون عام 1872، بعد أن مات ستمائة ألف جزائري في المجاعة، أي أن عدد الجزائريين قد انخفض بنسبة "22٪".

كانت تلك المجاعة القاسية من بين الأسباب التي دعت إلى ثورة 1871، ثم ثورة الأوراس في 1879، ثم ثورة "بو عمامة" في الغرب الجزائري 1880.

ويذكر المفكر الجزائري "محمد الميلي"، في كتابه "بن باديس وعروبة الجزائر"، الذي صدر في الجزائر عام 1973، أن المقاومة المسلحة للاستعمار الفرنسي قد تركزت ما بين عامي 1830 و1871.. وبعد هذا التاريخ أصبحت المقاومة المسلحة نادرة، ووُجدت تيارات تطالب بالحقوق السياسية ثم الاستقلال.. وكانت تلك خصائص عصر "بن باديس".

* * *

كانت الأسئلة المطروحة في أعقاب الحرب العالمية الأولى كثيرة ومتضاربة: من نحن؟ من العرب؟ من البربر؟ إلى أي مدى يمكن أن تُعتبر الجزائر أرضًا فرنسية؟ ما الطريق إلى المستقبل؟ هل نذهب شمالاً أم نتجه شرقًا؟ وما دور الدين في هذا كله؟

هنا كان "بن باديس" يعيش مشكلات عصره ويعانيها معاناة فكرية وحسية، ومن هنا أيضًا كان الانقطاع لمواجهة هذه المشاكل في جميع الميادين.

يشرح "محمد الميلي" رؤية "بن باديس" لمكونات الشخصية الجزائرية، تلك التي هي أمازيغية بالأصل عربية إسلامية بالنهاية..

يرى "بن باديس" أن الأمة الجزائرية كانت أمازيغية من قديم عهدها، وأن جميع الأمم التي اتصلت بها لم تستطع أن تقلبها عن كيانها ولم تخرج بها عن أمازيغيتها أو تدمجها في عنصرها، بل كانت هي التي تبتلع الفاتحين فينقلبون إليها ويصبحون كأبنائها، لكن الأمازيغ دخلوا الإسلام وتعلموا لغته العربية طائعين، فوجدوا أبواب التقدم في الحياة كلها مفتوحة في وجوههم، فامتزجوا بالعرب بالمصاهرة وقاسموهم مجالس العلم وشاطروهم السياسة والملك وقيادة الجيوش وأقام الجميع صرح الحضارة الإسلامية.

يقول "بن باديس": "إن اللغة العربية والآداب العربية هي لسان الأمة الجزائرية كلها، أما اللغة الأمازيغية فلا تُستعمل إلا في بعض النواحي القليلة استعمالاً شفاهيًا محليًّا، ثم إن اللغة العربية هي لغة الكتابة والخطابة والتعليم".. "وليس تكوُّن الأمة يتوقف على اتحاد دمها، ولكنه متوقف على اتحاد قلوبها وأرواحها وعقولها اتحادًا يظهر في وحدة اللسان وآدابه واشتراك الآلام والآمال".

وفي مقال له بعنوان "ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان"، يقول "بن باديس": "إن أبناء يعرب وأبناء أمازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنًا، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء حتى كوَّنت منهم في أحقاب بعيدة عنصرًا مسلمًا جزائريًّا، أمه الجزائر وأبوه الإسلام".

وفي مقال له بعنوان "كيف أصبحت الجزائر عربية؟"، يقول "بن باديس": "إنك تجد في قرى من دواخل فرنسا أمة واحدة وعلى جبالها من لا يحسن اللغة الفرنسية، ولم يمنع ذلك القليل من أن تكون فرنسا أمة واحدة، وهذه الحقيقة الموجودة في فرنسا يتعامى الغلاة المتعصبون عنها، ويحاولون بوجود اللغة الأمازيغية

في بعض الجهات، وجودًا محليًّا، وجهل عدد قليل في رءوس الجبال بالعربية أن يشككوا في الوحدة العربية للأمة الجزائرية التي كوَّنتها القرون وشيَّدتها الأجيال".

ثم ينتقل "بن باديس"، بعد تسوية الوضع العربي – الأمازيغي، إلى تسوية الوضع الجزائري – الفرنسي.. ذلك الشق الآخر من أزمة الشخصية الجزائرية.. في صفاء ووضوح يجمل "بن باديس" ذلك الأمر بقوله: "إن الغرب استغل تفوقه الحضاري علينا وتخلفنا الفكري، فصاغ لنا اختيار المستقبل في قالب طريقين متناقضين لا يمكن التوفيق بينهما.. إما طريق الثقافة الاستعمارية التي تستلزم التنكر للتراث الإسلامي، وإما طريق الثقافة الجامدة والانغلاق على الحياة العصرية ومتطلباتها والاكتفاء بالتفرج على الركب السائر بدل السير والإسهام فيه"!

وفي 13 نوفمبر 1937، كتب "بن باديس" في مجلة "الشهاب": "إن الأمة الجزائرية ليست فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها وأخلاقها، وفي عنصرها وفي دينها.. لا تريد أن تندمج ولها وطن محدد ومعين هو الوطن الجزائري".

* * *

إذًا فلقد قال "بن باديس" بأن الجزائر وطن واحد لا فرق فيه بين عرب وأمازيغ، وبأنها أيضًا وطن كامل غير الوطن الفرنسي.. وأمة وشعب غير الأمة والشعب هناك. ووحدة الجزائر في مواجهة الداخل والخارج كانت عماد الفكر السياسي عند "بن باديس".

لكن الإمام "بن باديس" كان أكثر رحابة واهتمامًا بقضايا الفكر السياسي والإنساني الأخرى؛ ففي ذلك الوقت المبكر اتخذ موقفًا فلسفيًّا مفهومًا إزاء قضية المرأة الجزائرية ودورها.. كانت عينه على المستقبل ورأى أن الفائدة الأعم في جيل جديد يتمتع بالوعي، وأن المرأة الإيجابية هي من تحقق ذلك، سواء أكانت عالمة أم جاهلة؛

فالمعيار هو: كيف تقدم المرأة أبناء المجتمع؟

يقول الشيخ "بن باديس" في حسم: "إن المرأة الجاهلة التي تلد للجزائر أبناء يعرفونها، خير من العالمة التي تلد للجزائر أبناء لا يعرفونها".

لقد كان من الأنسب أن يذهب "بن باديس" إلى القول: "إن المرأة العالمة التي تلد للجزائر أبناء يعرفونها خير من المرأة التي تلد للجزائر أبناء لا يعرفونها"، لكن ظروف المجتمع والمرحلة والحاجة إلى أجيال جديدة ذات بناء تربوي ناجح.. كانت سابقة للوسائل والطرائق.

وفي قضية العروبة والإسلام، يذهب "بن باديس" إلى رأي جسور لم يعتَد القول به عموم المسلمين.. يقول "بن باديس": "العرب مظلومون في التاريخ؛ فالناس يعتقدون ويعرفون أن العرب كانوا همجًا لا يصلحون لدنيا ولا دين، حتى جاء الإسلام فاهتدوا به فأخرجهم من الظلمات إلى النور".. يعقب "محمد الميلي": "ينكر بن باديس على المفسرين التقليديين تفسيرهم للمصانع بالقصور، والسائحين والسائحات بالصائمين والصائمات، ويؤكد أن المقصود بالمصانع هو المعامل، وأن المقصود بالسائحين هو الرحالون والرواد من أجل الاطلاع والاكتشاف؛ لأن فائدة السياحة قد تكون أتمَّ وأعمَّ من فائدة بعض الركوع والسجود".

* * *

نصل إلى محطة مهمة في الفكر السياسي لـ"بن باديس"، نعني بذلك موقفه من قضية الخلافة الإسلامية التي أربكت المشرق وأقامته على الشيخ "مصطفى عبد الرازق" حين اجتهد صائبًا بالقول بعدم حتميتها.

يقول "بن باديس": "لقد علمت الدول الغربية الاستعمارية أن فتنة المسلمين اسمها "الخليفة"، فأرادت أن تستغل ذلك عدة مرات أصيبت فيها كلها بالفشل، والعجب أن يندفع المسلمون، وعلى رأسهم أمراء وعلماء، ومن هذا الاندفاع ما يتحدث

به في مصر فتُردد صداه الصحف في الشرق والغرب، وتهتم له صحافة الإنجليز على وجه الخصوص.

يتحدثون في مصر عن "الخلافة" كأنهم لا يرون المعاقل الإنجليزية الضارية في ديارهم! كفى غرورًا وانخداعًا.. إن الأمم الإسلامية اليوم، حتى المستعبَدة منها، أصبحت لا تخدعها هذه التهاويل ولو جاءتها من تحت الجبب والعمائم".

* * *

ويلفت النظرَ الفكرُ السياسي عند "بن باديس" ورؤيته لإلغاء الخلافة وعصر "أتاتورك".. يقول "بن باديس" – في مقال له نشرته مجلة "الشهاب" في نوفمبر عام 1938–: "في السابع عشر من رمضان المعظم، لفظت أنفاس أعظم رجل عرفته البشرية في التاريخ الحديث، وعبقري من أعظم عباقرة الشرق، الذين يطّلعون على العالم في مختلف الأحقاب، فيحوّلون مجرى التاريخ ويخلقون خلقًا جديدًا.. ذلك هو مصطفى كمال أتاتورك.. باعث تركيا من شبه الموت إلى حيث هي اليوم من الغنى والعز والسمو".

"لقد ثار كمال أتاتورك ثورة جامحة، ولكنه لم يثُر على الإسلام، وإنما ثار على هؤلاء الذين يسمُّون المسلمين، فألغى الخلافة الزائفة وقطع أيدي أولئك العلماء عن الحكم، وقال للأمم الإسلامية: عليكم أنفسكم وعليَّ نفسي، لا خير لي في الاتصال بكم ما دمتم على ما أنتم عليه، فكونوا أنفسكم ثم تعالوا نتعاهد ونتعاون مثل الأمم ذوات السيادة".

"نعم، إن "أتاتورك" نزع عن الأتراك الأحكام الشرعية، وليس مسئولاً عن ذلك وحده، وفي إمكانهم أن يسترجعوها متى شاءوا وكيفما شاءوا، ولكنه أرجع لهم حريتهم واستقلالهم وسيادتهم وعظمتهم بين أمم الأرض، وذلك ما لا يسهل استرجاعه لو ضاع، هو وحده كان مبعثه ومصدره".

* * *

قبل مجيء الشيخ "بن باديس" كان الشعار السائد "اعتقد ولا تنتقد"، فأسس في عام 1925 صحيفة "المنتقد"، عازمًا القضاء على هذا الشعار المتهافت.. وقد استطاع.

نجح "بن باديس" في إعداد الرجال للثورة التي جاء وقودها من الموقد الذي أشعله، ولولا "بن باديس" وخليفته "البشير الإبراهيمي" وجمعية العلماء، التي أسساها، لما تهيأت تربة الجزائر للثورة العملاقة التي جاءت بعد قليل.

* * *

رحل "بن باديس" عام 1940 وتولى "البشير الإبراهيمي" رئاسة الجمعية حتى حلها عام 1965. وكانت نهاية الرجلين التعبير الأمثل عمَّا جرى في الجزائر قبل الثورة وبعد الدولة!

رحل "بن باديس" بعد يأسه من الحل السلمي الذي ذهب لأجله إلى باريس عام 1936 ولاقى انتقادات على سعيه. رحل عام 1940 وهو ممنوع من التدريس والخطابة والنشاط، ورهن الإقامة الجبرية. وتولى "البشير الإبراهيمي" موقعه، وهو من أطلق من القاهرة أول بيان مؤيد للثورة الجزائرية.

جاء "بن بلة" بعد نجاح الثورة ليضع نهاية لجمعية العلماء، كان هناك وجهُ شبهٍ بين أحداث الثورة المصرية والثورة الجزائرية في هذا السياق. تعاملت ثورة الجزائر مع جمعية العلماء بمثل ما تعاملت الثورة المصرية مع "الإخوان المسلمين"، لكن الفارق الأعظم أن الجمعية كان لها نصيب وفير في الثورة الجزائرية.. رجالاً وأفكارًا، وهو ما لم يكن لـ"الإخوان المسلمين" في مصر.

ثم إن الجمعية كانت جميعها، وبلا استثناء، صوت الاعتدال والوسطية، لكن مكون التطرف كان يتصاعد داخل "الإخوان المسلمين".

لكن بعض الأخطاء تطابقت؛ فبمثل ما طلب "الإخوان" من الرئيس "عبد الناصر" باعًا في السلطة والحكم، قال "البشير الإبراهيمي" للرئيس "بن بلة" عام 1963، منتقدًا استبعاد جمعية العلماء من الحكم: "لا على هذا اتفقنا".. فكان أن وضع "بن بلة" الأساس لنهاية جمعية العلماء.

وقد انتهز "بومدين"، لاحقًا، صدور بيان من "البشير الإبراهيمي" يستنكر فيه إعدام "سيد قطب" على يد الرئيس "عبد الناصر"، فقام بوضعه رهن الإقامة الجبرية.

وغابت جمعية العلماء المسلمين الجزائرية عن الساحة حتى عادت عام 1999 برئاسة "عبد الرحمن شيبان"، لكنها جاءت هذه المرة كواحدة من جمعيات لا حصر لها.. وتالية في النفوذ لجماعات الإسلام السياسي وتنظيمات العنف التي أطاحت بالمشروع الإصلاحي وبتراث الثورة والدولة.

وهكذا اختتمت جمعية العلماء حياتها بمفارقتين كبيرتين، الأولى: أن مؤسسها الأول "بن باديس" مات في الإقامة الجبرية بقرار الاستعمار الفرنسي، ومؤسسها الثاني "الإبراهيمي" مات في الإقامة الجبرية بقرار الثورة الجزائرية. والمفارقة الثانية: أن الجمعية غابت حيث كانت قريبة من التجربة ورائدة للحركة الإصلاحية، وعادت حيث أضحت بعيدة عن كل شيء، عن الماضي الذي تآكل وعن الحاضر الذي تلاشى!

"6" "مالك بن نبي" على خطى الإمام "محمد عبده"

يعد "مالك بن نبي" أهم فيلسوف جزائري، وهو على وجه العموم فيلسوف إسلامي إصلاحي، أو هو – إن شئت – أحد رواد ما يسمى الإسلام الحضاري.. وهو سابق على آخرين ينتمون إلى ما يرى من وظيفة حضارية للإسلام.. كالفيلسوف الإسلامي المصري "رشدي فكار".. وهم أيضًا موافقون للخط الفكري للأمير "شكيب أرسلان" في لبنان، الذي برزت شهرته في النصف الأول للقرن العشرين، وللشيخ "عبد الحميد بن باديس"، الذي يرى "مالك بن نبي" أنه "قام بمهمته على خير وجه، ولكن فردًا واحدًا يعجز عن القيام بتلك المهمة وحده".. وجميعهم مفكرون كبار في مدرسة الإمام "محمد عبده" الإصلاحية.

لكن "مالك بن نبي" ليس بذلك الفيلسوف المحظوظ الذي لاقى شهرة لائقة؛ فهو غير معروف على نطاق واسع، وحتى داخل الجزائر لا يحظى بالانتشار، ويرى المثقفون أن "بن نبي" كان "شديد النخبوية"، وأنه كان رجل فكر لا يتعاطى إلا مع الفكر، وعلى الرغم من شهرته واحترامه بين الجامعيين فإن العامة لم يلتفتوا إليه، وتسمَّى جماعته من المريدين الفكريين جماعة النخبة، وهم لا يقبلون من ينتمي إليهم إلا إذا كان جامعيًّا ونخبويًّا.

و"مالك بن نبي" هو رجل الثقافة الجزائري الثاني من بعد الشيخ "بن باديس"، والفيلسوف الأول من قبلُ ومن بعدُ، غير أن "بن باديس"، الذي كان نخبويًّا هو الآخر، لاقى شهرته من مهاراته الشخصية وزعامته وحضوره الإنساني والسياسي.

و"مالك بن نبي" والشيخ "بن باديس" كلاهما إصلاحي، يؤمن بالتغيير

الاجتماعي السلمي أكثر من أي فكر آخر، وقد رحل "بن باديس" قبل الثورة التي مهَّد لها، وبقي "بن نبي" بعد الدولة التي حذر منها!

* * *

وُلد الفيلسوف الجزائري "مالك بن نبي" في مدينة قسنطينة عام 1905، وفيها درس المرحلة الثانوية. وكانت قسنطينة منطلق "بن باديس" في الدعوة إلى الإصلاح، وموضع إعجاب واهتمام الجزائريين كلهم..

يقول "مالك بن نبي" – في كتابه "مذكرات شاهد للقرن" –: "كان منظر "بن باديس" عند مروره في طريقه إلى مكتبه قد بدأ يثير اهتمامنا؛ فكثير من أفكارنا وآرائنا تتصل بشخصيته أكثر من اتصالها بالشيخ "بن ميهوب" الذي كان أول من زرعها في نفوسنا". وقد تعرف "مالك بن نبي" على "بن باديس" في قسنطينة عام 1928 للمرة الأولى، وتواصلت العلاقة بينهما.

وفي مارس عام 1930، سافر "بن نبي" إلى فرنسا للدراسة، وهناك درس هندسة الكهرباء في مدرسة اللاسلكي.. ليتخرج مهندسًا في عام 1935.

في عام 1940، ألَّف "مالك بن نبي" – الذي كان مبهورًا بالتجربة اليابانية – كتابه "الإسلام واليابان والمجموعة الآسيوية"، وسلمه إلى السفارة اليابانية في باريس عام 1940، أي قبل دخول اليابان الحرب.

وفي عام 1944، اتهمت فرنسا "بن نبي" بالتعاون مع الألمان، وتم إدخاله السجن في مدينة شارتر، غرب باريس. وفي عام 1945، تم تقديمه للمحاكمة التي برَّأته وأطلقت سراحه.

وخلال إقامته بسجن "شارتر" هذا، ألَّف كتابه المهم "الظاهرة القرآنية"، الذي يعد باكورة إنتاجه؛ حيث إن كتابه عن "الإسلام واليابان والمجموعة الآسيوية"، الذي سلَّمه للسفارة اليابانية في باريس مخطوطًا، لم يُنشر ولا يعرف أين

هو إلى الآن. وقد نشر كتابه "الظاهرة القرآنية"، الذي ألَّفه بالسجن عام 1944، بعد ذلك بأربع سنوات، عام 1948.

في عام 1956، جاء "مالك بن نبي" إلى مصر ولم يذهب بعدها إلى فرنسا قط، وفي القاهرة اتصل بالرئيس "جمال عبد الناصر"، وخصصت له الحكومة المصرية مرتبًا شهريًّا، ما ساعده في التفرغ الفكري في أثناء سكنه في حي المعادي، وبقي في مصر حتى عام 1963 بعد استقلال الجزائر.

وفي مصر، أتقن "مالك بن نبي" اللغة العربية وعايش تطور عصر الثورة فيها. وكان "بن نبي"، حين جاء إلى مصر، يحمل نسخة بالفرنسية من كتابه "الفكرة الأفريقية الآسيوية"؛ حيث نشرت له سلسلة "اخترنا لك" بالقاهرة ترجمة كتابه، وأجرى معه الدكتور "مصطفى محمود" حوارًا لمجلة "روز اليوسف" قدمه فيه للقارئ في مصر.

ألَّف "مالك بن نبي" عددًا من الكتب، أهمها: "الظاهرة القرآنية"، "شروط النهضة"، "وجهة العالم الإسلامي"، "الفكرة الأفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونج"، "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة"، "المسلم في عالم الاقتصاد"، "مشكلة الثقافة"، "ميلاد مجتمع"، "إنتاج المستشرقين"، "بين الرشاد والتيه"، "آفاق جزائرية"، "تأملات في مهب المعركة"، "دور المسلم ورسالته"، "مذكرات شاهد قرن".

ويصف "أنور الجندي"، في كتابه "الفكر والثقافة المعاصرة"، مجمل مشروع "مالك بن نبي" بالتفوق والوعي، ويقول: "إن مالك بن نبي يختلف كثيرًا عن الدعاة المفكرين والكتاب؛ فهو فيلسوف أصيل له طابع العالم الاجتماعي، أتاحت له ثقافته العربية والفرنسية أن يجمع بين علم العرب وفكرهم المستمد من القرآن والسنة والفلسفة والتراث العربي الإسلامي الضخم وبين علوم الغرب وفكرهم المستمد من تراث اليونان والرومان والمسيحية".

ويصف "محمد الميلي" مجمل مشروع "مالك بن نبي" بالاستنارة "فالفكر الأساسي لمالك بن نبي يقوم على أن الإسلام قادر على تحصين الشعوب ضد مخاطر الضياع، لكن خطابه ليس سلفيًّا ولا ماضويًّا ولا وعظيًّا؛ فهو يربط الإسلام، كقيم وأخلاق واجتهاد، بمتطلبات التنمية من جهة وبالروافد الغربية من جهة أخرى".

وقد تُرجمت كتابات "مالك بن نبي" من الفرنسية إلى العربية، وأبرز الذين قاموا بترجمتها "عبد الصبور شاهين" و"عمر مسقاوي". وقد توفي "مالك بن نبي" في 31 أكتوبر عام 1973.

* * *

يشير المفكر الجزائري "محمد الميلي" في مقالة مطولة نشرتها مجلة "وجهات نظر" عن "مالك بن نبي" في إلى ذلك الإهداء الذي وضعه "بن نبي" في صدر كتابه "آفاق جزائرية"، الذي وجهه "بن نبي" إلى الأمير "عبد القادر الجزائري".

ويذكر "الميلي" أن الأمير "عبد القادر" هو أول من فكّر في إقامة دولة على أسس عصرية، مستلهمًا في ذلك تجربة "محمد علي" في مصر من جهة وتجربة الثورة الفرنسية من جهة أخرى.

ولا يكاد المرء يسبر بسهولة أغوار هذا الفيلسوف الجزائري الثري؛ فهو يضع عينًا على زمنٍ أول.. على الثورة "التي نجحت في فرنسا" وعلى الدولة "التي نجحت في مصر" في وقت واحد تقريبًا؛ فالدولة الفرنسية الحديثة التي جاءت بعد الثورة الفرنسية لا يبعدها عن الدولة المصرية الحديثة التي جاءت مع عصر "محمد علي" إلا بضع سنين.. ستة عشر عامًا. ثم يضع عينًا أخرى على زمنٍ آخر.. على الثورة المصرية عام 1952 ثم الثورة الجزائرية عام 1954، ليرى أنهما بداية التأسيس الجديد للعالم الإسلامي. وهما الثورتان اللتان استبعدتا الطرح الإصلاحي، ونجحتا بامتياز كثورة.. ثم أخفقتا بقوة كدولة.

* * *

على الرغم من أن "مالك بـن نـبي" قـد وجّـه نقـدًا جـسورًا للثـورة والدولـة في الجزائر، غير أنه لم يكن محددًا في تقديمه للطرح الإصـلاحي، فهـو إذْ ينتقـد الطـرح الثوري يقدم البديل الحضاري.

إن الثورة فعل سياسي إجرائي، وهي تحتاج إلى ترشـيد واسـتثمار مـن خـلال فعل سياسي إجرائي آخر.. وليست الحضارة بـالرد المناسـب زمنًـا وفعـلاً علـى أزمـة السياسة.. فإذا كان "بن بلة" والثائرون معه هم الذين أفسدوا الثورة مثلاً، فـلا يكـون الحل هو رد الأزمة إلى طابعها التاريخي الفلسفي، إذا مـا كـان الهـدف هـو الإصـلاح العاجل وإنقاذ الأمة من محنتها.

إننا نجد هذا الارتباك عنـد "بـن نـبي" منـذ وقـت مبكـر؛ فهـو حـين التقـى الشيخين "بن باديس" و"الإبراهيمي" في باريس عـام 1936، في إطـار سـعيهما لحـل سياسي، على نحو ما فعـل الـزعيم "مـصطفى كامـل" في مـصر قبلـهما بثلاثـة عقـود، اعـترض "بـن نـبي"، ورأى أن الـشيخين وجمعيـة العلمـاء قـد وقعـت أسـيرة خدعـة سياسـية باشـتراكها في مـؤتمر بـاريس الـوزاري، وقـال في كتابـه "شـروط النهـضة" مستنكرًا: "بأي غنيمة أرادوا أن يرجعوا من هناك وهـم يعلمـون أن مفتـاح القـضية في روح الأمة لا في مكان آخر؟".

* * *

لقد كان "بن نبي" مُصادرًا لفعل السياسة وللملف الإصلاح الـسياسي كلـه لـصالح الملف الحضاري، وهي مـصادرة سـابقة حتـى علـى نجـاح الثـورة ولاحقـة بعـد قيـام الدولة.

ومن الطبيعي أن يكون "مالك بن نبي" الفيلسوف بحكـم طبـائع المعرفـة أكثـر شغفاً بالعام لا بالخاص، وبالتاريخ لا بالسياسة، وبالثقافة لا بالسلطة، وبالحضارة لا بدراسات الجدوى.. ومن الطبيعي أيضًا في كـل تجربـة أن يوجـد هـؤلاء المحلِّقـون في

الآفاق المتجاوزون لتفاصيل الواقع ورموزه القاصرة وأحداثه البليدة.. غير أن المحنة تشتد ولا تختفي إذا ما كان الواقع أسير رؤى حضارية كبرى يقول بها فلاسفة حالمون، ورؤى سياسية ضحلة يقوم عليها ساسة فاسدون. حينئذ يضع الفلاسفة للساسة أسس البقاء؛ حيث إن ما يسمى الحلول الحضارية ليس في مقدور السلطة ولا الحكومات، بل هي تراكم تاريخي ثقافي.. لا يمكن إدراكه يومًا بيوم، ولا محاسبة الذين لا يراكمون بموجب القانون أو التوبيخ الحضاري العام!

* * *

لا ينتقص قولنا هذا – بطبيعة الحال – من مكانة الفيلسوف "مالك بن نبي"، الذي يكفيه أنه أبلى في مجال الإصلاح الحضاري بلاءً مجيدًا، وأنه كان واعيًا ومدركًا للقصور في العالم الإسلامي وللحلول الجذرية لمجمل مآسيه التي طردته خارج العصر. وهو بلاء مجيد في ذاته، وأكثر مجدًا إذا ما قورن باجتهاد نظيره المعرفي في مصر "سيد قطب"، الذي دخل من الدين إلى السياسة ومن السياسة إلى الفوضى.. فكان أن جاءت على أثره جماعات وأفراد أسهموا في نكبة الدين والدنيا.. معًا.

كان "بن باديس" أكثر تقدمية في فكره الإصلاحي "السياسي" من نظيره المصري "حسن البنا"، وكان "مالك بن نبي" أكثر علمًا ومسئولية في فكره الإصلاحي "الحضاري" من نظيره "سيد قطب" في مصر. وكان العالم الإسلامي أقل حظًّا حين بدأ رحلة الإحياء قبل قرن في ركب الإمام "محمد عبده"، وحين بدأ يغالب الموت بعد قرن في صحبة "القاعدة" و"الملا عمر"!

* * *

وجَّه الفيلسوف "مالك بن نبي" نقدًا شديدًا لعصر الثورة في الجزائر، ورأى أن الذين خاضوا القتال هم من أخذوا الجزائر غنيمة فيما بعدُ.

يقول "بن نبي" عن رجال الثورة الجزائرية: "إن أولئك المحرومين الذين

هبوا للاستيلاء على النفوذ لم تكن تشغل رءوسهم سوى فكرة واحدة هي "احتلال الجزائر من جديد""..

وفي كتابه "مذكرات شاهد القرن"، يقول "بن نبي" منتقدًا الأداء السياسي للثورة: "وبدلاً من أن تكون البلاد ورشة للعمل المستمر والقيام بالواجبات الباعثة إلى الحياة، فإنها أصبحت سوقًا للانتخابات، وصارت كل منضدة في المقاهي منبرًا تُلقى منه الخطب الانتخابية، وهكذا تحول الشعب إلى جماعة من المستمعين يصفقون لكل خطيب، أو قطيع انتخابي.. وفي هذا اختلاس للعقول التي أشرفت على قطف ثمار نهضتها، لقد ورث الميكروبُ السياسي ميكروبَ الدروشة".

لم يكن ما جرى إذًا امتدادًا للثورة.. يقول "بن نبي" في كتابه "بين الرشاد والتيه": "إن الثورة لا ترتجل، إنها اطراد طويل، يحتوي ما قبل الثورة والثورة نفسها وما بعدها.. وإذا حدث أي خلل في هذا التطور تكون النتيجة زهيدة تخيب الآمال".

"إن كل ثورة ملزَمة بأن تحمي نفسها من سائر المحاولات التخريبية، الثورة في حاجة إلى أخلاقية فلا تتنازل عن شيء، ومن واجبها أن تتمتع بحاسة نقدية.. حتى لا تؤخذ على غِرَّة في أي لحظة أو في أي قطاع من أجهزة الدولة".

"علينا أن نتخلص من عُقَد الرفض التي طالما سدت الطريق في أثناء الثورة على كل محاولة إصلاح، بدعوى أن كل نقد سيكون في صالح الاستعمار، بينما أرى، بكل وضوح، اليوم أن الاستعمار وحده هو الذي استفاد من هذا الرفض.. إن الاستعمار الجديد ما زال يقيم السدود أمام كل محاولة نقد، أي مراجعة للأخطاء".

هنا يمكن استكمال رؤية "بن نبي" للسياسة من خلال فهم رؤيته للحضارة، أي الإصلاح الحضاري كحلٍّ كامل للمعضلة الإسلامية في الجزائر وفي غيرها.

ينتقد "مالك بن نبي" خطأ السياسيين بإهمال الحل الفكري وشغفهم بالحلول السياسية.. وفي تقييم جاذب لنموذجين كبيرين، "مصالي الحاج" و"بن باديس"، يرى "بن نبي" أن حزب الشعب، الذي قاده "مصالي الحاج"، هو حزب متطرف، وإن كان قد قفز بالعمل الوطني للأمام، وأن حزب الشعب وحركة الإصلاح الديني التي قادها "بن باديس" يمثلان تيارين متقاربين يكمل أحدهما الآخر.

يقول "بن نبي": "مصالي الحاج، المندفع الذي يجهل أو يحتقر كل إمكانات البناء الفكري الوطني للحركة التي يقودها، دخل في حرب لا هوادة فيها ضد بن باديس، الذي كان آنذاك هو المفكر الوحيد المستنير المنظر لوطنية تاريخية وثقافة عصرية تقدمية".

وامتدادًا للرؤية ذاتها، التي تنتصر للفكر على السياسة، يقول "مالك بن نبي" بإحدى أهم نظرياته وأكثرها إثارة للجدل: القابلية للاستعمار.

* * *

يرى "مالك بن نبي" أن مشكلة العالم الإسلامي – والجزائر بالطبع – تكمن في القابلية للاستعمار، ويذهب في كتابه "الصراع الفكري" إلى أن الاستعمار قد جاء إلى العالم الإسلامي نتيجة مرض أساسي عندنا هو القابلية للاستعمار، وهو نتيجة الصراع الفكري الذي خططت له المصادر الاستعمارية التي أحسنت إحكام خطتها.

فقد سُلطت، على مسرح الأحداث العالمية، أضواء على المشكلات الهامشية، بينما تُركت في الظلام ووراء الكواليس كل رؤية منهجية سليمة تفتح الطريق أمام خطط التنمية الفاعلة مع حركة التاريخ. يقول "بن نبي": "إن هناك حركة تاريخية ينبغي ألا تغيب عن نواظرنا، وإلا غابت جواهر الأشياء فلم ترَ فيها غير الظواهر، وهذه الحركة لا تبدأ بالاستعمار، بل بالقابلية له؛ لأنها هي التي تدعوه".

ويصف "بن نبي" استقلال دول، مثل اليمن عن بريطانيا، وإندونيسيا عن هولندا، بأنه استقلال ضعيف، وحيث إن هذه الدول لم تسيطر بعدُ واقعيًّا على شئونها الداخلية فإنه لا يعني شيئًا في ميدان التقدم طالما ظلت الأرض صالحة لإعادة الكرَّة مرة أخرى.

وامتدادًا لفكرته في نقد الحفاوة بالهوامش لا بالجواهر، يعيب "بن نبي" على المدرسة الاستعمارية إسهامها في ذلك من خلال وسائلها التربوية للقادمين إليها؛ "فالطالب يسافر إلى أوروبا وهدفه الوحيد اللغة أو الحرفة لا اكتشاف الثقافة.. لم تهتم المدرسة الاستعمارية بنشر عناصر الثقافة الأوروبية اهتمامًا يعادل حرصها على توزيع نفاياتها التي تحيل المستعمر عبدًا للاقتصاد الأوروبي".

ويدلل "بن نبي" على رأيه هذا في كتابه "وجهة العالم الإسلامي"، يقول: "الطالب الذي يعيش في باريس لا يرى المرأة التي تجمع العشب لأرانبها، وإنما يرى التي تصبغ أظافرها وشعرها وتدخن في المقاهي والندوات. وهو لا يرى الصانع والفنان منكبَّين على عملهما ليحققا فكرة على صفحة المادة".

والحل في رأي "بن نبي" هو التغير الاجتماعي والإصلاح الفكري اللذان يرفعان من كفاءة الإنسان المتخلف، وحيث إن الطفل يمرّ في حياته بعالم الأشياء ثم الأشخاص ثم الأفكار تباعًا، فإن المجتمعات المتخلفة تمر بالمراحل ذاتها، والعالم الإسلامي بقي بالنسبة للحضارة الغربية في عالم الأشياء والأشخاص، ولقد تعاون التخلف والاستعمار على وقف تطوره إلى عالم الأفكار، وذلك فصل من فصول الصراع الفكري في البلاد المستعمرة.

ويلخص "بن نبي"، في كتابه "بين الرشاد والتيه"، رؤيته للحل: "يجب تصفية الاستعمار في العقول قبل كل شيء؛ فتصفية الاستعمار من العقول تتطلب أشياء كثيرة يتضمنها مفهوم الثقافة ومفهوم الحضارة؛ فهي لا تتحقق إذًا بمجرد

انسحاب جيوش الاستعمار ومجرد إعلان الاستقلال وتحرير الدستور كما هو الأمر بالنسبة للتراب الوطني".

* * *

يعقِّب "محمد الميلي" على نظرية "بن نبي" في القابلية للاستعمار، بأن فكر الفيلسوف الجزائري كان مرشحًا لأن يؤدي دورًا معتبرًا في الجزائر بعد الاستقلال، لكن نظريته هذه لم تُفهم كما يجب؛ فالاتجاه الذي ظل سائدًا منذ حروب الاحتلال هو تحميل كل المسئولية للاستعمار، ولعل أحد القلائل الذين فهموا فكرة "مالك بن نبي" هو الرئيس التونسي "الحبيب بو رقيبة" الذي لا يُحمِّل كل المسئولية للاستعمار، وسياسة المراحل التي كان "بو رقيبة" يعمل بها، أي التخلص من الاستعمار بالتدرج في الوعي والمسئولية، هي سياسة تتوافق مع فكر "بن نبي" في القابلية للاستعمار.

فالنظرية التي تسجل مسئولية البلد المتخلف من شأنها أن تدفعه نحو اكتساب التقنيات التي مكَّنت البلد الأجنبي من استعمارنا.

ويحيل "الميلي" إلى الفكر الماركسي، الذي كان موضة شائعة في الستينات، الإسهام في أداء دور أساسي في محاربة "بن نبي" وتنفير جيل ما بعد الاستقلال منه؛ فالصراع الذي كان قائمًا على أشده بين المعسكر الرأسمالي الغربي والاشتراكي الشيوعي قد غذَّى الاتجاه نحو تهميش صاحب "الظاهرة القرآنية"، فضلاً عن أن المعسكر الاشتراكي كان يستفيد من تجريم الغرب الاستعماري تجريمًا كاملاً وتحميله المصائب كلها.

ومن القابلية للاستعمار إلى الإسلام الحضاري طريقًا للخروج من المأزق، أو الحل الفكري لأزمات السياسة والمجتمع، مضى "بن نبي" يشرح رؤيته للوظيفة الحضارية للعالم الإسلامي.

* * *

يرى "مالك بن نبي" أن الحضارة الإسلامية قد استقالت من التاريخ بعد زوال دولة الموحِّدين في المغرب؛ فبعدها دخل المجتمع الإسلامي في العدم، بينما كانت الحضارة المسيحية تنطلق إثر الحروب الصليبية.

وأول لقاء بين الحضارتين بعد ذلك كان حوالي عام 1858؛ حيث استعمر الغربُ الهندَ والجزائرَ. وجاء اللقاء كاشفاً عن هوة شاسعة ومقارنة محبطة.. حتى نادى "مالك بن نبي" بإيجاد علم جديد يبحث في ذلك.. علم خاص سمَّاه "علم اجتماع الشعوب التي لا تزال خارج إطار الحضارة المعاصرة"..

ويُرجع "بن نبي" أساس تدهور المسلمين حضاريًّا بعد زوال دولة الموحدين إلى الفردية والأنانية اللتين صبغتا الروح الإسلامية.. وهي ظاهرة قديمة في التطور السلبي للمجتمع الإسلامي.. يقول "بن نبي" في كتابه "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة": "إن التخلف الذي حصل بسبب روح وحلول نظرية الجزء، فقامت الدويلات واستعر القتال وحصل الانحطاط والسقوط.. إن الشمول والجماعة هما طريق الانتصار والتقدم، والجزيئية والتفتت هما درب الهزيمة.. وهذا قانون عام.

فبمجرد ما يحدث الانحطاط الروحي فإن القوى المكافحة تتبدد.. إننا نجد في تاريخ الإسلام صورة هذا التدهور الروحي الذي يقود حتمًا إلى التدهور السياسي.. إن واقعة صفين فصمت الوحدة الشاملة التي بناها محمد "صلى الله عليه وسلم" بأمر من ربه، فأحطت بذلك من مستوى المعركة التي بدأت يوم بدر، وهذا التخطيط، أو الهبوط الإيديولوجي، لم يلبث أن أتى بنتائجه المشئومة في الميدان السياسي".

* * *

يصل "بن نبي" إلى أن هناك مجرى ماديًّا للحضارة ممثلاً في حضارة الغرب، ومجرى إنسانيًّا لها ممثلاً في الحضارة الإسلامية.. ويرى أيضًا أن العالم الإسلامي قد انحطَّ في أداء وظيفته الحضارية. يدعو "بن نبي"، في كتابه "دور المسلم ورسالته"، إلى سد

هذا الفراغ: "يجب على المسلم، أولاً، أن يرفع مستواه إلى مستوى الحضارة أو أعلى منها، كي يرفع الحضارة بذلك إلى قداسة الوجود، ولا قداسة لهذا الوجود إلا بوجود الله.. إذا أتى المسلم في صورة الإنسان المتحضر الذي اكتملت حضارته بالبعد الذي يضيفه الإسلام إلى الحضارة، وهو بُعد السماء، عندئذ ترتفع الحضارة كلها إلى مستوى القداسة".

ومن القداسة إلى الرومانسية يخطو الفيلسوف الجزائري "مالك بن نبي" ليضع، في كتابه "شروط النهضة"، معادلته للحضارة في علاقة جبرية: "مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي = اتجاه حضارة".

ثم يقول "بن نبي": "إذا كانوا يقولون إن القميص لا يصنع القسيس، فإني أرى على العكس من ذلك، فإن القميص يسهم في تكوين القسيس إلى حدٍّ ما؛ لأن اللباس يضفي على صاحبه روحه، ومن المشاهد أنه عندما يلبس الشخص لباسًا رياضيًّا فإنه يشعر بأن روحًا رياضية تسري في جسده، ولو كان ضعيف البنية. وعندما يلبس لباس العجوز فإن أثر ذلك يظهر في مشيته وفي نفسه ولو كان شابًّا قويًّا". ويكمل، في كتابه "مشكلة الثقافة": "إن العدالة الشكلية تذهب أحيانًا إلى أن الجبة تصنع الشيخ، وليس من شك في أن مصطفى كمال أتاتورك حينما فرض القبعة لباسًا وطنيًّا للشعب إنما أراد بذلك تغيير نفس، لا تغيير ملبس؛ إذ إن الملبس يحكم تصرفات الفرد إلى حد بعيد".

وهكذا من نقد الاستعمار إلى نقد المجتمعات القابلة للاستعمار، إلى نقد الثورات التي احتلت شعوبها بعد أن حررتها من الآخر، إلى الحضارة الغربية التي صعدت والإسلامية التي هبطت، إلى الإسلام الحضاري حلاً للمحنة الجامعة.. مضى "مالك بن نبي" يضع شروط النهضة ومعالم الطريق، لكن لا النهضة تحققت ولا المعالم أتت بالطريق المستقيم.

* * *

يـثير الفيلـسوف الجزائـري "مالـك بـن نـبي" أسـئلة كـثيرة حـول مـشروعه الفكري؛ فهو إذ يواجه مشكلة السياسة بحل من خارج السياسة، سـرعان مـا يـصيب المرء بالإحباط العام من السياسة التي أتت بثـورة أطاحـت باللـصوص الأجانـب لأجـل اللصوص الوطنيين، والإحباط مـن الثقافـة الـتي يمتـد تـاريخ التخلـف فيهـا إلى زمـن بعيد، ثم الإحباط من الحضارة نفسها التي تستلزم شروطًا مستحيلة.

ثم إنه إذا كان أسـاس المحنـة الحـضارية للعـالم الإسـلامي يعـود إلى معركـة صفين، فإنما يعني ذلك أن المحنة نشأت مع الفكرة، وأن تاريخ المسلمين المأزوم هو في الواقع التاريخ الوحيد للإسلام والمسلمين. وإذا لم يكن ممكنًا لمجتمع الصحابة، الـذي التقى في "صفين" على عداء، أن يحفظ لبذرة الحضارة الإسلامية وجودهـا، فـضلاً عـن نموها، ثم جاءت القرون التاليـة لتـشهد هزيمـة المجتمـع الإسـلامي أمـام المجتمـع المسيحي الغربي فيما بعد الحروب الصليبية أو بعـد دولـة الموحـدين كمـا يقـول "بـن نبي"، فماذا عسى أن يفعل الثوار في بضع سنين وفي أدنى الأرض؟!

ثم إن "بن نـبي" يـدعو إلى العقـل الغربـي مـسهمًا في إعـادة الـروح الإسـلامية الراشدة، أو هو يدعو إلى أسلمة الواقع الغربي أو تغريب الواقع الإسلامي حتى يلتقـي العقل والنقل معًا، لكنه يعود لاحقًا في كتابات أخرى ناقدًا للمـنهج الـديكارتي الـذي أسس لعصر العقل في الغرب؛ إذ يرى الفيلسوف أن المنهج الديكارتي، بمـا أسـس مـن شك في المعرفة، قد نقل أزمة الحضارة الغربية إلى الشرق.

ويُجمِل "بن نبي" القول في كتابـه "الظـاهرة القرآنيـة": "إن العقـل الـذي ألّـه نفسه في الثورة الفرنسية أصبح يتواضع اليوم، وأصبح العلـم يعـرف أن لـه حـدودًا إذا تعدّاها خرج من دائرته.. ليصبح مجرد فلسفة أو خيال".

إذًا ما الحل المعرفي؟ هناك تخلف في العالم الإسلامي، هذا التخلـف يـستوجب الإفادة من الغرب في أسباب قوته ثم اكتسابها، لكن الغرب وصل إلى ذلـك بقـوة العلـم

وإعادة الاعتبار إلى العقل، ولكن – مرة أخرى – هذا العقل يتراجع وهذا العمل يتهافت، وما أخذناه من عصر العقل في الغرب قد نقل أزمة الحضارة إلينا بنقل أزمة الشك عندنا!

في الوقت نفسه، فإن السياق التاريخي للحضارة الإسلامية مصابٌ بالعطب منذ "صفين" وفي أثناء حكم الدويلات والإمارات الإسلامية وفي عصور الاستعمار والاستقلال، وفي الوقت نفسه – أيضًا – ضاعت فرحة إعادة التأسيس للعالم الإسلامي بفعل الثورتين المصرية والجزائرية عامي 1952 و1954 – بحسب قول "بن نبي" – وحل الاستبداد الوطني محل الاستبداد الغربي.. ثم يقول "بن نبي" بأن السبب في ذلك كله أننا كنا مشغولين بصناعة منتجات الحضارة ولكننا لم ننشغل بصناعة الحضارة!

وهو قول غريب.. فمتى كان العالم الإسلامي في القرون الأخيرة مشغولاً بتصنيع منتجات الحضارة؟! وما الحضارة التي يريد "بن نبي" للعالم الإسلامي أن يصنعها.. تلك التي تختلف عن منتجات الحضارة؟!

والحادث أن الفكر السياسي للفيلسوف الجزائري الأهم "مالك بن نبي" كان آخذًا، هو الآخر، من وهج الثورة وعمومياتها.. ومن تحليقاتها الخفاقة ومن السفن المرمر والقلاع الحرير!

* * *

لم يعِش "بن باديس" ليرى الثورة وقد نجحت معاركها وتداعت مرافقها، وعاش "بن نبي" ليرى الأمرين.. بل وليشهد نكسة عام 1967 التي أبطلت سؤال الحضارة والسياسة.

عاش "مالك بن نبي" ليرى الفجيعة، ثم رحل في أكتوبر 1973 شاهدًا الأيام الأولى لحرب تحرير جديدة، وراحلاً قبل اكتمال المشهد.. وقبل أن يذوب الستار!

"7" عباس مدني.. عائدًا إلى نقطة الصفر!

غاب الشيخ "بن باديس"، ثم بعده بربع قرن رحل الفيلسوف "مالك بن نبي"، ثم غابت روح الجزائر!

كان هبوطُ الفكر موازيًا لانكسار الفعل؛ فبعد عصر "بومدين" توقفت ورشة العمل الكبرى في البلاد، وبعده أيضًا كان تدهور جبهة التحرير يزداد ويطفح على أركانها، وكان تدهور الفكر الإسلامي يتواصل. جاء عصر "الشاذلي بن جديد" وما بعده تعبيرًا عن عصر واحد.. هزيمة بلا حرب!

وحين اندلعت الحرب الأهلية الجزائرية، بدت محنة الجزائر وكأنها حتمية لا مفر منها وقدرٌ لا مردَّ له. وفي تعبير بالغ عن الشعور بالمأزق يصف المفكر الجزائري "محمد أركون" الحالة بقوله: "أشعر كل يوم بفشل، بمرارة، يجعلاني غير راغب في الكتابة أو في إلقاء المحاضرات أو في أي شيء، إني يائس ربما أكثر من معظم الناس.. لماذا؟ الحرب الأهلية في وطني الجزائر مبرمجة سياسيًّا.. حتى أضحت هذه الحرب كأنها لابد أن تكون كما هي".

ويقول "أركون" بأن السبب هو عدم المراجعة، والمضي في الطريق بلا وقفة أو تساؤل، دون تقييم الثورة أو الدولة.. ودون تحسس مواقع الأقدام.. ويشرح: "في أثناء المناقشات مع الطلبة في حرب التحرير في الجزائر، كنا نقول: يجب الالتزام منذ الآن بإيديولوجيا الكفاح، ونطرح في الوقت ذاته تلك الأسئلة كي نمهد السبل لبناء الأمة الجزائرية الحرة بعد الاستقلال.

كان هناك من يقول: ينبغي أن نؤجل ما نريده من النقد كي نكون مستقلين ونُخرجَ العدوَّ من البلد، وعندئذ تكون لنا حرية التفكير والطرح ونعتني بهذا

الجانب.. ماذا حصل؟ أجَّلناه. وبعد الاستقلال ماذا حصل؟ أجَّلناه.. أجَّلناه ولم يزل مؤجلاً حتى اليوم!".

وما جرى هو أن الأسئلة، كما يقول "أركون"، لم تُطرح في وقتها، وقد حدث أيضًا أن الأسئلة حين جاءت متأخرة قد جاءت خاطئة.. جاءت تبحث فيما هو مبحوث وتشرح ما هو مشروح.. جاءت لتكرر مآسي الفكر الإسلامي في المشرق ولتزيد عليها حدة في الفكر وقسوة في السلوك.

غاب "بن باديس" و"بن نبي"، لا ليأتي "محمد أركون"، الذي ظلت كتاباته بالفرنسية والإنجليزية غير معروفة في الجزائر، ولكنهما غابا ليأتي جيل من رواد الإسلام السياسي ثم من قادة الفوضى.. وأصبح "عباس مدني" رمزًا لمرحلة كاملة.. تواترت فيها أسماء مثل "علي بلحاج" و"رابح كبير" و"أنور هدام".. ثم أسماء أخرى انطلقت من الشرع وانتهت بعيدًا.. مثل "عنتر الزوابري" وسابقيه ولاحقيه.

وإذا كان هؤلاء هم نجوم آخر القرن، فإن الجيل السابق مباشرة لم يكن لديه شيء.. وكانت المساحةُ الفاصلة بين جيل الآباء المفكرين وجيل النكسة في الجزائر مملوءةً بالفراغ!

ويقول "محمد الميلي" – في دراسته "الجزائر والمسألة الثقافية"، التي نشرتها مجلة "المستقبل العربي" عام 1982 –: "إننا نلاحظ اختلافًا بيِّنًا في المستوى الفكري بين جماعة العمالقة: بن باديس والإبراهيمي والميلي والتبسي والعقبي، وبين المجموعة التي خلَفَتهم أو التي تعتبر نفسها خلفًا لهم".

* * *

كان بعض ما فعلته الجماعة الإسلامية المسلحة في أثناء المعارك مروعًا إلى حد يفوق الوصف، وبدت الجزائر بكاملها معلمًا للإحباط ومسرحًا للامعقول، وهو ما يعبر عنه مطرب الراي الجزائري "الشاب خالد": "أَنظُر إلى ما يحدث في الجزائر..

من ضرب للسيوف وهم يقولون: الله أكبر! وأتصل بوهران وأسألهم: ماذا يحدث عندكم والناس يذبحون عندكم؟ فيقولون: لا لا.. الحمد لله"!

ثم يصف "الشاب خالد" الحالة الجزائرية من الثورة إلى اليوم: "إن الجزائر لم تستقل ذات يوم.. إنني فرنسي في بلادي!".

ومن الفكر إلى الفن إلى الأدب.. اتسعت مساحة الإحباط والرغبة في أي مخرَج، هنا يتبدى لنا نموذج آخر ممن أذهلتهم الأحداث؛ حيث يذهب الروائي الجزائري "الطاهر وطار" إلى أن الفشل أصيل في البلاد وأن القائمين على الثورة لم يكونوا أهلاً للدور ولا لائقين للعمل مع التاريخ.

وينتهي "الطاهر وطار": "إنني أفضِّل أن تسقط كل الأنظمة العربية على يد الإسلامية.. إن ذلك أسرع لإقامة نظام ديمقراطي أفضل من أن يبقى فلان هنا وفلان هناك.. وأنا خائف كالعذراء من أن يستولي الإسلاميون على السلطة".. "لقد قلت لضابط مخابرات: هل لأجهزتنا القدرة على استطلاع الرأي؟ قال: لا. قلت: إنكم لا تعرفون إلا الشيوعيين لأنكم تتابعونهم في الحانات، أما الإسلاميون فتجهلونهم لأنكم لا تذهبون إلى المساجد!".

* * *

يمكن فهم ما جرى في الجزائر بأنه مزاج ثوري.. انفجر عظيمًا في يومٍ سابق ضد الاحتلال، ثم انفجر مفزعًا في يوم لاحق ضد النفس.

* * *

في عام 1980، افتُتِحت الجامعة الإسلامية في قسنطينة لتتخرج أول دفعة فيها عام 1984، وكان غرض النظام في ذلك كبح الحركة الجهادية عن طريق سحب العلماء المعتدلين للبساط من تيارات التطرف التي احتلت الساحة بعد غياب جمعية العلماء المسلمين.

ووصلت شهرة الشيخ "محمد الغزالي" إلى أقصاها، وكان التليفزيون الجزائري يذيع له برنامَجًا أسبوعيًّا كل يوم اثنين يحضره الكثيرون، مثل برنامج الشيخ "الشعراوي" يوم الجمعة في مصر، ولم يكن للشيخ "الشعراوي" نفس النفوذ والذيوع اللذين حازهما الشيخ "الغزالي" هناك، وامتلأ عصر "الشاذلي بن جديد" بالمشايخ والدعاة.. من "الشعراوي" إلى "الغزالي" إلى "البوطي" إلى "القرضاوي".. وكان "القرضاوي" صريحاً في إعلان انتمائه لجماعة الإخوان المسلمين.

وجد "الغزالي" و"القرضاوي" قبولاً بين الطلاب الجزائريين أكثر من الشيخ "الشعراوي".. ويرى الرئيس "بوتفليقة" أن الشيخ "الغزالي" كان له الأثر الأكبر في تدهور الحركة الإسلامية الجزائرية إلى مرحلة العنف.

في عام 1988، بدأت ملامح الانهيار، في 1992 غادر "الشاذلي بن جديد" قصر المرادية الحاكم في الجزائر، بفعل انقلاب قاده الجنرال "خالد نزار"، وزير الدفاع، ورجاله، بعد أن منع الجبهة الإسلامية للإنقاذ، التي فازت في الانتخابات البرلمانية، من تولي السلطة.

وفي عام 1993، سلّم الجنرال "خالد نزار" وزارة الدفاع إلى الجنرال "الأمين زروال"، الذي عيَّن الجنرال "محمد العماري" رئيسًا للأركان.

وجاء "زروال" – الذي تخرَّج في الكلية الحربية المصرية – رئيسًا عام 1994، ثم رئيسًا منتخبًا في عام 1995، وأصبح "زروال" موضع ثقة العالم العربي والولايات المتحدة وفرنسا.. وزار صندوق النقد الدولي فقدَّم إلى الجزائر في عهده قروضًا وأثنى على أدائه.. ثم غادر الرجل من غير توقع أو انتظار.. ليجيء وزير خارجية "بومدين" الشهير "عبد العزيز بوتفليقة" رئيسًا للبلاد في عام 1999.

في هذه السنوات الممتدة في عقد التسعينات، كانت الجبهة الإسلامية للإنقاذ هي الاسم الأبرز على الساحة.

* * *

أسس الجبهة الإسلامية للإنقاذ "135" شخصًا، يتزعمهم "عباس مدني" ويليه "علي بلحاج" والرجل الثالث – قبل اغتياله – "عبد القادر حاشاني". وفي الخارج تولى قيادة أعضائها "رابح كبير" واشتهر من بين رموزها "أنور هدام".

ولا تملك جبهة الإنقاذ رؤية فكرية واحدة، وهناك مسافة كبيرة بين ما يراه "عباس مدني" وما يعتقده الرجل الثاني "علي بلحاج".

ويتمتع "عباس مدني" بصلة جيدة بجماعة الإخوان في مصر، وقد أرسل المرشد العام للإخوان "مصطفى مشهور" يهنئه حين أفرج عنه الرئيس "زروال"، واصفاً إياه بالمجاهد الكبير.

ويرى ناقدو "عباس مدني" أنه مجرد كادر حركي ناجح، لكنه لا يملك أفكارًا مهمة، ورؤيته عمومًا فقيرة ومحدودة، وهو ليس إلا واجهة لحشد من الجماعات والتيارات التي تزاحمت داخل جبهة الإنقاذ.

تذكر بعض المصادر أن القيادي الإخواني "محفوظ نحناح"، وكذلك نائبه "محمد بو سليماني"، الذي اغتالته الجماعة الإسلامية المسلحة، كانا قد قالا لـ"عباس مدني" وقادة الجبهة منذ نهاية الثمانينات: "إنكم ستكونون مسئولين عن كل قطرة دم في الجزائر".

وفي حين لا تملك الجبهة الإسلامية للإنقاذ رؤية فكرية أو سياسية متماسكة، فإن نائب رئيس الجبهة "علي بلحاج" – الذي كانت خطبه تباع في أسطوانات بالأسواق – لديه أفكار عامة تتعلق بتكوين خلافة إسلامية بالقوة، ووجَّه الدعوة إلى أهل المشرق للالتقاء في مصر بعد إقامة دولتهم الإسلامية.

وحسب مصادر الحكومة، فإنه كان يدعم الجماعة الإسلامية المسلحة، وقد نشرت الصحافة أنباء عن رسالة وجهها "بلحاج" إلى زعيم الجماعة المسلحة يحثه فيها على مواصلة القتال حتى النصر.

ساد الخلاف بين حركات الإسلام السياسي الجزائرية وداخل فصائل جبهة الإنقاذ.. وحسب تعبير أحد المنشقين عنها: "كل جماعة في الجبهة تلعن أختها!".

*** * ***

إن الجبهة التي احتلت موقع التشدد في حركات الإسلام السياسي الجزائرية سرعان ما وجدت نفسها في موقع معتدل، بعد أن ظهرت في الساحة الجماعة الإسلامية المسلحة.

جاءت الجماعة المسلحة لتزايد على جبهة الإنقاذ ولتصل بالأصولية إلى الفوضى. وقد تعاقب على قيادتها في سنوات ازدهارها في القتل والتخريب: "أبو عبد الله القوسمي" الذي قُتل، وخلفه "جمال زيتوني" الذي قُتل، ثم خلفه "عنتر الزوابري" الذي قُتل. وتقول الجماعة إن قادتها الأوائل في أفغانستان هما "قارئ سعيد" و"جعفر الأفغاني".

ينقل "تمام البرازي" – في كتابه "الجزائر تحت حكم العسكر"، الذي صدر في القاهرة عام 2001 – عن "قمر الدين خربان": "إن الزيتوني، الذي بدأ الطامة الكبرى هو والزوابري، كلاهما من بسطاء الناس، ليس عندهما فكر، وعمرهما ما بين العشرين والأربعة والعشرين، وأعضاء الجماعة من مجموعات التكفير، وهم على اتصال مع "أبو قتادة الفلسطيني" و"أبومصعب السوري".. والآن هناك مصري يُدعى حمزة، وهو مقطوع اليدين ومن فصيل "خالف تُعرف"، ولا يهم أن يشتهر عن طريق الجماعة أو أي شيء آخر؛ فالمهم أن يشتهر وحسب.. وهم على صلة وثيقة به".

ويقول "بن بلة": "إنها جماعة استئصالية". ويذهب "أنور هدام" إلى أن المخابرات الجزائرية والجيش وراء قتل قادة الجماعة الأوائل وتمكين أشخاص إجرامية عليها، وهو ما أدى إلى تحويلها لتكون "أبشع التنظيمات الإرهابية التي عرفها التاريخ".

وترى الجماعة جواز قتل المدنيين: "إن المدنيين الذين لم يدخلوا في طاعة الجماعة لهم أحكام النفاق والمنافقين، ولهذا فإن الشرع يرى أن قتل المدنيين على الجملة ليس انحرافاً".. كما ترى جواز قتل النساء والأطفال لرجال الجيش والشرطة "لأنهم يغتصبون نساء المجاهدين". والجماعة ترى – بذلك – أنها تقوم بقتال الطواغيت وتتبع أهل السنة والجماعة!

ويعرض "تمام البرازي" بعض عناوين نشرة "القتال"، التي كانت الجماعة تصدرها بعد تنفيذ مذابحها: "إغارات تدك حصون المرتدين وتروِّع أمن المنافقين".. "ملحمة وإقدام لا تسمع فيهما إلا بكاء وعويل المرتدين".. "اغتيالات وتفجيرات تقرِّب المجاهدين إلى الله بقطع الرقاب ونسف القباب".. "الجماعة الإسلامية المسلحة.. سنية سلفية موحدة!".

في هذه الأجواء، برز "محفوظ نحناح" متفردًا وسط الخريطة وأقرب إلى ما كان عليه الأوائل.. وإن بقي الصوت غير الصدى!

مثّل "نحناح" جماعة الإخوان المسلمين في الجزائر، غير أنه كان أكثر كفاءة وحضورًا من رموز المقر الرئيسي للجماعة في القاهرة. وُلد "نحناح" في البليدة عام 1942 وتخرج في قسم الأدب العربي والحضارة الإسلامية بجامعة الجزائر عام 1973.. عمل بالتدريس إلى عام 1983؛ حيث تفرغ للعمل بالسياسة.

تعرض "نحناح" للاغتيال عدة مرات، واغتيل مائتان من حركته ورحل في عام 2003، وهو أول ممثل للتيار الإسلامي يترشح لمنصب الرئاسة في دولة عربية؛ حيث حاز ثلاثة ملايين صوت، مقابل سبعة ملايين للرئيس "زروال" عام 1996. تمتع "نحناح" بدرجة عالية من القبول جرَّاء صفاته الشخصية التي اتسمت بالحضور والتواضع.. وخفة الظل.

وكان يملك قدرة مميزة على حسن التعبير، وذات مرة سُئل: هل أنت عميل للنظام؟ قال: نعم.. أحب النظام وأكره الفوضى. ولما سُئل عن الوضع في الجزائر قال: إنه في حالة وضع!

حذَّر "نحناح" جبهة الإنقاذ من انفجار حمامات دم في الجزائر، ورفض رئاسة الجبهة حين عُرضت عليه، ووصف الجماعة الإسلامية المسلحة بأنها "جماعة الخنجرية"، نسبة إلى كثرة استخدامهم الخناجر في ذبح الأشخاص. واعترض "نحناح" على حشد الجماعة الإسلامية لشتات من الناس غير المؤهلين من الحرفيين والعمال ليكونوا قادة وزعماء.

وكان "نحناح" يصافح النساء ويهاجم التيارات المتشددة، ولما قيل له: إنك انحرفت عن فكر الإخوان. قال: لا.. ولكني آخذ آرائي من منابع الإمام حسن البنا وعيون الفكر الإخواني ومن قراءاتي وتقديراتي.

ومن آراء "نحناح" السياسية: "لسنا حزبًا دينيًّا.. نحن حزب إسلامي يملك برنامجاً ومؤسسات ورؤية للمستقبل في الاقتصاد والتنمية".. "الديمقراطية تتناقض تمامًا مع الديكتاتورية، ونحن نعمل على تكريس الديمقراطية، ليس لأنها علمانية، بل لأنها سلطة شعبية تقف ضد جميع أنواع الديكتاتورية".. "عملنا على فك الارتباط بين الإرهاب والإسلام والتطرف القادم من بلاد المشرق العربي".. "يجب التمييز بين العلمانية والعقلانية.. الاستئصاليون يريدون الجزائر علمانية لا عقلانية".

"نحن نفاخر بالفرانكفون؛ لأنهم يتحدثون الفرنسية لأسباب تاريخية".. "رأيت في السلطة إسلامًا أكثر مما رأيت خارجها".. "لقد زرت سوريا، والإسلام قائم فيها، لم يقضِ النظام على الإسلاميين، فقط وقعت مشادات بين فصيل من الحركة الإسلامية والنظام السوري، ونعمل على رأب الصدع ولمِّ الشمل".. "كلام منظمة العفو الدولية بأن الحكومة سلحت الميليشيات في الجزائر كلامٌ يحتاج إلى دليل".. "التقيت

روبرت بلليترو، مساعد وزير الخارجية الأمريكي، وهو شخصية مرموقة وعلى دراية، وكذلك التقيت شفيلد، مستشار الرئيس كلينتون والمسئول في مجلس الأمن القومي".

وقد جرّت أفكار الرجل عليه عتابًا شديدًا وثماني محاولات اغتيال، لكنه بقي على رأيه ورؤيته حتى رحل. ويقول "راشد الغنوشي": "إن تواصل العلاقة بين "نحناح" وأصحاب السلطة الحقيقية، كان لطمأنتهم على حرصه على بقاء الدولة في وجه التهديد المسلح من الجماعات. وقد صليت معه في مسجد لندن عام 1995 ورأيت جمعًا من الشباب قد التف حوله في غضب ثم وجَّه له أحدهم كلمة كادت تفضي إلى كارثة والرجل هادئ تمامًا".. "كان متسامحاً ومرنًا إلى حد البراجماتية والحس العميق بهموم الناس ومكانة الدولة".

* * *

وهكذا بدت الصورة وكأن "نحناح" وحده تقريبًا يمثل صدى أفكار جمعية العلماء، متجاوزًا الفكر العام لجماعة الإخوان المسلمين، فيما بدت الجبهة الإسلامية للإنقاذ تجمعًا لحشد من التصريحات، وموئلاً لعدد من السياسيين العاديين الذين وفرت لهم انتخابات 1991 فرصة نادرة للكثير من الادعاء، ولو كانت الجبهة قد وصلت إلى السلطة لما كان لها هذا البريق.

أما الجماعة الإسلامية المسلحة التي ارتكبت، حسب تعبير "أنور هدام"، أبشع أنواع الإرهاب في التاريخ فهي نسخة كاملة من جماعات التكفير العامة التي تُبطل بطبيعتها فرصة الفهم أو الحوار.

* * *

تأسست "الجماعة الإسلامية المسلحة" في سبتمبر عام 1992.. وقد دعمت جبهة الإنقاذ في سنواتها الأولى، لكنها سرعان ما أصبحت أكثر تشددًا، وبدأت تزايد

على جبهة الإنقاذ، ثم إنها قامت بالهجوم المسلح على أفرادها فيما بعدُ!

لكن "الجماعة الإسلامية المسلحة" لم تمكث طويلاً في احتكار موقع التشدد؛ إذْ سرعان ما انشقت منها "الجماعة السلفية للدعوة والقتال" في عام 1998.. وبدورها لم تمكث "الجماعة السلفية للدعوة والقتال" طويلاً في احتكار موقع التشدد؛ إذْ سرعان ما انشق منها "تنظيم القاعدة".

تأسس "تنظيم القاعدة" في بلاد المغرب الإسلامي بواسطة "عبد المالك دروكدال"، وشهرته "أبومصعب عبد الودود". وأعلن "دروكدال" انضمام التنظيم إلى تنظيم القاعدة العالمي، وتعهد بأن يكون تنظيمه الإقليمي دعمًا كبيرًا وسندًا أساسيًّا للتنظيم العالمي.

وقد كانت مكافأة "تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين"، بزعامة "أبومصعب الزرقاوي"، لزميله الناشئ "تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي" القيام باختطاف اثنين من الدبلوماسيين الجزائريين في العراق ثم قتلهما على نحو مروِّع.. وهو الحادث الذي أثنى عليه "دروكدال"، كما رحبت به "الجماعة السلفية للدعوة والقتال" في الجزائر وأصدرت بيانًا بشأنه، جاء فيه: "تلقى المجاهدون في الجزائر نبأ اختطاف الدبلوماسيين الجزائريين من إخوانهم في تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين ببالغ الفرح والسرور"!

لقد مضى "دروكدال" على طريقه يؤكد لزعيم التنظيم العالمي "أيمن الظواهري" أنه سيصل بأعمال تنظيمه إلى المستوى المطلوب.

ويذكر الباحث الفرنسي "بيار فيليو" – في دراسة أصدرها معهد "كارنيجي" عام 2010 – أن "تنظيم القاعدة في المغرب العربي" بزعامة "دروكدال" "أبومصعب عبد الودود" قد فشل في إقناع "الظواهري" بقوته ولم يلتزم بتعهداته التي أطلقها حين أعلن انضمامه للتنظيم العالمي، فقد نجحت الجزائر في تعقب التنظيم داخليًّا

وخارجيًّا.. لكن "دوركدال" حاول من جديد.. وقالت وكالة الأنباء الفرنسية إن "دروكدال" لا يزال يسيطر على التنظيم وإنه أجرى تغييرات قيادية في تنظيم القاعدة بالمغرب الإسلامي شملت تعيين أمير جديد لمنطقة الصحراء والساحل هو "يحيى أبو الهمام" الذي حل محل "نبيل المخلوفي" الذي رحل عام 2012.

وقد أدت الأحداث في جمهورية مالي إلى ضغط التنظيم على الجزائر من جهة الجنوب. وفي يناير عام 2013، قام التنظيم بالهجوم على منشأة للغاز الطبيعي في منطقة عين أمناس الحدودية، كان الأول من نوعه.. وهو ما دعا الجزائر لنشر عشرين ألف جندي لدعم حراسة حدودها الطويلة.

* * *

يحاول تنظيم القاعدة التمدد إلى ومن جنوب الجزائر.. وتقول مجلة "الإيكونوميست": إن خريف عام 2013 شهد وضوح الأزمة الاقتصادية والأمنية في الجنوب؛ فهناك بطالة واسعة بين الشباب؛ حيث لا يجد "11" شابًّا من كل "13" شابًّا أي فرصة عمل.. ويتوازى مع البطالةِ الانتشارُ الكثيف للسلاح بسبب التدخل الفرنسي في مالي ودفع المتطرفين إلى المناطق الريفية قرب حدود الجزائر.

باتت الجزائر إزاء مفترق طرق وملامح مأزق جديد.. وكانت العودة إلى "استمرار" بقاء الثورة لأجل بقاء الدولة.. بقاء "بوتفليقة".

* * *

لقد عادت جبهة التحرير الجزائرية إلى سيرتها الأولى.. إلى جيل الساسة الأوائل الذين وُجدوا مع الثورة الوطنية والذين واجهوا ما سُميت الثورة الإسلامية.. وهو الجيل الذي يصفه الكاتب "ناصر جابي" في كتابه "لماذا تأخر الربيع الجزائري؟" – الذي صدر عن منشورات الشهاب في الجزائر عام 2012 – بقوله: "يرى جيل ثورة التحرير أن الأجيال الأصغر سنًّا لا تملك الشرعية الثورية التي يملكها، وهي في

نظره أجيال مشكوك في ولائها للجزائر".. وكان الرئيس "بوتفليقة" هـو الحـل لأكثـر من خمسة عشر عامًا. وفي عام 2013، أعلن حزب جبهـة التحريـر ترشيح الـرئيس "بوتفليقة" في عام 2014 لفترة رئاسية جديدة.. وهو ما اعترض عليه عدد مـن رمـوز الجيل ذاته من بينهم المناضلة الشهيرة "جميلة بوحريد".

ذهب أنصار "بوتفليقة" يتحدثون عن أكبر احتياطي للنقـد الأجـنبي في العـالم العربي، وتراجـع الـديون مـن ثلاثـين مليـار دولار إلى مليـار دولار، وإنفـاق "600" مليار دولار على برامج التنمية والطرق والإسكان، لا سيَّما طريق "شرق غـرب" الـذي يمتد على مسافة شاسعة وباتساع حارات متعـددة، وكـذلك الإسـكان المجـاني للأسـر والعائلات.

كما تحدث الأنصار عن الوئـام والمـصالحة وأجـواء الاسـتقرار.. وحـسب قـول أحدهم: "إن الأهم في إنجازات بوتفليقة أن اسم الجزائر لم يعد يأتي في نـشرات الـدم تحت عنوان "عاجل من الجزائر"".

وذهـب معارضـو الـرئيس "بوتفليقـة" يهـاجمون البطالـة والفـساد وينتقـدون اعتماد الاقتصاد الجزائري على "60٪" من عائدات النفط لتمويل الميزانية، ويحذرون من تقدير معهد "تشاتام هاوس" في تقريره الصادم: إن الجزائـر لـن تـستطيع تـصدير النفط بعد عام 2023 وإنها ستفقد، خلال سنوات، لقبها كدولة مصدرة للنفط لـصالح لقب جديد: "دولة مستوردة للنفط".

* * *

تذهب الكاتبة الجزائرية "أحلام مستغانمي" إلى تقدير أوسع وأصعب للأمور؛ حيث ترى في الأزمة الأخلاقية وانهيار القدوة وسرقة المال العام وأنباء الـدماء أساسًـا لصُنع كارثة قد تحيق بالدولة والمجتمع في الجزائر.

تقول "أحلام مستغانمي": "هناك جيل جزائري كامل يتشكل وعيه على تشكيلة متنوعة وكاملة من الجرائم".. "إن الجيل الحالي من الجزائريين يفتح الصحف والمحطات على أخبار القتل والسرقة والذبح، وهذه المفردات سوف تشكل وعيه وتطبع نفسيته، حتى إنه سيعتقد في سهولة ارتكاب هذه الأفعال".. "الأزمة الأخلاقية الكبيرة التي تعانيها الجزائر هي الأخطر في تاريخها؛ لأن المجتمع الجزائري لم يعد قادرًا على إنتاج القدوة بل القدوة السيئة.. وهذا أخطر ما يمكن أن يحدث لشعب".. "يجب على السلطة أن تدرك ظهور الفوارق بين فئات مسحوقة وفئات تستولي على كل شيء".. "يجب محاسبة اللصوص مهما كانت درجتهم؛ لأن هؤلاء لم يسرقوا المال بل سرقوا الأحلام.. لشعب بكامله".. "ينبغي حلُّ أزمات هذا الجيل من العاطلين عن الأحلام وليس فقط العاطلين عن العمل".. "ينبغي الكفُّ عن ترديد مفردات الوطنية الزائفة؛ لأننا نواجه خطرًا أشرس من الاستعمار. في السابق كنّا نعرف عدوَّنا.. الآن عدوُّنا منَّا".. "ليس هناك ربيع عربي.. بل كوارث عربية.. نحن لا نريد ربيعًا ولا خريفاً ولا شتاءً.. نريد وطنًا لكل الجزائريين بالمساواة".

* * *

إن توصيف "أحلام مستغانمي" للحال في الجزائر لا يختلف كثيرًا عن عموم الحال في دول عربية كثيرة.. وتمييزها بين "العدو الخارجي" و"العدو الداخلي"، واعتبار العدو الداخلي أكثر خطرًا هو تفكير سائد في أكثر من مجتمع عربي.

وربما تحمل جملة "ليس هناك ربيع عربي.. بل كوارث عربية" ذلك الإحباط الذي ساد الشعوب العربية التي تطلعت في ربيعها إلى مجتمع جديد تسوده الحرية والاستقلال.. وعصر جديد تسوده الحداثة والتقدم.. ثم وجدت نفسها تصارع جماعات وأفكارًا من خارج الزمان ومن خارج المكان.

وربما هذا ما حدا بالمطرب الجزائري "الشاب خالد" للقول في عفوية ساخطة:

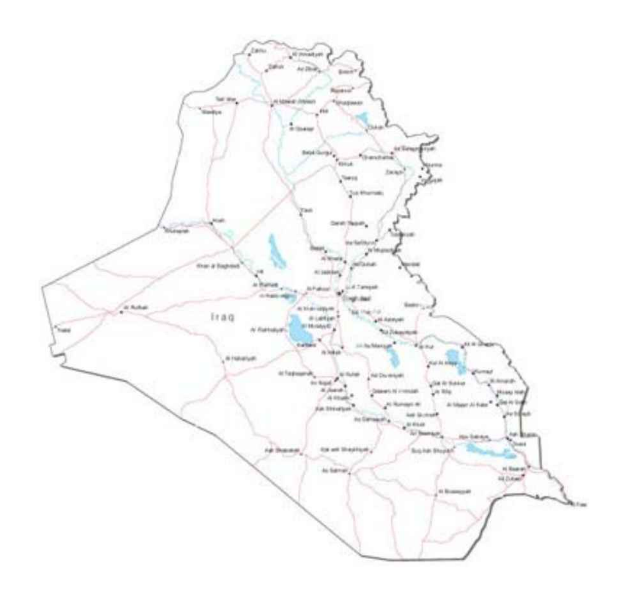
"لقد ارتبط الربيع العربي بالدم والقتل.. وبهذه الطريقة من الدماء الكثيرة لم تنَل الشعوب شيئًا.. بل عادت إلى الوراء".. ثم مضى "الشاب خالد" بعيدًا وقال: "لا بد من تكسير نموذج تشي جيفارا.. إنه نموذج تخريب للبلاد لتمهيد الأمر للاستعمار لأخذ الموارد والبترول.. لقد فعلوا هذا في تونس وليبيا والعراق.. يسقط تشي جيفارا"!

* * *

وهكذا مضت الجزائر من ثورة المائة وثلاثين عامًا إلى إرهاب السنوات العشر.. من سبعة ملايين ونصف مليون شهيد من أجل الوطن إلى مائتي ألف شهيد من أجل السلطة.

ومضت الأشخاص مع الأحداث.. من الشيخ "عبد الحميد بن باديس" إلى الشيخ "عباس مدني" والأمير "عبد القادر الجزائري" إلى "أبومصعب عبد الودود".. من الجهاد ضد الآخر إلى الجهاد ضد النفس.. ومن المجاهدين ضد الاستعمار إلى المجاهدين ضد الإسلام.

الفصل الرابع



العراق.. قرن من الاجتهاد الخطأ!

«إنني كعربي.. وعلى الرغم من صداقتي للعالم الحر، أقول جهـرًا: إن طـاقتي في التحمل بلغت نهايتها؛ فلقد طفح الكيل كثيرًا جـرَّاء سياسـات الغـرب معنـا. لقـد سبق أن نبهناهم ونصحناهم مرارًا بـضرورة إنـصافنا وحـل قـضيتنا قبـل أن يـستفحل الأمر، لكنهم تجاهلونا، فحلَّت في المنطقة مـشاكل عـدة، والآن.. فـإنني أرى كـوارث مقبلة في الأفق البعيد».

"نوري باشا السعيد"

رئيس وزراء العراق قبيل إعدامه عام 1958

"مجلة لايف إنترناشيونال، 26 يوليو 1958"

* * *

العراق وطنٌ عريق يسكنه شعبٌ مثقف..

لقد تسلمت الثورة العراق محـتلاً وتركتـه محـتلاً.. اسـتقبلته فقـيرًا وتركتـه معـدمًا.. تـسلمته والإمبراطوريـة البريطانيـة عنـد الغـروب وتركتـه والإمبراطوريـة الأمريكية في منتصف النهار!

قامت الثـورة العراقيـة في يوليـو 1958، وفي عـام 1963 قـام حـزب البعـث بثورة على الثورة.. وبعد أربعين عامًا من وصول "البعث" إلى السلطة، سـقطت بغـداد في أيدي القوات الأمريكية، وعاد العراق إلى نقطة الصفر من جديد.

والأغلب أنها ليست نقطة الصفر، بل هي ما قبل ذلك بكثير؛ فإذا كانت نقطة الصفر هي عام 1921، عام تأسيس العراق الحديث تحت حكم الملك "فيـصل الأول"، فإن الوضع الذي انتهى إليه العراق بفعل وجود وجهود الثوريين العراقيين قد عاد به

إلى حالة أسوأ من حالته أيام الحكم العثماني وقبيل الحكم الملكي للعراق.

ففي عام 1920، قامت ثورة العراقيين ضد الاحتلال البريطاني، وسط إجماع شامل على أن الاحتلال خطأ ومقاومته فريضة والموت من أجل الاستقلال والتحرر أمنية عظيمة.

وفي عام 2003، وبعد قرابة نصف القرن على حكم الثوريين، لم يتحقق الإجماع على أن الاحتلال خطأ أو أن مقاومته فريضة، بل لقد رأى بعض العسكريين العراقيين أن الولاء للعراق يستوجب عدم المقاومة وأن إنقاذ بغداد من دمار شامل وإنقاذ الشعب من حكم بائس يتطلبان منع القتال.. فيكون تسليم بغداد إنقاذًا لها واستسلام العراق إنقاذًا للعراقيين!

وقد لا يكون صحيحًا أن حقبة الحكم الملكي للعراق كانت مميزة، لكنه من المؤكد أن حقبة الحكم الثوري كانت رديئة.

والثابت أن الشعب العراقي قد عانى مجمل حكامه وحكوماته، وأن القرن العشرين بكامله – من حكم الأتراك إلى حقبة الملوك إلى عصر الثوار – كان قرن المعاناة؛ فمن الاحتلال العثماني إلى ثلاثة ملوك وخمسة رؤساء.. تآكل الشعب وتاهت الوطنية وفشلت الدولة، وفقد العراق – قمعًا وحربًا – أكثر من مليون شخص، وهو ما يقارب ضحايا حرب التحرير في الجزائر.. من دون أن تكون هناك بطولة أو رسالة!

لقد مثلت الثورة العراقية نموذجًا لفشل عصر الثورات؛ حيث اختطفت الثورة الدولة لتسقطا معًا.. وفي مشهد واحد!

1. حرب عالمية واستدعاء ملك!

شهد العراق حشدًا من الحضارات ثم دخل في نوبة إغماء طويلة، ومن بين الموجات الحضارية يزهو العراق بحضارات أربع، هي: البابلية والسومرية والآشورية والعباسية. ومنذ سقوط الدولة العباسية ضعف العراق وعمَّ فيه السلب والنهب، وتم تخريب المدن الرئيسية، وانتعش وضع العشائر والقبائل.

وقد تأرجح العراق زمنًا طويلاً منذ سقوط بغداد، حين كانت عاصمة العالم، على أيدي المغول، وإلى سقوطها على أيدي البريطانيين في الحرب العالمية الأولى؛ فقد خسرت تركيا الحرب، وانتهى الحكم العثماني للعراق، ودخلت بريطانيا البصرة في عام 1914، واحتلت بغداد في عام 1917، ثم استكملت احتلال العراق في عام 1919. وقد استخدمت بريطانيا في احتلالها للعراق أسلحة حديثة، وتعاملت بوحشية بالغة مع العراقيين.

ويذكر "ناعوم تشومسكي"، في كتابه "إعاقة الديمقراطية"، أن "ونستون تشرشل" حين كان وزيرًا لشئون الحرب عام 1919 طالبته قيادة القوة الجوية الملكية للشرق الأوسط بالموافقة على استخدام الأسلحة الكيماوية في العراق، فأصدر "تشرشل" تخويله بإجراء التجارب، ورفض اعتراضات مكتب الإدارة البريطانية في الهند ووصفها بأنها اعتراضات غير معقولة!

في عام 1920، قامت ثورة العراقيين ضد الاحتلال البريطاني، وقد كانت لهذه الثورة ميزات عدة؛ فهي الأساس في بناء الوعي الوطني العراقي الحديث، ثم إنها أسهمت في التفاهم الكبير بين السنة والشيعة بعد فترة من التمايز بينهما.

ويذكر المؤرخ الأشهر لتاريخ العراق الحديث "حنا بطاطو"، في كتابه

"العراق.. الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية"، أن العراق لم يكن شعبًا واحدًا، بل كان مزيجاً من الأكراد والتركمان والفرس والآشوريين والأرمن والكلدان واليهود واليزيديين والصابئة، والعرب أنفسهم كانوا حضريين وعشائر. وكان المذهب قوة فصل؛ إذ إنه أقام انشقاقًا حادًّا بين العرب الشيعة والعرب السُنَّة، ونادرًا ما اختلط هؤلاء اجتماعيًّا، ولم يكن هناك زواج بينهما، وكانوا في المدن يعيشون في أحياء منفصلة. ومنذ ثورة عام 1920 انضم الشيعة إلى السنة سياسيًّا، وأقيمت احتفالات مشتركة للمرة الأولى.

وقد أعقب الثورة قيام المملكة العراقية، بقيادة الملك "فيصل الأول" عام 1921. والملك "فيصل الأول" هو ابن الشريف "حسين بن علي"، شريف مكة حاكم الحجاز من عام 1916 إلى عام 1924، وكان "فيصل" قائد ثورة مكة ضد الأتراك، وفي عام 1918 أصبح ملكًا على سوريا، غير أن فرنسا قد قامت بنفيه من سوريا، فاستدعته بريطانيا ونصَّبته ملكًا على العراق في عام 1921.

ويقول "حنا بطاطو": إن الملك "فيصل" من الجيل الخامس والثلاثين المنحدر من صلب "الحسن بن علي بن أبي طالب"، حفيد الرسول "صلى الله عليه وسلم"، طبقًا لقائمة النسب الملكية.

وقد كان مجيء الأمير "فيصل" ملكًا على العراق أمرًا جديدًا يفتقر إلى جذور تنتمي إلى تاريخ العراق أو تقاليده، وكان الأئمة في المساجد يدعون من أجل الخليفة العثماني حتى عام 1924، على الرغم من احتجاجات "فيصل" بأن إبقاء الخطبة بهذا الشكل يمثل إهانة له. ولولا قوة الدعم البريطانية لما كان للملكية أن تجد لها موقعًا في العراق.

وقد فهم "فيصل" حقيقة وضعه تمامًا، وينسب "حنا بطاطو" إلى "فيصل" قوله للمندوب البريطاني: "أنا أداة للسياسة البريطانية، وإنكم اخترتموني، ولكن من

مصلحتكم أن تُظهروا فورًا أني ملك حقيقي!".

قام الملك "فيصل" بتأسيس جيش حديث، ووضع لبناته الأولى من عشرة ضباط عراقيين كانوا يحاربون في جيش الشريف "حسين بن علي" في الحجاز وقاتلوا ضد الدولة العثمانية، ومن بين هؤلاء: "جعفر العسكري"، أول وزير للدفاع، و"نوري السعيد"، آخر رئيس وزراء في العهد الملكي، وكان بين "جعفر العسكري" و"نوري السعيد" علاقة نسب.

* * *

وقد أدت الوفاة المفاجئة للملك "فيصل" عام 1933، بعد عام من انسحاب بريطانيا من الاحتلال المباشر للعراق عام 1932، إلى ارتباك الجيش.. ويرى مؤرخون أن عام 1933 كان بداية لتدخل الجيش في السياسة، وبدءِ طموحات الجنرالات باتجاه اغتنام السلطة في بغداد. وكان الجنرال "بكر صدقي" هو أول انقلابي يقوم بإقحام الجيش في السياسة.

كان "بكر صدقي" كرديًّا، وكان مؤمنًا بالوطنية العراقية، بعيدًا عن القومية العربية التي كان شديد العداء لها. وحين اكتسب "بكر صدقي" قوة واضحة من خلال حملته العسكرية على الآشوريين عام 1933، هدد في عام 1936 بالزحف على بغداد إذا بقيت حكومة "ياسين هاشمي" "القومية العربية" في الحكم، وفي 29 أكتوبر 1936 ألقت طائرتان عسكريتان تابعتان لـ"صدقي" منشورات على بغداد ومعها قنبلتان في أماكن إدارية لتؤكد جدية التهديد.

وقد رضخ الملك "غازي" للتهديد وأقال حكومة "الهاشمي". ولما طلب "جعفر العسكري" – وزير الدفاع – الذهاب إلى الجيش لضبط الأمور وحصل علىإذًا الملك "غازي" بذلك، خرج ولم يعد.. ويقال إن "بكر صدقي" قد قتله!

ولم يشكل "بكر صدقي" الحكومة بنفسه، بل فرض "حكمت سليمان" "تركي الأصل" رئيسًا للوزراء و"جعفر أبو التمن" "الشيعي" وزيرًا للخارجية.

لكن "بكر صدقي" نفسه قد اغتيل لاحقًا في أثناء قضائه ليلة في استراحة بالموصل وهو في طريقه إلى ألمانيا لحضور إحدى مناورات جيش "هتلر"!

وقد ظل الجيش بعد مقتل "بكر صدقي" القوة المحركة للسياسة في العراق، وقد تعاقبت عليه ومنه انقلابات كثيرة هي التي شكلت تاريخ العراق المعاصر.

* * *

شهد عهد الملك "فيصل الأول"، فضلاً عن تأسيس جيش حديث، تطورات سياسية إيجابية، من قانون الجمعيات عام 1922 ونشأة ثلاثة أحزاب سياسية، إلى إجراء أول انتخابات برلمانية عام 1924، ثم صدور أول دستور عراقي عام 1925 جرى فيه الفصل بين السلطات الثلاث.

لكن هناك من يرى أن الواقع لم يشهد تطورًا ديمقراطيًّا بعيدًا عن الشكل؛ فلم تكن هناك انتخابات حرة طيلة عمر التجربة البرلمانية؛ حيث كانت الحكومة تتدخل وتزيف النتائج. وفي عام 1944، قال "نوري السعيد" للنواب العراقيين: "إن النائب لا يكون نائبًا إلا إذا رشحته الحكومة وليس بنفوذه ومركزه".. وحين فاز "11" نائبًا من خارج نخبة الحكم عام 1954، قام "نوري السعيد" بحل البرلمان، وصار يحكم بالمراسيم وتزوير الانتخابات حتى سقوط النظام الملكي عام 1958.

قضى الملك "فيصل الأول" في السلطة "22" عامًا منذ تأسيس الملكية عام 1921 وإلى وفاته عام 1933، ثم خلفه الملك "غازي الأول بن فيصل الأول" وقضى في السلطة "6" سنوات، وقد وُلد الملك "غازي" في مكة عام 1912، وانتقل للأردن عام 1924، ثم حكم العراق عام 1933، وقُتل في حادث سيارة عام 1939، ويعتبره بعض المؤرخين اغتيالاً.

تولى الحكم من بعده الملك "فيصل الثاني بن غازي الأول بن فيصل الأول بن الشريف حسين بن علي"، وقد وُلد في بغداد عام 1935، وتولى المُلك وهو في سن الرابعة من عمره، واعتمد على عمه الأمير "عبد الإله" الذي نصَّب نفسه وليًّا للعهد. وفي عهده خاض العراق حرب فلسطين عام 1948 وكان عمر الملك ثلاثة عشر عامًا، واغتيل مع الأسرة المالكة في مذبحة قصر الزهور بعد اندلاع الثورة عام 1958.

وقد انتهى نسل الملك "فيصل الأول" من الذكور ممن يحملون الجنسية العراقية، ومن ثَمَّ فإنه، طبقًا لدستور عام 1943، لا يوجد من نسل الملك ولا نسل إخوته من ينطبق عليه شروط الملكية من النسب والجنسية، وهو ما دعا الشريف "علي بن الحسين" لإعلان نفسه مطالبًا بالعرش بعد سقوط نظام "صدام حسين" عام 2003.

والشريف "علي بن الحسين" هو ابن شقيقة الملكة "عالية"، زوجة الملك "غازي"، ومن ثَمَّ فهو ليس من أحفاد الملك "فيصل" ولا أحد أشقائه. وتعتمد الحركة الملكية الدستورية – التي تطالب بالشريف "علي بن الحسين" ملكًا على العراق – على كونه الأقرب للأسرة المالكة؛ فهو ابن خالة الملك "فيصل الثاني"، آخر ملوك العراق، كما أنه يحمل الجنسية العراقية على عكس بعض أمراء الأسرة الهاشمية في الأردن الذين يحتلون موقعًا أقرب من الشريف "علي" في الانتساب للملك "فيصل الأول".

* * *

لم يكن العصر الملكي الذي تعاقب عليه ثلاثة ملوك في سبعة وثلاثين عامًا عصرًا مجيدًا، إلا إذا قورن بعصر الثورة اللاحق.

وعلى قدر ما يثير عصر الثورة من ارتباك في الحكم والتقدير، فإن العصر الملكي هو الآخر لا يحظى بالإجماع ويسوده الخلط والخلاف؛ فالإصلاحات التي أجراها الملك "فيصل الأول" هي في تقدير المعارضين مجرد شكليات، وبقيت الحكومة

هي الأقوى من البرلمان والشعب، والجيش الحديث الذي أسسه الملك لحفظ النظام، مضى يدرك أن ذلك مقدَّم على حفظ الوطن، ثم بات يرى أن السيطرة على النظام أفضل من الحفاظ عليه!

وربما يمثل رجلٌ بوزن "نوري السعيد"، الذي انفتح على الغرب وتعاون مع بريطانيا والولايات المتحدة، وعادى نظام "عبد الناصر" وفكر القومية العربية، النموذج الأوضح لذلك الارتباك بشأن تقييم الأشخاص والسياسات.

يرى البعض في "نوري السعيد" نموذجًا للعراقي الأفضل؛ فقد كان رجل بناء وكان واقعيًّا ومدركًا للخريطة الدولية ولحجم العراق ودوره.

ويذهب الكاتب العراقي "سيار الجميل" - في مقالة نشرتها صحيفة "الزمان" العراقية في لندن بتاريخ 15 يوليو 2002 - إلى أن "نوري السعيد يقترن اسمه ببناء العراق المعاصر؛ إذ شهد، على امتداد خمسين عامًا من حياته، ولادة العراق دولة ومؤسسات.. مجتمعًا وأحزابًا وزعامات، لكن اهتمامه بالمشروعات الاستراتيجية الكبيرة قد جعله يخسر كثيرًا على مستوى ما كان يحتاجه المجتمع العراقي من المكتسبات الصغرى".

كان "نوري السعيد" منحازًا للغرب، ويرى حاجة العرب للتعلم منهم في تحديث حياتهم، لكنه كان يثق في ثقل العراق، وكان يردد أمام الغرب: "إذا كان مترنيخ يقول إذا عطست فرنسا أصيبت أوروبا كلها بالزكام، فأنا أقول على غرار ما قال: إذا عطس العراق أصيب العرب بالزكام!".

وعلى الرغم من ذلك، كان "نوري السعيد" صلبًا وعنيدًا في الموقف ضد إسرائيل والصهيونية على عكس الاعتقاد السائد. ويقول "حاييم وايزمان"، في كتابه "التجربة والخطأ" - الذي صدر في لندن عام 1950-: "كان الشخص الصلب والعنيد الوحيد الذي لم أستطع إقناعه بأي حال من الأحوال بقبول فكرة تأسيس دولة إسرائيل هو

نوري باشا السعيد، وأعتقد شخصيًّا أن سبب عناده وتصلبه يرجع إلى رغبته في إيجاد منفذ للعراق إلى البحر المتوسط عن طريق تأسيس دولة سوريا الكبرى التي تضم سوريا والأردن وفلسطين، انطلاقًا من العراق".

لكن حلف بغداد – حسب تعبير "حنا بطاطو" – كان لعنة عربية عليه! لكن ثمة من يرون – وهم الأكثر عددًا – أن "نوري السعيد" كان عميلاً للغرب، وعدُّوا للقومية العربية؛ لذا تآمر ضد الملك "غازي"، الذي كان ينوي الزواج من كريمة "ياسين الهاشمي"، وكلاهما قومي عربي، إلى أن تم إفشال الزواج ثم الحيلولة دون تولي "الهاشمي" الوزارة ثم اغتيال الملك.

ويتهم الصحفي العراقي "جمال ناصر الزبيدي"، "نوري السعيد" بأنه كان حليفًا للأمير "زيد"، عم الملك "غازي"، وأن كليهما كان عميلاً بريطانيًّا، وأن "نوري" هو المسئول عن اغتيال الملك "غازي" بإيحاء من بريطانيا.

وأما المظهر الليبرالي لـ"نوري السعيد" فهو مظهر كاذب وغير صحيح؛ فقد كان مزورًا للانتخابات، وقد استعان بالجيش للقضاء على خصومه عام 1940!

* * *

كان "نوري السعيد" دومًا ذلك السياسي المراوغ، وقد احتفظ للعراق بوزن إقليمي، وأسس علاقة قوية مع نظام حكم الملك "فاروق" في مصر، ولما قامت الثورة المصرية عام 1952 أجرى اتصالات مع قادة الثورة، وفي عام 1954 قام "صلاح سالم" برئاسة وفد من مصر التقى "نوري السعيد" والأمير "عبد الإله" في سرسنك، وقد أبديا حفاوة تجاهه، وفي أغسطس عام 1954 قام "نوري السعيد" بزيارة إلى القاهرة وقابل "جمال عبد الناصر".

في عام 1955، بدأت الخلافات بين "عبد الناصر" و"نوري السعيد".. ففي 22 فبراير 1955، تم عقد اتفاق النواة الأولى لحلف بغداد بين تركيا والعراق، وقَّعه

"نوري السعيد" من العراق و"عدنان مندريس" من تركيا، ثم انضمت بريطانيا إلى الحلف في أبريل 1955، وانضمت باكستان في يوليو 1955، وإيران في نوفمبر 1955، وشاركت الولايات المتحدة كمراقب.

ولما قامت حرب السويس عام 1956، كانت السقطة الكبرى؛ حيث وافقت حكومة "نوري السعيد" على استخدام قواعدها الجوية من قِبَل بريطانيا في العدوان الثلاثي على مصر.. وبعد عامين كان "عبد الناصر" قد نجح في ترسيخ صورة "نوري السعيد.. العميل"، وقام العسكريون العراقيون بإسقاط النظام الملكي وتقطيع أوصال "نوري السعيد" بعد قتله وسحله في شوارع بغداد!

وبانقضاء "نوري السعيد" ومعه معظم أفراد العائلة المالكة.. انقضت حقبة كاملة، وبدأ عصر الثورة في العراق.

2. ثورة ناجحة وعبد الكريم قاسم رئيسًا

في 14 يوليو عام 1958، قامت ثورة العراق بعد انقلاب عسكري قام به العميد "عبد الكريم قاسم". قامت الثورة بإسقاط الحكم الملكي "الهاشمي" وقتلت "نوري السعيد".

كان الحدث مدويًا.. تدخلت الولايات المتحدة عسكريًّا في لبنان بعد يوم واحد، وبعد يوم آخر وُجدت بريطانيا عسكريًّا في الأردن. وترك "عبد الناصر" الزعيم اليوغوسلافي "تيتو" مغادرًا إلى موسكو وملتقيًا "خروشوف".

بدأت الثورة بانقلاب العميد "قاسم" ومساعده العميد "عبد السلام عارف"، كان "قاسم" و"عارف" يتجهان من قاعدتهما في العراق إلى الأردن لتدعيم الاتحاد الهاشمي الجديد بين العراق والأردن، وفي أثناء تحرك اللواء إلى بغداد، زحف "عارف" بمقدمة اللواء إلى بغداد، وقام بالانقلاب.. ثم قتل الملك "فيصل الثاني" وأغلب العائلة وقتل "نوري السعيد"، وأعلن راديو بغداد قيام الجمهورية و"عبد الكريم قاسم" أول رئيس حكومة فيها، و"عبد السلام عارف" نائبًا له.

استقبل الشعب الانقلاب بثورة تأييد عارمة وارتياح شديد. وعلى الفور، نزلت قوات الأسطول السادس بطلب من "كميل شمعون" إلى لبنان، وطلب الملك "حسين" القوات البريطانية للدفاع عن الأردن.

قام "عبد الكريم قاسم" بحل الاتحاد الهاشمي، لكن الملك "حسين" نصَّب نفسه رئيسًا لدولة الاتحاد، وطلب من الشعب العراقي سحق الثورة، وأرسلت حكومة "ماكميلان" في بريطانيا قوات مظلات من قبرص إلى عمان.

في تلك الأثناء، كان "جمال عبد الناصر" رئيس دولة الوحدة المصرية –

السورية مع "تيتو"، ومعهما أسرتاهما في يوغوسلافيا، ولما وقعت أحداث العراق، طلب زيارة موسكو، فأرسل له "خروشوف" طائرة روسية والتقاه في موسكو.. في زيارة سرية.

اعترفت بريطانيا والولايات المتحدة بحكومة "عبد الكريم قاسم"، واعتبر الملك "حسين" الاتحاد الهاشمي لاغيًا، وزاد من هجومه على "جمال عبد الناصر"؛ حيث إن أحداث العراق قد جاءت بعد شهور قليلة من الوحدة المصرية – السورية، ما أضعف معسكر الملوك وزاد "عبد الناصر" مهابة ونفوذًا.

وفي بغداد، كان "قاسم" يخاف من "عارف"، ومن أن يكون هو "عبد الناصر" الذي سيزيحه وأنه يقوم بدور "محمد نجيب" الذي قد يرحل. وفي سبتمبر 1958 – بعد شهرين على الانقلاب الثوري الناجح – قام "قاسم" بتعيين "عارف" سفيرًا في بون بعد أن زادت شعبيته بين الشعب والجيش.

وفي نوفمبر 1958، عاد "عارف" فجأة دونإذًا "قاسم"، فاعتقله "قاسم" باعتباره عميلاً لـ"عبد الناصر" ووصفه بالخائن وتم الحكم عليه بالإعدام.

اتجه "قاسم" للشيوعيين لمساندته ضد "عارف". وأبعد الملحق العسكري المصري "عبد المجيد فريد"، وضيّق على السفارة المصرية، وأقال "6" من "11" وزيرًا في مجلس وزرائه؛ لأنهم كانوا متعاطفين مع "عبد الناصر"، وبينما كان "عارف" ينتظر حكم الإعدام في السجن كان أربعة فقط من رجال الثورة حول "قاسم".

ويصف "أنتوني ناتنج"، في كتابه "ناصر"، "عبد الكريم قاسم" وصفًا شاملاً هو الأقرب إلى مشاهدات معاصريه: "كان عبد الكريم قاسم مصابًا بنوع من الجنون، وكان نادرًا ما تضيء الابتسامة وجهه، كما كان يعاني انقسامًا خطيرًا في الشخصية. وعلى الرغم من أن سلفه نوري السعيد كان يكره القاهرة فإنه كان يزورها والتقى منافسه عبد الناصر، وكان يخفف من حدة عدائه للناصرية بإطلاق الفكاهة بين الحين

والآخر، إلا أن قاسم لا يبتسم أبدًا، والغريب أنه حين فكَّر أن يهاجم سوريا في أثناء خلافه مع عبد الناصر زار اللواء غازي الداغستاني، الذي كان ينتظر تنفيذ حكم الإعدام بموجب قرار من قاسم ليطلب مشورته في شن هجوم على سوريا"!

* * *

ساعدت مصر العقيد "عبد الوهاب الشواف"، قائد لواء في الموصل، أحد المعادين للشيوعية والمؤيدين للعلاقات القوية مع "عبد الناصر"، للقيام بانقلاب على "قاسم" وحلفائه الشيوعيين. ويذكر "صلاح نصر"، في مذكراته، أنه رتَّب الانقلاب مع "عبد الحميد السراج" في سوريا و"الشواف" في العراق، وأرسلت المخابرات المصرية محطة إذاعة ومساعدات، وفي 8 مارس 1959 – أي بعد ستة أشهر تقريبًا من الثورة – قام العقيد "الشواف" بمحاولة الانقلاب، وفي 9 مارس أعلن من محطة الإذاعة التي أرسلتها له مصر الثورة على "قاسم" وإقامة العلاقات مع القاهرة.

أمر "عبد الكريم قاسم"، قائد القوات الجوية العراقية – وكان شيوعيًّا – بضرب رئاسة "الشواف" وأتباعه، وقُتِل "الشواف" ومن معه، وساد الإرهابُ والرعبُ الموصلَ لأيام.

وكان "المهداوي"، ابن عم "قاسم"، هو رئيس المحاكمة التي حاكمت أحداث ثورة "الشواف"، وكان "المهداوي"، الذي وُلد لأب يعمل جزارًا، متوحشًا واعتاد أن يقول: "أبي كان يذبح الخرفان وأنا أذبح الخونة".. وكان يبدأ الجلسة بأن يسب "عبد الناصر" وسوريا وأمريكا وبريطانيا وإسرائيل على التوالي.. ثم يصدر أحكام الإعدام!

* * *

يرى العراقيون في "عبد الكريم قاسم" زعيمًا وطنيًّا، ويذكرون له إسقاط الملكية والتحرر من الاستعمار وإسقاط حلف بغداد، كما يذكرون له حركة البناء والعمران الواسعة في البلاد، وكذلك إشراكه كل الأحزاب الوطنية في أول حكومة ائتلافية في

عهد الثورة، وكذلك حركة النقابات والجمعيات القوية، ومظاهر حرية الصحافة وإصدار دستور مؤقت والسماح بالتظاهرات.

لكن الخلاف الذي وقع بين التيار القومي والحزب الشيوعي العراقي بشأن الوحدة قد جعل "قاسم" ينضم للشيوعيين ويبدأ الخلل، كان القوميون يرون ضرورة الوحدة الاندماجية الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة بزعامة "عبد الناصر"، واعتقد "عبد الناصر" بدوره أن "البعث"، الساعي للوحدة، يجد ممانعة من "عبد الكريم قاسم"، المتحالف مع الشيوعيين والمعادي للوحدة.

فعمل "عبد الناصر" على تخريب سمعة "قاسم" عربيًّا، وحاول تأسيس تيار ناصري يحاول إسقاط "قاسم" وإقامة نظام قومي يدخل في وحدة مع الجمهورية العربية المتحدة.

وقد نجحت جهود "عبد الناصر" في دعم البعثيين الذين سرعان ما تمكنوا من إسقاط "قاسم" وإعدامه، وبدءِ الحقبة الأسوأ من تاريخ العراق المعاصر.. تلك الحقبة التي ارتبطت بعد سنوات بحكم الرئيس "صدام حسين".

نجح "عبد السلام عارف" في الانقلاب على "عبد الكريم قاسم" عام 1963، وتم قتل "قاسم" و"المهداوي". وفي 26 مايو 1964، وقَّع "عارف" اتفاقية الوحدة مع "عبد الناصر" في القاهرة. وبدوره أرسل "عبد الناصر" عددًا من الطيارين المصريين إلى العراق لحماية نظام "عارف" وتدريب الطيارين العراقيين، وكان منهم الضابط الطيار "حسني مبارك".

لم تدُم المودة طويلاً بين "عبد الناصر" ونظام "عارف" الذي انقلب بدوره على البعثيين، كما أن "عبد الناصر" كان يرى أن "عارف" يقوم بنفاقه وأنه يكرهه في داخله.

في 15 سبتمبر 1965، جرت محاولة انقلابية ضد نظام "عبد السلام عارف"، قادها "عارف عبد الرازق"، وزير الدفاع وقائد القوات الجوية. وقد ساعدت مصر الانقلاب الفاشل لـ"عارف عبد الرازق" سرًّا، وقيل إن "أمين هويدي"، سفير مصر في بغداد، قد ساعد الانقلابيين بالمال.

سحب "عبد الناصر" السفير "هويدي" من بغداد وعيَّنه في مصر وزيرًا للإرشاد في حكومة "صدقي سليمان". وساد جو من الفتور بين القاهرة وبغداد بعد هذا الانقلاب الفاشل.

في أبريل 1966، لقي "عبد السلام عارف" مصرعه في حادث طائرة مروحية، وقد تكون مصر مَن نفَّذت عملية إسقاط الطائرة واغتالت الرئيس "عارف".

وبعد العملية، سافر وفد مصري للعزاء يضم المشير "عامر" و"أمين هويدي" و"فتحي الديب"، أحد كبار مسئولي المخابرات المصرية، ونجحت مصر في إقناع القوى القومية العراقية بـ"عبد الرحمن عارف" وهو أخو الرئيس "عبد السلام عارف".. وقد اجتمعت الآراء في وصفه بطيبة الخلق لا كفاءة العمل السياسي.

* * *

لم يفعل "عارف" الأخ شيئًا يُذكر حتى جرى نفيه إلى تركيا في 17 يوليو 1968؛ حيث سيطر "البعث" على السلطة، وتم إعلان "أحمد حسن البكر" رئيسًا في 30 يوليو 1968. قام الرئيس "أحمد حسن البكر" بتعيين "عبد الرازق النايف" رئيسًا للحكومة و"حردان التكريتي" وزيرًا للدفاع. وكان تعيين "عبد الرازق النايف" لرئاسة الحكومة تكريمًا على تآمره على الرئيس المخلوع "عبد الرحمن عارف" على الرغم من أنه كان قريبًا له.

لكن "عبد الرازق النايف" سرعان ما شرب من الكأس نفسها؛ فبعد فترة وجيزة دعا الرئيس رئيس وزرائه "عبد الرازق النايف" إلى غداء وألقى القبض عليه

ونفاه إلى جنيف. ثم تم إبعاد وزير الدفاع "حردان التكريتي" إلى الكويت ليتم اغتياله!

ويذكر "فتحي الديب" أن "البعث" قد أرسل إلى القاهرة بعض عملائه لاغتيال عدد من رموز القومية العربية العراقية، وفشلت المحاولة.. وحاولوا لاحقًا اغتيال "جمال عبد الناصر" نفسه وإسقاط نظامه بواسطة "700" طالب بعثي في مصر، ثم فشلوا، فحاولوا استيعاب انقلاب "القذافي" في 1969 ليكون بعثيًّا، ثم فشلوا!

وقد انتهى الوضع العراقي الثوري في نهاية المطاف بـ"صدام حسين" رئيسًا و"أحمد حسن البكر" ومن معه خارج السلطة، أو خارج الحياة!

وهكذا تعاقب خمسة رؤساء على السلطة في عهد الثورة، بعد ثلاثة ملوك شملتهم الحقبة الملكية، تولى "قاسم" ثم الأخوان "عارف" ثم "البكر".. إلى أن جاء "صدام حسين".

تولى "قاسم" السلطة من عام 1958 إلى عام 1963، وتولى "عبد السلام عارف" من عام 1963 إلى عام 1966، وتولى "عبد الرحمن عارف" من عام 1966 إلى عام 1968، وتولى "أحمد حسن البكر" من 1968 إلى عام 1979.. ثم جاء "صدام حسين".

3. صدام حسين.. رئيسًا وأسيرًا!

في عصر الثورة العراقية، ربما يكون "عبد الكريم قاسم" هو أكثر الثائرين جدية وإنجازًا، وتمثل الحقبة العارفية التي قادها الأخوان "عارف" حقبة فاترة يمكن تجاهلها في التحليل أو إسقاطها من الذاكرة؛ فالرجلان لم يفعلا شيئًا تقريبًا.

كان "عبد السلام عارف" سياسيًّا عابثًا، وجاء في موجة عابثة.. فكان وفاقه ثم خلافه مع "البعث"، كما كان تأييده وكراهيته لـ"عبد الناصر" يفتقران إلى الثراء في الرؤية، أو القيمة في الحب والغضب. أما "عبد الرحمن عارف" فقد جاء وذهب دون أن يشعر أحد بأن ثمّة رئيسًا لبلد مؤثر في زمن عاصف.. قد مرّ من هنا!

وشأن الأخوين "عارف" كان "البكر"، الذي كانت تجربته مجرد تمهيد لعصر "صدام حسين".

وعلى ذلك، فإن التاريخ الثوري العراقي هو في الواقع تاريخ رجلين هما "قاسم" و"صدام"، ولم يكن الرؤساء الثوريون الثلاثة الذين توسطوا "قاسم" و"صدام" سوى فترة انتظار بين موعدين.

وُلد "صدام حسين" في العوجة، قرب تكريت، في 28 أبريل 1937، وقد توفي والده قبل أن يولد.

أخذ "صدام حسين" الفكر القومي من خاله "خير الله طلفاح"، فتزوج ابنته "ساجدة خير الله"، وعيَّن أخاها "عدنان خير الله" وزيرًا للدفاع إلى أن مات في حادث طائرة.. يقال إن "صدام" كان وراء اغتياله.

تأثر "صدام" بفكر "ميشيل عفلق"، وكانا صديقين منذ الستينات، وقد انضم "صدام" إلى حزب البعث عام 1956، وكان ضمن من حاولوا اغتيال "عبد الكريم

قاسم" عام 1959، وأصيب بعيار ناري وهرب إلى سوريا ثم إلى مصر ليصبح مسئول الطلاب البعثيين فيها.

عاد "صدام" إلى العراق بعد انقلاب البعث في يوليو 1963، وهرب داخل العراق بعد انقلاب "عارف" على "البعث" في نوفمبر 1963، وتوثقت علاقته في ذلك الوقت بقريبه "أحمد حسن البكر".

كان "صدام حسين" الرجل الثاني منذ عام 1974 إلى عام 1979، وفي 16 يونيو 1979 أصبح الرجل الأول في البلاد. وقام على الفور بحملة تطهير ضد البعثيين الذين وصفهم بالمتآمرين وعملاء سوريا، فأعدم سبعة عشر شخصًا وأطاح بنحو خمسمائة شخص من قادة الجيش.

ويمكن فهم زمن "صدام حسين" من خلال فصل أساسي بين صدام "النائب" وصدام "الرئيس"؛ فقد كان "صدام" النائب، أو الرجل الثاني، في زمن "البكر" واحدًا من أصحاب التجارب الجادة في التنمية والتحديث، ويمكن اعتباره – دون مبالغة – واحدًا من أفضل الساسة الذين أنجزوا في تطوير بلدانهم ودفعها خطوات بعيدة في اتجاه التصنيع والتقدم.

وهذا على العكس تمامًا من مرحلة "صدام" الرئيس؛ فقد كان "صدام" الرئيس ديكتاتورًا، وأضاع ما بذله من جهد وإنجاز وأغرق بلاده في نكبات متلاحقة إلى أن أخرج العراق بعيدًا عن سمات الحضارة الحديثة.. بعد ثلاث حروب خاسرة!

* * *

أدى "صدام حسين"، في بداية حكمه – كرجل ثانٍ – أداءً سياسيًّا واقتصاديًّا لافتًا للأنظار؛ فقد بدأ مشروعًا ضخمًا على مستوى الدولة لتعليم القراءة والكتابة ونجح في محو الأمية في العراق. وأبرم اتفاقًا جيدًا مع شاه إيران يتم بموجبه اقتسام مياه شط العرب، ونجح "صدام حسين" في إطلاق مشروع كبير لتطوير الصناعة في

العراق، كما خلق وضعًا ثقافيًّا جيدًا، من خلال نظام تعليمي يتسم بالكفاءة، وكذلك نهضة مسرحية وصحفية وسوق واسعة للكتاب.

ولم يتورط "صدام" في اللجوء إلى غطاء الدين أو مغازلة التيارات الإسلامية السياسية، وحافظ على درجة واضحة من عقلانية النظام العام في العراق. وقد حظي "صدام حسين" – على أثر تلك السياسات الجيدة – بشعبية واضحة وتأييد واسع في أوساط العراقيين.

كان "صدام"، في بداياته، مثالاً جيدًا للثوريين؛ فعلى الرغم من إعداماته وإقصاءاته داخل البعثيين فإنها تبدو مفهومة في إطار حالة الفوضى الفكرية والسياسية التي سبَّبها قادة ومنظرو البعث في ذلك الوقت، كما أنه كان واضحًا حجم الصعوبات التي يواجهها أي حاكم للعراق في بسط نفوذ حكومته في ظل الانقلابات والمؤامرات وتسييس الجيش وانفلات القوى السياسية والعسكرية.

وقد استثمر "صدام" هذا العنف في خلق حالة من الهدوء والاستقرار، وتقوية مكانة الدولة وإعادة الاعتبار لصورة العراق في الداخل والخارج.. كما أنه بدأ، على أثر ذلك، عملية تصنيع وتطوير واضحة في قطاعات كثيرة، وحظي التعليم والعلم عنده بمكانة واضحة في مشروعه للتنمية.

وقد كان يمكن لـ"صدام حسين" أن يكون واحدًا من الثوريين المتميزين، لو أنه لم يقع أسيرًا للعبة الأمم، قبل أن يقع أسيرًا بالفعل في أيدي القوات الأمريكية!

وهكذا تمتد مرحلة "صدام حسين" – الإيجابي – إلى بدايات عهده رئيسًا؛ فقد استفاد من قدراته النظرية التي دعمتها صداقته لـ"ميشيل عفلق" وخبرته على الأرض من خلال العمليات التي شارك فيها، وكذلك صعوده من أسفل السلم الاجتماعي إلى أعلاه.. في أن يرى حاجة العراق إلى التحديث والتنمية، واستفاد أيضًا من تأميم النفط في العراق عام 1972 وما أسفر عنه من دخل كبير للميزانية العراقية.

لولا "لعبة الأمم" وانزلاق "صدام حسين" إلى سياسات عدوانية خرقاء، لكان يمكن للعراق أن يكون من الدول الصناعية الجديدة آنذاك، ولكان قدم تجربة تعادل النمور الآسيوية أو تزيد.

* * *

إن "صدام حسين"، الذي دعم معالم الحداثة في العراق، قام - على الجانب الآخر - بإحياء الفكر القبلي والعشائري، وأضعف قيمة الدولة لصالح شيوخ العشائر وسكان القرى.

ويصف "فالح عبد الجبار" ما حدث بأنه حكم للنخب القروية والقبلية، وسكان البلدان الطرفية والمدن الثانوية. فـ"تكريت" ليست مدينة، بل هي شظايا من قبائل وعشائر قيمهم شديدة التقليدية، وبناء الفكر الإيديولوجي الحديث عندهم رقيق جدًّا، ما إن يزول حتى يطلع القبلي بكل قوته.

يمضي "فالح عبد الجبار": "لقد مكّنت الفورة النفطية هؤلاء من تحطيم الدولة ووضع اليد عليها؛ فعندما تمتلك الحكومة فجأة ثلاثين مليار دولار فوائض تفيض عنها ولا تعرف ماذا تعمل بها، تصاب بالجنون. فقامت التنمية الانفجارية، ووسعت الجيش فبلغ عدد أفراده "340" ألفًا، وقد زادت النسبة السكانية ما بين "20" و"30٪" خلال خمس سنوات، وتضاعف الجيش ثماني مرات في المدة نفسها، وتضاعفت الأجهزة الأمنية عشر مرات.

ألغى البعثيون القوى الأخرى، وقال "طه ياسين رمضان": "إن البعث يضم مليونًا وسبعمائة ألف عضو، وقام الجزء القبلي بتدمير الجزء المدني من حزب البعث، وبدأوا في بناء نموذج يقارب النموذج الألماني أيام هتلر.. كان خطاب السلطة حداثيًّا.. لكن النخبة الحاكمة كانت قبلية!".

ويخلص "فالح عبد الجبار" إلى أن الثروة النفطية كانت قمعية، وأنه في ذروة الفورة النفطية لم يبلغ دخل الفرد في العراق أكثر من "4800" دولار سنويًا، في حين كان دخل الفرد في الكويت أو الإمارات "28" ألف دولار سنويًا. بالمقابل فإن القمع الذي سانده النفط قد طرد إلى المنافي ثلاثة ملايين ونصف مليون عراقي في العشرين عامًا الممتدة من عام 1979 إلى عام 1999!

الأمر الذي جعل عالم الدين العراقي "أحمد الكبيسي" يقول بعد إسقاط نظام "صدام" واحتلال الولايات المتحدة للعراق: "إن العراق لم يستفِد من نفطه طوال العقود الماضية ولا بدرهم واحد، وما سيأتي من النفط مهما سرق منه الأمريكيون سيكون أكثر مما كان يصل في عهد صدام حسين!".

* * *

والحاصل أن الرئيس "صدام حسين" قد شطب النائب "صدام حسين"، وأن مشروعات التصنيع التي بدأها نائبًا جعلها ركامًا وهو رئيس، وأن الثورة ضد الإمبريالية والصهيونية والعملاء قد انتهت باحتلال الإمبريالية واستعلاء الصهيونية وارتياح العملاء.

لقد مضى النائب "صدام" إلى ما كان يمكن أن يكون الطريق إلى المستقبل، لكن الرئيس "صدام" مضى إلى حرب مع إيران، ثم إلى حرب في الكويت، وحرب ثالثة في العراق.. ومن النائب إلى الرئيس إلى الأسير.. عاد العراق إلى الوراء وانتهى عصر الثورة إلى الفوضى.. أو ما وراءها بكثير!

4. العراق.. ثورة بلا دولة!

انتهى العراق إلى ثورة بلا دولة، بعد أن كان دولة بلا ثورة!

كان العراق يسعى إلى الإصلاح منذ زمن بعيد، وفي عام 1870، في عهد "مدحت باشا" وقبل مجيء الاحتلال البريطاني بنصف قرن، كان العراق يسعى للدخول إلى العصر، فتطورت التجارة والصناعة، وتطور شكل من أشكال الانتخاب؛ فكان المسيحيون ينتخبون ممثليهم، وكذلك كان اليهود والشيعة، وأما السنة فكانوا جزءًا من جهاز الدولة التي كانت سنية، وتواجدت النقابات وكان والبلد في صعود.

ولما جاءت الملكية، حاول عهد الملك "فيصل الأول" الإصلاح، وجمع الملك – الذي صار عراقيًّا – ولاءات وتنوعات البلاد. وقد رحل الملك "فيصل الأول" والعراق عضو في عصبة الأمم، وبلاده على وفاق مع "أتاتورك" في تركيا، والشاه "رضا بهلوي" في إيران.

ويرى "سيّار جميل"، في مقالته "عهد فيصل الأول" – التي نشرتها صحيفة "الزمان" في 7 يوليو 2003 – أن خطأ الملك "فيصل الأول" كان في اعتماده على رجال مثل "ساطع الحصري"، الذي ناصب المثقفين العراقيين العداء وعارض مشروعًا إصلاحيًّا عراقيًّا مثل "فهمي المدرس".

ومن اللافت للنظر في رؤية "سيّار جميل": اعتقاده أن "نوري السعيد"، السياسي القوى في العهد الملكي، و"عبد الكريم قاسم"، قائد ثورة 1958 على النظام الملكي، كلاهما يمثل مدرسة سياسية واحدة تستهدف ترسيخ مكانة العراق الإقليمية، وأن مدرسة "السعيد" و"قاسم" قد أدركت ذلك خلال ثلاثين عامًا "1933 – 1963" وهو ما لم يدركه الأخَوان "عارف" و"البكر" و"صدام حسين" في أربعين عامًا "1963– 2003"!

ومثل هذا الرأي الغريب، في قبول "نوري السعيد" و"عبد الكريم قاسم" معًا، إنما يعتمد على أداء كلا الرجلين في حقل السياسة الخارجية، وربما يكون نابعًا من تقدير عام للعراق ملكية وجمهورية، وهو رأي قريب مما يراه مثقفون مصريون ممن يقبلون الحقبة الليبرالية الملكية والحقبة الثورية الجمهورية معًا!

* * *

وعلى وجه العموم.. فإن "عبد الكريم قاسم" يمثل الجزء الأفضل من ثورة العراق، وربما تكون حقبته على الرغم من كثرة أخطائها وانفعالاتها، قريبة من حقبة الثورة المصرية الممتدة من عام 1952 إلى عام 1956.. وهو العام الذي يراه "توفيق الحكيم" نهاية للثورة في مصر.

فقد أسقطت ثورة 1958 النظام الملكي، كما أنها انطلقت تبني العراق، وكثير من بناء الدولة المعاصرة ومرافقها في العراق يعود إلى عهد "عبد الكريم قاسم"، مثلما أن كثيرًا من بناء الدولة ومرافقها في الجزائر يعود إلى عهد "هواري بومدين".

ويرى المؤرخ "حسن العلوي"، في كتابه "عبد الكريم قاسم.. رؤية بعد العشرين"، أن "قاسم" نفَّذ خلال حكمه القصير "17" من "20" هدفًا للثورة، وهو بذلك يكون قد نجح بنسبة "85٪"، وهذه درجة امتياز.

اختار "قاسم" خيرة العراقيين من أحزاب مختلفة للعمل من أجل النهضة، ومن بين من اختار: "محمد حديد"، وزير المالية، وكان "حديد" في الثلاثينات تلميذًا لـ"جون مينارد كينز"، أستاذ الاقتصاد في جامعة لندن صاحب المدرسة الكينزية المعروفة بدولة الخدمات، وقد لعب "محمد حديد" دورًا اقتصاديًّا كبيرًا في إنجاح المشاريع الاقتصادية لحكومة الثورة، وكان "قاسم" يعتمد عليه كثيرًا.

ويذهب المستشرق الفرنسي "مكسيم رودنسون" إلى أن "ثورة العراق في 14 يوليو 1958 هي الثورة الوحيدة في العالم العربي!".

وينظر "حنا بطاطو" إلى أنها ثورة أصيلة: "ولم يكن لظاهرة سياسية سطحية أن تطلق هذه المشاعر كلها بهذا العنف؛ فقد أتت بأكثر من مجرد تغيير الحكم؛ حيث إن مستقبل طبقات بأسرها ومصيرها تأثَّر بعمق، ولقد دمرت إلى حد كبير السلطة الاجتماعية لأكبر المشايخ والملاك، وتعزز نوعيًّا موقع العمال والشرائح الوسطى وكذلك الشرائح الوسطى الدنيا في المجتمع، وتغير نمط حياة الفلاحين نتيجة لانتقال الملكية من ناحية ولإلغاء أنظمة النزاعات القبلية وإدخال الريف في صلب القانون من ناحية أخرى".

وإجمالاً – وحسب "رودنسون" – فقد حققت الثورة الاستقلال والعدالة، وألغت المعاهدات الاستعمارية، وخرجت من حلف بغداد، وحررت الاقتصاد والعملة العراقية من الكتلة الإسترلينية، وألغت حكم العشائر والنظام الإقطاعي، وحررت الملايين من الفلاحين الفقراء من سيطرة الإقطاعية بإصدار قانون الإصلاح الزراعي، وحررت "99.5٪" من الأراضي العراقية من سيطرة الشركات النفطية الاحتكارية، وازدهرت الصناعة، وبُنيت عشرات الأحياء السكنية للفقراء، فالتفَّت حولها الجماهير.

* * *

أدت الثورة وتوجهاتها إلى قلق الولايات المتحدة، وقال "آلان دالاس" – مدير المخابرات الأمريكية –: "إن الوضع في العراق هو أخطر ما في العالم الآن". وقالت صحيفة "التايمز" البريطانية: "إن الأزمة في العراق هي أزمة الوجود الغربي في الشرق الأوسط، إذا نجحت الثورة فقد تحلُّ بالغرب كارثة".

وهنا جاء دور "البعث".. سقطت ثورة العراق في عامها الخامس.. من 1958 إلى 1963، ما جعل المثقف العراقي "حسين ناصر عكلة" ينظر إليها باعتبارها ثورة غير أصيلة – عكس قول "بطاطو" – وأنها لو كانت ثورة حقيقية لما سقطت في عامها الخامس، بل كانت حركة انقلابية لمجموعة من العسكريين الذين لم يكن لهم همٌّ إلا

الوصول للسلطة، وأنه من الصعب مقارنتها بثورة يوليو المصرية، التي كانت تحكم خطواتها الكثير من الحكمة والتأني والتعقل.

* * *

الحادث أن ثورة العراق كانت ثورة حقيقية، قادها الجيش وأيَّدها الشعب، وأنها أُنجزت على النحو المذكور لولا أن قام "البعث" بإسقاط الثورة عام 1963 وإسقاط الدولة عام 2003.. أربعون عامًا ما بين إنهائه الثورة وإنهائه الدولة!

كان للولايات المتحدة الأمريكية دور واضح في إسقاط ثورة العراق على يد حزب البعث عام 1963؛ فقد دفع ملفا النفط والمد الشيوعي واشنطن للإعداد لإسقاط "قاسم" وإيصال حزب البعث إلى السلطة.

وينقل "محمد حسنين هيكل" عن الملك "حسين بن طلال" قوله: "اسمح لي أن أقول لك: إن ما جرى في العراق في 8 نوفمبر 1963 قد حظي بدعم الاستخبارات الأمريكية، ولا يعرف الذين يحكمون بغداد اليوم هذا الأمر، ولكني أعرف الحقيقة. لقد عُقدت اجتماعات كثيرة بين حزب البعث والاستخبارات الأمريكية، وعُقد أهمها في الكويت. أتعرف أن محطة إذاعة سرية تبث إلى العراق كانت تزوِّد رجال الانقلاب بأسماء وعناوين الشيوعيين هناك للتمكن من اعتقالهم؟!".

ويذكر "حنا بطاطو" أن "السفارة اليوغوسلافية في بيروت قد حذرت بعض القادة البعثيين من أن بعضهم الآخر كان يقيم اتصالات خفية مع ممثلين للسلطة الأمريكية". وكان "علي صالح السعدي" – أحد رموز الانقلاب – يصرِّح أمام الصحافة اللبنانية بعد اختلافه مع الرفاق الثوريين: "لقد جئنا إلى السلطة بقطار أمريكي"!

ولم يكن حزب البعث بطبيعة الحال يومًا ضد المصالح الأمريكية باستثناء الهجوم اللفظي، وفي حرب أكتوبر 1973 لم يشارك العراق – الذي يحكمه حزب البعث الثوري – في حظر النفط!

وقد امتدت هذه العلاقة المميزة بين "البعث" والولايات المتحدة حتى توثقت في بدايات عهد الرئيس "صدام حسين".

وفي عام 1982، رفعت الخارجية الأمريكية اسم العراق من قائمة الدول الراعية للإرهاب، وزوَّدت العراق بالسلاح والاعتمادات الزراعية لكي يواجه إيران، وغضَّت واشنطن الطرف عن قتل العراق "37" بحارًا أمريكيًّا على متن "الفرقاطة يو إس إس ستراك" عام 1987 وقبلت تفسير بغداد بأنه حادث عرضي.

وسكتت واشنطن عن استخدام "صدام حسين" السلاح الكيماوي ضد الأكراد فيما سمَّاه "صدام حسين" حملة الأنفال، عام 1988.

وقد دعمت إدارتا الرئيس "ريجان" و"بوش الأب" العراق في الجوانب الاستخباراتية، وسمحتا ببيعه مواد ذات استخدام مزدوج، مدني وعسكري، فيها مواد كيماوية وجرثومية.. ولاحقًا أعطت له الضوء الأخضر لغزو الكويت، ثم امتنعت عن دعم حركات التمرد الشيعية والكردية ضد نظام "صدام حسين" عام 1991 وسمحت له باستخدام القوة في مواجهتها.

وقد كان وزير الدفاع الأمريكي "دونالد رامسفيلد" مطلعًا على استخدام العراق السلاح الكيماوي ضد الأكراد. ويذكر "محمد سعيد الصحاف" – وزير خارجية وإعلام العراق في ظل حكم "صدام حسين" – أن نظام البعث قدم جهدًا أسطوريًّا مع وصول الرئيس "بوش الابن" إلى السلطة لإقناعه بعدم الحرب مقابل تقديم كل ما تطلبه الولايات المتحدة.

وقال "الصحاف" – في شهادته إلى تليفزيون "أبو ظبي" بعد سقوط الدولة والنظام في بغداد – إن العراق حاول توسيط القوى الصديقة لواشنطن، وبذل جهودًا كبيرة لمحاولة إقناع واشنطن بعدم القتال، وإنه التقى مسئولين أمريكيين صغارًا في الولايات المتحدة وأوروبا لأجل هذا الغرض، لكن توسُّل العراق لم يمنع الحرب بعد أن قرر "بوش" البدء في القتال.

* * *

وهكذا بدأت الثورة عام 1958 لتوقف احتمالات الإصلاح في العهد الملكي، لكنها جاءت بإنجازات جيدة، وسرعان ما انتهت بعد خمس سنوات بانقلاب البعث على الثورة عام 1963، ومنذ ذلك الحين، والولايات المتحدة تتواصل مع الثوريين العراقيين، الذين ساعدتهم في الوصول إلى السلطة ثم في البقاء فيها.

كان لواشنطن مصالح في استخدام البعث ضد الشيوعية فأيدت الحقبة البعثية الأولى "آل عارف والبكر"، وكانت لها مصالح في استخدام البعث ضد الثورة الإيرانية، فأيّدت الحقبة البعثية الثانية "عصر "صدام حسين" الأول في الثمانينات"، ثم كانت لها مصالح في الوجود في المنطقة والقرب من النفط فأدخلت "صدام" إلى الكويت ثم أخرجته منها "عصر "صدام حسين" الثاني في التسعينات"، ثم انتهت مصالحها تجاه "البعث" العراقي وأطروحاته الثورية التي أدت المهام الثلاث.. ضد الشيوعية وضد الثورة الإيرانية وضد السيادة العربية على النفط. وبانتهاء الملفات الثلاثة، انتهى دور حزب البعث وكيلاً علنيًّا للقومية العربية، ووكيلاً حقيقيًّا للولايات المتحدة ومصالحها.

وبانتهاء الوكالة، كان الطريق إلى بغداد.. وسقط العراق، ولم يحارب الجيش الذي رأى أن الدفاع حينئذ لن يكون عن الشعب ولا الدولة.. بل سيكون دفاعًا عن النظام وعن "صدام".

* * *

ويذكر "فالح عبد الجبار": "لقد سألت "35" شخصًا من القادة العسكريين، منهم اثنان برتبة فريق وأقل برتبة مقدم، سألتهم على انفراد ومجموعات سؤالاً واحدًا: لماذا لم تقاتلوا؟ قالوا: لأننا لم نكن مستعدين للقتال دفاعًا عن صدام حسين، ولكم نقبل التضحية بالعراق وبالناس من أجله".. "أما المقاتلون العرب الذين جاءوا لقتال الولايات المتحدة فقد كانوا مرفوضين من الجيش العراقي، الذي كان يرميهم

بالرصاص من الخلف ويقول لهم: يا جماعة، من قال لكم أن تأتوا؟ ارجعوا إلى بلدانكم وقاتلوا فيها، أنتم تدافعون عن حكومة لا نريدها.. ارحلوا".. "لكن الفرحة كانت قصيرة، انتهى النظام وبدأ الاحتلال"!

هل يمكن اعتبار حزب البعث غير ممثل للثورة العراقية، باعتباره قام بانقلاب عليها؟ في الواقع، إن الثورة العراقية، التي انتهت حقبتها الأولى والأفضل بعد خمس سنوات، إنما تمتد لتشمل الحقب اللاحقة.. من "العارفَيْن" إلى "البكر" و"صدام".

فجميع الحقب هي ثوب ثوري واحد، وكان "عارف" هو الأساس في نجاح ثورة "قاسم"، وكان "صدام" شريكاً في السلطة لـ"البكر" ولا شريك لسلطته بعد ذلك.. وسواء ساعدت الولايات المتحدة البعثيين على الانقلاب على الثورة لبدء مرحلة جديدة من الضجيج الثوري، أو أن انقلاب الثوريين البعثيين كان بدعم مصري، فإن مرحلة الثورة العراقية تمتد من 1958 إلى 2003.. وهي في المجمل قادت إلى فشل تام.

ولا يبدو أن بلدًا كهذا، حاول الإصلاح في القرن التاسع عشر وسار في الإصلاح في العهد الملكي وخَطَا في الإصلاح في بداية عهد الثورة، قد أتت به الثورة إلى ذلك الحال من العدم؛ حيث لا ثورة ولا دولة!

* * *

كانت الدعاية الأمريكية تتحدث عن عصر جديد من الحرية والرخاء.. عن الديمقراطية التي ستلهم المنطقة.. وعن سويسرا الشرق الأوسط التي ستُلهم العالم.

لم يخرج من أنباء بغداد إلى العالم منذ ذلك الحين سوى أخبار الدم والفساد؛ فلا حرية ولا رخاء، بل فقراء بلا حدود، وقتلى في كل مكان.

ومع كثافة الأخبار السيئة، لم تعد ثمة دهشة في إذاعتها أو متابعتها.. وسرعان ما أصبح العراق بكامله في دائرة النسيان.. وافتتح "فريد زكريا" – ذات يوم

- مقالته في صحيفة "واشنطن بوست" بقوله: "هل تتذكرون العراق؟"!

يوجز عالِم الاقتصاد الأمريكي "جوزيف ستيجلنز" - الحاصل على جائزة نوبل - سنوات الضياع في بغداد بقوله: "البطالة مرتفعة، والكهرباء نادرة، ونصف الأطباء في العراق قُتلوا أو هربوا، ومن بين "28" مليون نسمة نزح "4" ملايين عراقي خارج ديارهم وفرّ مليونان خارج بلادهم.. أي أن ستة ملايين عراقي أصبحوا بلا منزل أو بلا وطن"!

إن المشهد من الجانب الأمريكي لا يقل سوءًا.. وتبدو حرب غزو العراق حرب "الأغبياء والأبرياء".. أغبياء شنوا حربًا على أبرياء.. وخسر الجانبان.

وفي الكتاب الملهم "حرب الثلاثة تريليونات دولار.. التكلفة الحقيقية للنزاع العراقي"، الذي ألفه "جوزيف ستيجلز" وأستاذة جامعة هارفارد الشهيرة "ليندا بيلميز"، فإن تكلفة الحرب على العراق تجاوزت الستة تريليونات دولار.. ثلاثة تريليونات تكلّفتها الولايات المتحدة الأمريكية وحدها وثلاثة تريليونات دولار أخرى تكبدتها باقي بلدان العالم.. وهذا أعلى بكثير من تقديرات إدارة "جورج بوش" قبل الحرب، بأنها لن تتجاوز خمسين مليار دولار.

يقول الكاتبان: "إن الولايات المتحدة تنفق مبلغ الخمسين مليار دولار كل ثلاثة أشهر، وإن هذه التكلفة العملاقة للحرب لم يقُم بوش بتمويلها من الضرائب.. بل قام وقت الحرب بخفض الضرائب لصالح الأثرياء على الرغم من عجز الموازنة.. وتم تمرير التكاليف إلى الأجيال القادمة".

"ومن العجيب أن إدارة بوش لم تأمر باستخدام المركبات المدرعة الخاصة التي كان بوسعها إنقاذ أرواح الجنود الذين قُتلوا بالقنابل المزروعة على جوانب الطرق إلا بعد سنوات من بداية الحرب".

"استعانت الحكومة الأمريكية بشركات أمن خاصة.. إن تكلفة فرد أمن واحد

في شركة بلاك ووتر أكثر من ألف دولار يوميًّا، بالإضافة إلى تكاليف التأمين".

"تجاوزت الفاتورة الصحية لعلاج العجز والرعاية رقم الـ"600" مليار دولار حتى عام 2008".

"إن سُدسَ تكاليف حرب غزو العراق كان يمكنه أن يغطي نظام الضمان الاجتماعي لمدة تزيد على نصف قرن"!

"هذه الحرب لم تشهد سوى فائزين اثنين: شركات النفط ومقاولي الدفاع.. وقد ارتفعت أسهم شركة هاليبرتون، حيث كان يعمل نائب الرئيس، ديك تشيني، حتى بلغت عنان السماء".

* * *

مضت السنوات العشر من عام 2003 إلى عام 2013 على نحو سيئ للغاية.. بعد أن اعتقد العراقيون أن رحيل "صدام"، الذي أدخل بلاده في ثلاث حروب خلال أربعة وعشرين عامًا، سيكون بداية هدوء وانطلاق.

ما بعد "صدام" كان أسوأ؛ فقد اتسعت مساحات الدماء في الزمان وفي المكان.. وكانت الحرب الأهلية التي اندلعت عامي 2006 و2007 بمثابة إطلاق الرصاص على المستقبل.

ويقرّر "إياد علاوي" – أول رئيس وزراء للعراق بعد الغزو – في مقال نشره في صيف عام 2013، أنه إذا استمر العراق في مساره المأساوي فالنتيجة الحتميَّة هي الفوضى والحرب الأهلية.

ويمضي "علاوي" قائلاً: إن الولايات المتحدة، بقرارها المبكر بحلّ الجيش واجتثاث "البعث" وتدمير أركان الدولة، قادت إلى هذا المصير.

وبرأي "علاوي"، فإن رئيس الوزراء "نوري المالكي" قد واصل المسيرة.. من

انتهاك لحقوق الإنسان إلى قضاء مسيّس وخدمات رديئة؛ بحيث "أصبح النظام العراقي ديكتاتوريًّا مرة أخرى، وأصبحت بغداد من أسوأ الأماكن في العالم لحياة البشر".

وعلى الرغم من محاولات واشنطن وطهران وأنصار "المالكي" الترويج لمزايا التخلص من "صدام حسين" ووجود حكومة منتخبة ونمو اقتصادي بعد أن تجاوزت صادرات النفط مستويات ما قبل الحرب، فإن الجانب الآخر من الصورة يبدو مروِّعًا.

فالعنف وضحاياه وصلاَ إلى مستويات قياسية، والطائفية والنزعات الانقسامية تسود قطاعات واسعة من العراقيين، والفساد هو العنوان العريض للبلاد.

ويفسر "فيصل أمين رسول الاسترابادي" – سفير العراق الأسبق لدى الأمم المتحدة، وهو مدير مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة إنديانا – ذلك التدهور الحاد بقوله: "بعد عام 2003، جاءت مجموعة جديدة من السياسيين الذين لا يثقون في بعضهم بعضًا على الإطلاق، والرافضين لأي رؤية مشتركة للعراق.. فعملت الأحزاب الشيعية والكردية على إقامة حكومة مركزية ضعيفة للغاية في بغداد.. ثم كان الطرح الكونفيدرالي من قِبَل الشيعة ورفض السنة. ثم كان أن تذوَّق الشيعة مذاق السلطة، فعادوا عن فكرة الكونفيدرالية وأرادوا دولة مركزية".

"نجح نوري المالكي في تركيز السلطة في يديه.. أنشأ شبكة من القوات المسلحة والأمنية التي ترفع تقاريرها مباشرة إليه وخارج الشكل القانوني.. أما الهيئات المستقلة دستوريًّا، مثل اللجنة الانتخابية والبنك المركزي، فأصبحت تحت سيطرته".

"استخدم المالكي المحاكم الجنائية لإسكات خصومه السياسيين، فأصبح نائب الرئيس السنِّي هاربًا في تركيا وأحكام الإعدام تلاحقه.. ثم مذكرة اعتقال بحق وزير المالية السنِّي بتهم مماثلة".

وحول الطفرة النفطية في عراق ما بعد صدام، يقول "الاسترابادي": "إن الحكومة لم تستكمل مشروعًا واحدًا من مشاريع البنية الأساسية؛ فلا مستشفيات جديدة، ولا مدارس ولا طرق ولا إسكان.. أما الكهرباء والمياه فلا تزال سيئة للعام الحادي عشر على التوالي.. إن الميزانيات السنوية للعراق، خلال السنوات الخمس الماضية، نصف تريليون دولار "مائة مليار دولار سنويًّا"، لكن البطالة في العراق هي الأعلى في الشرق الأوسط".

ويصل "الاسترابادي" إلى القول: "إن ديكتاتورية "المالكي" الناشئة أخذت من ديكتاتورية "صدام"، وهنا التقدم الوحيد!".. "تقوم واشنطن بتعزيز دور إيران في العراق.. ونوري المالكي هو المرشح المفضل لإيران.. وتدعم الولايات المتحدة سرًّا نوري المالكي، الذي يرى كثيرون أنه وراء التطهير العرقي للسنة في بغداد.. إن واشنطن تقوِّي "المالكي" وتعزز المكانة الإقليمية لإيران".

* * *

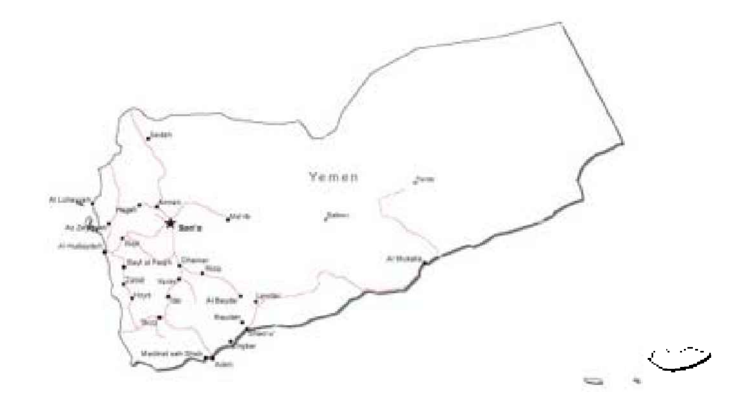
وهكذا مضَى العراق من الملكية إلى الثورة إلى الغزو.. في عام 1958 رأى الثوار أنهم الخير المطلق بعد شر الملكية المطلق.. وبعد أعوامٍ أطاح الثوار البعثيون بالثوار الشيوعيين ورأوا أنهم الخير المطلق بعد الشر المطلق.. وبعد أعوام جاء "صدام حسين" ورأى أنه هو شخصيًّا الخير المطلق وكل ما سبقه من رجعية وثورية.. من ملكية وثورية شيوعية وثورية بعثية.. هو الشر المطلق.. وتم إلغاء الماضي لصالح "الحاضر الوحيد": "صدام حسين"!

وجاء الثوار الجدد، الذين ذهبوا إلى أداة الإنقاذ الأمريكية، ووجدوا أنفسهم مع واشنطن في قارب واحد، وأعلنوا أن كل ما مضى كان خطأ، وأن عصرًا من الديمقراطية والحرية والازدهار سيولد من قبر "صدام حسين".. لكن شيئًا من ذلك لم يحدث؛ فقد توالت مواكب الحزن والموت.. وكان التفجير يطيح بالأجساد، ثم يأتي

تفجير ليطيح بالجنازات، ثم يأتي ثالث ليطيح بالسرادقات.. كانت المرة الأولى في العالم التي يشاهد فيها الناس مراحل متعددة للموت.. قتل الأبرياء ثم قتل المشيعين ثم قتل المعزِّين ثم قتل المشيعين والمعزِّين الجدد.. الذين جاءوا لتشييع القتلى السابقين!

يمضي الثوار العراقيون إلى العام الستين بعد حساب ختامي مرير.. لا ثورة ولا دولة!

الفصل الخامس



ثورة اليمن..

سقوط الملكية بعد ألف عام!

اليمن.. جغرافيا يسكنها التاريخ، فيه روعة المكان والإنسان معًا..

ربما كانت الثورة اليمنية عام 1962 هي أقل الثورات العربية التباسًا؛ فهي قامت لأجل إنهاء سلطة أكثر النظم الملكية في العالم تخلفاً واستبدادًا.

ولم يكن هناك أمل كبير في الإصلاح من داخل الأسرة المالكة اليمنية على الرغم من تفاوت الرأي بين بعض أمرائها.

لكن الثورة اليمنية، التي نجحت في إنهاء حكم أسرة بقيت على مقاعدها أكثر من ألف عام، هي نفسها الثورة التي أسهمت أحداثها ومتطلباتها في هزيمة النظام العربي بكامله في نهاية المطاف.. ثم أتبعتها ثورة جديدة.

* * *

في اليمن، بدأت حرب صغيرة لاستنزاف النظام الملكي الفاسد، وحرب كبرى لاستنزاف النظام الثوري العربي، وفيها بدأ العد التنازلي لعصر "جمال عبد الناصر".

بدأ التدخل العسكري المصري في اليمن بإرسال طائرة عسكرية واحدة تحمل اللواء "عبد الخبير" وبضعة جنود مصريين وكذلك جهاز لاسلكي واحد.. ثم وصل عدد القوات المصرية في اليمن، بنهاية التدخل، إلى سبعين ألف جندي، أي نصف تعداد الجيش المصري، البالغ مائة وأربعين ألف جندي.

وقد خرج آخر جندي مصري من اليمن في 7 ديسمبر 1967 بعد مقتل عشرة آلاف جندي.. فضلاً عن هزيمة 1967 القاسية التي وقعت ونصف الجيش المصري لا يزال هناك!

* * *

كانت الثورة اليمنية ضرورة تاريخية، وكان إسقاطها للنظام البدائي واجبًا مقدسًا، غير أن الثوار اليمنيين قد أغرقوا معهم الثورة المصرية دون إدراك لائق بحقائق الصراع ولا بأطرافه.. ولا بإدارة القوة ولا حدودها.

وقد مضت الثورة اليمنية ومعاركها واستقر النظام الجمهوري.. ومثل الثورات الأخرى، تحوَّل الثوار إلى تجار، وعاد الفقر والبؤس والقات، وظهرت كتابات ناقدة تعيد النظر في الثورة وما أتت به.. وتجرأت بعضها إلى حد إعادة الاعتبار إلى الحكم الملكي، وهي جرأة لا تنبع من تقدير حقيقي للعصر الملكي الفاسد، بقدر ما تنبع من عدم تقدير للعصر الثوري اللاحق، وللثوريين الذين صاروا فاسدين!

ويصف المثقف اليمني البارز "أحمد جابر عفيف" – وقد كان من رجال الثورة – مجمل الصورة، قائلاً في إحباط: "عندما أرى الواحد منهم أسأله: يا أخي، عندما يشاهدك المواطن البسيط وأنت من رجال ثورة 26 سبتمبر ويرى قصرك الفخم المرتفع الواسع وسيارتك الفارهة التي تثير الغبار على رأسه، ثم يسمعك تتحدث عن الثورة والتغيير الذي أحدثته أنت وأمثالك لينعم به وعن مبادئ الثورة وأهدافها.. ماذا يقول؟!".. "إنني وقد وصلت إلى هذه السن، وبعد ستين عامًا أراقب وأشاهد وأشارك في العمل الوطني، أشعر بالأسف وأنا أرى اليمن تدخل القرن الحادي والعشرين ونحن لا نتقدم كما يتقدم الآخرون، بل على العكس منهم؛ نحن نتراجع ونتراجع!".

* * *

اليمن هي أصل العرب وواحدة من عواصم الحضارة الإنسانية، وقد دخلها الإسلام في أول وجوده، وبقي سيِّدًا فيها مع أقلية يهودية ومسيحية إلى اليوم.

وينقسم أهل اليمن إلى شافعية وزيدية، وهما متعادلان تقريبًا. والشافعية هم مسلمون سنة من أتباع الإمام "الشافعي". والزيدية هم مسلمون شيعة من أتباع الإمام "زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب".

ويرى الزيديون أن الإمامة لا تكون إلا لأبناء "فاطمة" و"علي"، وهم يقبلون بالإمام المفضول مع وجود الإمام الأفضل، ومن ثمَّ يقبلون إمامة "أبي بكر" و"عمر"، على الرغم من وجود الأفضل، وهو "علي بن أبي طالب". وهم في هذا يختلفون مع عموم الشيعة، كما أنهم يرفضون فكرة المهدي المنتظر، ولا يرون عصمة للأئمة، ويقبلون وجود إمامين في بلدين مسلمين. وعلى ذلك فالزيدية هي أقرب الفرق الشيعية إلى أهل السنة.

أسس الإمام "الهادي" الدولة الزيدية في اليمن عام 898 ميلادية، وقد بقيت هذه الدولة الزيدية قائمة أحد عشر قرنًا حتى قضت عليها الثورة اليمنية في عام 1962.. وهكذا بقي الحكم الإمامي الزيدي في اليمن متوارثًا لأكثر من ألف عام.

وقد أدى الحكم الإمامي الزيدي في اليمن إلى تدهور وضعية اليمن التاريخية. وبعد أن كانت اليمن واحدة من قواعد الحضارة الإنسانية الكبرى، تراجعت مكانتها لصالح الدول الإسلامية المتعاقبة، من دمشق إلى بغداد ومن القاهرة إلى غرناطة، ثم كان أن انزاحت أكثر وأكثر ومكثت في سبات عميق قرونًا طوالاً.

وطيلة هذه القرون، لم تكن اليمن حاضرة في أي شيء، وباستثناء ميناء عدن وما يتمتع به من نفوذ اقتصادي بحري كبير، فإن قلب اليمن ومدنها وقراها كانت تقريبًا خارج التاريخ. ويُنسب إلى شاعر يدعى "أبو نخيلة"، زار اليمن في القرن الخامس الهجري ولم يرَ فيها ما يوجب الإعجاب، أنه اندهش لما آلت إليه الحضارة اليمنية من هبوط.. فقال ناقمًا:

لم أرَ فيها حسنًا.. منذ دخلت اليمنا

كيف تكون مدينة.. خير من فيها أنا؟!

وقد بقي الحكم الإمامي في اليمن يتوارثه الأئمة الزيديون من شريحة "السادة" أو "الهاشميين".. وجميعهم من خارج القبائل اليمنية. وفي عام 1918 تأسست المملكة المتوكلية اليمنية على أنقاض السيادة العثمانية.

* * *

في نوفمبر 1918، دخل الإمام "يحيى حميد الدين" صنعاء بناء على دعوة القائد العثماني "أحمد توفيق". قام "توفيق" بتسليم الإمام "يحيى" ما تبقى من ممتلكات العثمانيين بعد هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى.

وفي هذا التاريخ، نشأ النظام الإمامي الحديث بقيادة الإمام "يحيى" ومساعدة ابنه "أحمد بن يحيى حميد الدين"، وأصبحت المملكة المتوكلية اليمنية دولة مستقلة ذات سيادة.

ويذهب الباحث اليمني "محمد علي الشهاوي"، في دراسته "الزبيري وحركة المعارضة" – التي نشرتها مجلة "الثقافة الجديدة" التي تصدر في عدن – إلى أن الإمام "يحيى حميد الدين" لم يتسلم صنعاء نتيجة هزيمة الأتراك في الحرب العالمية، ولكن نتيجة قيادته حركة تحرر يمنية ناجحة ضد الاستعمار التركي، ويصف الباحث الإمام "يحيى" بأنه "قائد حركة التحرير اليمنية، أعظم حركة تحرير ضد الأتراك".

وهو عكس ما يرى الكاتب اليمني "عبد الباري طاهر"، في كتابه "اليمن.. الإرث وأفق الحرية"؛ حيث يقول: "ورث الطاغية "يحيى" نضال الشعب اليمني ضد الأتراك مع تركة والده محمد المنصور، ولأنه البديل الذي قبل به الأتراك لصلاته السياسية بالباب العالي.

وقد جاء الاستقلال عام 1918 ببديل ليس أفضل من جيش الاحتلال العثماني؛ فقد رافق تأسيس الدولة المتوكلية مضاعفة الضرائب والإتاوات على الفلاحين؛ فهجر الناس أرضهم بأكثر مما كان وقت الأتراك، وبسبب الإمام يحيى ووكلائه عمّت المجاعة ومات الناس على الطرقات وتدهورت الزراعة وركدت التجارة التي كانت رائجة بين عدن وصنعاء.

لقد كان الاستقلال، على الرغم من كل شوائبه، صالحاً لبناء دولة مستقلة، لكن تسلم الطاغية "يحيى" السلطة جاء مخيبًا للآمال".

حكم الإمام "يحيى حميد الدين" اليمن حتى عام 1948، خرجت اليمن في عهده من سياق الحضارة الإنسانية، لم يكن الإمام يخرج من صنعاء إلا نادرًا، وكان ابنه الإمام "أحمد بن يحيى حميد الدين" هو من وطّد حكم أبيه؛ فقد كان الإمام الابن مقاتلاً شديد البأس، وكان قاسيًا في قتاله مع القبائل ومع السعوديين في حرب 1934. وهي الحرب التي انتهت بعقد اتفاقية الطائف في العام نفسه، والتي أقرت فيها اليمن بالسيادة السعودية على عسير ونجران وجيزان.

خلال الثلاثين عامًا من حكم الإمام "يحيى"، عانت اليمن الفقر والجوع وانقطاع الصلة بين كل قرية فيها وبين عموم البلاد. ويصف "أحمد جابر عفيف"، في مذكراته "شاهد على اليمن" التي صدرت في صنعاء عام 2000، حالة اليمن في ذلك الوقت: "كان الإمام يحيى يحكم اليمن بطريقة غريبة وعجيبة، كان لا يعرف شيئًا عن العالم، وظل في صنعاء لا يغادرها ولا يخرج منها.. لا مشاريع ولا تمدن ولا مدارس ولا مستشفيات ولا أدوات حضارة.

إن الإمام لم يفكر في شق طريق واحد، كان يخرج إلى الروضة في الخريف، يأمر قبيلة بني الحارث بالخروج لإصلاح الطريق بين صنعاء والروضة، كان أبناء تلك القبيلة يخرجون عن بكرة أبيهم يصلحون الطريق لسيارة الإمام!

إلى جانب ذلك، كان الرجل بخيلاً على نفسه وعلى الشعب، كان يكدس ملايين الريالات "ريال ماري تريزا" في دار السعادة ودار الشكر، وعندما يمتلئ المخزن يغلقه ويسده بالحجر. وكان يحمل في جيبه دفترًا صغيرًا يكتب فيه ما يحتويه هذا المخزن أو ذاك من أموال.

كانت سنوات الجدب تُحدث مجاعات كثيرة، فتأتي إلى صنعاء أعداد كبيرة من الجائعين وكثير منهم يموت في الطرقات، وكانت صنعاء تشهد كل يوم أعدادًا من هؤلاء، والإمام يعرف ذلك كله.

وينقل المراقبون المقربون من الإمام حالة الناس المزرية، ولكنه لا يفتح لهم مخازن الحبوب الممتلئة والموجودة في كل المحافظات. ولم يحدث أن لانت نفسه وصرف شيئًا لهؤلاء المساكين.

كان الإمام رجلاً غريبًا لأبعد الحدود، وكان الناس يقدسونه، أما أبناء الإمام – سيوف الإسلام – فكان عددهم كبيرًا وكان لكل واحد منهم قصر خاص به وبأسرته.. لكن اليمن لم تكن تعيش مع العالم لا من قريب أو من بعيد.. كان بعض اليمنيين آنذاك على يقين من أن آخر الدنيا مكة المكرمة أو عدن، أوعند مصر على أقصى تقدير".

استمرت حالة التخلف المزرية هذه حتى زوال النظام الإمامي وقيام الثورة. ويذكر "عبد الله البردوني"، في كتابه "الثقافة والثورة في اليمن"، أن رجال القبائل لم يكن لديهم وعي بالثورة ولا معناها، وأن بعضهم كان يسخر من اسم "الجمهورية"؛ لأنها "مؤنثة"، وتصل المبالغة مداها عندما يروي أن بعضهم قد دخل العاصمة صنعاء عقب قيام الثورة للتعرف على المرأة الجميلة المسماة "جمهورية"!

* * *

لم يستسلم اليمنيون لحالة الهبوط الحضاري التي مثّلها حكم الإمام "يحيى حميد الدين"؛ فابتداء من عقد الثلاثينات، قام المثقفون بمحاولات للإصلاح وتطوير الأوضاع، وبرز اسم المصلح اليمني "أحمد الوريث" وبرزت حوله أسماء عدد من الشباب الإصلاحي، أهمهم "أحمد المطاع"، ومع الوقت أصبح "الوريث" هو صاحب التوجه الإصلاحي السلمي في مواجهة النظام الإمامي الفاسد، وأصبح "المطاع" صاحب توجه ثوري يستهدف إطاحة النظام بالقوة.

وقد امتدت هذه الرغبة الثورية إلى عام 1948؛ حيث قامت حركة ثورية جَسور تستهدف قلب النظام. ويعتبر بعض المحللين ثورة اليمن عام 1948 هي أول

ثورة عربية، وكان فيها عدد من نخبة اليمن المثقفة مثل "الزبيري" و"النعماني" و"الحورش" و"المسمري" و"العنسي".. وكان القصر الإمامي يسميهم العصريين، أي: الكفار.

وأقسم الإمام "يحيى" وولي عهده "أحمد" إنه يريد أن يلقى ربه وسيفه مخضَّب بدماء العصريين، وأفهم الإمامُ الناسَ أن الدستور الذي يدعو إليه العصريون هو اختصار للقرآن الكريم، وأن الدستوريين هم كفار ملحدون!

نجح الثوار في قتل الإمام "يحيى حميد الدين"، وأوشكت الثورة على النجاح لولا تدخل القبائل لسحقها والتعامل الوحشي مع رجالاتها. لكن الآثار الإيجابية لثورة 1948 – على الرغم من فشلها – كانت مهمة؛ فقد وقعت الثورة بالفعل، وهذه نقلة كبرى، ثم إن الإمام قد قُتِل، وحين جاء الإمام "أحمد يحيى حميد الدين" أدرك أن الأمور لن تكون كما كانت وأنه لا بد من تغيير.

قام الإمام "أحمد" ببعض الإصلاحات ومحاولات التحديث؛ ففتح بعض السفارات اليمنية بالخارج، وعبّد الطريق من الحديدة إلى صنعاء، واشترى أسلحة للجيش.. لكن الاتجاهات المعارضة للنظام كانت تزداد قوة وحضورًا، وأصبح الإمام "أحمد" في مواجهة جادة مع معارضة يمنية حديثة.

في هذه الأثناء، قامت ثورة 23 يوليو 1952 في مصر، وبدءًا من عام 1954 سمح "جمال عبد الناصر" للمعارضة اليمنية بالعمل من القاهرة، وساعدها في مزاولة نشاطها ضد حكم الإمام في حرية كاملة.

وجاء من باكستان زعيم المعارضة اليمنية المطارَد "محمد أحمد الزبيري"، وأسس في القاهرة هيئة سياسية ضد الإمام "أحمد"، هي "جمعية الاتحاد اليمني"، ومكَّنته إذاعة "صوت العرب" من توجيه أحاديث سياسية منها.

* * *

في مارس 1955، قام العقيد "أحمد الثلايا" – الذي تخرج في أكاديمية بغداد العسكرية عام 1939 – بمحاولة انقلابية ضد الإمام "أحمد"، وعيَّن مكانه أخاه "عبد الله بن يحيى حميد الدين" إمامًا جديدًا لليمن.

وقد وقف الناس مع القصر ضد الثوار، وحين اشتدت بينهما المعارك كان الناس يناصرون الإمام، وطلع الكثير منهم إلى القصر، وكان الضرب يزداد بزيادة هتاف الناس بحياة الإمام حتى تمت له الغلبة!

وأعدم الإمام "أحمد" رجال الحركة التي قادها "الثلايا"، وفتك بأنصارها في كل مكان.

كان "عبد الناصر"، في ذلك الوقت، في مرحلة القناعة الثورية، ولم يكن حينها قد صار ذلك الزعيم العربي على نحو ما صنعته حرب السويس عام 1956، ولم تكن أيضًا فكرة تصدير الثورة أو تقويض نظم الحكم الملكية هدفًا لنظامه؛ لذا كان طبيعيًّا أن تهاجم القاهرة هذه المحاولة الانقلابية، وأتاحت للمعارض اليمني "محمد أحمد الزبيري" مجال مهاجمتها من إذاعة "صوت العرب".

وقام "عبد الناصر" بإيفاد "حسين الشافعي" إلى اليمن للتأكيد أن مصر بعيدة تمامًا عن هذه الحركة، وكان الإمام "أحمد" يعتقد أن البعثة العسكرية المصرية للتدريب كانت على علاقةٍ ما ببعض مَن دبَّروا لهذا الانقلاب الفاشل.

لكن مصر عادت وآوت زعيمًا يمنيًّا معارضًا آخر هو "أحمد محمد نعمان"، ووضعت إذاعة "صوت العرب" تحت تصرفه، وقام "محمد أحمد الزبيري" بالتنديد بحكم الإمام "أحمد"، وفي أغسطس 1955 سمحت لهما السلطات المصرية بإصدار نشرة معارضة من القاهرة هي صحيفة "صوت اليمن".

* * *

كانت مصر تئوي معارضي الإمام "أحمد" بحجة عدم تحقيقه أي سياسات إصلاحية في اليمن، وكان الإمام بالغ الضيق بـ"عبد الناصر" وبموقفه.

وضع الإمام "أحمد" مصر أمام خيارين.. إما أن تكف عن معاداته، وإما أن ينضم إلى حلف بغداد الاستعماري المعادي لسياسات التحرر في العالم العربي. فأمر "عبد الناصر" بالكف عن الهجوم العلني على الإمام ووقف أحاديث "صوت العرب" وتعطيل صحيفة "صوت اليمن".

وفي 21 أبريل 1956، أبرم "عبد الناصر" ميثاق جدة العسكري الثلاثي مع الإمام "أحمد" والملك "سعود"، وهو حلف مضاد لحلف بغداد وموجَّه ضد الاستعمار البريطاني. ومضت العلاقات جيدة إلى أن كان إعلان دولة الوحدة بين مصر وسوريا في فبراير عام 1958.

وبعد أيام من ذلك "أسبوعين تقريبًا"، انضمت اليمن، بقيادة الإمام "أحمد"، إلى دولة الوحدة المصرية – السورية، وتم في 8 مارس 1958 إعلان اتحاد الدول العربية من مصر وسوريا والمملكة المتوكلية اليمنية.

كان هدف "عبد الناصر" من قبول اليمن في وحدة ثلاثية مواجهة سعي الإنجليز لعقد التحالف الهاشمي بين العراق والأردن الذي أريد له أن يكون موجهًا ضد دولة الوحدة المصرية – السورية.

كما أن "عبد الناصر" أراد "تكتيف الإمام، بدلاً من تركه هدية للملك سعود" الذي يعمل ضد دولة الوحدة منذ قيامها. وكان رأي "شكري القوتلي" – آخر رئيس لسوريا قبل الوحدة أحد المشاركين في صناعتها – أن هذه الخطوة قد تفتح طريقًا للحضارة حتى تدخل اليمن، وأنها تخفف الضغط على العناصر الوطنية في اليمن.

وعلى أي حال، فإن المجلس الأعلى لاتحاد الدول العربية لم يجتمع مرة واحدة، لا في الحديدة ولا في القاهرة، ولم يكن الإمام مخلصًا ولا "عبد الناصر"!

غير أن الاتحـاد ظـلّ قائمًـا رسميًّـا إلى أن بـدأ الإمـام في مهاجمـة الاشـتراكية و"عبد الناصر" بعد الانفصال بين مصر وسوريا في سـبتمبر 1961.. وفي 26 ديـسمبر 1961، أنهت القاهرة رسميًّا أعمال "اتحاد الدول العربية".

1. عاهل اليمن يكتب قصيدة تتهم "عبد الناصر" بالكفر!

بعد الانفصال بين مصر وسوريا عام 1961، انتشرت قصيدة للإمام "أحمد بن يحيى حميد الدين" تتكون من أربعة وستين بيتًا، يهاجم فيها "عبد الناصر" وسياساته نحو التأميم، ومن بين أبياتها:

هيا بنا لوحدة مبنية.. على أصول بيننا مرضية

قانونها شريعة الإسلام.. قدسية الأوصاف والأحكام

ليس بها شائبة من البدع.. تجيز ما الإسلام قد منع

من أخذ للناس من أموال.. وما تكسَّبوا من الحلال

بحجة التأميم والمعادلة.. بين ذوي المال ومن لا مال له

فأخذ مال الناس بالإرغام.. جريمة في شرع الإسلام

وزادت القاهرة من انقلابها على الإمام وسياساته، وكتب "محمد حسنين هيكل" في صحيفة "الأهرام"، بتاريخ 29 ديسمبر 1961، يقول: "لقد تم الاتحاد مع اليمن في ظروف مرحلة سابقة من النضال، اقتضت، أو تصورنا خطأ أنها اقتضت، مداراة الرجعية والسكوت عنها، حتى تنفسح فرصة لتدعيم تجربة الوحدة الأولى بين مصر وسوريا".

ويذكر "صلاح نصر"، في مذكراته، أن "الاتحاد كان مثار تهكم الأصدقاء والأعداء.. كيف يتحالف عبد الناصر، زعيم التقدمية العربية، مع إمام يمثل الرجعية المتخلفة قرونًا؟!".

كانت المعارضة اليمنية، وقتئذٍ، منقسمة بين اتجاه يرى أن "سيف الإسلام عبد الله بن يحيى حميد الدين" هو الإمام المنقذ، واتجاه ثانٍ يرى أن ولي العهد الشاب

"محمد البدر" هو الحل، واتجاه ثالث يرى أن إسقاط النظام الحاكم وإقامة الجمهورية هو الحل.

كانت المعارضة الكلاسيكية في مصر، مثل "الزبيري" و"نعمان"، من أنصار فكرة إحلال ولي العهد "محمد البدر". تعارض نهج مصر في محاولة إسقاط الإمام ونظامه بكامله عن طريق ثورة في الداخل تدعمها القاهرة.

ويشرح "محمد أحمد الزبيري"، في كتابه "ثورة الشعب" – الذي صدر في القاهرة في مايو 1962 – الرؤية هذه بقوله: "لنفرض جدلاً أن الثورة العربية في مصر صنعت لليمنيين ثورة، وخلَّصتهم من حكم الإمام الرجعي وأوضاعه من جذورها، فهل يكون ذلك شرفًا لليمن أم يكون عارًا وشنارًا؟ أما أنا فإني أضرع إلى الله أن يثبت سياسة الجمهورية العربية المتحدة على الابتعاد عن التدخل الثوري في اليمن، حتى لا تهزها العاطفة في يوم من الأيام فتتصدى للقيام بعمل ثوري ضد الرجعية اليمنية نيابة عن الشعب؛ لأن ذلك يعني أن يدمغ الشعب بوصمة في جبينه إلى الأبد"!

وهكذا، فإن رموز المعارضة اليمنية كانت تعارض تدخلاً عسكريًّا مصريًّا في اليمن من أجل دعم قيام الثورة، وعلى الرغم من ظاهر النص الذي قال به "الزبيري" – وهو أن تكون الثورة بأيدي اليمنيين لا بأيدي المصريين حتى لا يلحق العار بأهل اليمن – فإن حقيقة موقف "الزبيري" كانت تعارض إلغاء الحكم الإمامي وإعلان الجمهورية.

كانت المعارضة اليمنية تؤيد النظام الإمامي مع تغيير الإمام، أي تغيير رأس الحكم لا تغيير نظام الحكم؛ ذلك أن تغييره تمامًا سوف يقلب النظام الاجتماعي اليمني، كما أنه قد لا يترك مجالاً لهما بمثل ما يترك النظام الحالي.

ويذكر "محمد علي الشهاوي" – في دراسته "الزبيري وحركة المعارضة" – أن "محمد أحمد الزبيري" كان أعظم رموز الإقطاع الجمهوري – يقصد "الزبيري" ورفاقه

– كان الطرف الرئيسي في محاربة الثورة وليست الملكية؛ فقد عارض "الزبيري" الوجودَ المصري منذ اليوم الأول بصفته قبليًّا، قرويًّا، إقطاعيًّا، رجعيًّا!

* * *

كان الإمام "أحمد" قد قطع شوطًا بعيدًا في العداء لـ"عبد الناصر"، وكان "عبد الناصر" بدوره قد وصل إلى إقتناع بضرورة إسقاط نظام الإمام "أحمد" في اليمن.

وقد لجأ الإمام "أحمد"، بطبيعة الحال، إلى الملك "سعود"، العدو الأهم لـ"جمال عبد الناصر"، لكن الملك "سعود" نفسه، الذي كان قد وصل إلى مدى أبعد من العداء لـ"عبد الناصر"، قد بادر بالإعداد لفتوى دينية بتكفير "عبد الناصر"، وسعى الملك "سعود" إلى علماء الدين في اليمن لإصدار هذه الفتوى ووافقه الإمام "أحمد" على ذلك.

ويحكي القاضي "عبد الرحمن الإرياني"، في مذكراته، عن ظروف تلك الفتوى التي لم تصدر رسميًّا.. فيقول: "استدعاني الإمام أحمد أنا والسيد أحمد زبارة، رئيس الهيئة الشرعية اليمنية، في 20 أغسطس 1961، وسألنا: ما رأيكما بـ"عبد الناصر"؟ فلزمت الصمت. وقال رئيس الهيئة: من أي ناحية؟ قال الإمام: هو كافر لأنه يصادر أملاك الناس ويخالف الشريعة. فقال "زبارة": يا مولانا.. إن التكفير خطير، لا سيَّما لرئيس دولة مسلمة. فقال: ولكنه يخالف القطعي والمتواتر للحديث الشريف: "إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا.. اللهم قد بلغت".

ثم قال الإمام: وأنت ما رأيك يا "إرياني"؟ وكنت قد اطلعت على مقال لرجل الدين العراقي الشيخ "الصواف" نشرته صحيفة البلاد السعودية يكفِّر فيها "عبد الناصر". وكان الملك "سعود" قد طلب من الإمام "أحمد" استصدار فتوى من علماء اليمن بتكفير "عبد الناصر"، لكنني عارضت أنا ورئيس الهيئة الشرعية أحمد زبارة طلب الإمام بإصدار فتوى بكفر "عبد الناصر".

وفي اليوم التالي، جاء أحمد العبيد يستدعيني بمفردي وواجهني الإمام وقال: "أنت شيوعي"؟ قلت: أعوذ بالله. قال: ولماذا أعوذ بالله؟ أوَلست تدافع عن "عبد الناصر"؟ ألم يعلن الاشتراكية العلمية ومعناها "الشيوعية"؟ قلت: إن "عبد الناصر" يقول إن ما فعله هو تطبيق للعدالة الاجتماعية، وأول من دعا إليها أبو ذر الغفاري. ونحن لو فرضنا أن "عبد الناصر" قد خالف قطعيًّا ما جاء في القرآن الكريم، فإنه لا يجوز تكفيره ما لم ينكر ذلك، وإنما يعتبر مرتكب كبيرة، ولا يكفر، ولا يقول بكفره غير الخوارج، ولسنا منهم".

ويكمل القاضي "الإرياني"، في مذكراته، مصير فتوى تكفير "عبد الناصر"، فيقول: "ذهبت إلى جدة في سبتمبر 1961 لحضور مؤتمر الرابطة الإسلامية، قال لي الإمام: سيكون سفرك غدًا إلى جدة لحضور المؤتمر. قلت له: لقد عرفت مما اطلعت عليه من الصحف السعودية أنهم يهيئون لاستصدار بيان يكفرون به "عبد الناصر"، وأنتم تعرفون رأيي في الموضوع، فلو تفضلتم بتكليف أمير الحج. فقال: حاولنا ولكنهم طلبوك، ولا مانع لدينا أن تقول رأيك".

"ذهبنا إلى أداء مناسك الحج، والتقيت الدكتور سعيد رمضان، أحد زعماء "الإخوان المسلمين"، وطرحت عليه الموضوع، وكنت قد عرفت أنهم أعدوا العدة لاستصدار القرار، وقلت له: إنهم يريدون استغلال الدين ورجال الدين لأهدافهم السياسية. فقال: أنا لا أتردد في تكفير من قتل محمد فرغلي وعبد القادر عودة "من الإخوان المسلمين"، لكن هؤلاء الملوك يريدون استغلال الدين ويسخروننا لاستغلال مقاصدهم السياسية.. أنا معك في معارضة الفكرة".

"وجاءت أول جلسة للمؤتمر فقدم العلامة الباكستاني أبو الأعلى المودودي بحثًا حول الاشتراكية، وقرر أنها العدالة الاجتماعية التي هي من مبادئ الإسلام، وقامت قيامة علماء السعودية.. ولما كانوا يجلّون "المودودي" فقد حاروا في أمره،

ورجوه أن يحذف بعض الفقرات.. التفت الدكتور "رمضان" إليَّ وقلت له: لقد كفانا الله شر الجدال".

* * *

توفي الإمام "أحمد" في 19 سبتمبر 1962 – بعد أيام من فشل محاولة تكفير "عبد الناصر" – وخلفه على العرش ابنه الأمير "محمد البدر بن أحمد بن يحيى حميد الدين"، ولُقِّب بالإمام "المنصور".

وفي 22 سبتمبر 1962، أرسل المعارض اليمني في القاهرة "أحمد محمد نعمان" رسالة إلى الإمام "البدر" – باسم "الاتحاد اليمني" – يهنئه فيها بإمارة المؤمنين ويذكِّره بمطالب الشعب. وفي يوم توليه العرش، قام الإمام "البدر" بإصدار عفو عام عن المسجونين السياسيين، كما أصدر بضعة قرارات إصلاحية، لكن المجموعة الثورية في المعارضة في الداخل والخارج لم تمهله أكثر من أسبوع لبدء الثورة.. وبدء حرب اليمن الطويلة.

2. ثورة اليمن.. حرب استنزاف "عبد الناصر"!

كانت المخابرات المصرية على صلة بالضباط اليمنيين الذين تدربوا في القاهرة بموجب اتفاقية الدفاع المشترك بين مصر واليمن عام 1955، وهي الاتفاقية التي سبقت ميثاق جدة العسكري عام 1956. وقد زاد الاعتماد على هذه العلاقات بعد انفصال سوريا وانفلات الإمام. وكان "محمد عبد الواحد الكاتب" في السفارة المصرية في اليمن وسيطَ لقاءاتٍ بين المخابرات المصرية والضباط اليمنيين قبل اندلاع الثورة، وكان أبرزُ نشاطاته لقاءه النقيب اليمني "علي عبد المغني" في مكان بين تعز وعدن في 13 مارس 1962.

وليس مؤكدًا أن المخابرات البريطانية كانت على دراية كاملة بعلاقة المخابرات المصرية بالثوار اليمنيين "الكامنين" في العهد الإمامي، غير أن المخابرات الأمريكية كانت على دراية كافية، ومن مصادر متعددة، ولم تمانع في أن تؤدي تطورات الأمور إلى قيام الثورة.

ويذكر "عبد الرحمن البيضاني"، في مذكراته "أسرار ووثائق أزمة الأمة العربية وثورة اليمن"، أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تعلم تمامًا ما كان يجري. يقول: "مساء يوم 24 يوليو 1962، كنت في بيت أنور السادات، رئيس مجلس الأمة. قال لي صلاح نصر، رئيس المخابرات العامة: يا أخ عبد الرحمن، يجب أن تصرف النظر عن ثورة اليمن، وأن توقف كتاباتك في مجلة روز اليوسف وأحاديثك من إذاعة صوت العرب. قلت: وما سبب هذا القرار المفاجئ؟ قال: لقد عرفت المخابرات الأمريكية جميع التفاصيل عن خطة الثورة من خلال حديث جرى بين أحد مصادرها وبين القاضي عبد الله الإرياني الذي يعالَج في مستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت. وكانت هذه التفاصيل قد وصلت إليه من تعز في رسالة كتبها

إليه القاضي عبد الرحمن الإرياني. قلت: هل تقول إن المخابرات الأمريكية قد عرفت جميع التفاصيل؟ قال: نعم.. عرفت جميع التفاصيل. قلت: إذًا هذا أدعى إلى الاستمرار وليس إلى التوقف؛ لأن المخابرات الأمريكية لن تصدق قيام ثورة في اليمن على نحو هذه التفاصيل".

وبعد شهرين من حديث "صلاح نصر" إلى "البيضاني"، وقعت الثورة اليمنية، وكان "السادات" أول من عرف بها، وهو صاحب الدعوة إلى إرسال قوات لدعمها، وكان واضحًا أن الولايات المتحدة لا تمانع في نجاحها.

* * *

ويشرح "أنتوني ناتنج"، في كتابه الشهير "ناصر"، دخول مصر إلى الثورة وقرار "عبد الناصر" بدعمها: "تلقى السادات، الذي كان أول من سمع في القاهرة بنبأ الانقلاب اليمني، طلب المساعدة من عبد الرحمن البيضاني، الذي اقتصر طلبه في هذه المرحلة على مقاتلة مصرية واحدة تحلق في سماء صنعاء، رمزًا لمساندة عبد الناصر للثورة، إلا أنه بعد أيام قلائل بدأ الجمهوريون يطلبون قوات ودبابات ودعمًا جويًّا.

واستغرق الأمر من عبد الناصر ثلاثة أيام لكي يبتَّ في الرد، وكانت معلوماته عن اليمن ضئيلة بصورة اضطرته إلى أن يسأل جون بادو، السفير الأمريكي، عمَّا إذا كانت ملفاته تضم أي تقارير يمكن أن تعطيه فكرة عن طبيعة البلاد. وعلى الرغم من أن المعلومات الوحيدة التي استطاع بادو أن يعثر عليها كانت عبارة عن نسخة من تقرير اقتصادي قديم من السفارة الأمريكية في صنعاء، فإن عبد الناصر قد قرأه بفهم بالغ وعرفان كبير بالجميل.

وفيما عدا نقص المعلومات، كانت الحجة الوحيدة المعارضة أن الاستجابة لـ"السلال" ستؤدي إلى صراع أعمق مع السعوديين والبريطانيين؛ لأن الرياض وعدن لن تقبلا بوجود جيش مصري على حدودهما.. ولكن استغاثة السلال فرصة لا تتكرر

لممارسة الضغط على بريطانيا، وتوطيد أقدام مصر في طرفي البحر الأحمر".

* * *

في صباح يوم 27 سبتمبر 1962، أذاع راديو صنعاء إعلان مجلس قيادة الثورة برئاسة "عبد الله السلال" قيام الجمهورية العربية اليمنية، وظنت الثورة أنها نجحت في قتل الإمام "البدر" في قصره، غير أنه اتضح لاحقًا أن الإمام قد نجح في الفرار.

ويعرض المشير "السلال"، في شهادته التي نشرها مركز الدراسات والبحوث اليمني، ما جرى بقوله: "لو سُئلتُ: ما أصعب المواقف وأحرجها التي صادفتك في حياتك؟ لقلت إنها الساعات الأولى التي صادفتني يوم فجر الثورة وما تلاها في ذلك اليوم المشهود، وكيف كانت الدقائق واللحظات تمر وأنا أستعرض أمامي النكبات والكوارث التي داهمت الأحرار والثوار والمواطنين الأبرياء عندما فشلت ثورة 1948 وما أعقبها من انتفاضات، ثم المذابح الرهيبة التي ذهب ضحيتها خيرة الرجال من الآباء والأبناء.. بحيث لم يفرق الطاغية والجلادون معه عندما أعدمهم بهذه الصورة الوحشية.

كان التركيز على الإذاعة وبعض المواقع التي استمر الضرب عليها إلى قرب الساعة الخامسة من بعد ظهر الخميس.. هذا ولولا الروح الفدائية التي كنت، ومعي ثوار سبتمبر، عليها لتغير الموقف، لا سمح الله! لكن الذي كدّر هذه المواقف البطولية هو فرار "البدر" على الرغم من القوة الكبيرة التي كانت ترابط حول قصره، ما اضطرني ومعي الثوار أن نعلن دمار واحتراق القصر.

وعلى أي حال، فإن إشاعة احتراق القصر قد أفادتنا وأكسبت الثورة قوة وقتها؛ حيث انهالت برقيات ورسائل التهاني من المناطق اليمنية إلى قيادة الثورة في مقدمتها تعز والحديدة وإبا؛ حيث كان بعض الأحرار المرتبطين بالثورة".

اعترفت مصر، بعد ثمانٍ وأربعين ساعة من الثورة، بالثورة وحكومة "السلال"، ثم اعترفت روسيا. وفي أكتوبر 1962، اعترفت الولايات المتحدة الأمريكية بها. وقد عارضتها بريطانيا والسعودية والأردن.

وبدأ صراع بين مصر ومعها روسيا، وبين السعودية ومعها بريطانيا.. استدعت السعودية الأمير "الحسن" – شقيق الإمام "أحمد" – من نيويورك؛ حيث كان رئيس الوفد اليمني في الأمم المتحدة، ليتخذ من المناطق الزيدية مقرًّا له، ولحق به الإمام "البدر" ليبدآ معًا مقاومة النظام الجمهوري الجديد.

في مصر، كان "السادات"، بحكم مهامه في مجلس قيادة الثورة، مسئولاً عن اليمن والخليج العربي، وكان بحكم قرابته وصداقته لـ"البيضاني" وسيطًا لإقناع "عبد الناصر" بالتدخل.

اجتمع في القاهرة مجلس الرئاسة المصري لبحث مطلب الثورة اليمنية بدعمها، ووافق الأعضاء جميعًا على ضرورة دعم مصر لليمن. ويقول "حسن إبراهيم": "إن أحدًا من مجلس الرئاسة لم يعترض على الإطلاق؛ فكلنا وافقنا بما فينا كمال الدين حسين".

* * *

ويؤكد "عبد الله إمام"، في كتابه "عبد الناصر والحملة الظالمة"، أن قرار دخول مصر إلى اليمن لمساندة الثورة "لم يكن قرارًا فرديًّا من عبد الناصر، بل كان بإجماع مجلس الرئاسة". وتجمع المصادر على أن "السادات" كان الأكثر تأثيرًا على "عبد الناصر" الذي كان مترددًا بشأن دخول الجيش إلى اليمن، وكان "السادات" مسئولاً عن اليمن والخليج العربي في مجلس قيادة الثورة، كما كان نسيبًا لـ"البيضاني". وفيما قبلُ، كان الإمام "أحمد" يعتزم زيارة مصر لولا أن نصحه العراقيون بعدم زيارتها فألغى الزيارة، فقام "عبد الناصر" بإيفاد "السادات" إلى اليمن، وذهب "السادات"

وقابل الإمام "أحمد"، لكنه فشل في إقناعه بالإصلاح السياسي والاقتصادي في بلاده.

في 5 أكتوبر 1962، وبعد قيام الثورة اليمنية بثمانية أيام، بدأت أول فصيلة عسكرية مصرية بالإبحار، وكانت أول إشارة رسمية مصرية حول وجود قوات مصرية في اليمن في 15 أكتوبر؛ حيث قال الرئيس "عبد الناصر" في خطاب له: "أبعث تحية من هنا وباسمكم جميعًا إلى أبناء لنا بواسل يخوضون الآن في اليمن أشرف المعارك من أجل المصير المشترك للأمة العربية".

وقامت القاهرة بتوقيع اتفاقية دفاع مشترك مع صنعاء في هذه الأثناء.. ووصل عدد القوات المصرية في اليمن، في نوفمبر 1962، عشرة آلاف جندي، وبدورها قطعت السعودية العلاقات مع مصر، وأصبحت الدولتان في حالة حرب، القاهرة تقاتل إلى جانب الجمهوريين، والسعودية تقف بالمال والسلاح إلى جانب الملكيين.

3. مصر والسعودية في اليمن.. و"كينيدي" يتوسط!

كانت العلاقات المصرية – السعودية في عهد الملكين "فاروق" و"عبد العزيز" إيجابية وجيِّدة، وعلى الرغم من قيام ثورة 23 يوليو 1952، فإن العلاقات لم تصل إلى حد السوء. وكان الملك "سعود"، الذي حل محل والده الملك "عبد العزيز" عام 1953، على علاقة حسنة مع مصر.

وقد أيَّدت السعودية موقف مصر في حرب السويس 1956، واتفقت مع مصر في الموقف من حلف بغداد 1958. ويذكر "مالكوم كيبر"، في كتابه "الحرب العربية الباردة 1958 – 1970.. عبد الناصر ومنافسوه"، الذي ترجمه "عبد العزيز المسعودي" وصدر في صنعاء عام 1996، أن "مصر والسعودية قد التقتا ضد مشروع الهلال الخصيب، حين التف القوميون العرب في سوريا حول القيادة العراقية ممثلة بولي العهد عبد الإله ورئيس وزرائه نوري السعيد، لإقامة كيان سياسي واحد للهلال الخصيب، تتحد فيه سوريا والعراق تحت الزعامة الهاشمية.

وعلى الرغم من فشل الفكرة؛ فقد عادت ثانية تحت اسم حلف بغداد، الذي تبنته بريطانيا وتحمس له العرش الهاشمي في العراق، وتولى هندسته وإعداده نوري السعيد، وعارضه عبد الناصر والملك سعود.

ثم عاد الملك سعود وعارض الوحدة المصرية – السورية أيضًا عام 1958، ثم بلغت العلاقة أسوأ مراحلها بقيام ثورة اليمن وإرسال مصر جيشها إلى هناك. وأصبحت مصر والسعودية على أثر ذلك في حالة حرب ساحتها اليمن.

وكان تقدير مصر أنها حرب أخلاقية من أجل دعم الثورة والقضاء على النظام

الفاسد في اليمن، ولكن السعودية رأت أنها بمثابة تطويق ثوري لها وجـزء في مـشروع عبد الناصر القومي المستند إلى قيم النظـام الجمهـوري، مـا يعـني في النهايـة تقـويض النظام السعودي نفسه".

* * *

لم يظهر لـ"عبد الناصر" حجم المعاناة المصرية في اليمن ولا سـوء الإدارة الـذي كان عليه المشير "عبد الحكيم عامر"، لكن الأمور كانت تتدهور يومًا بعد يوم، وكانت الثورة لا تزال عاجزة.

توسط الرئيس الأمريكي "جون كينيدي" لإقناع "عبد الناصر" بعـدم المكـوث في اليمن، وقدم له النصيحة بعدم التورط. ويعرض "صلاح نـصر"، في الجـزء الثـاني مـن مذكراته، تلك الوساطة بقوله: "نصح الرئيس "كينيدي" عبد الناصر بوقف ما يجـري في اليمن، وقال له: إنه من اليـسير عليـك أن تـدفع بجيـوش داخـل أرض مجهولـة، لكنك حينما يحين الوقت الذي ترغب فيه في إخلاء هذه القوات، سوف تجـد صـعوبة متناهية في عودتها سالمة إلى مصر".

"كان الأمريكيون ينظرون إلى القتال في اليمن بمثابـة "فيتنـام عبـد الناصـر".. حرب تستنفد الرجال والعتاد والأموال فوق طاقة مصر، وكان عبد الناصر يدرك ذلك؛ فقد أحس بما تستنزفه هذه الحرب من قوة مصر، بأنه ليس هناك أمل بالحصول على نصر حاسم يجدد الاستقرار في اليمن، ولكن عبد الناصر رفض نصيحة كينيـدي.. لقـد كان مُصرًّا على أن يقدم كل عون للثوار اليمنيين".

ويشرح "أنتوني نـاتنج"، في كتابـه "ناصـر"، موقـف "كينيـدي" بقولـه: "إن الرئيس كينيدي لم يكن توّاقًا إلى القضاء على أسباب قد تؤدي إلى احتكاك بين أمريكـا ومصر فحسب، وإنما كانت السفارة الأمريكية في الرياض تخشى أيضًا أن يخلق تـورط السعوديين في اليمن فترة طويلة متاعب داخلية قـد تعـرِّض الملكيـة للخطـر وبالتـالي

تهدد المصالح البترولية الأمريكية.

ومن ثمَّ عرض كينيدي، بعد انقلاب السلال بشهرين، وساطة أمريكا لوقف القتال في اليمن، وأوفد ممثلاً خاصًا من واشنطن. لم يهتم به فيصل أو الإمام وتحمس له السلال وعبد الناصر. وعندما تم رفض طلبه تخلى كينيدي عن محاولة إحلال السلام وترك هذا الدور للأمم المتحدة".

* * *

عادت مصر والسعودية وقبلتا وساطة الرئيس "كينيدي" الذي أوفد السفير "بانكر"، وتم توقيع اتفاقية 1963 بين القاهرة والرياض، مضمونها: قيام السعودية بإنهاء مساعداتها للملكيين ومنعهم من استخدام أراضيها لمواصلة الصراع في اليمن، على أن تبدأ مصر في سحب قواتها في الوقت نفسه الذي تتوقف فيه معونة السعوديين للملكيين، وتتضمن الاتفاقية إقامة منطقة منزوعة السلاح تمتد مسافة 20 كيلومترًا على جانبي الحدود المرسومة بين السعودية واليمن، ومرابطة مراقبين محايدين في كل جانب من المنطقة منزوعة السلاح، وتعاون مصر والسعودية مع ممثل السكرتير العام للأمم المتحدة وغيره من الوسطاء المقبولين من كلا الجانبين للتوصل إلى اتفاق على إجراءات وقف الاشتباك.

لكن اتفاقية 1963 هذه بين مصر والسعودية، بوساطة الرئيس "كينيدي"، قد تعثرت ولم تُنفَّذ.. إلى أن كان مطلع عام 1964؛ حيث انعقدت القمة العربية الأولى في القاهرة، وعرضت العراق والجزائر الوساطة ورحبت مصر والسعودية. وفي 4 فبراير 1964، انعقدت المباحثات بين الأمير "فيصل" ووفد المساعي الحميدة.

وفي أول مارس 1964، التقى في الرياض المشير "عامر" مع "أحمد عمر السقاف"، وكيل وزارة الخارجية السعودية، ووفد المساعي الحميدة الذي تضمن وزير أوقاف الجزائر "أحمد توفيق" ممثلاً للرئيس "بن بلة"، ووزير صحة العراق "شامل

السمرائي" ممثلاً للرئيس "عبد السلام عارف"، و"عبد الحميد نعمان" سفير العراق في الرياض.. وحدث تقارب في وجهات النظر.

وتحدد شهر أبريل عام 1964 موعدًا للقاء الأمير "فهد" بـ"عبد الناصر" في القاهرة بعد أن وجه له المشير "عامر" دعوة رسمية باسم "جمال عبد الناصر".

* * *

لم تكد أيام تمضي حتى قامت بريطانيا بتوجيه ضربة إلى منطقة حريب في شرق اليمن اعتبرتها مصر عدوانًا عليها، حدث ذلك في 28 مارس 1964، وهو تاريخ يعتبره البعض نقطة اللاعودة بالنسبة للوجود المصري في اليمن، وقد اعتبرها "عبد الناصر" تحديًا له، فقام على أثرها بأول زيارة له إلى اليمن.

في أبريل 1964، قام "عبد الناصر"، ومعه المشير "عامر" و"السادات" و"زكريا محيي الدين" و"صلاح نصر"، بزيارة إلى اليسن، مكث خلالها خمسة أيام ما بين صنعاء وتعز.

وفي كلمته التي ألقاها للقوات المصرية العاملة في اليمن، في 23 أبريل 1964، أعلن "عبد الناصر" أنه يستهدف – ضمن سياساته – طرد بريطانيا من عدن.. قال: "إن بريطانيا لا بد أن تجلو عن عدن.. والجنوب العربي أرض عربية.. وإنه من المستحيل تمامًا على بريطانيا أن تفرق بين عرب وعرب أو يمنيين ويمنيين.. إننا لا نسمح للاستعمار بأن يبقى جزءًا من أجزاء الوطن العربي".

* * *

عاد "عبد الناصر" من اليمن وقد أصيب بحزن وصدمة من جرَّاء ما رأى، ويقول "أنتوني ناتنج": "إن عبد الناصر أسرّ إلى السفير الأمريكي بادو بمشاعره حين قال: لا يمكن أن تصدق ما يجري في صنعاء؛ فنصف الوزراء لا يذهبون قط إلى مكاتبهم، والنصف الآخر لا يعرفون ماذا يفعلون عندما يذهبون"!

وإذا كان "عبد الناصر" مدفوعًا في البداية لدعم ثورة اليمن لأسباب أخلاقية وحضارية، ولضغوط من جانب "السادات"، وشبه الصمت الأمريكي، فإنه أصبح مدفوعًا بعد ذلك بالصراع مع السعودية في قلب مجالها الحيوي، ومدفوعًا كذلك بالصراع مع بريطانيا التي أرادت له المزيد من الاستنزاف، بإثارتها الفتنة وتعويقها لجهود المصالحة مع السعودية ومنع التقارب بين القاهرة والرياض.

ويروي "محمد حافظ إسماعيل"، مستشار الأمن القومي المصري في عهد "السادات"، في مذكراته، أن الرئيس "عبد الناصر" كان منفعلاً بالضربة البريطانية لمنطقة حريب اليمنية.. يقول: "قال لي عبد الناصر وأنا ألتقيه في 11 يونيو 1964، قبل تسلم عملي سفيرًا لمصر في لندن: لقد أخطرت السفير البريطاني أكثر من مرة أننا لا نود الاصطدام بإنجلترا في اليمن، وأنه يهمنا أن ننسحب ونترك الأمور لأهلها، لكن بريطانيا كانت تنسق مع أمريكا والسعودية ضدنا، إن عملية حريب كانت تحديًا لمصر لا لليمن؛ لذا كان من الضروري أن أقوم بالزيارة التي تمت لليمن في أبريل 1964".

"وقد قال لي جورج طومسون، وزير الدولة البريطاني في نهاية عام 1965: إن القاهرة تطالبنا بالخروج من الجنوب العربي في عدن، ونحن نرى أن ذلك سيسبب الفوضى، ونحن نطالبها بالخروج من اليمن وهي ترى أن ذلك سيسبب الفوضى!".

* * *

إذا كان ذلك هو صعيد العلاقات المصرية – البريطانية في اليمن، فإنه باستثناء موقف الرئيس "كينيدي" كان الموقف الأمريكي معارضًا للوجود العسكري المصري في اليمن بشكل حاسم، ولاح كثيرًا التهديد بقطع المعونات الأمريكية.

وكتبت صحيفة "واشنطن بوست" في 14 يناير 1963: "إن اشتراك الرئيس عبد الناصر، بصورة سافرة في تأييد ثورة اليمن، وعداوته لملكي السعودية والأردن

يثيران التساؤل حول حكمة برنامج المساعدات الأمريكية للجمهورية العربية المتحدة.. إن المسئولين الأمريكيين يعلمون تمامًا أن تدخل عبد الناصر في الدول العربية الأخرى يتعارض مع سياسة أمريكا التي تهدف إلى المحافظة على استقرار الشرق الأوسط وتحاشي المنازعات في المنطقة".

ويذكر "مالكوم كيبر" أن "الولايات المتحدة كانت تهدد بقطع إمدادات مصر بالقمح، ووقفت بريطانيا وأمريكا إلى جانب السعودية".

والصافي من هذا العرض أن الموقف الأمريكي كان مؤيدًا لثورة اليمن.. بدليل علم المخابرات المركزية الأمريكية بالإعداد للثورة دون منعها واعتراف واشنطن بعد شهرين بالنظام الجمهوري، لكن الموقف الأمريكي لم يكن في صالح الوجود العسكري المصري في اليمن بما يهدد النظام السعودي ومصادر البترول.

أيضا، فإن الخارجية الأمريكية لم تكن من رأي "كينيدي"، والإدارات التالية له لم تكن عند مستوى تفهمه وانفتاحه.

أما الموقف البريطاني فكان معارضًا على الدوام؛ فهناك محنة حرب السويس 1956، التي أسهمت في خروج رئيس الوزراء البريطاني "أنتوني إيدن"، وهناك دولة الوحدة التي عارضتها بريطانيا، وحلف بغداد الذي فشلت في إنجاحه، والأهم هناك قاعدتها في عدن، أبرز معالم الحقبة الإمبراطورية البريطانية. ومن ثم فإن وجود مصر في اليمن يعزز من مكانة مصر ويسارع بإنهاء بريطانيا "العظمى".. لتصبح بريطانيا فحسب.

* * *

4. عبد الناصر يؤدي العمرة والملك سعود يقيم في القاهرة!

في عام 1964، انعقد مؤتمر القمة العربي الثاني في الإسكندرية، وكانت زيارة الأمير "فيصل" لمصر فرصة لكي يلتقي "عبد الناصر" في عدة اجتماعات اشترك فيها الأمير "سلطان"، وزير الدفاع، والمشير "عامر".. واتفقا على أن تعمل الدولتان على وقف القتال فورًا، وأن توقف السعودية مساعداتها وتنسحب كل القوات المصرية من اليمن.

وفي أكتوبر 1964، انعقد مؤتمر "أركويت" في مدينة أركويت شرق السودان لأجل الغرض نفسه، وحضر من مصر السفير "أحمد شكري" والعميد "محمد قاسم"، ومن السعودية "رشاد فرعون" و"حمود عبد الهادي" بالإضافة إلى "18" شخصًا هم أعضاء اللجنة التحضيرية واتفقوا على وقف إطلاق النار ابتداءً من يوم 8 نوفمبر 1964، وعُقد مؤتمر وطني في اليمن حضره "169" شخصًا من العلماء والمشايخ والعسكريين وأهل الرأي.. لإيجاد حل للأزمة.

لكن شهر نوفمبر هذا قد جاء ليشهد إزاحة الأمير "فيصل"، ولي العهد السعودي، لأخيه الملك "سعود بن عبد العزيز" عن العرش.. وليصبح الملك "فيصل" هو الملك الثاني من بعد الملك "سعود" في أسرة الملك "عبد العزيز آل سعود". قضى الملك "سعود" في الحكم أحد عشر عامًا، من عام 1953 إلى عام 1964، وتم نفيه إلى الخارج؛ حيث أقام في اليونان ثم في مصر.

وبمجيء الملك "فيصل" بدأت انفراجة في العلاقات المصرية – السعودية، وقام "عبد الناصر" بزيارة جدة وأدى مناسك العمرة في مكة المكرمة.

يعرض "عبد الله إمام"، في كتابه "عبد الناصر والحملة الظالمة"، رواية الدكتور "الخولي"، المبعوث الخاص لـ"عبد الناصر"، لهذا التطور.. يقول "الخولي": "في

بداية صيف 1965، استدعاني الرئيس عبد الناصر وطلب مني السفر إلى السعودية؛ لأنه قرر أن يقابل الملك فيصل لإنهاء الحرب، وكان عليَّ أن أرتب هذا اللقاء، وكان الملك في الطائف، وذهبت إليه واقترحت أن يكون مكان اللقاء مطار رأس بناس، باعتباره أقرب بقعة مصرية للأراضي السعودية.. قلت ضاحكًا للملك فيصل: يقولون إن الطائرات المهاجمة تخرج من مطار رأس بناس، فلماذا لا نجعله منطقة للقاء بينكما أنتم والرئيس عبد الناصر؟ ورد الملك فيصل: ولماذا نلتقي في رأس بناس؟ سوف أذهب إلى عبد الناصر في الإسكندرية.

عدت إلى الإسكندرية وقلت للرئيس عبد الناصر: سيحضر إلى هنا ليلتقيك. قام عبد الناصر ليتمشى على الشاطئ دقائق ثم عاد ليقول: أنا ذاهب إلى الملك فيصل في جدة.. أخطرهم هناك وتصرف على هذا الأساس.. فنحن نريد إنهاء الحرب. وعدت للطائف حيث وجدت ترحيبًا شديدًا بزيارة عبد الناصر".

* * *

سافر "عبد الناصر" ومعه "زكريا محيي الدين" و"أنور السادات" و"محمد حسنين هيكل" والسفير السعودي بالقاهرة "محمد علي رضا". وطلب "عبد الناصر" قبل أي لقاء أن يقوم بأداء مناسك العمرة، وفعلاً قام الوفد، يرافقه الأمير "سلطان" والأمير "فواز"، بأداء العمرة بعد العشاء الرسمي الذي أقيم يوم الوصول. وبعد ذلك عُقدت جلسات ودية، وقال "عبد الناصر" إنه لا يريدها زيارة رسمية؛ لذا لم يصطحب وزير الخارجية المصري. وحسب "عبد الله إمام" تضمن محضر الاجتماع المغلق بين "عبد الناصر" والملك "فيصل" في 23 أغسطس 1965 هذا الحوار:

قال "عبد الناصر":

"يهمنا عودة العلاقات معكم، الأعداء فقط يكسبون من عداوتنا.. نحن لم نهاجم إلا بعد أن هوجمنا، أنا قلت للملك سعود الكلام ده.. وأنا لم أدفع قرشًا واحدًا ضد الملك سعود وحكمه".

"لما طلبنا منكم بترولاً أعطيتموه لنا من دون اتفاق، ولما طلبنا قرضًا أخذناه منكم عملة صعبة من دون اتفاق. ثم جاءت الوحدة ونتج عن هذا عملية مؤامرة سعود، وسرنا هكذا حتى جاء موضوع اليمن.. هل نحن متفقون في عودة العلاقات إلى طبيعتها؟ أعتقد أننا متفقون".

"هل أنتم متصورون أننا شيوعيون؟ أعداؤنا هم الذين يقولون هذا، هناك فرق كبير بين الاشتراكيين والشيوعيين، توجد خلافات كبيرة بيننا وبين الشيوعية. سنة 1965 حبسنا الشيوعيين وطلعناهم منذ فترة قريبة، ولكنهم لم ولن يستطيعوا تجنيد واحد، ومن أجل هذا قرروا حل الحزب الشيوعي.. وهذا يحدث لأول مرة في تاريخ أي بلد".

«بعض عناصر الإخوان المسلمين الموجودين هنا في السعودية معلوماتهم غير صحيحة؛ فالوضع في مصر مستقر جدًا، وليس كما يصور الإخوان من أن النظام سينهار قريبًا".

قال "فيصل":

"مصر والسعودية يجب أن يكونا متفاهمين، وأكثر من متفاهمين.. أنا مرتين جيت لمصر لمحاولة الإصلاح. وتمكنت بمساعدتك من إزالة بعض الأشياء، ولكن بترجع الأمور تتكرر. نحن مشينا مع الملك سعود بكل إخلاص، وكنا لا نريد أي تفرقة، الحكومة السعودية لم تعطِ أحدًا نقودًا ليعمل ضد مصر في عهد الملك سعود".

"تذكر اجتماعنا في شبرد، وكان معك المشير عامر وصلاح سالم، وتكلمنا، وبيّنت لسيادتك أننا على علاقة بـ"فاروق"، ونذكر له أنه جاب مصر للعرب، ونحن كصداقة نعم.. ولكن كون فاروق يحكم مصر هذا شيء آخر لا علاقة لنا به، ومصر يحكمها من يريد أبناؤها، وسيادتك تذكر هذا الحديث".

"في العراق انشال الملوك اللي منها، لم نتدخل ما دام الشعب يريد ذلك".

"أنا بقول: مصر تكون شيوعية.. هذا مستحيل، وإن جاءتنا الشيوعية تأتي لنا من طريق آخر".

قال "عبد الناصر":

"هذا شيء آخر غير العلاقة بالاتحاد السوفيتي".

قال الأمير "سلطان":

"لماذا ندفع؟ ولمصلحة من؟ إذا استطعنا أن نقوم بخدمة بلدنا هذا أهم. نشتغل ضد مين؟ الإنجليز، الأمريكان، الروس، معقول.. ولكن نشتغل ضد القاهرة! أؤكد أنه لا يمكن في يوم من الأيام أن يكون في نفوسنا شيء أو عمل ضد الجمهورية العربية المتحدة بالذات أو ضد أي بلد عربي آخر؛ وذلك لأن علاقتنا بمصر أكبر وأقوى من أي بلد آخر.. أبرك الساعات وأسعد الأوقات على نفوسنا جميعًا هو حضورك".

النص من "عبد الله إمام".

وقد أثمرت زيارة "عبد الناصر" إلى السعودية، وكذلك لقاؤه الملك "فيصل"، عن اتفاقية جدة عام 1965، وهي من الاتفاقيات المهمة في تاريخ العلاقات المصرية – السعودية. ولم تنشر الاتفاقية، ولكن صدر عن اجتماع "عبد الناصر" و"فيصل" بيان مشترك، صاغه "محمد حسنين هيكل" الذي كان ضمن الوفد المصري في المباحثات.

وجاء في البيان حق الشعب اليمني في تقرير نوع الحكم الذي يرتضيه بموجب استفتاء شعبي، وحتى ذلك الحين تتعاون مصر والسعودية في تشكيل مؤتمر انتقالي يجتمع في "حرض"، ويقرر فترة الحكم المؤقتة حتى موعد الاستفتاء، وتشكيل وزارة مؤقتة من أجل ذلك، وتحدد شكل ونظام الاستفتاء. وتسحب مصر كل قواتها من اليمن وتقوم السعودية بوقف أي مساعدات للملكيين اليمنيين.

وقد رفضت الجمهورية اليمنية الاتفاقية، وأصدر المشير "السلال" بيانًا يقول: "إن اليمن لا تقبل بأي حال كل ما من شأنه أن يمس السيادة. واتفاقية جدة عُقدت بين مصر والسعودية، ولم تكن اليمن طرفًا فيها". وقد عارضت القبائل الجمهورية الاتفاقية وقبلتها القبائل الملكية ثم رفضتها، أي: أن الكل في اليمن لم يقبل الاتفاقية، وعليه فقد تعطلت اتفاقية جدة ولم تنفذ هي الأخرى.

وفي مارس 1966، فشلت مفاوضات "حرض"، الخاصة بمرحلة الحكم الانتقالي في اليمن، وقال "عبد الناصر": "إن الجيش المصري سوف يهاجم قواعد الملكيين داخل السعودية".. وقد كان هذا التصريح كفيلاً بإلغاء معاهدة جدة.

وفي أبريل 1966، حاولت الكويت الوساطة واقترحت – في أثناء زيارة أميرها لمصر – تشكيل حكومة انتقالية مناصفة بين الجمهوريين والملكيين، وإرسال قوات رمزية من الجامعة العربية، وسحب السعودية لأسرة "حميد الدين". ووافقت مصر ورفضت السعودية، وفشلت الوساطة الكويتية.

* * *

كان الملك "فيصل" يرى النظم الثورية في مصر وسوريا والعراق واليمن طوقًا سوفيتيًّا من حوله.

وفي منتصف عام 1966، دعا "فيصل" إلى قمة إسلامية في جدة، وعلى الفور هاجمها "عبد الناصر" وقال إن القمة تمثل حلفًا إمبرياليًّا رجعيًّا أمريكيًّا بريطانيًّا.

أما اليمنيون فقد كانوا في حالة ارتباك؛ حيث تكاد القوى الثورية تعادل القوى الملكية، ويكاد الدعم المصري يعادل الضغوط السعودية، وقد أسهم جهد بريطانيا المعادي لـ"عبد الناصر" في عدم قدرة الجمهوريين على الحسم.

رفض اليمنيون، جمهوريين وملكيين، اتفاقية جدة، ورفضها "السلال"، ما أغاظ "جمال عبد الناصر"، ولما جاء "السلال" إلى القاهرة، قرر "عبد الناصر" إبقاءه

تحت الإقامة الجبرية، وأرسل مكانه الفريق "حسن العمري" بصفته رئيسًا للوزراء للإشراف على الحكم، وقوّى "العمري" من مركزه، ولكنه قام بتأليب المنشقين الجمهوريين على "عبد الناصر" والقاهرة.

ويذكر "مالكوم كيبر" أن الجمهوريين المعتدلين الذين أيدوا "عبد الناصر" في البداية قد غيروا رأيهم. وكادت المعارضة الجمهورية تشق الصف الجمهوري شقًا؛ فـ"أحمد محمد نعمان"، الذي ترأس الحكومة اليمنية في صيف 1965، والقاضي "عبد الرحمن الإرياني"، أعربا عن استيائهما الشديد من سلوك القيادة المصرية وسياستها المتهورة في اليمن.

فالمستشارون العسكريون والخبراء المدنيون المصريون كانوا يصرون على التدخل في دقائق وتفاصيل الحكم في اليمن دون اعتبار للعنصر الوطني. وبدوره فقد ساعد الفريق "حسن العمري"، الذي حل محل "السلال"، على دعم هذه الآراء.

وعادت مصر لتضغط على المنشقين الجمهوريين. وفي 12 أغسطس 1966، أرسلت المشير "السلال" إلى صنعاء على متن طائرة نقل عسكرية مصرية بصورة مفاجئة وتحت ضغط مصر باستخدام السلام ضد المنشقين الجمهوريين أزيح الفريق "العمري"، وحل "السلال" رئيسًا للجمهورية وللحكومة وقائدًا أعلى للقوات المسلحة.

وعاد "الإرياني" و"نعمان" إلى القاهرة لمقابلة "عبد الناصر"، فتم وضعهما ومعهما معظم أعضاء الحكومة رهن الإقامة الجبرية في القاهرة، ولم يسمح لهم بالعودة إلى اليمن.

كان هذا الصيف من عام 1966 ساخنًا للغاية: قمة إسلامية في جدة بدعوة من الملك "فيصل" وصفها "عبد الناصر" بأنها قمة إمبريالية رجعية، والمشير "السلال" يعود فجأة إلى صنعاء رئيسًا، وأعضاء الحكومة اليمنية رهن الإقامة الجبرية في القاهرة، والملك "سعود" خارج الملك وخارج المملكة!

* * *

طلب الملك "سعود"، الذي كان على عداء شديد مع "عبد الناصر"، أن يقيم في القاهرة، وقد جاء إلى مصر ثم قام بزيارة إلى اليمن بصحبة المشير "عبد الحكيم عامر"!

يروي "عبد الله إمام"، في كتابه "صلاح نصر.. يتذكر"، شهادة مدير المخابرات المصرية بشأن إقامة الملك "سعود" في مصر.. يقول "صلاح نصر": "في صيف عام 1966، جاءني في الإسكندرية السيد رشاد الحسيني، سكرتير الملك سعود، وأبلغني أن الملك سعود يريد الإقامة في مصر، وأنه مكلف منه بطلب ذلك.

وشرح رشاد الحسيني: إن الملك سعود يريد فتح صفحة جديدة من التعاون مع عبد الناصر مؤيدًا سياسته والحركات التحررية، وأن يؤيد موقف مصر من تحرير اليمن.

تحفظ عبد الناصر ثم طلب أن يقوم سعود بإرسال خطاب يقول فيه إنه اختار مصر ليقيم بها لأنها مركز إسلامي، حتى لا تهاجمه بعض الدول بحجة مهادنة الرجعية.

وقد أرسلت أحد نوابي، السيد كمال لطفي – الذي صار سفيرًا فيما بعد – إلى اليونان لمقابلة الملك حيث يقيم. وكان أبناء الملك سعود قد توافدوا على مصر وقابلتهم. وأرسل الملك الخطاب ثم جاء إلى مصر.

عرضت على عبد الناصر أن يستقبله في المطار نائب رئيس، ورفض وأرسل سعد زايد، محافظ القاهرة، واستقبله عبد الناصر في مكتبه فيما بعد ولم يحضر سواي مقابلتهما.

وقال سعود إنه يأمل في استرداد عرشه بمعاونة فخامة الرئيس. ولم يشر عبد الناصر إلى مؤامرة سعود أيام الوحدة المصرية – السورية، وقال إن استرداد العرش يحتاج وقتًا، وصلاح نصر هو الواسطة بيننا.. وفي هذه الأثناء ذهب الملك سعود إلى

اليمن مع المشير عامر ونُشرت أنباء الرحلة في الصحف.

جاءت وقائع 5 يونيو 1967 فيما بعد.. وقام الملك سعود بإعطاء مصر قرضًا بعشرة ملايين دولار، وتبرع بثمانية ملايين دولار للمجهود الحربي".

* * *

مثّلت نكسة يونيو 1967 نهاية الوجود المصري في اليمن. أراد "عبد الناصر" جمع معاركه في اتجاه إسرائيل، وكانت الثقة في عدم عودة النظام الإمامي إلى الحكم في اليمن قد تأكدت لديه، فكان قراره بالانسحاب، وقد غادر آخر جندي مصري اليمن في 7 ديسمبر 1967.

5- صعود وسقوط عبد الرحمن البيضاني!

يمكن التمييز داخل الثورة اليمنية بين عدة تيارات، الأول: ذلك التيار الملكي الذي وقف ضد الثورة، وبذل الجهد في سبيل عودة الإمام إلى السلطة. والثاني: التيار الجمهوري الناصري الذي دخل الساحة مؤيدًا لـ"عبد الناصر" ورؤيته الثورية دون تحفظ.

والثالث: التيار الجمهوري المعارض، وهو يمثل جماعة من الثوريين الذين يرغبون في إقامة الجمهورية وإزالة مخلفات الحكم الإمامي دون الأخذ بالاشتراكية أو الامتثال لـ"عبد الناصر".

والتيار الرابع هو: التيار الإقطاعي الذي استهدف بقاء النظام الاجتماعي والاقتصادي في ظل إصلاحات ملكية أو جمهورية.. المهم أن تبقى امتيازات الطبقة الإقطاعية اليمنية، ومن اللافت أن هذا التيار الإقطاعي لم يكن معارضًا بقوة لمحاولات إسقاط الملكية؛ ذلك أن النظام الجمهوري قد يريحهم من الإمام – الإقطاعي الأكبر – ما يرفع من شأنهم ولا يتعارض مع امتيازاتهم.

لذا كان هذا التيار مع الثورة وضد الناصرية، ومع الجمهورية وضد الاشتراكية.. ويمثل هذا التيار رموز الإقطاع مثل "الزبيري" و"نعمان" و"العمري".

وداخل هذه المساحة من تعدد الرؤى بشأن الثورة اليمنية، كان "عبد الرحمن البيضاني" هو الأهم في تمثيل اليمين السياسي في الثورة. وعلى نحو عام، فقد كان "البيضاني" يميل إلى الولايات المتحدة وبريطانيا، ويعتقد في إمكانية تعاون الثورة معهما دون تعارض في المصالح.

وقد فشل "البيضاني" في البقاء في الساحة.. أصبح "عبد الرحمن البيضاني" نائبًا لرئيس الجمهورية، ثم أقيل، ثم عاد لليمن، ثم طُرد وسُحبت جنسيته، ثم عاد وحصل على الجنسية من جديد وصار سفيرًا في بيروت.. وفي مصر عمل لصالح "عبد

الحكيم عامر" ضد "عبد الناصر"، ودخل السجن ثم خرج!

ويصف القاضي "عبد الرحمن الإرياني"، في مذكراته، تلك الرحلة المثيرة لـ"البيضاني" بقوله: "قدِم عبد الرحمن البيضاني بعد دخول القوات المصرية لمساندة الثورة إلى صنعاء، ونال كل ما أراده.. من نائب لرئيس الجمهورية إلى رئيس للوزراء ووزير للخارجية والاقتصاد وعضو في مجلس قيادة الثورة ونائب للقائد الأعلى للقوات المسلحة. وبعد أشهر أُخرج من اليمن وجُرد من كل المناصب حين أساء بسوء تصرفه، وتجاوزت طموحاته الحدود.. جاء إلى عدن ليتعاون مع الإنجليز، وسحبت جنسيته اليمنية، وسجنه عبد الناصر لذلك ولأسباب أخرى عرفها عنه. والبيضاني طاقة من النشاط والحركة.. ولكن تلونه وتهوره وعدم ثباته على خط واحد جعلته يخفق في آماله".

وفي مذكراته ينشر المشير "عبد الله السلال" نص رسالته إلى الرئيس "عبد الناصر" في يناير 1963، التي يكشف فيها عن عريضة الاتهام الموجهة لـ"البيضاني"، ما جعل "السلال" يطيح به.. يقول "السلال" في رسالته لـ"عبد الناصر": "لقد وجدتني مضطرًّا إلى اتخاذ الخطوة التي لابد منها تجنبًا للنهاية غير المحمودة، وتداركًا لسلامة الوضع من الانهيار وتصدع الصفوف.. وهذه بعض الأسباب:

حاول الرجل منذ الأيام الأولى للثورة تركيز شخصيته بتكتيل جماعات وقوى أربكت الحركة الوطنية، عمل على العبث في صفوف القبائل فأغدق أموالاً من ميزانية الدولة عليها فأغضب القبائل الأخرى، رفع معاشات الموظفين دون تقدير للميزانية، فرض ضرائب للتغطية على زيادات المعاشات فأثار سخط الرأي العام، أثار النزعة الطائفية بين من يسميهم الشوافع، وأن الثورة أضعفت مركزهم لصالح الزيود، وحاول أن يستخدم التفرقة العنصرية بكونه قحطانيًّا يسخط عليه الهاشميون، عبث بالجهاز الإداري للدولة وعطل الجهاز الحكومي وخلق فوضى كبيرة".

وقد رد الرئيس "عبد الناصر" برسالة نشرها "السلال" في مذكراته نفسها بأنه كلف "أنور السادات" بتبليغ مضمون رسالة "السلال" إلى "البيضاني".

ويروي "البيضاني" في مذكراته الواقعة قائلاً: "في مساء السبت 19 يناير 1963، وصل السادات إلى بيتي ليصحبني إلى بيت عبد الناصر في طريقي إلى المطار ثم صنعاء. وجدت الرئيس عبد الناصر حائرًا، وبعد صمت قال لي: يا أخ عبد الرحمن.. لقد قمت بدورك في الثورة اليمنية وحققت ما كنت تنادي به.. ثم سكت وقال إنه في صباح ذلك اليوم سلّم وفد اليمن لمكتبه رسالة من المشير السلال يطلب فيها بقائي في مصر.

ويكمل "البيضاني": "أبدى عبد الناصر أسفه من رسالة السلال، وكان السادات حزينًا. وفي 20 يناير 1963 تلقى السلال أول رسالة من خروشوف نشرت عنها الأهرام، ثم وصلت الطائرات الروسية إلى صنعاء، كما لو كان ذلك مقدم الثمن الذي دفعته موسكو إلى السلال لإبعادي ودفن روح الصداقة التي عقدتها مع الولايات المتحدة وبريطانيا، وإخلاء المسرح لمثلي الاتحاد السوفيتي من اليمنيين، وكذلك للمصريين المكلفين بإشعال الحرائق في الجزيرة العربية.. وهم يتظاهرون برفع راية عبد الناصر بينما هم يسقطونها فعلاً".

* * *

وقد مضت سنوات "البيضاني" فيما بعد صعودًا وهبوطًا إلى أن أصبح خارج الحياة السياسية في اليمن، و"البيضاني" لم يكن أكثر من سياسي طموح وجد في الثورة طريقًا إلى تحقيق طموحاته، وهو واحد من قليل يمكن وصفهم بالثوريين الليبراليين، لكنه لم يكُن ثوريًّا ليبراليًّا بالمعنى الإصلاحي، بل كان ثوريًّا نفعيًّا بالمعنى الأدق، وتتهمه مصادر كثيرة بأنه كان يعمل لصالح المخابرات الأمريكية، وأنه اعتقد أن واشنطن يمكن أن تكمل معه ما لم يكمله "عبد الناصر".

فقد جاء به "عبد الناصر" نائبًا للرئيس، وقد ظن أنه حين يوقف المشكلات مع بريطانيا في الجنوب، ويغازل السعودية والأردن ويعمل مع الولايات المتحدة.. سوف يصبح الرجل الأول، وهو ما لم يحدث بالطبع!

6- ثورتان في محنة.. دعم "السادات" وانتقادات "فوزي"

دخلت الثورة المصرية المشهد الأول في محنتها عام 1958، حين طلبت قوى سورية الوحدة العاجلة مع مصر، وكان التقدير العام أن القوى الثورية في سوريا تستنجد بالثورة المصرية وأنه لا مفر من دعمها والوحدة معها. وكان دعم "عبد الناصر" لقوى الثورة المستغيثة بداية لإنهاك شديد للثورة المصرية التي دخلت المشهد الثاني من المحنة بانفصال سوريا عام 1961.

هنا جاء مشهد ثالث.. استغاثة الثورة اليمنية بالثورة المصرية، وقبول الثانية استغاثة الأولى، وامتداد المشهد حتى نكسة 1967 التي أطاحت بمكانة الثورة والدولة في مصر.

كانت الثورتان في محنة؛ فلا الثورة المصرية الداعمة قادرة على الحل، ولا الثورة اليمنية المدعومة قادرة على الفعل. والذي حدث هو حالة من المراوحة في وضع الثورة اليمنية وحالة من التدهور المهني والأخلاقي في وضع الجيش المصري الذي ذهب لأهداف نبيلة وبقي بأخطاء كبيرة.

والمفارقة الجلية في هذا الأمر تكمن في الخلاف الناصري – الناصري بشأن دخول مصر إلى اليمن؛ حيث يرى بعض الناصريين أن دور مصر كان رسالة تدعو للفخر ويُنسب للرئيس "عبد الناصر"، بينما يرى ناصريون آخرون أن دور مصر كان خطأ تمامًا وأن الخطوة برمتها تُنسب للرئيس "السادات" الذي ورّط "عبد الناصر" في الأمر.

ويؤكد "حسين الشافعي"، في كتاب "صلاح الإمام": "حسين الشافعي يتذكر"، أن "السادات" كان وراء دخول مصر إلى اليمن، وأن ثورة اليمن كانت وراءها المخابرات الأمريكية وكان "السلال" الواجهة لها، واستطاع "البيضاني"، من خلال صلاته بـ"السادات" وبالمخابرات الأمريكية، أن يدفع الأمور لاستخدام الجيش

المصري لإنجاح الثورة. وعلى عكس رأي "السادات" كان رأي "محمد حسنين هيكل"، الذي عارض دخول مصر إلى هناك، وكان من رأيه تورط الثورة المصرية بفعل هناك سوف ينهكها ويزيد من مشكلاتها.

* * *

يذكر "هيكل" لـ"فؤاد مطر" في كتابه "بصراحة عن عبد الناصر.. حوار مع هيكل" أنه لم يكن مقتنعًا باحتمالات الثورة في اليمن.. "حتى قيام الثورة كنت على قناعة بأن اليمن غير مهيأة إطلاقًا للثورة، وأتذكر هنا عبارة قالها لي رالف بانش، الأمين العام المساعد للأمم المتحدة، عندما التقينا مرة في صنعاء. قال بانش، وهو مذهول، إنه حتى قبل مجيئه إلى اليمن كان يتصور أن الكونغو هي أكثر الدول تخلفًا في العالم، لكنه وجد أن اليمن أكثر تخلفًا".. "عندما قامت ثورة اليمن كانت الرجعية العربية تقوم بعملية تشهير ضد عبد الناصر والوحدة والثورة، وكان أهم مسارح التشهير مؤتمر شتورة، وكان عبد الناصر في أزمة مع الاتحاد السوفيتي، والأحزاب الشيوعية العربية، وحركة الثورة العربية تبدو في وضع انحساري وفي حالة دفاع عن النفس.

وسط هذا الوضع، قامت الثورة، وهرب الإمام البدر، وكان سيف الإسلام الحسن في نيويورك، وجاء إلى نجران لجمع القبائل والهجوم على صنعاء بمساعدة الملك سعود والأمريكان. كان الخيار صعبًا حين طلبت الثورة المساندة، لكن عبد الناصر حيال ذلك وجد أن ضرب الثورة اليمنية يعني إعطاء الملك فرصة لتحقيق انتصار آخر بعد الانتصار الذي حققه في عملية الانفصال.

ولم يكن عبد الناصر مستعدًّا لإعطاء الملك سعود مثل هذه الفرصة، وقرر أن يساعد ثورة اليمن".. "في البداية أرسلنا مستشارين وكتيبة على أساس أن هذا يكفي، وبحيث لا يبقى هؤلاء في اليمن طويلاً، لكننا وجدنا أنفسنا، على حد قول الرئيس

عبد الناصر لي ذات مرة، نرسل بعد ذلك فرقتين لمساندة الكتيبة، وبالأرقام أرسلنا "50" ألف عسكري لتعزيز "600" عسكري".

"وعلى أثر زيارة لليمن بعد شهرين من قيام الثورة، أوضحت لـ"عبد الناصر"، صراحةً، أن الوضع الاجتماعي في اليمن لا يحتمل تدخل مصر لحماية الثورة".

وفي موقع سابق يستكمل "هيكل" شهادته.. يقول في مقاله "بصراحة" في "الأهرام" 5 ديسمبر 1969: "سنة 1961 كان الانفصال.. سنة 1962 كانت حرب اليمن التي تحولت إلى عملية استنزاف.. أضيف إليها الحصار الاقتصادي الأمريكي في وقت بدأت فيه المشاكل الطبيعية للتنمية تظهر.. سنة 1967 بلغ الهجوم المضاد للثورة مداه في 5 يونيو.. كانت تلك كلها.. الانفصال واليمن والنكسة، معارك في حرب واحدة متصلة شنها الاستعمار في الستينيات انتقامًا لما أصابه من الحركة الثورية في الخمسينات".

"وحين بدأت تجربة مصر في التنمية تنجح، جرى استدراجها إلى بالوعة اليمن. ذهبت مصر وتركت على جبالها أربعة آلاف شهيد".

"إن حرب اليمن كانت، ولا تزال، تجر أذيالها بكل أثقالها النفسية والمادية على الشعب اليمني وعلى قواته المسلحة، وكانت المشكلة أن هذه الحرب قد جرى تدويلها من الجانب الآخر، وانتقل كل المرتزقة الأجانب بمقدرة تنظيم المخابرات الأمريكية، وباعتمادات لا تنفد من المصالح المسيطرة في شبه الجزيرة العربية، إلى ذلك البلد الغامض والموحش الذي توقف تطوره قبل عدة قرون".

* * *

وفي شهادة أهم على وضع الجيش المصري في اليمن، يذهب الفريق "محمد فوزي" إلى أن اليمن مثّلت مجالاً للتدهور العسكري والأخلاقي للجيش المصري، وأن

التدهور كان ناتجاً عن تطور غير مرغوب فيه، كان الهدف في البداية مساعدة ثورة تستنجد، لكنه تحول في النهاية إلى حرب استنزاف لمصر، بسبب "السادات" وصديقه "البيضاني".

وحكى الفريق "فوزي" طويلاً عن الذين سافروا إلى اليمن وعادوا بالثلاجات والغسالات، وعن تواضع الخبرة الميدانية للعسكريين المصريين هناك، وعن الأداء الرديء للمشير "عبد الحكيم عامر".

يقول الفريق "محمد فوزي"، في كتاب "عبد الله إمام": "الفريق فوزي يتذكر": "كان يمكن ألا تتطور الأحداث لو أن الشخصيات التي قامت بهذه الأدوار كانت معتدلة وناضجة؛ فبناء على التقرير الأول ذهب علي عبد الخبير وأحمد نوح وضابط من الصاعقة اسمه "المصري" من الجانب العسكري، ومن الجانب السياسي كان المسئول السادات.

تطورت الأحداث من رأس السادات وصديقه البيضاني حتى كبر الموضوع، وخرجت المساعدة عن أهدافها، وأصبحت "70" ألف مقاتل يستخدمون الأسلحة القديمة. وقد أخذها المشير عامر، قائد عام القوات المسلحة، مهمة للحصول على نصر مرموق يغطي على موقفه عام 1956".

"كان التصعيد في المعارك الغرض منه "مانشيت" في الصحف، حتى تضخمت المسألة واشتركت المخابرات البريطانية والأمريكية وجاء المرتزقة من باريس ولندن وأفريقيا بالمال تحت قيادة ضباط مغامرين من المرتزقة لهم تاريخ معروف.

وانتقلت مسألة الصراع إلى "هيبة العسكرية المصرية".. عبد الحكيم عامر يريد أن يكبر فدخل في صحراء اليمن وجبالها لأول مرة في التاريخ، ودخلت المهمة من تأمين "مثلث صنعاء، الحديدة، تعز" إلى مهمة نشر الحضارة ونقل اليمن من القرن الخامس عشر إلى القرن العشرين على أكتاف الجيش المصري".

"اليمن ليس فيها حرب بمعنى حـرب، العـدو لـيس عنـده طـائرة أو دبابـة؛ فالمسألة حرب عصابات، قبائل ضد جيش منظم. فكان من واجب الجـيش المـنظم، مـن الناحيـة الفعلية، أن يعيد تنظيم نفسه داخليًّا وينقلـب إلى مجموعـات صـغيرة عنـدها قوة حركة".

"لم نخرج بخبرة ميدانية من اليمن، بعـد سـتة شـهور رجـاني سـائقي: مـن فضلك عايز قرشين للأولاد، أرسـلني إلى الـيمن. وجـدت اتجاهًـا اسـتغلاليًّا يتولـد في صفوف القوات المسلحة المصرية.. ضباطًا وجنودًا يريدون السفر إلى اليمن".

"الذين سافروا عادوا بالثلاجة والغسالة والمكـواة، لم تكـن حربًـا بـذلك.. بـل كانت خسارة معنوية وأخلاقية".

"الجنود والضباط اعتقدوا أن "الحـرب" تكـون بهـذا الـشكل، خـصوصًا أنـه في حرب 1956 لم تحدث مواجهة وجهًـا لوجـه ولا قتـال بـالمعنى المعـروف، فتولـدت لدى الضباط والجنود صفة الاستهانة، ومن ثم عدم الإعداد".

"جميع الأسلحة السوفيتية الحديثة لم ترسَـل إلى الـيمن، ولم يكـن للـيمن أي تأثير على 1967 إلا من الزاوية الأخلاقية.. الخسارة المعنوية والسلوكية".

"لم نرسـل المـيج "21" ولا الدبابـة "54" و"55" ولا المدفعيـة. وآخـر فرقـة انسحبت من هناك، وهي الفرقة السادسة، ظل فيها لواء أحضرته بعد 1967".

"الفرقة السادسة جاءت إلى بور توفيق وبدلاً من أن تنزل على القـاهرة وتأخـذ راحة وتعيد تنظيم نفسها، المشير أعطى أمرًا بأن تكون علـى المحـور الأسـفل.. قـالوا للفرقة السادسة القادمة من اليمن: اتركوا أمتعـتكم الترفيهيـة في مخـازن المهمـات في بور توفيق، الضباط لم يوافقوا لعدم الثقـة بأنهـا قـد تُـسرق. دخلـت معهـم الميـدان.. حملت الفرقة السادسة الثلاجات وغيرهـا معهـا إلى الميـدان، أي أن العربـات حملـت الأفراد والثلاجات معًا"!

"تم الطلب من القوات المسلحة عمل لجنة اختبار شهادة الثانوية العامة في اليمن كي يتمكن أبناء وأقارب ضباط الجيش، الفاشلون من الحصول على شهادة الثانوية العامة، من اجتيازها تحت سيطرة وإشراف القوات المسلحة في اليمن. حدث ذلك وكانت النتيجة النهائية أقرب إلى 100٪ كما هو متوقع".

"عبد الناصر لم يكن موجودًا ولا علاقة له بالأمر، المسألة كلها كانت داخل الجيش.. كان الخطأ في اليمن من القوات المسلحة التي جرجرت القرار السياسي لتكبير الموضوع".

"الخسائر البشرية قليلة، والاستهلاك المادي كان في الذخيرة والمعدات، وحكاية المليون جنيه في اليوم كتكاليف حرب كلام خطأ.. لم تستنزف الميزانية، والدليل على ذلك الميزانية 62– 1967 عادية بالأرقام الحقيقية".

"حاول ناصر تغيير المشير عامر عام 1956، وحاول عند الانفصال 1961، والمحاولة الثالثة الخاصة بمجلس الرئاسة.. وفشل في الثلاث برغبته.. هناك علاقة شخصية هي التي تضع علامات استفهام حول علاقة "ناصر" بـ"عامر".

في 1962، حدث تمرد في القوات المسلحة في كوبري القبة لصالح المشير عامر، وكذلك في منشية البكري.. صدقي سليمان وسليمان عزت وغيرهما. وكانت مظاهراتهم من أسباب عودة عامر، الذي كان قد قدم استقالته وراح إلى مرسى مطروح. ووافق عليها مجلس الرئاسة.. وفك ناصر الجلسة وسار والاستقالة في جيبه، وبعدين سمع مظاهرات كوبري القبة. وهي نفس الاستقالة التي طُبعت بعد 1967.. أي تم الاحتفاظ بها عن عمد".

"من 1962 إلى 1967، لم يكن هناك أي استعداد لمحور إسرائيل، كانت فترة انشغال كامل في اليمن".

"رسميًّا، لم تتم دراسة حرب اليمن في مصر، ومنذ 1956 لا تذكر التفصيلات العسكرية، خاصة إذا كانت سيئة".

"ذهبت بعد 1967 لتخليص اللواء المتبقي في اليمن، ولكن لواء الصاعقة اليمني الذي دربناه ليحارب معنا أطلق النار علينا، وقتل "8" من أفراد قوتنا.. كانوا لا يريدون خروجنا.. لأنهم مستفيدون ومنتفعون".

"عبد الناصر حمَّل المشير عامر مسئولية الانفصال عن سوريا أدبيًّا وعسكريًّا، وخرج المشير بعدها من اليمن مغتاظًا لأنه لم يحصل على نصر تكتيكي يجعله قائدًا عالميًّا كما كان يريد".

* * *

وإذا كان "هيكل" قد اعترض، و"السادات" قد أيَّد ودعم، والفريق "فوزي" قد انتقد لاحقًا ما كان من دور ومن أداء، فإن الكثيرين لم يدينوا "عبد الناصر"، وفضَّلوا إدانة "السادات"، وعلى الرغم من أن قرار دعم الثورة اليمنية، وقرارات البقاء في دعمها، وقرارات الاستمرار في الصراع مع السعودية شمالاً وبريطانيا جنوبًا، كانت قرارات "عبد الناصر"، غير أن الفكر الناصري يرى مواطن الخلل لدى "السادات" سياسيًّا ولدى المشير "عامر" عسكريًّا.

والأغلب أن هذا التصور صحيح، غير أن المسئولية تبقى في تدهور الوضع المصري في اليمن على عاتق "عبد الناصر"، الذي كان يدرك جيدًا الفشل الدائم للمشير "عامر" في كل المهام التي أوكلت إليه، من حرب 1956 إلى الانفصال عن سوريا 1961.. ثم إلى اليمن 1962 حتى رحيله بعد كارثة 1967. كما أن "عبد الناصر" كان يدرك صعوبة الوضع الدولي، وطبيعة الخريطة في اليمن التي تكشَّفت ملامحها بمرور الوقت.

وإذا كان ممكنًا التماس العذر لـ"عبد الناصر" في ذلك؛ نظرًا لأخلاقية موقفه المتعلق بإغاثة ثورة ضعيفة وإنقاذ شعب عربي من قبضة حكم مستبد، فإن البعض يرى أن الموقف الأخلاقي لـ"عبد الناصر" لم يكن وحده في الحسبان، بل كان سعيًا

وراء أمجاده وطموحاته لقيادة العالم العربي بأي ثمن وبأي تكلفة.

من هذا الرأي "لويس عوض"، الذي يرى – في محاضرة له في نقابة الصحفيين المصرية سبتمبر 1975 – أن دور "عبد الناصر" في اليمن جاء من منطلق إمبراطوري مجاراةً لحزب البعث العربي الاشتراكي، وانجرارًا وراء شعاراته الفضفاضة من المحيط إلى الخليج، وأن هذا الجهد المصري في اليمن لم يكن "عبد الناصر" مهيأً له، ولا كان جيشه مهيأً للنهوض به، كما كان الحال بالنسبة لـ"إبراهيم باشا" الذي أدى مهمته العسكرية بنجاح في اليمن.

وينتهي "لويس عوض" إلى أن "مصر عسكريًّا وسياسيًّا خاضت معركة خاسرة هناك.. وإن كانت قد لعبت دورًا حضاريًّا محدودًا بهذه الجملة".

* * *

تميل جملة الآراء الناقدة لدور مصر في اليمن إلى أن جانبي الخطأ يتعلقان بنكسة 1967 التي كانت اليمن سببًا فيها، وكذلك بالتدهور الاقتصادي المصري من جرَّاء استهلاك رصيد مصر من الذهب فيها. وهو ما ينفيه آخرون ممن يرون أن كلا الخطأين غير صحيح.

يرى "حسين الشافعي" أن الحرب كانت خطأ، وأن "السادات" يتحمل مسئوليتها، يرى أن الرصيد الذهبي الذي أضاعته مصر في اليمن لا يمثل كارثة؛ ذلك أن الذهب لم يكن أساس الاقتصاد، بل الإنتاج الذي حل محل قاعدة الذهب. وأن الخطة الخمسية التي بدأت عام 1960 ضاعفت في عامها الأول من الدخل القومي، وتم فيها إنجاز مشروعات – بينما كانت حرب اليمن دائرة – وهي إنجازات أقلقت القوى الاستعمارية، فكانت 1967 هي الرد عليها، بهدف القضاء على تلك المشروعات قبل أن تظهر ويلمسها الناس.

ويذهب "علي صبري"، في كتاب "عبد الله إمام": "علي صبري يتـذكر"، إلى أن وجود مصر في اليمن لم يكـن لـه تـأثير في الهزيمـة العـسكرية عـام 1967، ويقـول: "كنت مسئولاً عن تنفيذ الخطة الخمسية الأولى في أثناء حرب الـيمن، الحـرب أثـرت على إمكانات الخطة، لكنها لم توقف عجلة العمل، وتم تنفيذها".

"لم يكن تدخلنا في اليمن خطأ، ولو حدث اليوم في ظـروف مماثلـة مـا وقـع في اليمن؛ فلا بد من التدخل.. لقد استقل اليمن الجنـوبي، وأزيلـت القاعـدة البريطانيـة لحلف الأطلنطي فيما بعد.. وهي قاعدة كانت تهـدد الأمـن القـومي في مـصر، وأصـبح بـاب المنـدب تحـت الـسيطرة العربيـة، وعنـدما أردنـا محاصـرة إسـرائيل 1973 لم نستطع أن نحاصرها في العقبة، ولكن حاصرناها من خلال البحر الأحمر.. لقـد أصـبح البحر الأحمر جزيرة عربية وليس بريطانيـة".

* * *

7- دولة شيوعية في الجنوب.. وأزمات تتوالى في الشمال

كان تأثير الثورة المصرية كبيرًا على الثورة اليمنية؛ فقد نجحت ثورة اليمن أخيرًا ورحل الإمام إلى غير عودة.

لكن الثورة المصرية كانت قد تركت بصمات كثيرة على الحياة السياسية هناك؛ فقد لعبت السياسة المصرية دورًا في خريطة القبائل وفي حالة التفكير السياسي، كما لعبت دورًا في تشكيل النخبة والمصالح في اليمن. وقد كان لكل ذلك أثره في بنية الثورة اليمنية وفيما تلاها من نظم سياسية.

ويميل الفكر السياسي اليمني، في هذا الشأن، إلى تقدير وتثمين دور "عبد الناصر"، وإلى ازدراء دور المشير "عامر" وبعض رجاله على نحو ما سبق عرضه في رؤية الفريق "محمد فوزي".

يذهب جانب كبير من نقد الدور المصري في اليمن – من وجهة المصلحة اليمنية – إلى الدور السلبي في ملف القبائل وإرباك السياسة والمجتمع في اليمن.

فعلى عكس ما ذكره "أمين هويدي"، في كتابه "حروب عبد الناصر"، من أن التوجه المصري في اليمن قد عمد إلى اتخاذ خطوات في سبيل إلغاء النظام القبلي من أساسه، يقول "فريد هاليداي"، في كتابه "المجتمع والسياسة في الجزيرة العربية": إن الوجود المصري في اليمن قد نجم عنه تعزيز القوة السياسية والعسكرية للقبائل اليمنية؛ حيث اشتركت الزعامات القبلية في السلطة وأسست مجالس شيوخ القبائل واسترضت بعضها بالمال، وعدم الاهتمام بتكوين جيش نظامي يمني قوي، واعتماد المصريين على القوات القبلية أكثر من الجيش المركزي.

وهو ما يؤيده "عبد الرحمن البيضاني" في مذكراته؛ إذ يقرر: "أرسل لي السادات بناءً على أمر المشير عامر يطلب تعيين شيخ قبائل حاشد، عبد الله بن حسين

الأحمر، وزيرًا؛ تقديرًا لإخلاص قبيلته منذ أول الثورة، وقد كانت القيادة المصرية تستقطب نشاط القبائل عن طريق العميد عباس فهمي، مدير شئون القبائل، وتغدق عليهم المال والسلاح. وحين رحلت القوات المصرية لم يكن في اليمن أكثر من سبعمائة جندي يمني نظامي"!

* * *

والأغلب أن تعامل القيادات المصرية مع ملف القبائل، بتكريسه بدلاً من تفكيكه، يعود إلى قوة النظام القبلي في اليمن، وحيث يستحيل إلغاؤه فقد كان الضغط الإقليمي المتواصل وطبيعة الصراع العسكري الحاد لا يسمحان بحلول ثقافية ذات طابع استراتيجي.

إن الخطأ الرئيسي للإدارة المصرية في هذا الشأن هو أنها أدركت، متأخرًا جدًّا، قوة القبيلة في اليمن، وصعوبة التعامل مع وضع قبلي معقد وراسخ على هذا النحو.. ويذكر "إدجار أوبلانس"، في كتابه "اليمن الثورة والحرب"، أن المشير "عامر" اعترف بعد نكسة 1967 وخروج القوات المصرية من اليمن بعدم الإدراك المصري للواقع اليمني.. يقول المشير: "بعد سنوات من التجارب، أدركنا أن حرب اليمن هي حرب بين القبائل وأننا قد دخلناها دون سابق معرفة بطبيعة الأرض وبتقاليد اليمنيين وأفكارهم".

* * *

وعلى أي حال.. فقد خرج الجيش المصري من اليمن، ورحل المشير "عامر"، ولم تسقط الثورة اليمنية، بل وتحرر الجنوب العربي من بريطانيا.. لكن الفرح لم يكن مكتملاً.

كان "عبد الناصر" يجني ثمار سياساته على الرغم من أخطاء رجاله الكبرى، لكنها ثمار أتت في لحظات موحشة.. كان جزء من العالم العربي يتحرر.. وكان جزء

آخر في قلب العالم العربي يفقد استقلاله، كانت بريطانيا ترحل والحكم الملكي الفاسد يذوب، وإسرائيل تحتل أراضي في كل المحيط العربي.. لتبدأ موجة ثانية من حروب التحرير.

* * *

حين قامت ثورة اليمن في 26 سبتمبر 1962، تولى السلطة فيها المشير "السلال" حتى 5 نوفمبر عام 1967؛ حيث تم إقصاء "السلال" وهو في طريقه إلى بغداد وتولى القاضي "الإرياني" منصب الرئاسة حتى 13 يونيو 1974، وفي هذا التاريخ تم إقصاء "الإرياني" وتولى "إبراهيم الحمدي" السلطة حتى 11 أكتوبر 1977، حيث تم اغتياله، وتسلم السلطة من بعده المقدم "أحمد حسين العشمي"، من 11 أكتوبر 1977 وحتى يونيو 1978، حيث اغتيل هو الآخر، وفي 17 يوليو 1978 تولى الرئيس "علي عبد الله صالح" السلطة بعد فترة عصيبة من عدم الاستقرار السياسي.

أما اليمن الجنوبي فقد استقل عن بريطانيا في 30 نوفمبر 1967 بعد مائة وثلاثين عامًا من الاستعمار – وهو ما يعادل الاستعمار الفرنسي في الجزائر من حيث العمر.

حُكمت اليمن بالفكر الشيوعي، وقد حكمها "قحطان الشعبي" ثم قُتل، فحكمها "سالم ربيع" ثم قُتل، فحكمها "علي ناصر محمد" الذي اشتبك مع رفيقه الشيوعي "عبد الفتاح إسماعيل" في 13 يناير 1986 وكانت فجيعة كبرى في عدن التي قُتل فيها عشرة آلاف شخص.

وفي 22 مايو 1990، توحَّد شطرا اليمن في دولة واحدة برئاسة "علي عبد الله صالح".

لقد خاضت اليمن الجنوبي حربين توحيديتين وحربًا انفصالية، خاضت حرب 1972 ثم حرب 1979 تحت دعاوى الوحدة اليمنية، ثم خاضت حرب 1994 ضد الوحدة التي خاضت من أجلها حربين!

ويصف "أحمد جابر عفيف" حربي 1972 و1979 بحربي الضعفاء.. في 1972 كان الشمال يعتقد أنه الأقوى، أما في 1979 فإن الجنوب كان يشعر أنه الأقوى.. والحقيقة أن أيًّا منهما لم ينتصر ولم يكن قويًّا.. ضعف الطالب والمطلوب!

* * *

منذ استقلال اليمن الجنوبي والفكر الماركسي هو السائد في السلطة، وفي عام 1972 التزمت السلطة رسميًّا بالماركسية اللينينية، وعلى وجه العموم فقد حكم الحزب الاشتراكي اليمني، وهو حزب ماركسي، جنوب اليمن منذ الاستقلال في نوفمبر 1967 وحتى الوحدة اليمنية في مايو 1990، وهو يضم مع الماركسيين خليطًا من البعثيين والقوميين العرب.

ومن اللافت للنظر أن حزب البعث اليمني قد اتخذ موقفًا مناهضًا ضد القوات المصرية التي جاءت لمساعدة الثورة اليمنية، وقد انقسم لاحقًا في عام 1972 إلى فرعين، لكن الأكثر لفتًا للانتباه هنا هو ذلك الزحام الشديد بين التنظيمات والقوى الثورية التي لا تتسق وحجم التجربة السياسية في الجنوب اليمني.

وهناك دراسات مطوَّلة حول حزب الطليعة الشعبي "الماركسي"، حزب العمل "الماركسي"، الضباط الأحرار، الجبهة الناصرية، الطلائع الثورية، منظمة المقاومين الثوريين، تشكيل القبائل الثوري، الجبهة القومية، الحزب الديمقراطي الثوري اليمني، حزب الطليعة الشعبية، اتحاد الشعب الديمقراطي.. فضلاً عن منتديات فكرية ومدارس سياسية سوفيتية وماوية وتروتسكية وجيفارية!

* * *

وحين كان موضوع رئيسي، كالوحدة اليمنية، يُطرح للحوار، كان يتم تحويله على الفور إلى مباراة فكرية وتهويمات نظرية، بما يطيح بالفكرة نفسها.. وكان الماركسيون اليمنيون الذين يطلبون الوحدة بانتظام يكررون في شعاراتهم: "لا يمكن تحقيق الوحدة اليمنية إلا من خلال وحدة الأداة الثورية".. ثم لا شيء بعد ذلك!

وكان إيمان القادة الجنوبيين بأهمية دورهم يتجاوز الداخل إلى النطاق العالمي.. ويُحكى أن مندوب نيكاراجوا قال لمندوب عدن في الأمم المتحدة: "أرجو ألا تقف إلى جانبنا عند نقاش قضايانا؛ فذلك يسيء لقضايانا ويحرجنا!".

ويُحكى أيضًا أن أحد المحاضرين السوفيت كان يلقي محاضرة حول السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي فوقف أحد الكوادر اليمنية الجنوبية يتكلم مزايدًا حول الإمبريالية والرجعية والوجود الأمريكي في المحيط الهندي والخليج العربي، فقال المحاضر السوفيتي: "ما بلادكم؟ ما وزنها الدولي؟ وما قيمتها حتى تعالج أمورًا بهذا الحجم؟ هذه أمور تعالَج على مستوى القوتين الكبيرتين ولا أثر لكم فيها ولا دخل"!

لقد أدت هذه السياسات إلى وضع مأساوي في البلاد، وتذكر بعض المصادر أن "60٪" من اليمنيين الجنوبيين قد صاروا شتاتًا خارج مواطنهم، وأن المجازر كانت تتجدد كل موسم، وقتل الناس وسحلهم وتشردهم عمل يومي.

فَقَدَ الشعب في الجنوب مائة ضعف ما فقده منذ احتلال عدن حتى الجلاء بعد مائة وثلاثين عامًا من الاحتلال، وكانت عدن أجمل مدن الجزيرة وأكثرها رخاءً وازدهارًا فأصبحت أكثرها تأخرًا وفقرًا وبؤسًا.

وفي كتابه "رياح الجنوب"، ينقل "رياض نجيب الريس" عن الرئيس السابق "علي عبد الله صالح" قوله: "إن الديون التي خلَّفها الحزب الاشتراكي في أثناء حكمه للجنوب إلى يوم الوحدة في 22 مايو 1990 بلغت "6" مليارات دولار لشعب تعداده مليونا نسمة.. لقد سلم الاستعمار البريطاني عدن للحزب الاشتراكي وفيها "200"

كيلومتر من الشوارع المعبدة والمسفلتة، وبعد "27" سنة من حكم هذا الحزب سلم دولة الوحدة "20" كيلومترًا فقط من الطرق المعبدة والمسفلتة..

إنهم عطلوا أهم مستشفى بناه الإنجليز في عدن أيام الاستعمار، الذي سلّموه بأحسن حالاته عند الاستقلال، وتعهد البريطانيون بالاستمرار في تمويله وتجهيزه شرط أن يبقى اسمه "مستشفى الملكة إليزابيث". رفض الحزب هذا الموقف الاستعماري وأصر على تسميته "مستشفى الجمهورية"، خسروا التمويل البريطاني وخسر الشعب أحسن مرفق صحي عنده"!

8- الثورة والدولة في اليمن.. ملاحظات ختامية

يصعب الدفاع عن تجربة الثوار اليمنيين في الجنوب؛ فقد كانت تجاربهم بائسة إلى حد استثنائي، وربما كانت تجربتهم الثورية هي الأسوأ والأكثر ضحالة في مجمل التجارب الثورية العربية!

غير أن الثورة في الشمال بدأت نموذجًا إيجابيًّا للعمل النضالي ضد الاستبداد والتخلف، وكان السعي المصري لدعمها سعيًا مفهومًا من ثورة كبرى إزاء ثورة تولد، لكن الخلل كان في الثوريين المصريين الذين أنابهم "عبد الناصر" لدعم ثورة اليمن، وكذا في الثوريين اليمنيين الذين لم يبذلوا الجهد الأكبر في إنجاح ثورتهم، ثم تحول كثير منهم لاحقًا من ثوار إلى تجار!

من أخطاء الثورة..عدم الكفاءة، شأن مجمل الثورات، ومن أخطائها أيضًا.. الإسراف في القتل بدعوى تأمين الثورة. ويعتبر "أحمد جابر عفيف" أن القيام بالإعدامات دون محاكمة كان أكبر أخطاء الثورة اليمنية، وقد وجد البعض أنفسهم ينجرفون إلى صفوف الملكيين على الرغم من إرادتهم، وربما للثأر لبعض أقاربهم أو خوفًا من أن تسحقهم موجة الإعدامات الهوجاء!

ويستطرد "عبد الله البردوني"، في كتابه "الثقافة والثورة في اليمن"، أن القبائل الملكية لم تكن ملكية كما وصفوها، ولكن كانت تريد جمهورية عادلة، وقد حددت مطالبها في منتصف الستينيات بصفة العدل الجمهوري.. وبهذا تبين أن القبائل التي اتسمت بالملكية غير رجعية!

* * *

إن الثوريين اليمنيين، بدعم الثوريين المصريين، لم يتمكنوا من تطويق النظام القبلي وإطلاق الفرصة للتطور السياسي والاجتماعي.. وقد فشل كلا الطرفين في تحويل

الثورة إلى دولة، وفي تطوير الحالة القبلية باتجاه الدولة العصرية.. وأصبحت القبائل خارج سلطة الدولة، ولم تعد الحكومة سوى غطاء على حالة التوازن القبلي القائم.

وحسب وزير الداخلية اليمني، في حواره لـ"الأهرام" بتاريخ 12 أبريل 1994، فإن الشعب اليمني يمتلك "150" مليون قطعة سلاح، وإن القبائل اليمنية تمتلك مدفعية خفيفة وثقيلة وبعض أنواع القطع الصاروخية المتطورة، وهناك الجيش الشعبي من القبائل، وهو جيش رسمي ومواز للجيش اليمني!

وقبل ذلك بسنوات، قال "إبراهيم الأحمدي" – رئيس مجلس القيادة اليمني – في تصريح لمجلة "الصياد" بتاريخ 2 فبراير 1975 – أي بعد سنوات كثيرة من قيام الثورة اليمنية –: إن قبيلة واحدة في اليمن تستطيع أن تجند سبعين ألف مسلح إذا أرادت!

وإذا أخذنا في الاعتبار شهادة "البيضاني" من أن الجيش المصري قد غادر عام 1967 وليس في اليمن إلا سبعمائة جندي يمني نظامي، يمكن تفهم ذلك التقصير الكبير الذي ارتكبه الثوريون في بناء جيش وطني وفي ملف الحداثة على وجه العموم.

وإذا كانت تجربة الثوريين في الشمال والجنوب تكمن في إسقاط النظام الملكي المستبد والتخلص من الاستعمار البريطاني، فإن إكمال الطريق لم يذهب إلى أبعد من ذلك؛ فنصف اليمنيين يعانون الفقر، وربعهم يعاني البطالة.. أي كل من هم في سن العمل تقريبًا.

وتصل الأمية إلى قرابة "70٪" وتعاني "70٪" من المدارس عدم وجود كهرباء، وتعاني "40٪" منها عدم وجود مياه للشرب، وفي مجال الصحة تحتل اليمن الموقع قبل الأخير في نوعية الخدمات الصحية قبل الصومال، وعلى المستوى الدولي فمن بين "200" دولة تحتل اليمن المرتبة الـ"180" في العالم!

* * *

كان القات في العهد الملكي المستبد مستخدَمًا على نطاق ضيق، ولفترة زمنية قصيرة، وكان عيبًا على النساء أن تخزن القات، الآن – بحسب "أحمد جابر عفيف" – فإن كل دورة حياة اليمنيين هي جري ومتابعة للقات.

ويستهلك القات "55٪" من إجمالي المياه المستخدمة للري، ويشغل نسبة "70٪" من المزروعات المستديمة في أكثر الأراضي خصوبة، وتتزايد زراعته بنسبة "8٪" كل عام، وتعادل المساحة المزروعة من القات المساحة المزروعة من القمح، وتزيد بثمانية أضعاف على المساحة المزروعة من القطن، وعمومًا يشكل ثلث الناتج الزراعي. ويهدر اليمنيون عشرين مليون ساعة يوميًّا في جلسات القات، ما جعل بين اليمنيين وبين العالم المتقدم مئات السنين!

* * *

وفي وصف دقيق لما آل إليه الثوار اليمنيون بعد أن أصاب التدهور كل شيء، يقول "أحمد جابر عفيف": "عندما وضعنا أهداف الثورة.. طُرح موضوع إزالة الفوارق بين الطبقات.. كنت أميل إلى كلمة "إذابة الفوارق" لا "إزالة الفوارق"؛ لأنه لم تكن عندنا فوارق بالمعنى المتعارف عليه؛ فمنذ الأربعينات وحتى الستينيات لم تكن هناك فوارق بين الناس، لم تكن هناك نهائيًّا.. كان كل الناس يعيشون عيشة بدائية، كان الأغنياء محدودين جدًّا، وكانوا يختلفون عن أغنياء اليوم.. كانوا يعملون مثل الفقراء، من الصباح للمساء، وكانوا فقط يأكلون اللحوم أكثر. بعض ضباط الثورة وقف ورفض.. قالوا بل إزالة لا إذابة الفوارق".

"ونحن اليوم، في نهاية القرن العشرين، نفاجَأ بأن الفوارق الحقيقية لم توجد إلا في الوقت الحاضر.. وهي فوارق قصمت ظهر الشعب اليمني إلى أبعد الحدود، الشريحة المتوسطة هبطت إلى الحضيض.. وصعدت أعداد من الطفيليين إلى الغنى بشكل فاحش بدعوى العمل في التجارة.. لكنهم كانوا يعملون بطرق غير شرعية،

والمصيبة أن معظم هؤلاء ممن شاركوا في تفجير الثورة، وكانوا من ضباطها ورجالها، وكأنما قاموا بالثورة لأجل أن ينهبوا البلاد وخيراتها. وإذا سألته: من أين لك هذا؟ يثور.. كيف تسأله وهو ثائر؟ إنه تمامًا يساوي الثورة.. لكن هذه الملايين ضد الثورة. أعرفهم جيدًا.. كانوا لا يملكون شيئًا قبل الثورة عام 1962، الآن يملكون الدور والقصور والملايين ويكتبون على أبواب قصورهم: هذا من فضل ربي"!

* * *

لقد تهاوت أوضاع اليمن بعد أن عادت ملامح ثورتها لتقارب ملامح ما قبل الثورة، من فقر وأمية وبطالة ومرض.. وكالعادة أطلت جماعات الإسلام السياسي على المشهد، من الإخوان المسلمين إلى القاعدة، ومن اليمنيين الأفغان إلى جماعات التكفير، وهي حالة بلغت من القوة أن جعلت الحزب الاشتراكي يتراجع عن ماركسيته ويؤكد المرجعية الإسلامية لأعضائه، وهي أيضًا حالة جعلت من الفكر الثوري الإسلامي ملهمًا لبعض الأفراد والتيارات التي رأت ثورة اليسار وقد فشلت، والدولة وقد تأزمت.

9- اليمن: ثورة على الثورة.. انكسار الأفق

تمددت خريطة الإسلام السياسي في اليمن إلى أن تبلورت مراكز قوتها في مثلث واضح: الإخوان المسلمون والقاعدة والحوثيون.

تقول جماعة الإخوان المسلمين في اليمن إن نشاطها بدأ في الستينيات، وإن بعض مؤسسي الجماعة في اليمن كانوا على صلة قديمة مع "حسن البنا" في مصر.

وأول وجود رسمي للجماعة كان عام 1990 بإعلان جناحها السياسي "التجمع اليمني للإصلاح"، الذي أسسه الشيخ "عبد الله حسين الأحمر"، وظل الشيخ "عبد الله الأحمر" رئيسًا لحزب الإخوان حتى رحيله عام 2007، فتولى من بعده "محمد عبد الله اليدومي" قيادة الحزب. وطيلة هذه السنوات كان رجل الدين اليمني الشيخ "عبد المجيد الزنداني" بمثابة المرجعية الدينية للحزب وأقرب إلى ما يُعرف بـ"مفتي الإخوان" في اليمن.

ويعد رجل الأعمال "حميد الأحمر" – نجل مؤسس الحزب الشيخ "عبد الله الأحمر" – من المولين الأساسيين للحزب.. واتهمه أنصار الرئيس السابق "علي عبد الله صالح" باستخدام شبكة الهاتف التي يملكها "سبأ فون" في الاتصال الآمن في أثناء محاولة اغتيال "صالح" عام 2011.

ساعد الرئيس السابق "علي عبد الله صالح" في تأسيس حزب الإخوان.. وكان هدفه من ذلك أن يكون الحزب مناهضًا ومعادلاً للحزب الاشتراكي شريك "صالح" في الحكم.

فقد أراد "صالح" أن ينفرد بالسلطة عبر توازن بين حزب الإخوان ذي المكون الشمالي والحزب الاشتراكي ذي المكون الجنوبي.

وقد تعاون الإخوان مع "صالح" طيلة السنوات الممتدة من عام 1990 وحتى عام 2006 تعاونًا تامًّا، وعبر السبعة عشر عامًا كان الإخوان وحزب "صالح" "المؤتمر الشعبي" هما السلطة السياسية في البلاد.. وفي عام 1999، أعلن الإخوان ترشيح "علي عبد الله صالح" للرئاسة قبل أن يعلن حزب "صالح" نفسه الترشيح. وكان الجنرال القوي "علي محسن الأحمر" هو راعي هذه الصيغة في التحالف والحكم.

ويرى ناقدو "علي محسن الأحمر" أنه هو من أطلق يد الإخوان في الزحف على مراكز السلطة والنفوذ في اليمن، وأنه وراء ما يمكن تسميته "الأخونة"؛ حيث ينسب خصومه إليه أنه ساعد الإخوان في الحصول على مائة ألف وظيفة.. عدد كبير منها في الجيش.

* * *

مثَّل "علي محسن الأحمر" رقمًا مهمًّا في السياسة اليمنية المعاصرة؛ فهو قريب للرئيس "علي عبد الله صالح" واعتاد أن يقول إن علاقته بالأخ غير الشقيق "علي عبد الله صالح" ثابتة وراسخة. وتأتي صلة القرابة بين "الأحمر" و"صالح" من زواج والدة الرئيس "علي عبد الله صالح" بعد رحيل والده من عم اللواء "علي محسن الأحمر".. وأصبح "الأحمر" الساعد الأيمن لـ"صالح" معظم سنوات حكمه.. غير أنها تأثرت في السنوات الأخيرة من جرَّاء استعداد "صالح" لتوريث ابنه "أحمد" السلطة في اليمن.

كان "أحمد علي عبد الله صالح" قائدًا للحرس الجمهوري، وكان عدد من الأقارب في مواقع نافذة؛ حيث كان اللواء "علي محسن الأحمر" قائدًا للواء المدرع الأول، وكان العميد "عمار محمد عبد الله صالح" وكيل جهاز الأمن القومي، وكان "يحيى عبد الله صالح" قائدًا لجهاز الأمن المركزي، والأخ غير الشقيق لـ"صالح" كان قائدًا للقوات الجوية.

وفي مشروع التوريث، بدأ مركز "أحمد علي عبد الله صالح" يصعد بقوة على

حساب الجنرال "علي محسن الأحمر"، القريب من جماعة الإخوان المسلمين.

وتذكر بعض المصادر أن الرئيس "صالح"، في إطار سعيه الدائم إلى إضعاف مركز "الأحمر"، قام رجاله بتحميل "الأحمر" مسئولية الفشل في حرب الحوثيين في أثناء جولات القتال في عامي 2009 و2010، وأن نظام "صالح" حاول التخلص من "الأحمر" تمامًا.. وحسب إحدى البرقيات التي نشرها موقع "ويكيليكس"، فإن نظام "صالح" – الذي أيَّد قيام السعودية بقصف مواقع الحوثيين – قام بإعطاء القوات السعودية إحداثيات مركز قيادة "الأحمر" باعتباره أحد معسكرات الحوثيين من أجل قصفها والقضاء عليه!

لكن تراجُع مركز "الأحمر" في نظام "صالح" دفعه – حسب البعض – لتوثيق علاقته مع الإخوان ومد الجسور مع تنظيم القاعدة.. مستثمرًا صلته العائلية ببعض قادتها؛ حيث إن "الأحمر" متزوج من شقيقة القيادي في القاعدة "طارق الفضلي" الذي كان مقربًا من "أسامة بن لادن" في أفغانستان قبل عودته إلى اليمن.

* * *

انتقم "الأحمر" من "صالح".. وكانت ثورة الشباب اليمنية الفرصة الذهبية لـ"الأحمر" لإنهاء مشروع التوريث وردّ ما فعله "صالح" إليه؛ حيث بدأ اللواء "علي محسن الأحمر" أول انشقاق عسكري كبير في نظام "صالح" بإعلان وقوفه إلى جوار الثورة ومهاجمة استخدام القوة مع المتظاهرين.

حظي موقف "الأحمر" بتقدير داخل بعض أوساط الشباب اليمني الذي أطلق ثورة الحادي عشر من فبراير.. لكن أوساطًا أخرى منهم رأوا في "الأحمر" أحد أركان نظام "صالح" وذراعه الأساسية في القمع والسيطرة.. كما تحدث الشباب عن استفادة "الأحمر" المالية من نظام "صالح" واستيلائه على مساحات واسعة من الأراضي.

* * *

كان الإخوان المسلمون بدورهم غير قانعين بمشاركة "صالح" في السلطة ورأوا أنه من المناسب استثمار ثورة الشباب لإسقاط "صالح" والسيطرة الكاملة على النظام.

شارك الإخوان في ثورة الحادي عشر من فبراير اليمنية عام 2011.. وكان حضورهم واضحًا في مظاهرات الجمعة التي دعا إليها الشباب اليمني لإسقاط النظام.. وهي الجُمع التي تعاقبت بالأسماء التالية على مدى شهور طويلة:

«جمعة الغضب – جمعة البداية – جمعة التمرد – جمعة التلاحم – جمعة اللاعودة – جمعة الكرامة – جمعة الرحيل – جمعة الخلاص – جمعة الثبات – جمعة الإصرار – الفرصة الأخيرة».

بدأت المظاهرات اليمنية متأثرة بمظاهرات 25 يناير في مصر.. ثم اشتدت مع اشتداد وقائع الثورة المصرية، وفي يوم تنحي "مبارك" عن السلطة في مصر، 11 فبراير 2011، بدأ التاريخ الرسمي لثورة الشباب اليمنية السلمية التي امتدت عامًا كاملاً حتى فبراير 2012.

تم التوافق على رحيل الرئيس "علي عبد الله صالح" عن السلطة واختيار الرئيس "عبد ربه منصور هادي" رئيسًا للبلاد لمدة عامين من فبراير 2012 وحتى فبراير 2014.

كان خروج الملايين في اليمن لإسقاط "صالح" متأثرًا بالفساد والفقر اللذين انتشرا في ربوع اليمن.. كما أنه كان متأثرًا بعملية التوريث واستعداد نجل "صالح" لتولي السلطة.. كما أن الثورة المصرية كانت ملهمًا أساسيًّا للشباب اليمني الذي رأى "مبارك" وقد سقط.. فرأى في ذلك رسالةَ أملٍ لا تغفلها عيْن.

* * *

بقي حزب وإعلام الرئيس السابق "علي عبد الله صالح" قويين.. كما أن مؤيديه كانوا أكبر كثيرًا من مؤيدي "مبارك" في مصر.. وبدأ أنصار "صالح" يشنون هجومًا

على الإخوان المسلمين الذين انقلبوا على النظام بعد واحد وعشرين عامًا من التحالف والتعاون المشترك.. وردّد أنصار "صالح" أن الحلف الإخواني - الأمريكي كان وراء ما حدث.. وأن السفير الأمريكي في اليمن "جيرالد فايرستاين" كان يخطط مع قادة "الجماعة" للحلول محل "صالح" بعد إسقاط النظام.

ويذكر "أحمد عبد الله الصوفي" — وكان مستشارًا صحفيًّا لـ"صالح" — في كتابه "اليمن.. تحالف القبيلة والإخوان"، أن الإخوان خططوا لاغتيال "صالح" في انفجار جامع الرئاسة يوم 3 يونيو 2011 بعلم السفارة الأمريكية. واتهم مستشار "صالح" كلاً من اللواء "الأحمر" ورجل الأعمال الإخواني "حميد الأحمر" بتدبير التفجير.

وزادَ المحامي "محمد السوري" - الأمين العام لنقابة المحامين اليمنية محامي ضحايا تفجيرات جامع الرئاسة - فأضاف حادث جمعة الكرامة إلى حادث تفجير جامع الرئاسة.. وقال: "إن المجرم في الجمعتين واحد، وهو الإخوان المسلمون.. أما نظام صالح فهو بريء من دم الشباب في جمعة الكرامة؛ ذلك أنه من بحث الأدلة المثبتة في ملف القضيتين "قضية جمعة الكرامة وقضية جامع الرئاسة" يتبين أن القضيتين إخوانيتان إعدادًا وتخطيطاً وتنفيذًا".

* * *

لم يكن الإخوان أول فصيل ولا أكبر فصيل في ثورة اليمن 2011، لكنهم كانوا الأكثر تنظيمًا في الداخل والأكثر دعمًا في الخارج.. وهو ما جعلهم الأكثر جاهزية للنفوذ والسيطرة. وحسب قول أحد الشباب المشاركين في الثورة: "أتى الإخوان إلى الثورة متأخرين.. لكن الثورة صارت في جْيبهم".

بدأ الإخوان — حسب معارضيهم — في الإقصاء والأخونة وسرقة الثورة بكاملها.. وهو ما أثار غضب شباب الثورة وكذلك القوى السياسية.. وأصدر الحزب الاشتراكي والحزب الناصري بيانًا مشتركاً تم توجيهه إلى الرئيس "عبد ربه منصور

هادي" استنكروا فيه مساعي الإخوان للسيطرة على مفاصل الدولة وأخونة المؤسسات السيادية.

* * *

لقد جاءت ثورة 30 يونيو في مصر وإسقاط حكم الإخوان المسلمين بمثابة الصدمة لإخوان اليمن.. لكنها جاءت بمثابة "الأمل الكبير" للقوى السياسية والشبابية التي رأت أن خريف الإخوان في مصر سيعقبه "الربيع الحقيقي" لليمن.

هاجم الإخوان ثورة يونيو المصرية 2013 ووصفوها بـ"الانقلاب".. وضمن منظومة الإعلام الإخواني في اليمن، أصبحت قناة "سهيل" التليفزيونية المملوكة لرجل الأعمال الإخواني "حميد الأحمر" ناطقة باسم أنصار الرئيس المصري السابق "محمد مرسي". وتسابق حزب "التجمع اليمني الإصلاحي" - الإخواني - واللواء "علي محسن الأحمر" - المستشار العسكري لرئيس الجمهورية والموالي للإخوان - إلى وصف ثورة يونيو بالانقلاب.

وأطلق الإخوان عدة مظاهرات تندد بثورة يونيو وتطالب بعودة "مرسي".. وفي إحدى المظاهرات الإخوانية في صنعاء، قام أحد شباب الإخوان وصعد إلى أعلى السفارة المصرية وثبّت صورة لـ"محمد مرسي" على السفارة المصرية.

لكن الرئيس اليمني "عبد ربه منصور هادي" أيَّد الثورة المصرية بقوة وأعلن دعم بلاده للثورة والجيش في مصر وتأييده لنظام حكم الرئيس "عدلي منصور"، وهو ما دعا الإخوان للغضب من الرئيس.. وبدأت بعض الصحف تتحدث عن الإطاحة بالرئيس أو الانقلاب لصالح جماعة الإخوان المسلمين.

وذكر الموقع الإلكتروني "صدى عدن" أن الحليف الإخواني اللواء "علي محسن الأحمر" عقد اجتماعًا في صنعاء، بحضور الشيخ "حميد الأحمر".. وقال: "إن الرئيس عبد ربه غير قادر على إدارة الأمور.. والانقلاب العسكري وارد"!

* * *

لقد أدت ثورة فبراير 2011 اليمنية إلى إسقاط نظام حكم "علي عبدالله صالح" وفتح الأبواب نحو المستقبل وبناء اليمن الحديث، لكن سطوة جماعة الإخوان المسلمين، ثم تفاقم خطر جماعة الحوثيين، ومعها تمدد تنظيم القاعدة.. ذلك كله قد بعث على الإحباط من جديد.

ذلك أن تنظيم الحوثيين الشيعي المسلح بات يحكم أجزاء واسعة في صعدة، وأصبح يفرض حظر التجوال ليلاً، ويسيطر على الطرق والمرافق والمصالح المحيطة على نحو غير مسبوق.. ما دعا البعض للقول: إن استمرار قوة الحوثيين على هذا النحو وانشغال العاصمة بالصراع على السلطة قد يجعلنا نفيق يومًا والحوثيون قد دخلوا صنعاء!

وبدوره، فإن تنظيم القاعدة، الذي تمكّن من تفجير مبانٍ في وزارة الدفاع، قُتل على أثرها أكثر من خمسين شخصًا في نهاية عام 2013، بات رقمًا سياسيًّا لا قتاليًّا فحسب.

ويشير البعض إلى علاقة لشخصيات في النظام مع عناصر "القاعدة".. وربما هذا ما دعا رئيس اليمن الجنوبي السابق "علي ناصر محمد" للقول بأن تنظيم القاعدة يجري استخدامه من قِبل مراكز القوى في اليمن!

وقد فشلت الغارات الجوية التي تشنها الولايات المتحدة على معاقل "القاعدة" في اليمن عبر "الطائرات بدون طيار" في تحجيم التنظيم.

ثم إن هذه الغارات بفشلها في تحقيق أهدافها، وإصابتها المتكررة لعناصر مدنية ومناطق سكنية.. قد استجمعت المزيد من الغضب ضدها.. وقد تصاعد الغضب على نحو أكبر حين قتلت هذه الطائرات بطريق الخطأ خمسة عشر شخصًا في حفل زفاف، ما كان سببًا في إطلاق مظاهرات معادية لها في صنعاء.

وعلى الرغم من حالة الغضب هذه، فإن الغارات لم تنقطع و"القاعدة" لم تنكسر.. وجاء قرار البرلمان اليمني بمنع الغارات الأمريكية التي تشنها طائرات بدون طيار بمثابة محاولة لقول شيء ما.. ليس أكثر.

* * *

لقد كان طبيعيًّا مع التحديات التي تواجه الدولة والسياسة في اليمن أن تتصاعد دعاوى الانفصال.. وراح بعض ساسة الجنوب يرون في ثورة فبراير 2011 ليست فقط ثورة على السلطة بل هي ثورة على الدولة.. إنها ليست فحسب ثورة على نظام "صالح" الحاكم في صنعاء، بل هي ثورة على صنعاء ذاتها.

وتزاحمت سيناريوهات مستقبل الدولة في اليمن.. وفي الحوار الوطني الذي أطلقه الرئيس "عبد ربه منصور هادي"، جرى الحديث عن سيناريو الوحدة كما هي دون تغيير.. أي "اليمن الواحد" و"النظام الواحد". وطرح البعض سيناريو الدولة الاتحادية.. على أن تتشكل من إقليمين يستعيدان، من حيث الشكل، حدود الدولتين السابقتين "اليمن الشمالي واليمن الجنوبي" اللتين توحدتا عام 1990.. وتحدث حزب الرئيس السابق "علي عبدالله صالح" عن دولة من ستة أقاليم بما يلغي معالم تقسيم الدولتين السابق.. على أن تعمل الأقاليم الستة في دولة واحدة.

لكن نهاية العام 2013 شهدت تصعيدًا جديدًا بعد اغتيال أحد شيوخ القبائل الكبار في حضرموت برصاص الجيش في عملية تفتيش على السلاح.. وانطلقت حملة انفصالية في حضرموت تدعو إلى انفصال حضرموت.. وأصبح هدف أصحاب الحملة ليس إقامة دولة اليمن الجنوبي بل تقسيم اليمن الجنوبي نفسه والاكتفاء بإقامة دولة حضرموت المستقلة!

* * *

كانت إيران حاضرة فيما يجري في اليمن؛ حيث يتهم تيار الوحدة اليمنية

إيران بدعم انفصال الجنوب وانفصال الحوثيين وقيامها بالضغط بالانفصاليين لتفكيك اليمن.

واتهم وزير الخارجية اليمني "أبو بكر القربي" السياسي الجنوبي "علي سالم البيض" – نائب الرئيس السابق – بالتنسيق مع حزب الله في لبنان والحرس الثوري في إيران من أجل دعم انفصال الجنوب.

وتحدثت صحف يمنية عن عمالة "علي سالم البيض"، وتحدث البعض عن أصوله الهندية لا اليمنية. وقالت صحيفة "الجيش": إن "علي سالم البيض" طفل هندي قدم مع والدته مستجيرًا بالسيد "صالح البيض".. وتحدث آخرون عن فساده واستيلائه على مليار دولار من خزائن اليمن الجنوبي قبل هروبه إلى سلطنة عمان.. وعن تمويله لاحقًا من إيران وحزب الله.. وقالت إحدى الصحف: إن الانفصالي "علي سالم البيض" تحوَّل من كونه شيوعيًّا إلى كونه شيعيًّا!

* * *

كان الاقتصاد يتكلف الكثير كل يوم من جرَّاء السياسة.. وجاءت معظم التقديرات تحمل أنباء سيئة.. فالجوع والفقر والبطالة هي العناوين المفزعة لما يجري في اليمن.

وحسب تقديرات البنك الدولي، ارتفعت نسبة الفقر في اليمن من "42٪" عام 2009 إلى قرابة الـ"55٪" عام 2012.. وقالت وكالات تابعة للأمم المتحدة: إن نصف سكان اليمن، البالغ عددهم "25" مليون نسمة بحاجة إلى مساعدة إنسانية.. وهناك أكثر من "10" ملايين يمني يعانون فقدان الأمن الغذائي، نصفهم – حسب مجلة "الإيكونوميست" – أي خمسة ملايين يمني، يعانون الجوع!

وتشكل مشكلة نقص المياه محنة كبيرة تواجه اليمن.. وحسب تعبير الصحفي الأمريكي "توماس فريدمان" – الذي زار اليمن بعد الثورة – فإن "نضوب المياه هو ما

سيُفني اليمن وليس الخلافات السياسية".

ففي مدينة تعز، يفتح السكان صنابير المياه ثلاثين يومًا لتأتي المياه "36" ساعة فقط، وهناك نمط سائد من حرب القرى.. أي الحرب بين سكان القرى المتجاورة للحصول على المياه.. وهي الحرب التي عبَّر عنها، بمرارة، أحد المصابين بقوله: "إصابتي لم تكن بسبب الصراع على السياسة أو مع جماعة الإخوان.. بل الصراع على الماء"!

إن الآبار تجفُّ في البلاد، ونبات القات يشرب الكثير من المياه.. ويقول وزير المياه السابق "عبد الرحمن الإرياني": إن الآبار تجفّ على نحو خطير.. كنّا في السابق نحفر الآبار على عمق ستين مترًا، الآن نحن نحفر على عمق ألف متر!

وتذهب دورية "فورين أفيرز" الأمريكية، إلى أن سكان صنعاء عام 2025 سيكون عددهم أكثر من أربعة ملايين نسمة.. سيصبحون جميعًا لاجئين بسبب جفاف المياه.

إن صنعاء – حسب التقارير – تواجه مستقبلاً قاحلاً.. وربما يحتاج سكان صنعاء إلى نقل العاصمة، لكن ذلك سيتكلف "40" مليار دولار.

إن عدد السكان الآن مليونًا نسمة، سيتضاعف بعد قرابة العشر سنوات.. وإذا جرى نقل مليوني نسمة الآن.. فهذا يتكلف الكثير، لكن الأمر لا يتوقف على المال وحده؛ ذلك أن النقل – لو تم – سيؤدي إلى تغيير في الخريطة السكانية.. والنقل يعني سحب المياه من مناطق أخرى ليحصل عليها السكان المنتقلون من العاصمة.

في ظل تلك الأزمة المفزعة في المياه ونقص الغذاء، يتضاعف الإنفاق على نبات القات سنويًّا.. وتستهلك زراعة القات نصف المياه التي يجري سحبها من حوض صنعاء كل عام.. وحسب مؤسسة "يَمَن بلا قات"، فإن المساحة المزروعة بالقات قد تضاعفت "21" مرة في "4" عقود!

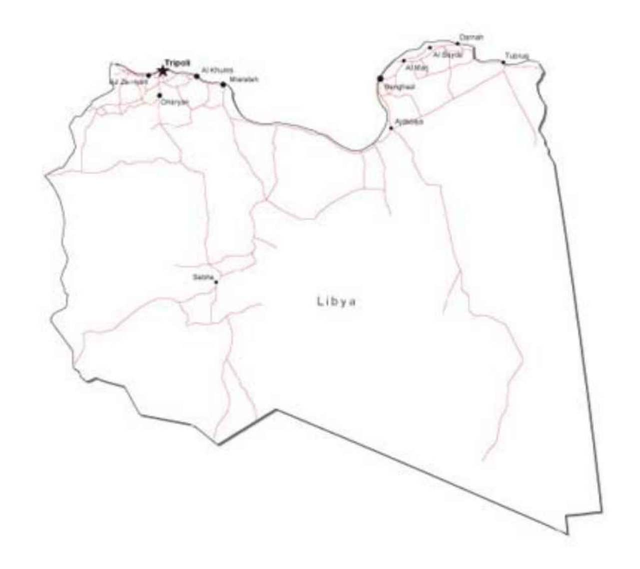
لقد أدى ذلك على وجه الإجمال إلى كارثة في الاقتصاد والأمن في اليمن؛ ذلك أن الاقتصاد يتهاوى.. والأمن، الذي يشهد تحديات من "القاعدة" والحوثيين وغيرهم، يواجه ضغطاً موازيًا بسبب قضايا نقص المياه. وحسب وزارة الزراعة اليمنية، فإن النزاعات المرتبطة بالمياه والأراضي ينجم عنها أربعة آلاف قتيل سنويا!

* * *

وهكذا تتبدى الثورتان والدولة في اليمن.. الذي كان سعيدًا، ثم أصبح مثقلاً بالساسة الذين آثروا الثروة على الثورة.. وآثروا السلطة على النهضة.. وآثروا الكاميرا على الوطن.

إن اليمن بلاد ساحرة.. يعيش فيها شعب رائع له تاريخ مذهل.. لكنه بلد سيئ الحظ تمامًا بالذين حكموا، والذين ثاروا على الذين حكموا، ثم الذين ثاروا على الذين ثاروا!

الفصل السادس



ثورة ليبيا .. جماهيرية بلا جماهير

"الجهلة والسطحيون وأولئك الذين يدفعهم الحقد يتساءلون: كيف بقيت 34 عاماً في السلطة.. لكن ذلك لأننى لا أحكم, إن الشعب هو الذي يحكم, ولذلك لم تتمكن الولايات المتحدة من تغيير النظام السياسي"!

معمر القذافي

*** * ***

ليبيا بلدٌ جميل يسكنه شعبٌ واثق..

خاض الشعب الليبى خمسمائة معركة ضد الاستعمار الإيطالي, فقَدَ خلالها سبعمائة ألف شهيد أى ما يعادل نصف السكان.. كان يمكن لهذه البطولة أن تكون أساسًا لسمعة دولية مرموقة ونموذجًا تاريخيًا في الكفاح، كما كان يمكن لليبيين بعد هذه البطولات أن يتجهوا بثقة نحو المستقبل, وأن يبنوا بلادهم التي تمتاز على دول عربية عديدة بالنفط والمناخ والصحاري والشواطئ.

غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث, فقد وقعت الثورة الليبية عام 1969, وعادت ليبيا إلى الوراء, لم يظهر أثر الثراء على أحد فيها, وجرى طمس تراث النضال الوطني الكبير لصالح حقبة الثورة الليبية وحدها. واختفى تقريباً اسم "عمر المختار" أمام الإنفاق الباهظ على ترويج اسم الرئيس "القذافي".

وفي حين بقيت الثورة الجزائرية تتمتع بسمعتها المرموقة ومكانتها التاريخية المميزة, وبقى أبطالها وشهداؤها أحياء في الذاكرة وفي الحياة اليومية, فإن النضال الليبي ضد الاستعمار الإيطالي.. قد ذهب عن الذاكرة وعن الحياة, وتم اختزال الدولة والشعب في ثورة الفاتح من سبتمبر ومقولات الكتاب الأخضر وقوافل اللجان الثورية والمؤتمرات الشعبية.. لقد دخلت ليبيا منذ عام 1969.. عصراً من اللاعقل !

وإذا كانت مجمل الثورات العربية قد أنجزت الكثير وأخفقت في الكثير, فإن الثورة الليبية لم تنجز أى شئ, وأخفقت في كل شيء !

* * *

كانت ليبيا قبل الاحتلال الإيطالى واقعة تحت الحكم التركى, وفي عام 1911 وقعت ليبيا تحت الاحتلال الإيطالى.

قبل مائة عام لم يكن اسم ليبيا قد ظهر بعد، ويعود أول استعمال نظري لكلمة ليبيا إلى عام 1903 في كتاب "جغرافيا ليبيا" للعالم الإيطالى "مينوتلى". وقد اتسم احتلالها بالقسوة والفظاظة, فكان أن قام المجاهدون الليبيون باطلاق حقبة الكفاح ضد الاستعمار عبر معارك لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد.

ويحصى "خليفة التليسي" في كتاب "معجم معارك الجهاد الليبى" بخمسمائة معركة في عشرين عامًا من 1911 إلى عام 1931. ففي عام 1931 استشهد "عمر المختار" وخارت قوى المناضلين، بعد توحش القوة الإيطالية في مواجهتهم.

بقى الحال كذلك حتى عام 1942 حيث انهزمت إيطاليا في الحرب العالمية الثانية وانتصر الحلفاء ودخلت القوات البريطانية ليبيا عام 1942 بعد ثلاثين عامًا من الاحتلال الإيطالي.

وفي 24 ديسمبر عام 1951 استقلت ليبيا كمملكة إتحادية, وتولى العاهل الليبي الملك "محمد إدريس السنوسي" الملقب بـ"إدريس الأول" حكم ليبيا منذ الاستقلال, وتشكلت أول وزارة إتحادية برئاسة "محمود المنتصر", وتم وضع دستور للبلاد. ووقّعت المملكة الليبية معاهدتين مع كل من بريطانيا والولايات المتحدة تمنحهما نفوذًا واسعًا.

في عام 1964 اندلعت مظاهرات واسعة وأعلن الملك إزاءها النية في التخلي عن العرش لكنه عاد فتراجع عن نيّته. هدأت الأمور سنوات قليلة ثم كان انقلاب الملازم

أول "معمر القذافي" في أول سبتمبر عام 1969, فتم إلغاء النظام الملكى, وبدأ عصر جديد.

نشأ "القذافي" في أسرة بسيطة تتبع عائلة "القذاذفة" قرب سرت, وانخرط في صفوف الطلبة المعارضين للحكم السنوسي أثناء دراسته إلى أن قام بتشكيل مجموعة من "الضباط الأحرار" على غرار ما حدث في التجربة المصرية قبل 1952 استطاع بها الاستيلاء على السلطة عام 1969.

اعتاد "القذافي" أثناء دراسته الثانوية على قراءة المؤلفات الثورية الاشتراكية, وكانت شخصية الرئيس "عبد الناصر" وكتابه "فلسفة الثورة" ملهمًا أساسيًا للقذافي, وشكلت إذاعة صوت العرب المصرية رافداً أساسياً من روافد ثقافته السياسية.

إن "القذافي" الذي امتلأ ببرامج "صوت العرب" وانجذب إلى فلسفة الثورة, وأخذ شخصية "جمال عبد الناصر" كان محظوظًا.. حيث لم يبق على حالة "المُعجب" كثيراً.. إذ سرعان ما كان في قمة السلطة وهو شاب صغير وفي أدنى درجات السلم العسكرى .

* * *

إلى جانب الملازم أول "معمر القذافي" قائد الثورة تأسس مجلس قيادة الثورة الليبية ليضم الأعضاء الرئيسيين الذين قاموا بالانقلاب العسكري الذي أسقط الملكية وأقام الجمهورية.

تشكل مجلس قيادة الثورة من "11" عضواً, وقد تولى المجلس برئاسة "القذافي" السلطة في ليبيا منذ سبتمبر 1969 إلى مارس 1977 حيث تم إعلان ما أسماه "القذافي" "سلطة الشعب", فتم حلّ مجلس قيادة الثورة وإلغاء مجلس الوزراء, وأصبح العقيد "معمر القذافي" أميناً عاماً لمؤتمر الشعب العام!

تم تعيين أعضاء مجلس قيادة الثورة في الأمانة العامة لمؤتمر الشعب العام: الرائد "عبد السلام جلود" الذي كان رئيساً لمجلس الوزراء, والرائد "الخويلدي الحميدي" الذي كان وزيراً للداخلية, والرائد "أبو بكر يونس" القائد العام للقوات المسلحة, والعقيد "مصطفى الخروبي" رئيس الأركان.. أما مجلس الوزراء فقد تغيرت تسميته إلى "اللجنة الشعبية العامة".. وحل لقب الأمين بدلاً من لقب وزير.

ويذكر "زاهي المغيربي" في كتابه "المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في ليبيا" أن ذلك لم يستمر كثيراً إذ سرعان ما أعلن "القذافي" فصل "السلطة" عن "الثورة" لأن الثورة لديها مهام تاريخية أبعد من أمانة مؤتمر الشعب العام, وأبعد من أمانة أى لجنة شعبية, ولذا فقيادة الثورة يجب ألا تتولى أى منصب سياسي أو إداري, لكنها تنضم إلى قوى الثورة وتعمل معها!

استقال "القذافي" وبقية زملائه من الأمانة العامة لمؤتمر الشعب العام, وأصبح المنصب الرسمي الوحيد لـ"لقذافي" في الهيكلية الرسمية للدولة هو القائد الأعلى للقوات المسلحة.

ومنذ ذلك التاريخ نجح "القذافي" في الإنهاء الرسمي لمجلس قيادة الثورة ليصبح "القذافي" وحده هو الثورة والسلطة.

اعتمد "القذافي" في سلطته على قبضة جديدة هى "اللجان الثورية" التي تولاها حال نشأتها الرائد "عبد السلام جلود", لكنه لم يعد بذات القوة فيما بعد.

* * *

انتهى مجلس قيادة الثورة على النحو التالى:

النقيب "محمد المقريف" قتل في حادث سيارة، قيل إنه كان مدبراً عام 1972.. النقيب "عمر المحيشى" اتهم بالتخطيط والاشتراك في محاولة انقلاب 1975 وتم إعدامه عام 1983.. الرائد "عبد المنعم الهوني" في المنفى منذ 1975

تـرأس خلالهـا هيئـة التنـسيق للقـوى الديمقراطيـة والوطنيـة الليبيـة "المعارضـة" بالخـارج.. الرائـد "عـوض حمـزة" فُرضـت عليـه الإقامـة الجبريـة، بعـد اتهامـه بالاشتراك فى محاولة انقلاب 1975.. الرائد "البشير هوادي" فُرضت عليـه الإقامـة الجبريـة بالاشـتراك في محاولـة انقـلاب 1975 انـضم بعـدها لإحـدى الجماعـات الصوفية.. الرائد "محمد نجم" استقال مبكراً ولم يعـد يمـارس سـوى بعـض الأنـشطة الاجتماعية القبليّة.. الرائد "مختار القروي" استقال هو الآخر مبكرًا وانشغل بالحياة القبليّة.. العقيد "أبـو بكـر يـونس" تم خفـض رتبتـه سـنة 1986.. وجُـرد مـن كـل مناصبه.. الرائد "مصطفى الخروبي" جُرد من كل مناصبه هـو الآخـر.. الرائـد "عبـد السلام جلود" ظل الرجل الثـاني لفـترة طويلـة غـير أن موقعـه في النظـام الـسياسي لم يثبت عند هذا السقف ثم خرج تمامًا فيما بعد.

وبغياب الوجـود الرسمـي لمجلـس قيـادة الثـورة وتفكيـك نخبتـه علـى هـذا النحو.. لم يبق واحد على رأس النظام السياسي سوى العقيد "معمر القذافي" .

بعد تفكيك مجلس الثورة والقضاء على أعضائه, توزعت السلطة نظرياً بين ما سماه "القذافي".. "اللجنة الشعبية العامة" أى مجلس الوزراء, و"مؤتمر الشعب العام" أى البرلمان.

من الصعب استطلاع دور مستقل للجنـة الـشعبية العامـة، بعيـداً عـن شـخص "القذافي", وأما مؤتمر الشعب العام فهو يجتمع مرة لمدة أسـبوع كـل عـام, ولـيس لـدى أعضائه معلومات ولا مهارات, وقد تكررت المرات التي تراجع فيها المؤتمر العـام عـن قرارات اتخـذها لاختلافهـا مـع رأي "القـذافي", وفي عـام 1990 قـرر المـؤتمر خفـض الضرائب, فقال "القذافي": "إن هذه ليست قرارات الشعب الذي أعرفه جيـداً".. وكـان أن تراجع المؤتمر على الفور! والواقع أن القوة السياسية الأساسية الـتي دعمـت حكـم "القذافي" وأدارت الأوضاع في البلاد.. هى اللجان الثورية.

* * *

تعد "اللجان الثورية" هى القوة السياسية الرسمية الوحيدة في ليبيا إذ يمنع القانون تشكيل الأحزاب السياسية, ويفرض قانون تجريم الحزبية في 1972, عقوبات مشددة على ممارسة النظام الحزبي, تصل إلى حد الإعدام.

ويقول "القذافي" في الكتاب الأخضر: المجلس النيابى تمثيل خادع للشعب. والنظم النيابية حل تلفيقي لمشكلة الديمقراطية, والحزب آخر الديكتاتوريات حتى الآن.

لقد أدت هذه الآراء المعادية للأحزاب إلى غياب النظام الحزبي وإفساح الطريق للجان الثورية وحدها في الخريطة السياسية الليبية.

وبرغم أن اللجان الثورية التي تأسست بعد خطاب "القذافي" في مارس 1979, ليست لها أية سلطة أو قوة رسمية, ووظيفتها الوحيدة هى حث وتحريض الجماهير على المشاركة في اجتماعات المؤتمرات الشعبية وبقية الأنشطة الثورية إلا أنها .. حسب "زاهى المغيربي".. بحلول عام 1980 صارت من مسئوليتها التصفية الجسدية لأعداء الثورة في الداخل والخارج.. ولأجل تمكينها تم إنشاء محكمة ثورية مكونة من اللجان الثورية قانونها الوحيد هو قانون الثورة.

وفي عام 1984 تم وضع شروط صادمة للعضوية من بينها: تجنيد خمسة رجال وخمس نساء, واكتشاف خمسة عناصر مضادة للثورة وتقديم تقارير كاملة عن نشاطها, والسماح للزوجات والبنات بتلقي التدريب العسكرى العام!

وبرغم عدم وجود هيكل تنظيمي واضح للجان الثورية, وعدم وجود علاقات هيكلية وتنظيمية أفقية بين اللجان الثورية المختلفة فإن اللجان توحد في كل قطاعات المجتمع.

ويشعر الزائر لليبيا – في زمن "القذافي" – بحجم المطاردة التي تحدثها هذه العبارة المكتوبة على لافتات لا عدد لها: اللجان في كل مكان.

ويتولى "مكتب الاتصال باللجان الثورية" التنسيق بين اللجان إلا أن القيادة الفعلية والسلطة النهائية يتولاها القذافي بنفسه بصفته قائد الثورة.

وتعد اللجان الثورية بديلة للاتحاد الاشتراكى الذي شكّله القذافي عقب وصوله للسلطة على غرار الاتحاد الاشتراكى في مصر.

لقد منعت هذه اللجان بحكم قوتها المالية وحجم التأييد الرسمى لها وجهازها الإعلامى الخاص "إذاعة الوطن العربى الكبير.. صوت اللجان الثورية"، وكذلك صحيفتا "الزحف الأخضر" و"الجماهيرية"، ظهور أية قوة سياسية أخرى رسمية تنازعها المشروعية في البناء السياسي الليبي.

وتُجَدِّد اللجان وجودها بعمليات التصفية الدائمة للمعارضين السياسيين في الداخل والخارج, إذ أن إعداد التقارير والإبلاغ عن المخالفين لا يعد فحسب شرطاً للدخول ولكنه أيضًا شرط للاستمرار والترقية.. الأمر الذي يبدو فيه أعضاء هذه اللجان "جواسيس دائمين لسلطة داخل المجتمع الليبى"..!

1. القذافي مفكراً.. حالة من الكساد!

في عام 1977 .. كان "القذافي" قد اقتنع بعدم جدوى البقاء في عباءة "عبد الناصر", بعد أن اعتبر نفسه "عبد الناصر" آخر.. وكان أن أفاض بنظريته حول الكتاب الأخضر والإيديولوجيا الثالثة, ثم إعلان سلطة الشعب, ومن ثم إلغاء الجمهورية وإعلان الجماهيرية!

والجماهيرية نسبة إلى الجماهير, أى بلد الجماهير التي تحكم وتملك, ولكن الواقع لا يشير إلى أى شيء من ذلك, فقد كان عصر الجماهيرية هو عصر نهاية الجماهير!

صدرت جملة من القوانين التي تستهدف القضاء على أى دور للجماهير, من قانون حماية الثورة عام 1969 الذي يقضي بإعدام كل من يرفع السلاح في وجه الثورة, وقانون تعزيز الحرية عام 1991, ويقضي بإعدام كل من تشكل حياته خطراً على المجتمع, وقانون تحريم تجارة العملة, ويقضي بإعدام كل من ضبط وهو يغادر بالعملة خارج البلاد!

وقد استعملت السلطة بالفعل وسائل قاسية في تنفيذ هذه القوانين.. ففي عام 1984 أمر "القذاقى" بإعدام طالبين أمام زملائهما, الأول في فناء كلية الزراعة, والثاني في فناء كلية الصيدلة, وعندما نُفذ الحكم تظاهر الطلاب داخل قاعة الاجتماعات الكبرى بجامعة طرابلس احتجاجاً على إعدام الطالبين, فواجهت السلطة مظاهراتهم بالعنف الشديد.

وفي عام 1996 أطلق الأمن الليبي النار على الجمهور الذي حضر مباراة لكرة القدم بين فريقى الأهلي والاتحاد بعد أن ردد الجمهور هتافات معادية للقذافي, مما أدى ـ طبقاً للتقارير ـ إلى مقتل خمسين ليبياً وجرح خمسمائة آخرين.

حين أرادت السلطة الليبية ضبط بعض الأمور الاقتصادية، أعلن "القذافي" في عام 1996 عن عمليات التطهير، وألقى القبض على العديد من رجال الأعمال وأصحاب المحلات والعقارات والمصانع، وشكل "لجان البركان" من الشباب الثوريين لمداهمة المحلات ومصادرة البضائع, وأقام لذلك ألفاً ومائتى لجنة تطهير وإحدى وثمانين محكمة عسكرية!

وفي مرات عديدة, كانت اللجان الثورية تقوم بهدم بيوت المعارضين ومنع الناس من إيواء أصحاب هذه المنازل المهدمة.

وعادة ما تصف السلطة – رسميًا – المواطنين الذين يجري اعتقالهم بـ "الكلاب الضالة", ومما جاء في "بيان لأمانة مؤتمر سيدى حسين ـ اللجنة الشعبية العامة للعدل والأمن" : أنه في فجر يوم 25 /5/ 1415 هجرية تم تصفية الكلب الضال "المسلاتي" بشجاعة من الأجهزة الأمنية مع القوى الثورية، والثاني هو الكلب "عابد الغرياني"، والثالث هو الكلب الضال "الكرامي", وكان ذلك انتصاراً.. وإلى الأمام والكفاح الثوري مستمر"!

* * *

لم يكن اعتداء "ثورة الجماهير" قصراً على الاعتقالات ومنع الحريات, بل زاد إلى حالة التعليم والثقافة.. وكافة مناحي الحياة.

في إحدى السنوات ألغى "القذافي" الأعوام الأربعة الأولى من التعليم الابتدائي, وقرر الاكتفاء بالتعليم في المنازل. وفي سنة أخرى تم منع طلاب الجامعات الليبية من دراسة اللغتين الإنجليزية والفرنسية, وقد قام الطلاب السوريين في جامعة الفاتح بإغلاق قسمى اللغة الفرنسية والإنجليزية في الجامعة وأحرقوا بعض المراجع والكتب باللغتين، بحجة أن اللغة العربية يجب أن تكون وحدها لغة التعليم في الجامعة، وبعد ذلك بقليل تقرر تدريس اللغة الروسية في جميع المراحل الدراسية!

وفي مجال الإعلام.. أصدرت الثورة قانون الصحافة عام 1972, وتم إلغاء ترخيص عشر صحف, وقصر تراخيص إصدار الصحف على المؤمنين بمبادئ الثورة فقط . ومن بين "25" صحيفة مستقلة تصدر باللغة العربية وعشر صحف تصدر بالإنجليزية والإيطالية وعدة صحف حكومية أخرى كانت تصدر حتى عام 1972, فإنه بعد قانون الصحافة لم يعد هناك سوى أربع صحف!

سيطرت اللجان الثورية على كل شيء, وصارت الحالة الصحفية برمتها منبراً ثورياً يعيد إنتاج خطاب "القذافي" ليل نهار!

* * *

جاءت ثورة الجماهير بسياسات معادية للجماهيرية, فضلاً عن التضييق على الحريات وانتهاكات حقوق الإنسان, جرى إهدار الموارد الاقتصادية للبلاد.

ويندهش المرء من حجم الثروة الطائلة التي بددها "القذافي" في لا شيء, وكان دخل ليبيا من النفط على سبيل المثال في عام 1980 يزيد على العشرين مليار دولار. ولكن حالة المدن والطرق والبشر لا تشير إلى كون ليبيا بلداً نفطياً بأى حال, وأصبحت ليبيا تحوى حكومة نفطية وشعباً فقيراً.. أو زعيماً مالكاً وشعباً بلا نفط!

لقد أسهمت العفوية الواضحة لفكر الرئيس "القذافي" في ركود الحياة الفكرية والثقافية في ليبيا الثورة, وقد أدى عدم استقرار الرئيس على رأى واحد, وكذلك الجو القمعي السائد في ليبيا, إلى تحول الفكر السياسي الليبي عموماً إلى متفرقات من أقوال الرئيس "القذافي"!

ففي مرة يُعلن "القذافي" عدم أحقية المسلمين في البوسنة والهرسك, وبكون الكويت جزءًا من العراق, وبأن الأديب البريطاني "وليم شكسبير" هو مواطن ليبي اسمه "الشيخ زبير", ومرة يقرر نقل العاصمة من طرابلس إلى "رأس لانوف" مسقط رأسه في خليج سرت, لأنه لم يرض عن موقف سكان العاصمة الذين لم يثوروا ضد

الغارة الأمريكية التي استهدفته عام 1986!

ومرة يطلق نظرية عن "الراهبات الثوريات" تقول بأن الرجل العربي مهزوم ولا يشرف أي فتاة أن تكون زوجة له, لذا على الفتاة العربية رفض الزواج والتفرغ للرهبنة الثورية, والراهبة الثورية لا تتزوج, وهدفها استفزاز الرجال العرب الخانعين ليعودوا لسلاحهم ونضالهم.. وشعارها "لا أتزوج مهزوماً لأنجب مهزومين"!

ومرة يقول "التعليم تدجيل" و"التعليم الإلزامي تدجيل إلزامي".. و"سأحرق كل الكتب المضللة.. سأشن ثورة على المكتبات والجامعات والمناهج الدراسية وعلى أى شيء مكتوب"!

ومرة يحرق الآلات الموسيقية الغربية, وذات مرة فوجئ مشاهدو التليفزيون الليبي بصورة حذاء تعترض الشاشة عدة أيام, وعلموا أن ذلك بسبب استياء "القذافي" من عدم تحقيق الوعى الثوري لغايته!

ومرة أصدر الفريق الغنائي "فرسان القذافي" أسطوانة بعنوان "العالم الثالث.. الطريق الثالث" نسبة إلى نظرية "القذافي", وقالت صحفية إنجليزية "من الواجب نقل أعضاء الفريق إلى مستشفى أو احتجازهم بإحدى المصحات العقلية"!

ومرة يقوم بافتتاح المؤتمر التأسيسي الأول لمقاومة الاستسلام والتطبيع مع العدو الصهيونى، وقبل أن ينتهي المؤتمر يقرر طرد آلاف الفلسطينيين من ليبيا إلى لهيب الصحراء في طريق المغادرة!

ومرة يوجِّه نداء إلى جميع المنوعين من السفر ليجتمعوا أمام إدارة الجوازات للتظاهر ضد قرارات المنع، ومرة يقول للجان حقوق الإنسان الغربية ليس لدينا معتقلون سياسيون، وأنا لا أعرف من أدخل هؤلاء السجون.. ينبغى أن يخرجوا وأن يحاكم الذين أدخلوهم!

* * *

يصف المعارض الليبي "السنوسي بلالة" مجمل المشهد.. بأن "القذافي" قد عمل طيلة عهده من أجل ترسيخ فكرة أنه هو شخصياً وليس غيره مصدر الإشعاع الوحيد للفكر والثقافة في ليبيا، وسعى لإقناع الجماهير بذلك، سواء بالإرهاب الذي ألم بالمثقفين أو المبدعين، أو بالقمع الذي أحاط بالثقافة ووسائلها، مما أدى إلى تردي وبؤس الواقع الثقافي واضمحلال مستواه على الجوانب كافة.

وقد أتاح ذلك للقذافي فرص الظهور المبرمج كبديل فكري وثقافي يمكن أن يسد الرغبات الثقافية في البلاد، بعد إهالة التراب على إبداعات الأدباء الراحلين "خليفة التكبالي" و"يوسف الدلنسي" وغيرهما.. لقد توقفت مجلة "الثقافة العربية"– المجلة الثقافية الوحيدة – عن الصدور ليسطع نجم "الكاتب".. "معمر القذافي"!

والصافي من هذا.. أن الفكر السياسي بل عموم التفكير في ليبيا قد أصابه الكساد طيلة عهد الثورة الليبية، فالكتب والدراسات ومراكز البحث، والجامعات والمعاهد، والسينما والمسرح والتليفزيون، والقصة والرواية والقصيدة.. كلها دخلت في طور السكون.

وتبدو ليبيا استثنائية في هذا الأمر، دون التجارب الثورية العربية التي أنتجت مقولات وأفكاراً وشخصيات وفنوناً وآداباً.. فيها ما يوجب الاهتمام والاحترام.

2. القذافي إسلاميًا.. تكفير القذافي

إزاء حالة الإحباط التي أتى بها عصر الثورة في ليبيا, برز التيار الإسلامي المتطرف في البلاد, وبرزت بين فصائله الجماعة الإسلامية المقاتلة التي أفتت بتكفير "القذافي".

أصبحت المعارضة الديمقراطية للنظام, والتي تَبرز بين فصائلها الجبهة الوطنية لإنقاذ ليبيا التي تأسست عام 1981 برئاسة "محمد المقريف", تخشى أن يكون الأصوليون هم البديل إذا رحل "القذافي" ذات يوم.

وهكذا وقعت المعارضة الليبية للقذافي على طرفي نقيض.. وهما و"القذافي" بمثابة مثلث متساوي الأضلاع.. لا يقترب فيه ضلعان أكثر من الآخر.

* * *

فقط منذ التسعينيات تزاحمت أنباء النشاط الأصولي في ليبيا، من خلال عمليات العنف السياسي التي نُسبت إلى أصوليين في شرق البلاد.

وبشكل عام فإن ليبيا دولة إسلامية يدين أهلها بالإسلام. ولا توجد معلومات عن وجود مسيحيين في ليبيا, أما الأقلية اليهودية فقد تراجعت إلى حدّ عدم الوجود تقريبًا.

وقد قدّرت صحيفة "معاريف" الإسرائيلية في عددها الصادر بتاريخ 9 أبريل عام 1990 عدد اليهود الليبيين بثلاثة يهود فقط.

وعلى ذلك فلا تعاني ليبيا من أزمة تكامل على المستوى الديني.. إذ يسودها الإسلام كديانة شبه وحيدة, الأمر الذي يلغي احتمالات الاحتكاكات "عبر الدين"، ويحصرها بالتالى في الاحتكاك داخل الدين الواحد أو "عبر القبيلة".

* * *

شهدت رؤية "القذافي" للإسلام مرحلتين:

المرحلة الأولى: تمتد ثماني سنوات من عام 1969 وحتى إعلان سلطة الشعب عام 1977، فَمَنَع الخمر، وأغلق المحال التي تتصدرها النساء، وأصدر قانون تجريم القرض بالربا في المعاملات التجارية بين الأفراد.

ثم أصدر أول قانون جنائي إسلامي بتطبيق الحدود الشرعية، وذلك بتطبيق عقوبة الزنا وقطع يد السارق، كما صدر قانون لدعم ركن الزكاة. وتشكلت لجنة برئاسة رئيس المحكمة العليا الليبية لمراجعة التشريعات وتعديلها بما يتفق مع المبادئ الأساسية للشريعة الإسلامية.

المرحلة الثانية: تمتد بعد عام 1977 وهى مرحلة النظرية العالمية الثالثة والكتاب الأخضر.

وفي هذه المرحلة، بدأ "القذافي" يردد أن الأحاديث النبوية غير صالحة، لأن تستخدمها قواعد التشريع الإسلامي، إذ ليس هناك إلا مصدر واحد وهو القرآن الكريم.

وقد نقلت صحيفة "الأهرام" في 9 ابريل عام 1977 عن أحد القضاة في المحكمة الشرعية في بنغازى قوله: بأن هذا كفر والاعتقاد فيه شرك. واعتقل القاضي وشاعت مقولة "القذافي".

وزادت المعارضة الليبية فقالت، إن "القذافي" هو "مسيلمة الجديد" الذي ألغى السنة النبوية والتقويم الهجري واعتقل علماء المسلمين. واتهم عم النبى صلى الله عليه وسلم بالعمالة لأبرهة الحبشي!

كانت تنظيمات الإسلام السياسي تقوي من هياكلها وطرائق نشاطها، ونجحت في أن تمثل قلقاً حقيقياً لنظام "القذافي" منذ عام 1993، وفي إطار المواجهة بين الأصولية الليبية وسلطة "القذافي" تنامى نوعان متعارضان من الخطاب الرسمي تَوزَّعا

على جـانبى الـصراع.. خطـاب الإسـلام الرسمـي اللـيبي, وخطـاب الإسـلام الـسياسي الليبي!

* * *

تشكّلت خريطة الإسلام السياسي في عهد "القذافي" من عدة جماعـات.. وكانـت "الجماعة الإسلامية المقاتلة" التي صـدر بيانهـا الأول في أكتـوبر 1995 هـى الأبـرز, وإلى جوارها تردد اسم "حركـة الـشهداء الإسـلامية", وجماعـة "أنـصار الله الليبيـة", وجماعة "الجهاد الليبية" والتي تضم " 500" من الليبيين الأفغان.

تولى رئاسة "الجماعة الإسلامية المقاتلة" "أبو عبد الله الصادق", ونطق باسمهـا "أبو بكر الشريف" وشعارها مصحف في ضوء الشمس وسيفان غير متقاطعين.

ويقرر "أبو بكر الشريف" الناطق باسم الجماعة في حوار إلى صحيفة "الحيـاة اللندنية" في 21 أكتوبر 1996 أن النظام الليبي برئاسة "القذافي" نظام كافر ومرتـد.. ويجب الخروج عليه لإسقاطه وتمكين البديل الإسلامى, وتتحفظ الجماعة على المـنهج الديمقراطي, إذ إنه لا لقاء بين الإسلام والديمقراطية الغربية, فالحـاكم هـو الله ولـيس الشعب.

ويتـواتر في خطـاب الإسـلام الـسياسي الـليبي، ممـثلاً في الجماعـة الإسـلامية المقاتلة, مفردات: "الطاغوت", "الكـافر", "المرتـد", "الطائفـة المجاهـدة", "الخـروج", "التمكين ", وهى نفس المفردات التي تتردد في خطاب الأصوليات الجهادية عموماً.

* * *

في المقابل استدعى "القذافي" صيغة "إسـلام الدولـة" للمزايـدة علـى الاسـتخدام السياسي للدين من قبل الجماعات الأصولية, وصار "القذافي" يستفيض في أحاديثـه عـن المسجد الأقصى, وعن الاستضعاف الإسـلامي, وضـرورة تطبيـق الـشريعة الإسـلامية في ليبيا والبلاد الإسلامية.

وفي زيارتـه ذات الطـابع الإسـلامي للنيجـر ونيجريـا في مـايو 1997 نـادى "القذافي" في سكان النيجر, "لمـاذا تتحـدثون اللغـة الفرنـسية والنبـى "صـلى الله عليـه وسلم" والصحابة والمهاجرون والأنصار لايعرفون اللغة الفرنسية", وقال في مدينة كانو "إن الله معنا, وهم مع الطاغوت وسوف ينتصر الإسلام " وهاجم الولايات المتحدة ودعـا للالتزام بالإسلام, ووعد "القذافي" ببناء مركز إسلامي ضخم في "كـانو" يعلـم الإسـلام، ويكون نواة لمجتمع إسلامي لمواجهة الغرب.

كانت اللافتات التي تحيط بموكب "القذافي" في زيارتـه ذات الطـابع الإسـلامي هذه تحمل عبارات من نوع "درع الإسلام", "قائد القيادة الـشعبية الإسـلامية العالميـة معمر القذافي", وانتهت الزيارة بمبايعته زعيماً للصوفية العالمية!

وفي أبريل 1998 زار "القذافي" تشاد للمرة الأولى منذ نهاية التسعينيات ومما قاله فيها: "إن المسلمين غير متعصبين ولا متطرفين كالغربيين، لأن المسلمين يـسمون أبناءهم عيسى ومريم وموسى, في حين لا يوجد مسيحي أو يهودي واحد اسمـه محمـد أو أبو بكر أو علي.. ثم دعا الله: اللهم اجعلنا في نظر أمريكا إرهابيين! ".

3. القذافي مصلحًا.. إلغاء الثورة الليبية!

بعد ثلاثين عاماً من الثـورة, قـرر "القـذافي" أن يقـوم بخطـوات إصـلاحية, ثـم زادت الخطوات الإصلاحية إلى مدى يتجاوز أفكار وسياسات اليمين المتطرف في العالم العربى. أطلقت ليبيا عملية الخصخصة، وهى نقيض فكـرة الجماهيريـة الـتي قامـت عليها الثورة, واختار "القذافي" للمهمة "شكرى غانم" الذي كان مديراً لدائرة البحوث ونائباً للأمين العام لمنظمة أوبك ثم أصبح رئيساً للوزراء في ليبيا.

قام "شكرى غـانم" بـالإعلان عـن خصخـصة المـصانع, وقطـاع الـنفط والمـصارف والمطارات والشركات العامة, أى كل شيء تقريباً.. وأعلنت ليبيا عن ترحيبهـا بعـودة شركات النفط الأمريكية.

وقال "سيف الإسلام معمر القذافي" في حـوار لـصحيفة "صـنداى تـايمز": "لـن تمانع ليبيا في أن تقوم قوات بريطانية أو أمريكية بعمل تدريبات عسكرية علـى أرض ليبيا ". وأعلن الرئيس "القذافي" عن قرار ليبيا بإنهاء مشكلة لوكيربي طبقاً للمطالـب الغربية, وكذلك تسليم كل مشروعها لإنتاج أسلحة الدمار الشامل إلى الولايات المتحدة الأمريكية قائلاً: "سوف نحوِّل سيوفنا إلى مناجل".

وفي عدة مرات سلّم "القذافي" طلبات إلى "عمرو موسى" الأمين العام لجامعة الـدول العربيـة بانـسحاب بـلاده مـن عـضوية الجامعـة, وشـرح "سيف الإسـلام القـذافي" هـذه التحولات التي تسمح بوجود عسكرى أمريكى وبريطاني على الأراضي الليبية، وبتـسليم ملفات الأمن القومي الليبي إلى الولايات المتحدة، وباستقدام شركات النفط الأمريكية الـتي طردتها الثورة قبل ذلـك، بقولـه: "بمجـرد أن أكـد لـي الأمريكيـون والبريطـانيون بأنـه لاتوجد لديهم نية في تغيير نظام القذافي .. فإن كل شيء سار بسلاسة"!

* * *

الحاصل إذاً.. أن الثورة الليبية قد انتهت على غير ما بدأت، كانت "البداية" تصدير الثورة، والعداء مع الولايات المتحدة وبريطانيا، وإغلاق القاعدة العسكرية الأمريكية، واستبعاد شركات النفط الأمريكية، ثم إعلان عصر الجماهير بمصادرة الممتلكات ومنع الملكية الفردية وتأميم جميع المؤسسات.

وتجئ "النهاية" بعودة الوجود العسكري الأمريكي والبريطاني، واستدعاء شركات النفط الأمريكية، وإفساح المجال للرعايا الأمريكيين، وخصخصة كافة المؤسسات من النفط إلى المصانع!

وهنا سِمة جديدة استثنائية في الثورة الليبية.. كانت السمة الأولى أنها ثورة بلا أدبيات، فلا قصة ولا رواية ولا سينما ولا مسرح ولا كتاب ولا نجوم. والسمة الثانية أن قائد الثورة هو الذي انقلب على الثورة. فلم يأت أحد بعد "القذافي" ليعيد النفوذ الأجنبي ويبيع القطاع العام.. بل جاء ذلك بقرارات الثائر نفسه الذي بذل ثلث قرن في عكس ما انتهى إليه!

وعبر هذه الرحلة الطويلة فقدت ليبيا ما لا يحصى من مليارات الدولارات، وفقدت الكثير من موقعها كدولة جادة في الزمن المعاصر .

* * *

كانت ليبيا قد شهدت أول جمهورية عربية عام 1918 باسم الجمهورية الطرابلسية، حسبما جاء في كتاب المؤرخ الليبى الشيخ "الطاهر الزاوى".. "جهاد الأبطال في طرابلس الغرب" وهى الجمهورية التي أسست مجلساً جمهورياً ومجلساً للشورى.. ولكنها لم تكمل المسير.

ثم جاءت المملكة الليبية في عهد الملك "إدريس السنوسي" لتخطو على طرق التطور السياسي والاقتصادى، وعلى الرغم من أنها كانت مملكة فقيرة، خارجة للتو من استعمار شديد الغلظة، فإنها كانت أول مملكة اتحادية حديثة في منطقة

إقامتها.. حيث اجتمعت الولايات الثلاث الكبرى للمرة الأولى في دولة مستقلة واحدة.

وضعت المملكة الليبية دستوراً وشكلت حكومة اتحادية، وحظيت باحترام دولى، وهى على الرغم من قبولها الضغوط الغربية، غير أنها سعت لتطوير قوتها العسكرية والاقتصادية.

ويذكر "محمد عثمان الصيد" رئيس الحكومة الليبية الأسبق في كتابه "محطات في تاريخ ليبيا" أن الرئيس الأمريكى "جون كينيدي" قد وافق أثناء لقائه الوفد الليبي في الأمم المتحدة بحضور ولى العهد الليبي الأمير "الحسن الرضا السنوسي" على إنهاء الاتفاقية العسكرية بين ليبيا والولايات المتحدة في الموعد المحدد عام 1972، وافق "كينيدى" على إنشاء السلاح الجوى الليبي بناء على طلب الأمير "السنوسي"، وأن يبدأ ذلك بأسطول من خمس طائرات.

لكن موجة الثورات العربية واتساع النفوذ الكاسح لـ"عبد الناصر", قد ألهم عددًا من الضباط بتسريع الإنجازات, ونجح الضباط في الانقلاب على النظام الملكي، وبدأت الدراما الثورية بمحنتها فلا دستور ولا حكومة ولا جيش ولا دولة.. وعادت الثورة بعد ثلث قرن تبتلع كل ما قالت وفعلت .. وكأن شيئاً لم يكن!

ويصف الصحفي الليبى "أسعد العقيلى" في مقالة له بعنوان "ليبيا وما بعد السريالية" ما جرى.. بأنه تتدهور في الحركة وفي الاتجاه.. "من زحف للأمام إلى انبطاح للخلف.. ومن تحريض إلى ترويض, ومن وعود بتقسيم عائدات النفط إلى طوابير المتسولين أمام الجمعيات التعاونية, ومن مساندة سوريا إلى الوشاية بها, ومن حمل لواء القيادة الإسلامية العالمية، إلى توريط البروفسيور عبد القدير خان ورفاقه أصحاب القنبلة النووية الباكستانية "!

ليس مدهشاً ـ والحال كذلك ـ أن يقرر "محمد المقريف" أمين عام الجبهة الوطنية لإنقاذ ليبيا "المعارضة" في زمن القذافي أن "العهد الملكي كان يتيح للإنسان الليبي فرصة الإبداع والتعبير عن ذاته ووجوده وتحقيق طموحاته وأمنياته، ولم يكن هناك تعسف أو قمع او استبداد أو خيارات فكرية أو إيديولوجية أو سياسية معينة وملزمة.

كنا في العصر الملكى نطالب بالتغيير، ولو كنّا نعرف أن ذلك سيحدث لنا كنا سنعض على النظام الملكى بالنواجذ، وبالنسبة لي شخصياً كنت على استعداد للموت من أجل الحيلولة دون وقوع مثل هذا التغيير الذي سعيت له وشاركت فيه.

الذي يصاب بالجزام لا يستطيع أن يقول أنه كان ذات يوم يشكو من الأنفلونزا. نحن في ظل القذافي كمن أصابه الجزام فلا نستطيع أن نشكو أننا كنا نعاني من الأنفلونزا في العهد الملكى!"

* * *

يروي "محمد حسنين هيكل" في "المقالات اليابانية" أن وفداً ليبياً أمره "القذافي" بشراء قنبلة نووية من الصين بعد قيام الثورة الليبية عام 1969، وقد طلب الوفد أثناء مروره بالقاهرة لقاء الرئيس "عبد الناصر" ليطلعه على الموقف.. فضحك "عبد الناصر" وقال: "هيَّ القنبلة النووية في السوبر ماركت؟!" .

وبعد ثلث قرن.. قرر "القذافي" طواعية أن يُسَلِّم محاولاته من أجل الحصول على القنبلة النووية.. لقد استدارت الثورة الليبية دورة كاملة، واستدارت معها الجماهير التي تهتف ذات يوم من أجل أهداف أخرى، ليس دقيقاً وصف صحيفة "الزحف الأخضر" بأنه تحول من الثورة إلى الدولة.. بل من الفوضى إلى ما بعد الفوضى.. إلى أن كانت الثورة الليبية عام 2011 على الثورة الليبية عام 1969.. الثورة على الثورة!

4. القذافي قتيلاً.. دماء قبل الستار

كان "القذافي" يعتبر نفسه "ثورة تمشي على الأرض".. ولم يدُر بخُلده يوماً أن تكون نهايته على يد ثورة ومقتله على أيدي ثوار.

تمثل حقبة "القذافي" في عقودها الأربعة مأساة إغريقية كاملة.. مأساة للشعب الليبي طيلة "42" عاماً ثم مأساة له ولأسرته طيلة "249" يوماً هى مدة الثورة الليبية.

امتدت الثورة الليبية ضد نظام "القذافي" من يوم 17 فبراير وحتى يوم 23 أكتوبر عام 2011.. وهى عند البعض "ثورة"، وعند البعض "حرب أهلية".. وعند آخرين "ثورة مسلحة".. وهى عند قطاع آخر "مؤامرة خارجية".

انطلقت "الثورة الليبية 2011" على أثر اعتقال محامي ضحايا أحد السجون في بنغازي.. خرج الأهالي للاحتجاج.. ثم سرعان ما طالبوا بإسقاط النظام. بدأت هذه الاحتجاجات في 15 فبراير 2011 وسقط أول الشهداء في "البيضاء" يوم 16 فبراير.. فقام المتظاهرون في "الزنتان" غرب ليبيا بحرق مقر اللجان الثورية ومركز الشرطة. ثم جاء يوم الخميس 17 فبراير على شكل انتفاضة شعبية كانت البداية الحقيقية للثورة الليبية.

في اليوم الرابع كانت أولى المفاجآت التي أعطت الثورة جديتها وقوتها.. وذلك بإعلان وزير العدل "مصطفى عبدالجليل" استقالته.. ثم استقالة وزير الهجرة "علي الريشي"، وبعدها استقالة عدد من السفراء الليبيين البارزين: مندوب ليبيا في الأمم المتحدة ومندوبها في الجامعة العربية وسفراء ليبيا في بريطانيا والصين والهند وأندونيسيا وبنجلاديش وبولندا.

لم يتصور "القذافي" أن تمضي الأمور على هذا النحو من السرعة التي تشبه تجربة "زين العابدين بن على" في تونس.. ذلك أنه سرعان – وبعد أقل من أسبوع على بداية الثورة– ما سَرَت شائعات بأن "القذافي" قد هرب إلى فنزويلا.

لقد توالت الاستقالات على مدى شهور الثورة.. وكانت أبرز الاستقالات هى استقالة وزير الداخلية اللواء "عبدالفتاح يونس العبيدي" في فبراير 2011، ثم وزير الخارجية "موسى كوسا" في مارس 2011 ، ثم وزير النفط "شكري غانم" في يونيو 2011.

كانت هذه الاستقالات متواكبة مع التطورات الأساسية في مسار الأحداث.. حيث قرر مجلس الأمن العقوبات على ليبيا.. وأنشأ منطقة حظر جوي فوقها.. وتأسس المجلس الوطني الانتقالي برئاسة وزير العدل "مصطفى عبدالجليل" وافتتح الاتحاد الأوروبي مكتباً له في بنغازي تحت سيطرة المجلس الوطني الانتقالي.. ثم أعلنت "هيلاري كلينتون" أن أيام "القذافي" معدودة وأنه ينبغي الحديث عن "ما بعد القذافي".. إلى أن كان سقوط العاصمة.

وعبْر هذه الأحداث قتل الثوار "سيف العرب القذافي" وقتل أنصار "القذافي" اللواء "عبدالفتاح يونس" قائد قوات الثوار.. وكان ختام المشهد مقتل "معمر القذافي" واعتقال ابنه "سيف الإسلام".

ابتهج العالم لرحيل "القذافي" ونهاية نظامه.. ورغم امتعاض الكثيرين من مشهد القتل الدامي للقذافي، والذي خَلاَ من القيم الإسلامية والإنسانية.. فإن الكثيرين لم يلتفتوا كثيراً إلى ذلك مع تذكرِّهم لعصر لاإنساني سرق الأعمار والأحلام.

يصف الأديب الليبي "أحمد إبراهيم الفقيه" عصر "القذافي" بأنه عصر الكراهية لكل شيء واللا معنى في كل شئ.. يقول في كتابه "القذافي من البداية إلى النهاية": إن أهل بنغازي – مثل أهل طرابلس – يقولون: القذافي يكره مدينتنا..

وطرقها ومرافقها كما هى منذ أربعين سنة.. إنه تحت خرافة "اكره المدينة.. وأحب الخيمة" سحق المدن.. وأفقدها كل شئ.

كان "القذافي" – برأى "الفقيه" – يكره كل شئ.. السينما والمسرح والكتب والمكتبات.. الأدب والآثار.. وكان يصف كل هذه المنتجات الحضارية بأنها بقايا الإمبريالية ومخلفات الاستعمار!

لقد أفقد "القذافي" الأشياء معانيها.. بل أفقد الحياة المنطق والجدوى.. وأصبح الشعب الليبي كأنه يعيش ولا يعيش في آن واحد!

ويصف الأديب "الفقيه" في روايته "نفق تضيئُه إمرأة واحدة" ما فعله "القذافي" وعصره بشأن مدينة طرابلس العاصمة: "أصبحت طرابلس مدينة حائرة.. لم تعد قرية ولم تصبح مدينة، لا هى شرقية ولا غربية، لا تعيش في الماضي أو في الحاضر.. مدينة معلَّقة بين البحر والصحراء.. تعيش مأزقها الحضاري منذ تخلت عن طبيعتها القروية وفشلت في اكتساب طبيعة جديدة.. إن طرابلس هى العاصمة التي كانت عاصمة ولا عاصمة".

* * *

إن عصر القذافي بكامله أشبه بذلك الوصف الروائي الرصين.. كانت ليبيا بلد الثورة واللاثورة.. الدولة واللادولة.. الحياة واللاحياة.

5. ما بعد القذافي.. الإسلام السياسي

لم يكن "القذافي" يعتبر نفسه "ثورة تمشي على الأرض" فحسب.. بل كان يعتبر نفسه أيضاً "إسلاماً يمشي على الأرض".. كان يُفتي في الفقه والعبادات.. وفي علوم القرآن وعلم الحديث.. ثم امتدت أهدافه من "الدعوة المحلية" إلى "الدعوة العالمية".

بدأ "القذافي" عهده بإعلان تطبيق الشريعة الإسلامية.. وقبل نهاية عهده كان يهاجم المسيحية ويتهم المسيحيين بأنهم الذين أضلّوا المسلمين عن سواء السبيل.. وأعلن حملة من أجل "أسلمة أفريقيا".. ورفع شعار "أفريقيا خالية من المسيحية"!

دمج "القذافي" بين الدين والسياسة في حربه ضد المسيحية.. فقال إن المسيحية مرتبطة بالاستعمار ونهايتها في أفريقيا نهاية للاستعمار.

وخلال هذه المرحلة من "تطبيق الشريعة" إلى "إخلاء أفريقيا من المسيحية" أسس "القذافي" في بدايات عهده "صندوق الجهاد" وأسس في نهايات عهده "جمعية الدعوة الإسلامية العالمية"!

* * *

لم يكن "القذافي" يتخيل أن هناك "ثائراً" غيره.. فضلاً عن أن يجد "ثائراً" ضده، ولم يكن يتخيل أيضاً أن هناك "إسلامياً" غيره.. فضلاً عن أن يجد إسلامياً ضده. وهنا كان صدام وحوار "القذافي" والإخوان.

تأسست جماعة الإخوان المسلمين في ليبيا كامتداد للحركة الأم في مصر.. وهي جماعة محدودة قليلة العدد.. ولكن تقديمها لنفسها كبديل للنظام جعل منها مصدر قلق كبير لنظام "القذافي".

قام "القذافي" بحظر نشاط "الإخوان" في ليبيا منتصف الثمانينات.. وهاجم الجماعة بقوله: "لماذا يؤسسون جماعة إسلامية في بلد إسلامي.. لماذا لا يفتتحون فروعاً لهم في البلدان غير المسلمة.. إنهم إذا فعلوا ذلك سوف أدعمهم وأقوم بتمويلهم ومساعدتهم.. ولكن لا يعملون خارج بلاد الإسلام.. بل داخلها.. لذلك سأقوم بمنعهم".

لكن ذلك لم يستمر كموقف ثابت للقذافي.. ففي منتصف التسعينيات وبعد عشر سنوات تقريباً على حظر نشاط الإخوان بدأ "سيف الإسلام القذافي" حواراً معهم.. وجلس الإخوان مع "القذافي" الابن في جلسات تفاوض ممتدة خارج ليبيا على أساس عودة رموزهم، والسماح لهم بنشاط جزئي مقابل دعم النظام.

اعترضت أجهزة الأمن الليبية ورجال "القذافي" من "الحرس القديم" على مفاوضات "سيف – الإخوان" ورأوا أن أى وجود للإخوان سيؤدي إلى إضعاف النظام.

* * *

لم تكن جماعة الإخوان هى الأكثر ظهوراً في خريطة الإسلام السياسي الليبي في السنوات الأخيرة قبل ثورة فبراير.. بل كانت "الجماعة الإسلامية الليبية المقاتلة" وهى ضمن منظومة "القاعدة" وعملت على إسقاط "القذافي" بقوة السلاح.

وحين انطلقت ثورة يونيو عملت فصائل إسلامية عدة إلى جانب الثوار في إسقاط النظام.. وشارك الإخوان في المجلس الانتقالي.. من خلال أستاذ الاقتصاد في جامعة بنغازي "عبدالله شامية".

وأما "الجماعة المقاتلة" فقد ظهر بديل أقل عنفاً لها باسم "الحركة الإسلامية للتغيير" وقد بقى من رموز "المقاتلة" ضمن رموز "الإسلامية للتغيير".. "أنيس الشريف" الذي يقيم في لندن.

وقد خرج رموز الجماعة من سجون "القذافي" قبل عام واحد من الثورة بعد أن أعلنوا أنهم راجعوا أنفسهم وصاروا معتدلين. وقد انضمت الجماعة إلى المجلس الانتقالي من خلال ممثل مدينة درنة من الجماعة المقاتلة "عبدالحكيم الحصاوي".

تشير دراسات في شأن الإسلام السياسي الليبي إلى حركات أخرى.. كـ"الحركة الصوفية السنوسية" والتي تمتلك شرعية تاريخية لنضالها ضد الاستعمار الإيطالي ولكوْن شيخ المجاهدين "عمر المختار" كان عضواً فيها.. كما أن أول ملك للبلاد بعد الاستقلال الملك "إدريس الأول" هو حفيد مؤسس الحركة السنوسية.

كما تشير الدراسات إلى ما يسمى بـ"التجمع الإسلامي" الذي تأسس في جنيف عام 1992 بقيادة "عبدالوهاب الهلالي".. وهو التجمع الذي تفرّق بعد ثورة فبراير على الإخوان والسلفيين.

* * *

يترأس الإخوان المسلمين في ليبيا المراقب العام للجماعة "بشير الكبتي".. وتمتلك الجماعة صحفاً ومواقع ومنظمات حقوقية.

لم يكن الإخوان حين قامت الثورة عدداً كبيراً.. ولاتزال أعدادهم أقل كثيراً من النفوذ السياسي للجماعة.. وتقرر بعض مراكز البحوث عدد الإخوان المسلمين في ليبيا حين اندلعت ثورة 17 فبراير بنحو "1000" شخص فقط في كل ليبيا ونحو "200" شخص خارج ليبيا ليصل إجمالي عدد "الإخوان الليبيين" في الداخل والخارج إلى ألف ومائتي عضو.

ولكن العدد تضاعف بعد الثورة.. وحسب زعيم حزب العدالة والبناء "الجناح السياسي للإخوان" "محمد صوّان" فإن جماعة الإخوان باتت تضم عشرة آلاف عضو.. أى أنها كسبت تسعة آلاف عضو من عام 2011 إلى عام 2013.

وإذا كان الإخوان في ليبيا في وضعٍ "ضعيف" فإن التيارات المدنية ليست بـالقوة الكافية.. وربما يكون المشهد السياسي اللـيبي عقـب القـذافي خاضـعًا لمعادلـة " تـوازن الضعف" أكثر من معادلة "توازن القوى" .

لقد فشل القذافي في "المشروع الإسـلامي" بمثـل مـا فـشل في "المـشروع الـوطني" و"المشروع العربي".. ذلك أنه لم يكن مؤهلاً لأن يكون مواطنًا فإذا به رئيسًا وزعيمًا!

* * *

6. خريف الثورة.. السلاح والسياسة

كان الليبيون يتطلعون إلى "ما بعد القذافي" بكل الأمل نحو حياة رغدة لشعب ثري.. ولكن "السلاح" بات يقتل الأمل كل يوم.

إن عدداً من الميليشيات المسلحة وكتائب الثوار التي عملت ضد "القذافي" لم تُلقِ السلاح وباتت تستخدمه في السياسة.. تحول بعضهم من "مناضلين" إلى "مجرمين" ومن نداء "الحرية" إلى نداء "الكلاشينكوف".

أصبح السلاح الليبي الذي خرج من مخازن "القذافي" أو دخل من خلال حلف الناتو.. في كل مكان.. وأصبحت الميليشيات اللاعب السياسي الأهم في البلاد.. وتوالت حوادث قطع امدادات النفط.. بل وقطع خطوط الانترنت.. ومعها حوادث الخطف والقتل والتعذيب.. حتى لقد تم خطف رئيس الوزراء "على زيدان" لعدة ساعات.. وقال رئيس الحكومة إن المختطفين الذين سرقوا نقوده وملابسه وهاتفه المحمول ووثائق مهمة، كانوا جزءاً من محاولة خصوم في البرلمان للانقلاب عليه!

وهو ما دعا أحد المواطنين الليبيين للقول لوسائل الإعلام: "إذا لم يستطع رئيس الوزراء حماية نفسه.. كيف يحمي البلاد؟.. وإذا كان رئيس المؤتمر الوطني والوزراء في الحكومة يقولون إنهم لا يحكمون البلاد.. فمن الذي يحكم؟"!

وحسب تقرير لهيئة الإذاعة البريطانية "بي بي سي" فإن شارع الرشيد وسط العاصمة طرابلس يلخص المشهد الأمني المنهار.. سوق المسدسات "روسي وبلجيكي" في سوق شعبية.. هناك باعة جائلون للسلاح.. وهناك مواطنون "يركنون" الدبابات في "جراج" منازلهم!

وفي حفلات الزواج تستطيع أن تستأجر مدفعاً مضاداً للطائرات يُحمل على

ظهر سيارة دفع رباعي مقابل "40" دولارًا أمريكيًا في اليوم.. وذلك للتجوال بالسيارة في الشارع المحيط بحفل الزفاف لتحية العروسين!

تقول منظمة العفو الدولية: إن الميليشيات المسلحة باتت تهدد الأمن والاستقرار في أجزاء واسعة من ليبيا.. وأعلنت الأمم المتحدة أن هناك الآلاف من أنصار القذافي محتجزين لدى الجماعات المسلحة.. وحسب مسئولة في منظمة العفو فإن هناك حالات إعدام عديدة تتم خارج القضاء ودون محاكمة.

إن حالات الانتقام والأخذ بالثأر قد تجاوزت العمليات الفردية إلى العمليات الجماعية.. فلم تعد مقتصرة على خطف أو قتل الأفراد.. بل الانتقام من مدن وقرى ومناطق بأكملها. وتذكر منظمة "هيومان رايتس ووتش" أن مدينة تاورغاء البالغ عدد سكانها "42" ألف نسمة وكانت تحظى باهتمام القذافي.. أصبحت مسرحاً للقتال في عام 2011، وانضم بعض شبابها إلى القذافي.. ويقول أهل مصراتة أن أهالي تاورغاء ارتكبوا أعمالاً صعبة في مصراتة وقت الحرب ويجب الأخذ بالثأر منهم.

وقد بدأت الجماعات المسلحة التي تنتمي إلى مصراتة بالفعل في أخذ الثأر، حيث أجبرت جميع سكان تاورغاء على الخروج من بلدتهم.. ومع خروجهم وتشردهم في أرجاء ليبيا يجري اصطيادهم واحتجازهم وتعذيبهم وقتلهم. وتعلّق المنظمة: "إن أهالي مصراتة يطالبون بالعدالة.. وهذا واجب.. لكن العدالة ليست في العقاب الجماعي.. لمدينة بكاملها، بسبب جرائم بعض أفرادها".

* * *

كان تنظيم القاعدة حاضراً في كثير مما يجري في ليبيا بعد ثورة فبراير.. ويشير باحثون إلى بقايا "الجماعة المقاتلة" وإلى "كتائب أنصار الشريعة" وإلى "كتائب السجين عمر عبدالرحمن" كصور متعددة للتنظيم العالمي الذي لايزال يُلهم أتباعه من أفغانستان.. لاسيما وأن عددًا كبيرًا من الليبيين يحتل مراكز قيادية في تنظيم القاعدة العالمي.

يشير "هارون زيلين" في دراسته "التيار الإسلامي في ليبيا" والتي نشرها معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى إلى أن عناصر ليبية قد تولّت مواقع بارزة في تنظيم القاعدة.. مثل:

1. "ابن الشيخ الليبي".. المسئول عن معسكر للتدريب العسكري في أفغانستان. تم القبض عليه في نوفمبر عام 2001، وقام بتقديم شهادة كاذبة لإدارة "جورج بوش" تؤكد علاقة "صدام حسين" مع تنظيم القاعدة.

2. "أبو فرج الليبي".. بعد القبض على "خالد شيخ محمد" الرجل الثالث في تنظيم القاعدة عام 2005.. أصبح "أبو فرج الليبي" هو الرجل الثالث في التنظيم.

3. "أبو أنس الليبي".. مؤسس تنظيم القاعدة في ليبيا، وكان متورطاً في تفجير السفارة الأمريكية في كينيا وتنزانيا عام 1998.. حيث قتل أكثر من "200" شخص وأصيب أكثر من "4000" آخرين.

4. "الشيخ عطية الله الليبي".. كان منظّرا مهماً.. كان الذراع اليمنى لـ"أسامة بن لادن" قبل وفاته.. ويعتبره الكثيرون نائب زعيم القاعدة.. وقد قُتل في أغسطس 2011 بواسطة طائرة بدون طيار.

5. "أبو الليث الليبي".. كان قائدًا عسكريًا بارزًا في أفغانستان.. قُتل عام 2008.

6. "أبو يحيى الليبي" كان نائباً لـ"أيمن الظواهري".. وفي يونيو 2012 قُتل في غارة لطائرة بدون طيار.

7. "عبدالله سعيد الليبي".. كان قيادياً في القاعدة وقد تمركز نشاطه على الحدود الأفغانية – الباكستانية.. حتى قُتل بواسطة طائرة بدون طيار.

* * *

وهكذا أصبحت ثورة فبراير أمام تحديات الميليشيات المسلحة من ناحية وتنظيم القاعدة من ناحية أخرى.. وإزاء ضعف الوضع العام الذي تركه "القذافي" كان البعض يتطلع إلى تقسيم البلاد.

بدأت دعاوى الانفصال تتكرر على أسماع الليبيين.. مرة باسم الانفصال التام.. وتارة باسم الانفصال والبقاء في دولة فيدرالية.. وتارة ثالثة باسم الانفصال والاستمرار في دولة كونفيدرالية.

وأصبح الحديث عن ثلاثة أقاليم منفصلة في دولة اتحادية موضع تكرار من قوى سياسية ومجتمعية متباينة.. بدأت من إقليم فزان ثم برقة. وفي أكتوبر 2013 أعلن دعاة الفيدرالية في شرق ليبيا تشكيل حكومة لتسيير شئون الإقليم الذي يضم "أجدابيا وبنغازي والجبل الأخضر وطبرق".. وأعلن رئيس المكتب التنفيذي لإقليم برقة تشكيل حكومة للإقليم من "24" وزيرًا مع ترك منصبى وزير الدفاع والداخلية للحكومة الفيدرالية في العاصمة.. كما أعلن تأسيس "قوة دفاع برقة" لضبط الأمن في الإقليم.

وقد استند دعاة الفيدرالية في ليبيا إلى دستور الاستقلال عام 1951 حيث كانت أقاليم ليبيا الثلاثة "برقة شرقاً وطرابلس غرباً وفزان جنوباً" تشكّل معاً المملكة الليبية.

* * *

ينظر الكثيرون بعين القلق إزاء دعاوى الفيدرالية التي ستكون – برأيهم – تمهيداً للاستقلال التام.. حيث تكون البداية ثلاثة أقاليم لتكون النهاية ثلاث دول.

* * *

الحادث إذن.. أن الثورة الليبية 2011 قد تعثرت بعد قليل من انطلاقها.. وبدأت الثورة تأكل أبناءها وأفكارها.

فمن الوحدة إلى دعاوى التقسيم، ومن الحرية إلى السلاح.. ومن الثوار إلى الميليشيات.. ولقد كان اغتيال "مبارك الفيتوري" الذي وُجد مذبوحاً داخل سيارته في بنغازي يوم 17 أكتوبر 2013.. حادثاً ملخِّصاً لمحنة الثورة في ليبيا.. فحسب تعبير رئيس المجلس الانتقالي السابق "مصطفى عبدالجليل" فإن "الشهيد كان مشرفاً على عملية لم تنجح لاغتيال القذافي في أغسطس 2011.. وفي المجمل فإنه كان صندوق أسرار الثورة".

* * *

انتهى صاحب صندوق أسرار الثورة داخل نصف متر في سيارته.. وبعد رحيله كان المشهد لايزال مؤلماً ومخيفاً.. وفي عدد 3 سبتمبر 2013 وصفت صحيفة "الاندبندنت" البريطانية المشهد المحيط في ليبيا بعد ثلاثين شهراً من الثورة، بقولها: "لقد سقطت ليبيا دون أن يلحظ أحد في أسوأ أزمة سياسية واقتصادية منذ هزيمة القذافي قبل عامين.. فسلطة الحكومة تتلاشى في كل أجزاء ليبيا.. وهبط إنتاج النفط الليبي العالي الجودة والمرغوب فيه بشدة.. من "1.4" مليون برميل في اليوم في بداية 2013 إلى "160" ألف برميل في الوقت الحاضر.. وهذا يقود للتشكك في مزاعم الساسة الأمريكان والبريطانيين والفرنسيين بأن العمل العسكري الذي قام به الناتو في ليبيا عام 2011 كان نموذجاً مثالياً للتدخل العسكري الأجنبي الناجح".

ويعلق الكاتب الأمريكي "توماس فريدمان" على تقرير "الاندبندنت" بقوله: إن الخطأ كان أننا ضربنا من الجو فقط.. وقلنا أن الأحذية الثقيلة للمشاة لن تنزل الميدان.

إن "فريدمان" يدعو – تقريباً – إلى الغزو البري الأمريكي لليبيا تحت دعوى أن الاكتفاء بالضربات الجوية وعدم الوجود الميداني في الأراضي الليبية كان وراء الفوضى والسلاح وتراجع إنتاج النفط.

وعلى نفس الخط تقريباً.. وبعد أن عرضت منظمة "هيومان رايتس ووتش" مشكلات القتل والتعذيب.. والعقاب الجماعي للمدن والقرى.. طالبت المنظمة بتدخل الأمم المتحدة في ليبيا من أجل حماية المدنيين.

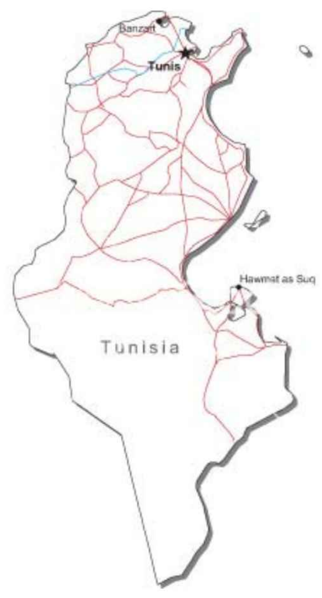
وهكذا يمضي "فريدمان" و"هيومان رايتس ووتش" ليس إلى دعم أمن واستقلال ليبيا.. بل إلى غزو بري يعوض القصف الجوي.

يقولون إن رغبة الوجود في ليبيا من أجل ليبيا.. لكن الحقيقة الواضحة: الوجود في ليبيا من أجل واشنطن!

* * *

إن "الأمل" لم يغادر الأراضي الليبية بعد.. فالشعب الليبي بات مدركًا لمخاطر الداخل وأهداف الخارج.. والقوى السياسية والطبقة المثقفة تنمو وتتطور على نحو يثير الإعجاب. وسوف تعاني ليبيا "محنة الحاضر" لبعض الوقت.. لكنها لن تستغرق الوقت الطويل حتى تصبح دولة حديثة وصاعدة.

الفصل السابع



تونس.. ربيع قصير جدًّا

تونس بلادٌ خلاّبة يسكنها شعبٌ متحضر..

زرت تونس في عهد "زين العابدين بن على" عدة مرات.. وكتبت وقتها مقالاً في صحيفة "الأهرام" بعنوان "تونس.. الاقتصاد بديلاً عن السياسة".. وكان تقديري وقتها أن فلسفة السلطة في تونس قد تحولت من معادلة "سياسة بلا اقتصاد" في نهايات حكم "الحبيب بورقيبة" إلى معادلة جديدة هى "اقتصاد بلا سياسة" في عهد "زين العابدين بن على".

ولقد فاجَأت تونس العالم بإطلاقها موجة الربيع العربي وسط تفاؤل كبير بشأن مستقبل السياسة والاقتصاد.. لكن مرور ثلاث سنوات على الثورة جاء بأجواء مغايرة.

ففي الذكرى الثانية للثورة.. قال السكان في ولاية سيدي بوزيد مهد الثورات العربية: لقد أصبحنا أسوأ كثيراً.. وقاموا بطرد القادة السياسيين للبلاد: الرئيس ورئيس الوزراء ورئيس البرلمان.. من ساحة الاحتفال.

وأما في الذكرى الثالثة للثورة فقد امتنع القادة السياسيون عن حضور الاحتفال الرسمي في سيدي بوزيد.. خوفاً من الطرد في الذكرى الثالثة كما جرى طردهم في الذكرى الثانية.

وتحدث شباب من حركة "تمرّد" التونسية ومن حركات ثورية عديدة إلى وسائل الإعلام.. وكانت خلاصة آرائهم أن تونس قد انتقلت إلى المعادلة الثالثة "لا سياسة ولا اقتصاد"!

* * *

تمتد تونس على مساحة تزيد على المائة وستين ألف كيلومتر مربع، ويزيد عدد سكانها على العشرة ملايين نسمة.

شهدت تونس فصولاً مجيدة من التاريخ الطويل.. وفي العصر الحديث وقعت البلاد تحت الاحتلال الفرنسي عام 1881 واستقلت عام 1956.. وفي 25 يوليو 1957 تم إعلان الجمهورية برئاسة "الحبيب بورقيبة".

مكث الرئيس "بورقيبة" في الحكم ثلاثين عاماً كاملة "1957 – 1987" .. وفي السابع من نوفمبر عام 1987 نجح "إنقلاب قصر" قام به رئيس الوزراء "زين العابدين بن على" في الإطاحة بالرئيس "بورقيبة".. وأصبح "بن على" رئيساً للبلاد.

مكث "زين العابدين بن على" – بدوره – مدة طويلة.. وبعد قرابة ربع القرن خرج الشعب التونسي بأشهر شعارين لثورات الربيع العربي "ارحل" و"الشعب يريد إسقاط النظام".

* * *

اندلعت شرارة الثورة التونسية في 17 ديسمبر عام 2010 تضامناً مع الشاب "محمد البوعزيزي" الذي أحرق نفسه في ولاية سيدي بوزيد بعد أن صادرت الشرطية "فادية حمدي" عربته التي يبيع عليها الخضروات.

توالت أحداث الثورة التونسية سريعاً.. ففي 17 ديسمبر 2010 كان حادث "البوعزيزي".. وفي 18 ديسمبر بدأت المواجهات في ولاية سيدي بوزيد.. وفي 21 ديسمبر توسعت الاحتجاجات وفي 25 ديسمبر انضم النقابيون إلى المظاهرات. وفي 27 ديسمبر امتدت الاحتجاجات إلى المحافظات.

ألقى الرئيس "زين العابدين بن على" ثلاثة خطابات متقاربة.. في 28 ديسمبر 2010 كان خطاب "بن على" الأول وفيه حذّر من خطورة المأجورين الذين يخربون الاقتصاد التونسي، وفي 10 يناير 2011 كان خطاب "بن على" الثاني وكان أكثر مرونة من خطابه الأول، وفي 13 يناير 2011 كان خطابه الثالث والأخير.. وقد احتوى على تنازلات كبيرة.

في تلك الأثناء.. كان "بن على" قد أقال وزير الداخلية وقام بتعديل وزاري.. لكن المتظاهرين لم يروا أن ذلك كان كافياً.. وأعلنوا أنه لا بديل عن إسقاط النظام.. وهددوا بالزحف إلى قصر الرئاسة في قرطاج.. وهو ما دفع "بن على" للمغادرة.. حيث أصبح لاجئاً في المملكة العربية السعودية.

حاول "زين العابدين" في البداية أن يجعل خروجه مؤقتاً.. وأنه في سبيله للعودة إلى البلاد بعد قليل، وأعلن رئيس الوزراء "محمد الغنوشي" أنه تولى رئاسة الجمهورية مؤقتاً لعدم قدرة الرئيس على ممارسة مهام منصبه.

كان ذلك التوصيف الدستوري يعني أنه في حال عودة الرئيس "بن على" يمكنه على الفور تولي مهام المنصب بعد زوال العارض المؤقت.. وهو ما دفع المجلس الدستوري للإعلان أن منصب الرئيس أصبح شاغراً.. وعليه تولى رئيس مجلس النواب "فؤاد المبزع" منصب الرئيس المؤقت للبلاد.

سقط "زين العابدين بن على" في 14 يناير وتولى رئيس البرلمان السلطة في 15 يناير.. ثم تطور النظام الجديد إلى ما يسمى بـ"الترويكا" أو الرئاسات الثلاث: رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة ورئيس البرلمان.. وقد جاء رئيس الجمهورية ورئيس البرلمان من أحزاب مدنية وجاء رئيس الحكومة من حزب الإخوان المسلمين "حركة النهضة التونسية".

* * *

جاءت حركة النهضة في انتخابات 2011 في المركز الأول في كل دوائر تونس داخلياً وخارجياً فيما عدا دائرة "سيدي بوزيد" مهد الربيع العربي!

وأصبح الشيخ "راشد الغنوشي" الاسم السياسي الأكبر في تونس.. وارتبطت باسمه خريطة ما بعد الثورة.

حظى الشيخ "راشد الغنوشي" في السابق بتقدير واسع في أوساط الإسلاميين، كما أنه حظى بتقدير يفوق نظراءه لدى التيارات المدنية العربية. وحظيت الاجتهادات الفكرية.. الفقهية والسياسية للشيخ "راشد الغنوشي" باهتمام كبير.. وجرى النظر له باستمرار باعتباره أحد دعاة الوسطية.. لكن صورة الشيخ تغيرت كثيراً بعد السلطة.

أدت رغبة حركته في الاستحواذ على السلطة وضعف الكفاءات بين صفوفها وتعاونها مع التيارات المتشددة.. إلى غضب الكثيرين من أنصارها وخصومها. وشنَّ المثقفون التونسيون موجات نقد شديدة تجاه "الغنوشي" وعائلته وتجاه حركة النهضة وسياساتها.

وظهرت صفحات على موقع التواصل الإجتماعي "فيس بوك" من نوع "نطالب بمحاكمة راشد الغنوشي في تونس" و"معاً لإرجاع راشد الغنوشي إلى لندن".

وقد دفع تحالف النهضة مع المتشددين إلى غضب واسع في صفوف التونسيين عقب اغتيال المعارض البارز "شكري بلعيد" في فبراير 2013 واغتيال المعارض "محمد براهمي" في يوليو 2013.

وأدى اتهام أرملة "شكري بلعيد" لحركة النهضة باغتيال زوجها إلى ازدياد حالة السخط لدى ملايين التونسيين.. وهو ما عبّر عنه صعود أعداد الموقِّعين على استمارة "تمرد تونس" إلى أكثر من مليون وسبعمائة ألف استمارة. وخرجت أعداد كبيرة من المتظاهرين التونسيين الذين يطالبون بإسقاط النظام ورحيل حركة النهضة عن السلطة في البلاد. وقالت مجلة "التايم" الأمريكية إن "تونس تترقب ثورة جديدة تطيح بالإخوان".

ونقلت وكالة الأنباء الفرنسية عن مواطنة في ولاية سيدي بوزيد أثناء احتفالات الذكرى الثالثة للثورة: إن حياتنا تسير من سيء إلى أسوأ.. أصبحنا أفقر

من ذي قبل، والشئ الوحيد الذي أهدته الحكومة لولاية سيدي بوزيد هو هذا النصب التذكاري لعربة خضار البوعزيزي!

ونقلت الوكالة عن شاب تونسي قال غاضباً: كنتُ عاطلاً قبل الثورة ومازلت عاطلاً وسأظل عاطلاً!

* * *

بدورهم كان قادة النهضة يهاجمون ثورة 30 يونيو في مصر، وزاد الوزير "سليم بن حمدان" فوصف ما جرى في مصر بأنه "مؤامرة صهيونية"، وقال "عامر العريفي" رئيس المكتب السياسي لحركة النهضة: "هناك جهات داخل البلاد تسعى للانقلاب على مؤسسات الدولة كما حدث في مصر".. وقال الشيخ "راشد الغنوشي": "إن جيشنا جمهوري ولن يتكرر في تونس انقلاب مصر".

* * *

في عهد "النهضة" أصبحت تونس مقصداً ومنبعاً للتطرف الديني.. وأصبحت "القاعدة" موجودة على نطاق واسع في البلاد.. وفي فبراير 2013 أعلن وزير الداخلية عن سقوط شبكة "عقبة بن نافع" التابعة للقاعدة، وتحت الضغوط المحلية والدولية اضطرت الحكومة إلى تصنيف حركة "أنصار الشريعة" الموالية للقاعدة كتنظيم إرهابي.

وفي ديسمبر 2013 قال السفير الأمريكي في تونس "جاكوب والس": "إن تونس لاتزال هدفاً للقاعدة".. "إن الاغتيالات السياسية وقتل عناصر من الجيش والشرطة وراءها تنظيم أنصار الشريعة المرتبط بالقاعدة".

وذكرت بعض التقارير أن محاولة جرت للسيطرة على تونس من قبل تحالف بين حركتى أنصار الشريعة في ليبيا وتونس.. وأن المخطط كان يضم مقاتلين من عشرة آلاف من أعضاء الحركتين حاولوا الانطلاق من الجنوب، لكن الجيش التونسي تصدى

له. وحسب صحيفة "هيرالد تريبيون" فإن المنطقة الحدودية بين ليبيا وتونس والجزائر تتواجد فيها القاعدة بقوة.. وهي تملك أكثر من ألف صاروخ مضاد للدبابات والطائرات.. ويمكنها إسقاط مروحيات وتدمير مدرعات.

لقد حاول هؤلاء الحركة باتجاه العاصمة، واضطر الجيش التونسي إلى قصف "جبل الشعانبي" على الحدود الجزائرية بالطائرات.. كما قصف الجيش بالطائرات مواقع في جبل "دوار إسماعيل" في ولاية باجة القريبة من العاصمة.

* * *

تحاول القاعدة أن تجعل من جبال تونس "تورابورا" جديدة.. ويقول باحثون إن عناصر القاعدة ترى تونس مكاناً إستراتيجياً للعمل الإقليمي والدولي.. ذلك أن تونس تطل على مضيق صقلية الذي تعبر منه السفن القادمة من قناة السويس باتجاه جبل طارق أو العكس.. وعلى مرمى البصر يوجد الأسطول السادس الأمريكي المتمركز في سردينيا الإيطالية القريبة من جزيرة جالطة التونسية.

ويرى التنظيم أن الحسم التام لصالحه هو الطريق الوحيد.. ويهاجم أي محاولات للتقريب في وجهات النظر أو التقارب بين حركة النهضة والتيار المدني. وفي شهر أكتوبر 2013 وجّه "أيمن الظواهري" زعيم تنظيم القاعدة خطاباً جاء فيه: "في تونس تتكرر المأساة نفسها التي حدثت في مصر.. فمنهج التوافق مع أعداء الإسلام على حساب عقائد الإسلام وأحكامه وشرائعه يشهد اليوم فشلاً ذريعاً وسقوطاً فظيعاً.. ها هم العلمانيون الذين سعى المتنازلون للتنازل لهم.. ينبذونهم ويتبرأون منهم ويتكبرون عليهم"!

* * *

لقد وضعت حركة النهضة الاتجاهات المتطرفة في حساباتها أكثر مما وضعت المصلحة الوطنية والوسطية الإسلامية.. وشأن تجربة الإخوان المسلمين في مصر كانت

محاولة إرضاء المتطرفين تسبق في الأولوية مصلحة الجماعة ذاتها.. وبدلاً من أن ينتشِل الإخوان الحركات المتطرفة من انحرافها وغلوِّها، نجحت هذه الحركات في الأخذ بالإخوان إلى مناطقها!

وعلى الرغم من خُفوت صوت النداء المعتدل داخل الإخوان في مصر، كان صوت نائب رئيس حركة النهضة "عبدالفتاح مورو" عالياً وصادقاً.

* * *

أبدى القيادي الإخواني والزعامة التاريخية لحركة النهضة التونسية "عبدالفتاح مورو" تسامحاً مع الماضي السياسي لتونس.. وأبدى تقديراً لبعض معالم تجربة حكم الرئيس "الحبيب بورقيبة". وهو ما جرّ إليه حنق وغضب شباب النهضة الذين تحلّقوا أكثر وراء "الغنوشي".. رافضين محاولات "مورو" لتجاوز الأحقاد الإيديولوجية والسياسية لأجل بناء المستقبل.

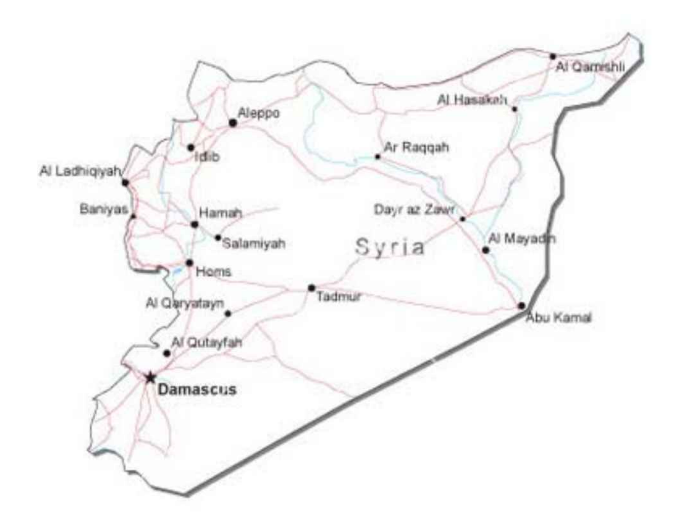
ثم مضى "مورو" في طريقه يقول ما يرى بشأن تجربة النهضة في الحكم.. وانتقد في وضوح سلبيات النهضة، وقال: "خسرنا المثقفين ورجال الأعمال وبدأنا نفقد ثقة الشعب".. "على الإسلاميين أن يفهموا الواقع قبل أن يحكموه".. "هذه المرحلة ليست "تمكين" المشروع الإسلامي بل "امتحان" المشروع وحامليه".. "الحركة فقدت ثقة الناس بمن فيهم محبوها والمناضلون في صفوفها".

ثم واصل الشيخ "عبدالفتاح مورو" انتقاداته الحاسمة للنهضة وقادتها — في حديث لمجلة "ماريان" الفرنسية — بقوله: "إن راشد الغنوشي يدير الحركة كما لو كانت شأناً عائلياً".. "لا يكفي أن تكون مسلماً لكى تقود الشعب.. بل يجب أن تحب الشعب وتدرك رغباته وتطلعاته".. "إن السلفيين قاموا بالاعتداء علىّ وأصابوني في وجهي وحركة النهضة لم تدافع عنّي".. "الإسلام دين حضارة وبدون تقدم لا يكون إسلاماً".

"إن الغنوشي لديه ثقافة أحادية في بلد مرّت عليه "25" حضارة".. "إننا لم نقم بالثورة لكي نمنحها للسلفيين والشيوعيين".. "مكان النهضة هو في المعارضة.. الشعب التونسي لم يعد يرغب في استمرارها.. ويلزم مرور بعض الوقت لنسيان أخطائها".. "يجب على راشد الغنوشي أن يتنحى حتى يمكن إقامة السلم الاجتماعي في تونس".. "أتمنى ظهور جيل جديد في الحركة الإسلامية يجمع الإسلام والحداثة".

* * *

الفصل الثامن



سوريا.. خريف مبكر

سوريا بلدٌ رائع.. يسكنه شعب آسِر..

لم يدُر بخُلد أحدٍ ممن طَالَع الأخبار الأولى للثورة السورية.. أن تكون على هذا النحو في المسار والمصير.

جاءت الثورة في سوريا امتداداً لموجة الربيع العربي 2011، ورأى كثيرون أن الثورة ستمضي مثل غيرها من "الثورات الشقيقة" في إسقاط النظام في وقت قصير.. وأن حكم حزب البعث الذي امتد طويلاً، وحكم آل الأسد الذي امتد عقوداً، في طريقه للنهاية.. وستنجح الثورة في إعادة بناء الدولة.

مضت ثلاثة أعوام على بدايات الثورة .... وفي بدايات عام 2014 كانت الحصيلة المفزعة للثورة السورية هى اللاثورة واللادولة..!

* * *

بعد عام من الثورة بدت ملامح حرب أهلية، وبعد عامين من الحرب الأهلية بدت ملامح تقسيم الدولة.. وبالتوازي مع ذلك تقلّب العنوان السياسي لسوريا من "الثورة" إلى "الحرب" إلى "التقسيم ."

وقد سمعتُ من رئيس دولة عربية قوله: "إن الغرب بات يتحدث بجدّية عن تقسيم كل من ليبيا وسوريا.. وقد كنتُ أسمعُ ذلك من دوائر بحثية وأكاديمية في السابق.. ولكنني أصبحت أسمع ذلك – الآن – في دوائر "صُنع القرار."

* * *

أصبح المشهد في سوريا مفزعاً.. وأصبح الأمل محدوداً.. ولا يوجد أحد من أطراف الصراع لديه رؤية جيّدة بشأن المستقبل.

وقد قابلت شخصيات عديدة من أطراف الأزمة السورية.. وكانوا جميعاً

يردِّدون ذلك النوع من الحديث الذي يكرره مذيعو ومراسلو القنوات التليفزيونية بشأن تطورات الأوضاع.

ولكن التكلفة الإنسانية في سوريا باتت فادحة وفوق الاحتمال.. وهى بوصف رئيس مفوضية الأمم المتحدة لشئون اللاجئين "أنطونيو جوتيرنر".. "محنة إنسانية لم يشهد لها العالم مثيلاً خلال السنوات الماضية من حيث المعاناة والتشرُّد.. إنها مأساة القرن."

* * *

تتشكل ملامح "مأساة القرن" السورية على النحو التالي: قُتِل أكثر من "130" ألف سوري حتى نهاية عام 2013.. وحسب المرصد السوري لحقوق الإنسان فإن خريطة الدم توزعت على النحو التالي: "52" ألف من قوات النظام والمجموعات المسلحة الموالية له.. و"29" ألف من مقاتلي المعارضة.. و"2800" مجهولي الهوية.. و"226" من مقاتلي حزب الله اللبناني الذين يقاتلون إلى جانب النظام السوري. وحسب اللجنة الدولية للصليب الأحمر، فإن هناك نصف مليون جريح.

وبشأن الأسرى والمحتجزين والمعتقلين.. يقدّر المرصد عددهم الإجمالي بـ"23" ألفاً منهم "17" ألف في سجون النظام ونحو "6" آلاف من القوات النظامية والمجموعات المسلحة الموالية "أسرى" لدى كتائب المعارضة.

ومع الدماء والسجون.. كانت محنة اللاجئين والنازحين تشكل ملمحاً مفزعاً آخر من "مأساة القرن" وتقدر هيئة الإذاعة البريطانية "BBC" عدد اللاجئين السوريين في دول الجوار بمليونيْ سوري منهم مليون طفل. وحسب مفوضية الأمم المتحدة لشئون اللاجئين فإن العدد يزداد بمعدل خمسة آلاف لاجئ يوميًّا!

وقد وصل عدد اللاجئين السوريين لدى المفوضية إلى "716" ألفاً في لبنان، و"515" ألفاً في الأردن، و"460" ألفاً في تركيا، و"168" ألفاً في العراق، و"110" ألف لاجئ سوري في مصر.

وقد بدأت الدول المستقبلة للاجئين في إعلان معاناتها من حجم التكاليف.. وقالت وسائل الإعلام التركية: إن تكلفة اللاجئين السوريين على الخزانة التركية بلغت "2" مليار دولار.. وأعلنت الأردن ولبنان أنهما غير قادرتين على الأعباء المتزايدة للاجئين السوريين.

* * *

لقد بدأ الإحباط يسيطر على الحالة النفسية للاجئين.. وساد اليأس في أوساطهم من احتمالات العودة إلى بلادهم.. وحسب تعليق أحدهم: "مشكلة اللاجئين السوريين لن تُحلّ وليس لها حلّ.. فأصل الموضوع أن السلام والأمان لن يطرُقا باب سوريا بعد اليوم."

وإذا كانت هذه هي محنة "اللاجئين" خارج سوريا.. فإن محنة "النازحين" داخل سوريا جانب آخر في "مأساة القرن". وحسب تقدير الأمم المتحدة فإن عدد النازحين داخل سوريا يزيد على "4" ملايين نسمة.

وهكذا فإن ستة ملايين نسمة من الشعب السوري قد أُخرِجوا من ديارهم، منهم مليونان خارج الوطن.

* * *

ثمة جانب مظلم آخر من مأساة القرن.. إنهم "المحاصرون" داخل ديارهم.. المسجونون في بيوتهم.. والمعزولون عن العالم ويُقدر عددهم بـ"2.5" مليون نسمة لا تستطيع المساعدات الإنسانية أن تصل إليهم.

وحسب الأمم المتحدة فإن هناك "9" ملايين سوري يحتاجون إلى المعونات لكن "2.5" مليون منهم في مناطق محاصرة أو مناطق يصعب الوصول إليها.

وتشير تقارير المنظمات الحقوقية والإغاثية أن هناك من باعوا أعضاءهم، ومن شربوا من المياه العفِنة، ومن أكلوا القطط والكلاب!

وقد أُصيب العالم بالهلعْ بعد انتشار مرض شلل الأطفال من جراء التدهور الحاد في مستوى البيئة والحياة في البلاد.

* * *

يحاول العالم أن يقدم المساعدات إلى النازحين واللاجئين والمحتاجين، لكن عمليات النقل عن طريق البرّ بالسيارات شرق سوريا أصبحت خطيرة جداً.. حيث المعارك المستمرة للسيطرة على طرق النقل، وهو ما دفع الأمم المتحدة إلى النقل الجوي للمساعدات بديلاً عن النقل الأرضي.. وفي 29 ديسمبر 2013 بدأت أول عملية نقل جوي للمساعدات الموجهة إلى سوريا من خلال أراضي العراق.. ثم نقلت الأمم المتحدة ثلاثة آلاف طن على "24" طائرة شحن من أجل إنقاذ "50" ألف لاجئ!

إنه عدد محدود للغاية بالنسبة إلى التسعة ملايين سوري الذين أعلنت الأمم المتحدة احتياجهم للمساعدات.. وبعملية حسابية بسيطة فإن الـ"24" طائرة شحن قد نقلت ما يكفي – مبدئياً– لإنقاذ نصف في المائة من المحتاجين السوريين!

* * *

إن "مأساة القرن" لا تنتهي عن تلك المعادلة السوداء "2 + 4 + 3= 9" ذلك أن المليونىْ لاجئ والأربعة ملايين نازح والثلاثة ملايين جائع يعيشون معاناتهم وسط خريطة سياسية وفكرية.. بالغة البؤس والتردِّي.

ثمة حركات مدنية مسلّحة وحركات مدنية غير مسلّحة، وثمة حركات إسلامية مسلّحة وحركات إسلامية غير مسلّحة.. وثمة أديان ومذاهب وطوائف وأعراق.. باتت جميعها في حالة صدام.. الكل ضد الكل!

* * *

يزيد العدد الإجمالي للسوريين عن الأربعين مليوناً، يعيش نصفهم تقريباً داخل سوريا ونصفهم يعيش كمواطنين في أوروبا والأمريكتين واستراليا ويجري

تعريفهم بعبارة "من أصول سورية".. ويصل عددهم طبقاً لبعض المصادر إلى "20" مليون "سوري الأصل" حول العالم.

وحسب تقرير الأمم المتحدة عام 2008 فإن عدد سكان سوريا "23" مليون نسمة.. أكبر المدن حلب "3.3" مليون نسمة، ثم العاصمة دمشق "3.1" مليون نسمة، ثم مدينة حمص أكثر من مليون نسمة، ثم مدينتا حماة واللاذقية أقل من مليون نسمة، ثم مدن دير الزور والحسكة والرقة أقل من نصف مليون نسمة.

داخل الملايين الثلاثة والعشرين يوجد العرب والأكراد والتركمان والشركس والداغستان والشيشان وغيرهم.. ويوجد السُّنة والعلويون والاثنا عشريون والإسماعيليون والدروز والمسيحيون واليهود وغيرهم.

ويعد النسيج العرقي والديني والثقافي في سوريا المعاصرة نتاج طبقات حضارية تعاقبت في البلاد.. من الفينيقيين والآشوريين والآراميين والمصريين والفرس والكلدانيين والمقدونيين.. إلى الرومان والفاتحين المسلمين والصليبيين والأكراد والمغول والعثمانيين والمماليك.. ولايزال المشهد السوري خليطاً من كل درجات الماضي العتيق والحاضر المباشر.. وفي عام 2013 أدى قيام مواطنين من الطائفة الآشورية – الآرامية بالتلويح بأعلامهما في إحدى الحفلات الموسيقية إلى إثارة أزمة مع الأجهزة الأمنية.

لقد كان مثيراً لمن تابعوا تلك الواقعة أن يشاهدوا أعلاماً مرفوعة تنتمي إلى الحقبة الآشورية.. ومواطنون معاصرون يتحدثون اللغة الآرامية.. في القرن الحادي والعشرين!

* * *

أصيبت جميع الطوائف والأعراق بالقلق الشديد جراء تداعيات الثورة والحرب في سوريا.. وقد شمل القلق الأغلبية والأقليات على السواء.. حتى لقد طلبت مجموعة من الشركس عبر رسالة جرى توقيعها من قبل "115" شخصية شركسية أن

"يعود" جميع الشركس السوريين وعددهم "150" ألفاً إلى روسيا.. وجاء في الرسالة التي تم توجيهها إلى الرئيس "فلاديمير بوتين".. إنه يتحتم عليه مساعدة الشركس السوريين في العودة إلى "الوطن الأم" في روسيا!

وتأتي صعوبة الخريطة الاثنية والدينية في سوريا من الاشتباك الديني العرقي.. فالأكراد السوريون هم من حيث الدين والمذهب مسلمون سُنَّة ولكنهم من حيث العرق ليسوا عرباً.. والتركمان السوريون هم أيضاً مسلمون سُنَّة ولكنهم ليسوا عرباً.

وقد أدّى صعود النزعة العرقية والطائفية في سوريا إلى إعادة تقديم الشاعر العربي الشهير "نزار قباني" باعتباره "تركمانيًّا" وليس عربياً.. على الرغم من صورته المعتادة كشاعر الفصحى والعروبة.. وأحد الوجوه البارزة للفكر الناصري و"القومية العربية."

* * *

تتفاوت التقديرات بشأن تعداد كل طائفة وعرق في سوريا.. ويميل كل طرف إلى المبالغة في الوزن والعدد.. ولكن المتوسط العام للإحصائيات يشير إلى كوْن المسلمين السنة العرب يشكلِّون أكثر من "70٪" من الشعب السوري.. وأن هناك نِسبًا متساوية تقريباً بواقع: "8٪" الأكراد، "8٪" المسيحيين، "8٪" العلويين.

يقارب المسلمون السُّنة "عرباً وغير عرب" ثلاثة أرباع السكان، وتصل نسبة المسلمين غير السُّنة من الشيعة والعلويين والدروز والإسماعيلية إلى "16٪" من السكان.. ويصل عدد اليهود إلى "الألف" شخص فقط.. يتواجدون في دمشق والقامشلي.

* * *

كانت حركات الإسلام السياسي حاضرة في كل ما يجري في سوريا.. وتوزعت خريطتها تطرفاً واعتدالاً على النحو النمطي السائد في الدول الإسلامية.

وقد حظيت جماعة "الإخوان المسلمين" وتنويعات "القاعدة" بالاهتمام الإعلامي الأكبر، وبانشغال الأوساط السياسية الداخلية والخارجية.

فبعد ثلاثين عاماً من حظر جماعة الإخوان المسلمين السورية والحكم بإعدام كل من ينتسب إليها.. عادت الجماعة إلى واجهة الأحداث.. وبَدَا المشهد وكأَنَّ الإخوان يستعدون لوراثة حزب البعث في السلطة.

قبيل اندلاع الثورة السورية كان "على البيانوني" المراقب العام لجماعة الإخوان المسلمين في سوريا يغادر موقع الرجل الأول في الجماعة لصالح "محمد رياض الشقفة."

كان ذلك في أكتوبر 2010 وكان "البيانوني" قد أمضى ثلاث دورات في رئاسة الجماعة.. ويرى محللون أن "البيانوني" كان أقل تشدداً من المراقب العام الجديد "رياض الشفقة".. وأن التحول كان بمثابة الانتقال من "فريق حلب" الذي أحاط بـ"البيانوني" إلى "صقور حماة" الذين أحاطوا بـ"الشفقة".. ذلك أن ثلاثة حمويين متشددين احتلوا المراكز الثلاثة الرئيسية في الجماعة: "الشفقة" مراقباً عاماً، و"فاروق طيفور" نائباً، و"محمد حاتم الطبش" رئيساً لمجلس الشورى.

لم يكن للإخوان وجود قوى في سوريا أثناء الثورة، ولكن الدعم الخارجي، وإصرار الدول المتدخلة بالشأن السوري على وجود الإخوان هو ما أعطاهم المكانة السياسية في المجلس الوطني.

* * *

شهد عام 2013 تحولات تنظيمية في جماعة الإخوان.. تمثلّت في افتتاح أول مكتب للإخوان المسلمين بحضور رئيس المكتب السياسي "حسان الهاشمي."

كما تمثلّت في إعلان الإخوان عن تأسيس حزب سياسي باسم "الحزب الوطني للعدالة والدستور – وعد".. وحسب الجماعة فإن حزب "وعد" يضم تيارات مختلفة من بينهم مسيحيون.

وتتوزع التيارات السياسية على قوى رئيسية بواقع الثُلث لكل منها: ثُلث من الإخوان المسلمين وثُلث من الإسلاميين غير الإخوان وثُلث من الليبراليين.

كما جرت عملية "إعادة هيكلة" للجماعة.. حيث تحوّلت من آلية "الدوائر" إلى آلية "المكاتب الإدارية".. على النحو الذي كان موجوداً في مصر. وأصبح هناك نائب واحد للمراقب العام هو "عادل فارس".. ودخل تيار جديد في المواقع العليا من بين أسمائه "عمر مشوح" المتحدث الرسمي والمسئول الإعلامي.

وقد ثار جدل كبير حول تحوّل آخر في جماعة الإخوان هو البحث عن جناح عسكري. وحسب تقرير لمركز "كارنيجي للشرق الأوسط" في أكتوبر 2013، فإن "كل القوى السياسية ليس لها وجود على الأرض.. وهناك مؤشرات على صلة بين "هيئة دروع الثورة" وبين الإخوان.. ولو نجح الاندماج بين الهيئة وفيها سبعة آلاف مقاتل وبين الجماعة.. سيكون الإخوان هم أول حزب سياسي له ميليشيات عسكرية."

* * *

يحتاج المرء إلى جهود لا تنتهي حتى يقف على حقيقة خريطة الإسلام السياسي في سوريا.. ذلك أنها كثيفة العدد.. متقلبة الهيكل التنظيمي.. ومتعددة الاندماجات والانشقاقات .

ثمة شهرة خاصة حظيت بها "جبهة النصرة" ثم "داعش".. وثمة تحالف إسلامي واسع تأسس قبيل عام 2014.

واعتماداً على مصادر صحفية متعددة من بينها صحيفة "الحياة اللندنية" يمكن رصد خريطة كثيفة على النحو التالي :

1. تجمع أنصار الإسلام
2. لواء الإسلام
3. كتائب الصحابة
4. لواء أحفاد الرسول

5. لواء الفرقان
6. كتائب حمزة بن عبدالمطلب
7. لواء الحبيب المصطفى
8. كتائب درع الشام
9. جيش الإسلام
10. لواء أحرار الشام
11. جماعة الطليعة الإسلامية
12. كتائب الإيمان
13. حركة الفجر الإسلامية
14. كتيبة مصعب بن عمير
15. الجبهة الإسلامية السورية
16. حركة تحرير سوريا
17. لواء صقور الشام
18. لواء فجر الإسلام
19. لواء سيوف الحق
20. لواء داوود
21. لواء التوحيد
22. جبهة تحرير سوريا الإسلامية
23. لواء عمرو بن العاص
24. لواء الفتح
25. كتائب الفاروق
26. لواء عباد الرحمن
27. جبهة النصرة
28. داعش

لقد توحدت بعض هذه القوى فيما يسمى "الجبهة الإسلامية في سوريا" وتضم أكثر من مائة ألف مقاتل.. وتقول الجبهة إن هدفها أن يكون هناك وجود عسكري موحد للإسلاميين المعتدلين حتى تكون لها الغلبة.. ولا تكون الغلبة لتنظيمات القاعدة المتمثلة في "جبهة النصرة" و"داعش."

* * *

تمثل كلمة "داعش" الاسم المختصر لحركة "الدولة الإسلامية في العراق والشام".. وتقول التقارير إنها تضم ستة آلاف مقاتل.. وتقوم استراتيجيتها على إثارة الرعب والفزع.. وأعضاؤها من دول عديدة وأبرز قادتها عراقيون وليبيون.

ويعتقد أعضاء "داعش" أنه يجب مبايعة أمير المؤمنين "أبوبكر البغدادي" رئيس حركة "داعش"، وأن من يتخلف عن ذلك آثم ومُذنب.

وحسب تقرير نشره الموقع الألماني "دويتش فيلله" فإن "داعش" تعتقد أنها تمتاز بالتماسك وغير متشظّية كالقاعدة.. وأنها ستصل من بغداد إلى طرابلس في شمال لبنان.. لتكون لها أكبر مساحة جغرافية في العراق وسوريا ولبنان، وهى الطموحات التي عجز عنها "أبومصعب الزرقاوي ."

إن السيناريو المعتاد لـ"داعش" حسب "دويتش فيلله": يأتي مقاتلو داعش إلى القرية بحجة الدعوة، ينصبون خيمة ويقيمون دورات حفظ القرآن ووعظ.. يرحب بهم السكان.. ثم يأسسون مقر إقامة.. ثم يقيمون حواجز على مداخل القرية.. ثم يعلنون القتال لكل من يخالفهم.

والاستراتيجية العسكرية لهم هى السيطرة على المعابر الحدودية، للحصول على أى دعم من المال أو الغذاء أو السلاح أو الوقود، قبل أن يصل إلى التنظيمات الإسلامية الأخرى.

وتبرر "داعش" إعتداءاتها على الحركات والكتائب الإسلامية الأخرى وقطع طريقها والاستيلاء على مؤنها وذخيرتها.. بأن هذه الكتائب والألوية قد خالفت الإسلام، وهو ما يبرر الاستيلاء على ممتلكاتها وأسلحتها..!

* * *

لقد تواترت قصص عديدة عمّا سُمّى بـ"جهاد النكاح" في سوريا.. وقد بدأت هذه القصص عبْر فتوى مجهولة ظهرت عام 2011، ولكن التيارات الدينية نفت ذلك وقالت إنها من قبيل الدعاية السوداء لنظام "الأسد". لكن وزير الداخلية التونسي "لطفي بن جدو" أكد صحة الوقائع، واعترف أن البعض ذهبن لهذا الغرض.. ولكن الجيش الحر عاد ونفى ذلك.. وقال "إن ما يسمى جهاد النكاح هو زنا كامل الأركان

ولـيس جهـاداً.. وإن الـصور الـتي عرضـت علـى أنهـا لمجاهـدات تونـسيات.. غـير صحيحة، بل هي لمقاتلات شيشانيات منذ سنوات."

* * *

إن من بين ما يلفت الانتباه في هذا الشأن ظهور مصطلح "الجهـاد الإجتمـاعي" حيث جرى الإفتاء بأن العمل لصالح حركات الإسلام السياسي علـى شـبكة الانترنـت ولا سيما على مواقع فيس بوك وتويتر هي من بين الجهاد.. وجرى تسمية ذلك النوع الجديد بـ"الجهاد الاجتماعي."

وفي أكتوبر 2013 أكدت مجلة "ديـر شـبيجل" الألمانيـة أن هنـاك مـا يـسمى "المعـسكر الألمـاني" في سـوريا وهـو يتـشكل مـن الجهـاديين الألمـان الـذين انتقلـوا إلى سـوريا.. وقـد رصـدت المخـابرات الألمانيـة زيـادة حـادة في أعـداد الإسـلاميين الألمـان المغـادرين إلى سـوريا بهـدف الانـضمام للمعـسكر الألمـاني، وهـم الـذين أطلقـوا فكـرة "الجهاد الاجتماعي" وأسسوا لذلك مواقع بخمس لغات من بينها الألمانية.

ترصد "دير شـبيجل" ارتفـاع عـدد الجهـاديين الأوروبـيين الـذين انتقلـوا إلى سوريا من "250" جهاديًّا عـام 2012 إلى "1000" جهـادي أوروبـي عـام 2013.. وتنقل عن المخابرات الألمانية تقديرها أن هذه المواقع التي تمثل "الجهـاد الاجتمـاعي" أصبحت مصدر تحفيز قوي للتطرف الديني.

* * *

مع تلك الخريطة الاثنية والدينية والمذهبية وكذلك الفكرية العسكرية.. ومـع تدخلات دول لها رؤاها ومصالحها.. بدت المعضلة السورية وكأنها بـلا حـل.. وبـات الأمل يغادر البلاد حتى أوشك على النفاد، وظهرت دعاوى تقسيم سوريا كحل وحيـد للأزمة السورية!

وقد توزعت تلك الدعاوى ما بين تصريحات خجولة، إلى أفكار خارجية من مراكز البحوث والدراسات، إلى تحليلات صحفية تشرح الحالة ثم تنتهي إلى حل التقسيم.

نموذجاً من بين هؤلاء ما طرحه الباحث "ديليب هيرو" في حديثه مع محطة CNNالأمريكية.. حيث ذهب إلى أن التقسيم هو الحل.. ورأى أن ذلك هو المستقبل الوحيد الممكن.. وأن يكون التقسيم على أساس طائفي.. دولة للعلويين، وثانية للدروز، وثالثة في حلب ورابعة في دمشق.

وظهرت موجة تحليلات تحذر من خطر السُّنة على الشيعة.. حيث انتهى "هيرو" وغيره للقول بأنه يجب حماية الشيعة والمسيحيين من خطر السُّنة.

ومن هذا الرأى أيضاً السفير الأمريكي السابق في بغداد "كريستيان هيل" الذي طالب بحماية الشيعة من السُّنة في العراق وسوريا ولبنان.. وقال "هيل" لقد شنّ المتطرفون السُّنة في العراق "50" هجوماً انتحارياً أسفر عن مقتل "500" شخص أغلبهم من الشيعة.. ويحاول السكان السُّنة في إقليم الأنبار بإلهام من إخوانهم في سوريا تكوين جيوش قبلية لخوض معركة مع الجيش العراقي!

وينتهي "هيل" إن فزع الأقليات من المتشددين السُّنة إنما يتطلب حمايتهم على الفور وعلى الدوام.

* * *

يطرح الكاتب الأمريكي "توماس فريدمان" ثلاث إستراتيجيات بشأن مستقبل سوريا: النهج الواقعي والنهج المثالي ونهج الحظ.

ويرى نهجَ الحظ متمثلاً في تنحي "الأسد" دون معارك، والنهج المثالي.. قيام دولة ديمقراطية تعددية بعد نهاية المعارك.. وأما النهج الواقعي فيرى "فريدمان" أنه "تقسيم سوريا."

وبات البعض يتحدث عن دولة علوية على الساحل، ودولة كردية في الشمال والشمال الشرقي، ودولة أو أكثر في باقي سوريا.. وأن استماتة "الأسد" في معارك حمص هدفها عدم قيام دولة واحدة في المناطق الأخرى.. بل دولتين.. واحدة شمال حمص والثانية جنوب حمص.

ويربط بعض المحللين بين رؤى التقسيم وبين تصريح المتحدث الرسمي باسم البيت الأبيض: "إن الأسد لا يستطيع أن يحكم سوريا.. وأن حكمه يقتصر على جزء من سوريا". ويرون في هذا التصريح تمهيدًا للتقسيم واعترافاً بوجود "الأسد" على رأس دويلة سورية لا تشمل كل أراضي سوريا.

وفي هذا السياق نقل وفد برلماني عربي عن وزير الخارجية الفرنسي "لوران فابيوس" توقعه بتقسيم سوريا بنسبة أفقية إلى دولتين.. دولة كبيرة على "80٪" من المساحة ودولة صغيرة على "20٪" من مساحة سوريا.

* * *

في مقال بعنوان "درس من سوريا" قالت "ماري سلاجتر" المدير السابق لتخطيط السياسات في الولايات المتحدة: "في محادثات مع اثنين من خبراء السياسة الخارجية البارزين.. اقترح أحد المشاركين أن الحدود الحالية للشرق الأوسط، والتي تم رسمها في زمن الاستعمار.. من غير الممكن أن تستمر ولابد من إعادة رسمها".. ""إن الشرق الأوسط مقبل على حرب الثلاثين عاماً الأوروبية والتي حصدت من الأرواح طبقاً لبعض التقديرات ما بين نصف سكان بعض الدول المشاركة إلى ثلاثة أرباع بعض الدول".. "قال لي أحد المحاورين: إنني معك.. إننا لانستطيع أن نفعل أي شيء لمنع أمر كهذا لأن هذه هى الحقبة التاريخية التي نعيش فيها."

* * *

هكذا يتضح بجلاء أن ثمة نظريات وأطروحات وتخطيطًا من أجل تقسيم

سـوريا ضـمن رؤى أشمـل بتقـسيم المنطقـة.. تحـت خرافـة "حـرب الـثلاثين عامـاً" المذهبية.. التي لابد أن تخوضها البلدان العربية.

وقد نجحـت أطـراف عديـدة في اقنـاع الـبعض بالتقـسيم تحـت ضـغط الأعـداد المفزعة للقتلى والمصابين.. وتحت ضغط الأعداد الأكثر فزعاً من اللاجئين والنـازحين، وتحت ضغط الاقتـصاد المتهـاوي.. حيـث انخفـاض النـاتج المحلـي بمقـدار النـصف، وتراجـع احتيـاطي النقـد الأجـنبي مـن "17" مليـار دولار إلى مليـار دولار واحـد.. وتجاوز عدد العاطلين الثلثين مـن مجمـوع القـوى العاملـة.. وحيـث تراجـع الزراعـة وارتفاع أسعار الطعام، وانهيار السياحة، وتدهور سعر العملة، وتحطيم المدن وتدمير "2.5" مليون وحدة سكنية، وكذلك تلاشي التجارة الخارجية.. حيث لا صادرات ولا واردات تقريباً.

* * *

تحتـاج سـوريا إلى معجـزة.. نـصفها الأول تحـدي سـيناريوهات التقـسيم والتفكيك ونصفها الثاني ترميم الحجر والبشر.. وإعادة البناء الإنساني والاقتـصادي، على أساس من التسامح الحقيقي والرغبة الجادة في إنقاذ "الأنا".. قبل "الآخر".. ذلك أنه إذا ما انفتح باب جهنم.. لن ينجو أحد.

الفصل التاسع



الثورة والدولة..

محاورة مع الرئيس أحمد بن بلة

تمنيت لو أتيحت الفرصة للقاء أولئك الثوار الذين خاضوا بنا إلى مستقبل كانوا يرونه مشرقاً، ثم خضنا معاً إلى شيء بعيد. فقد غطى ضباب كثيف على الرؤية، وتكاثرت سحب بلا مطر، وقعت الواقعة ولم يأت الفرج.. وبقيت الأجواء بليدة راكدة!

كما تمنيت أن التقي أولئك الذين انقلبوا على الثوار، أو الذين ورثوا الثورات من بعد نجاحها، فبعض الذي رأينا لم يكن كافياً، وكل الذي قرأنا لم يكن مرضياً. وأذكر أنني حين اتصلت ذات يوم بالسيد "فتحي الديب" مؤسس جهاز المخابرات العامة المصرية في عهد الرئيس "جمال عبدالناصر"، قال لي قبل أن يسمعني: إنك تحتاج إلى أن تقرأ ستة أشهر قبل أن نلتقي، ولما التقيته في منزله في مصر الجديدة قال لي إنني أحتاج إلى ستة أشهر أخرى من القراءة قبل أن نشرع في الحوار أو النقاش، ومضى الرجل إلى الحياة الأبدية قبل أن تنتهي المهلة التي وضعها.. وقبل أن يشرح لي بعضاً مما جرى في الحياة الدنيا.

وفي تلك الفترة من عام 2002 كنت أداوم على لقاء الكاتب الصحفي "عبدالله إمام" في موعد ثابت على مقهاه الدائم في فندق شبرد بالقاهرة، وكان الرجل من أكثر الناس جلوساً مع قادة ثورة يوليو 1952 في مصر، ووضع أكثر من عشرين كتاباً حول الموضوع.. وقد قدمني إلى بعض رموز ذلك العهد كالسيد "سامي شرف" و"ضياء الدين داود"، كما أوصلني بأشخاص ذوي قدر في عهد الثورة.. وإن فاتتهم الشهرة.

ولما سألت "عبدالله إمام" وهو الصحفي المخضرم والمحاور المتمرس عما إذا كان ملماً بكل ما جرى.. نفى الرجل في غير تواضع، وأضاف: من المهم ألا تسعى للإحاطة بما هو مكتوب فحسب، ذلك أن الأشخاص الذين صنعوا أو شاركوا في الصنع أو شاهدوا الصنع.. أو حتى سمعوا عنه.. هم ثورات تمشي على الأرض!

وقد عملت بنصيحة الصحفي الكبير وشاهدت الرجل إلى أن رحل وهو تواق للاستماع وقابل لإعادة النظر.. وأحياناً مندهش كأنما هو طالب مبتدئ يسمع بالوقائع للمرة الأولى.. وهو عرض من أعراض ذلك السعى الحميم للفهم.. ثم تصحيح الفهم إذا ما طرأ جديد أو استبان قديم.

والحادث.. أنني زدت في إعمال نصيحة "عبدالله إمام"، فقد كنت عاملاً بها فيما قبل، ومازلت كلما أتاحت لي الظروف لقاء أولئك الذين تصدروا ساحة الفعل ذات يوم.. أجلس إليهم سائلاً ومتسائلاً.. مزيجاً من حرفة الصحافة وحكمة ذوي الأيادي الباردة!

وقد رأيت أن أنشر هنا..بعضاً مما دار في لقاءات ثلاثة جمعتني بالرئيس الجزائري السابق "أحمد بن بلة"، لقاءان منهما في مدينة أبوظبي والثالث في القاهرة. وقد امتد الحديث في المرات الثلاث إلى أكثر من خمس عشرة ساعة، نصفها جرى تسجيله مما سهل نشره، والآخر كان حديثاً هائماً يحط أينما سنحت الظروف، وينقطع بحلول العوارض!

* * *

ما أصعب أن تجلس إلى الرئيس "بن بلة" ثم تشرع في محاولة مساءلته أو نقده.. إذ سرعان ما يشعرك الرجل بفارق هائل في عمق الخبرة وثراء التجربة.. ومرة.. في عبارة واحدة قال لي "كنت قد تحدثت مع عبد الناصر بهذا الشأن، وقد قلته أيضاً لخروشوف، وكان عندي في هذه الأثناء تشي جيفارا، والثائر الشاب نيلسون مانديلا، وكان خروجي من لقائي مع جون كينيدي متجهاً بالطائرة إلى صديقي فيدل كاسترو موضع غضب في واشنطن.." وهكذا في عبارة واحدة جمع بين ستة من زعامات القرن العشرين.. ثم أكمل الحديث وكأنه لم يقل شيئاً يثير الانتباه!

إنك إذْ تجلس إلى "بن بلة" فإنما تجلس مع التاريخ، وإذ تستمع إلى ما يقول..

فإنك ترى أولئك الذين سكنوا أرفف المكتبات وأرشيف الدنيا وكأنهم أحياء يبعثون!

* * *

لما سألت الرئيس "بن بلة" لماذا لم تكتب مذكراتك إلى الآن.. قال لم أكتبها وربما لا أكتبها، وسأترك ذلك للآخرين.

لقد فكرت في عمل كهذا ثم وجدت الإعلامي "أحمد منصور" وقد أجرى سلسلة مقابلات بثتها قناة الجزيرة، وفيها تحدث "بن بلة" عن كل شئ.. وكان حديثه واعياً ومعتدلاً، وهو ما دعا السياسي والمثقف الجزائري "محي الدين عميمور" الذي ينتمي إلى حقبة "بومدين" للقول بأن "بن بلة" كان عظيماً في شهادته.. وإنه لم يذهب إلى تخوين أحد أو تجريح آخر.. بل قال ما يعتقده.. ومضى.

* * *

من عادة "بن بلة" أن يقسم في حديثه، وكأنه يؤكد على صدق ما يقول دون هوى أو غرض، وهى "لازمة" معه في أي حديث وفي أي موضوع.. إنه يقسم دون أن يعني القسم.. فهو يقول مثلاً.. "لو لم يكن بومدين لكان غيره قد أطاح بي، والله، أقسم بالله العظيم..".

وقد يباغتك "بن بلة" في حديثه الهادئ بعبارة من هذا النوع.. "أنا لست عنصرياً.. روجيه جارودي رجل عنصري يعادي اليهود.. أما أنا لا".. ثم يستطرد مهاجماً إسرائيل والولايات المتحدة والإمبريالية القديمة والقادمة!

وعلى الرغم من أن "بن بلة" يحمل في جيبه أجندة صغيرة مكتوبة بالفرنسية، وفيها معلومات عن حالة الاقتصاد العالمي، وبعض المعلومات الأساسية عن التنمية البشرية وحالة المجتمع الدولي. فإن مستشاره الخاص "أحمد سويسي" قال لي: "إنه ملك الفوضى، إننا لا نعرف عادة ماذا سنفعل غداً"!

وقد لمست ذلك بنفسي حين سألته في المقابلة الأولى عن موعدي الثاني فقال لي ربما غداً صباحاً أو ظهراً أو مساءً وربما بعد غد في أي وقت، ولكنني أستعد للسفر إلى بغداد ولذا يمكن ألا يكون قريباً.. وهكذا جمع كل الاحتمالات في سلة واحدة، ولما التقيته في صباح اليوم الثالث وليس اليومين الذين تحدث عنهما.. كان في المساء ذاته يستعد للسفر، وفي اليوم التالي شاهدته في نشرات الأخبار مجتمعاً بالرئيس "صدام حسين"!

وعندما سألت "أحمد سويسي" عن موارد عيش الرئيس، قال إنه يتلقى موارده بعد خروجه من السجن من الرئيس "القذافي"، وهو يمتلك بيتاً في سويسرا، وله بيت فيه أسرته في أسبانيا، وأما بيته في الجزائر فملك للدولة!

ومن العبارات الشهيرة للرئيس "بن بلة".. "إن أعظم إنجازاتي هى الثورة وزوجتي".. وفي عبارة أخرى "إن زوجتي هى أعظم ثورة في حياتي!"

* * *

ولد "أحمد بن بلة" في قرية مغنية في ولاية وهران الجزائرية، من والدين من أصل مراكشي أتيا من مراكش إلى مغنية أوائل القرن التاسع عشر هرباً من عملية ثأر كانت تطاردهما.

تلقى "أحمد بن بلة" – الذي يكبُر الرئيس "عبدالناصر" بعامين – تعليمه باللغة الفرنسية، وبعد إنهائه التعليم الإبتدائي انتقل إلى تلمسان حيث قضى خمس سنوات من تعليمه الثانوي دون أن يستكمله، فغادر إلى قريته وبقى فيها عامين.

في عام 1937 دخل "بن بلة" الجيش الفرنسي لأداء الخدمة الإلزامية، وتم تسريحه عام 1940، ليبدأ رحلته مع الثورة الجزائرية.

يذكر "بن بلة" أنه أثناء أدائه الخدمة العسكرية برز كلاعب كرة قدم في فريق "أوليجيه مرسيليا" الذي فاز بكأس فرنسا في ذلك الوقت!

تزوج "أحمد بن بلة" عام 1971 وهو في السجن من الصحفية الجزائرية "زهرة سلامي".. يحكي الواقعة فيقول:

"كانت أمي تزورني في السجن، وفجأة قالت لي: أنا لم أطلب منك شيئاً من قبل، لكن الآن عندي طلب، أشوفك وأنت متزوج. وضحكت وقلت لها: كيف؟!.. أنا في السجن كما ترين.. من يمكنها أن توافق وأنا في هذا القبر؟! قالت: سأحاول حتى أرتاح. وفي يوم آخر جاءت ومعها بعض الصور لفتيات جزائريات، وفيها صورة لفتاة أعرفها، كانت معارضة سياسية لي، قلت لوالدتي هي هذه.

كانت زهرة صحفية معروفة عند بومدين وكانت تهاجمني.. تحدثنا مرتين أو ثلاثًا وتزوجنا في غضون ثلاثة أيام فقط. جاءت زهرة إلى السجن وقضت معي سبع سنين، وكانت تخرج من حين لآخر تأخذ "15" يوماً خارج السجن ثم ترجع.. في البداية أتعبوها في السجن، ثم مشيت الأمور.. وكان زملائي يقولون لي في سخرية حين تزوجت وأنا في هذا الحال: أنت تستحق السجن في السجن!"

أنجب "بن بلة" من زوجته "زهرة" ابنته الكبرى "مهدية"، وهي خريجة قسم العلوم السياسية في كلية الدراسات الشرقية في جامعة لندن، وتميل للعمل السياسي، وأما أختها "نورية" وأخوها فيعيشان في أسبانيا بالقرب من خالهما وتزورهما أمهما بانتظام.

سألت الرئيس "بن بلة" عن أشياء وأشخاص.. عن الثورة والدولة، وعن الغابرين والحاضرين، وعن رموز عصره ورموز عصرنا..

١. لم نسرق الثورة
وكنا أقرب إلى الموت مِنّا إلى الشهرة

الاتهام الذائع للرئيس "بن بلة" وهو أيضاً التبرير الذائع لانقلاب الرئيس "بومدين".. أن الأول سرق الثورة، وخطف الأضواء، وحوّل إنجاز الملايين إلى حصاد شخص واحد..

يقول "بن بلة": "حين بدأنا العمل لم نكن نتوقع الشهرة، لأننا لم نتوقع الحياة، كنت رئيساً لتنظيم سري، وكان ذلك يعني النهاية.. أنا مجروح في رأسي جرحاً خطيراً.. نفذه الجهاز السري الفرنسي في طرابلس، وحاولوا اغتيالي في روما والقاهرة وأماكن أخرى. لم أكن أفكر في أن أعيش أو أكون رئيساً أو مشهوراً.. ومعظم من كانوا معي استشهدوا.. إن العدو هو الذي أعطاني الشهرة، وهؤلاء الذين ينتقدون ويقولون.. إنني أسرفت في الزيارات الخارجية لدعم اسمي مخطئون.. بل إنهم —هم— من انضموا إلى الثورة في وقت متأخر وسرقوها".

** ولكن الثابت أن مجموعة "بن بلة" قد أسقطت الحكومة المؤقتة واستولت على السلطة ليصبح "بن بلة: أول رئيس للبلاد، ولتدخل الجزائر مرحلة من حكم الفرد الواحد والحزب الواحد.. ألم تكن تلك سرقة للمستقبل.. إذا لم تكن سرقته سرقة للثورة؟

يقول "بن بلة": "كانت الحكومة المؤقتة ضعيفة وغير قادرة على تحمل المسئولية، ولم تحدث بيننا وبينها مواجهات، فقد دخلنا العاصمة وكلهم موجودون فيها.. ولولا التزام الحكومة المؤقتة عدم المقاومة لنشبت حرب أهلية بين الجيش والحكومة.. وهو ما لم يحدث والحمد لله".

"أما عن التعددية السياسية.. فلم يكن ذلك الفكر السياسي مطروحاً وقتها، وكان السائد هو نظام الحزب الواحد، ثم إن جبهة التحرير الجزائرية ليست حزباً واحداً بالمعنى المتعارف عليه.. بل هي إئتلاف من تيارات سياسية، كانت الجبهة هي جهاز الثورة، وكان يشمل كل القوى الثورية.. لم تكن الجبهة حزباً محدداً ومحدوداً مثلما كان حزب مصالي الحاج "حزب الشعب"، لكنها كانت تجمّعًا لتيارات وقوى متعددة.. وأنا نفسي تخرجت من حزب الشعب بزعامة مصالي الحاج، واتحدنا جميعاً – نحن الثوريين – في الجبهة".

"كان من حق جبهة التحرير أن تحكم، وأن تضع الدستور، لأنها تمثل كل التيارات فهيإذًا ديمقراطية وممثلة للشعب، ثم إنها من أخرجت الاستعمار، ولها شرعية النضال والتحرير.. أما الجمعية الوطنية "البرلمان".. فليست هي الأساس، وكان فرحات عباس رئيسها لا يملك أغلبية داخل الجمعية، كما أنه يفتقد الشرعية التاريخية.. لقد كان يرى فيما قبل .. أن الجزائر لا وجود لها.. وأنها مجرد خرافة!".

** قلت للرئيس "بن بلة".. ولكنكم بسيطرتكم على السلطة ودمجكم للقوى السياسية في حزب واحد وتهميش الجمعية الوطنية.. قد أطلتم أمد الثورة.. وهذا أجّل مجئ الدولة.

قال "بن بلة": "لقد عملنا الثورة وخرجنا إلى النظام العالمي.. كان لدينا الأمل، ولكن اتضح أننا قد خرجنا من سجن صغير إلى سجن كبير!

الثورة عنف، والدولة عنف، ولكن الثورة عنف يصل إلى الخير، ولكن عنف الدولة لا يصل إلى خير. كنا ندرك أن الدولة ضرورية، فمن الذي يدير الأشياء الأساسية؟.. إنها الدولة بالطبع.

كنا في الثورة نرى أنها ضرورة الضرورات، كان ينبغي أن نستخدم عنف الثورة لمواجهة عنف الدولة الفرنسية التي تستعمر بلادنا، كان استعمال العنف الأصغر ضد العنف الأكبر مغامرة، ولكنه كان ضرورة.. لو حسبناها بالورقة والقلم لما حاربنا الفرنسيين، المهم الطاقة المعنوية ينبغي أن تكون أكبر من أى طاقة. كان لدينا ألف قطعة سلاح فقط في البداية، وتمكنا في النهاية من إخراج اثنين ونصف مليون فرنسي ما بين مزارع وعسكري.

إننا لم نكن مثل مصر وتونس والمغرب، دولاً محتلة، بل كنا جزءًا من فرنسا، وكان الطريق صعباً.. طريق الثورة والتحرر، وحين أوشكنا الوصول إلى غاياتنا جاء بومدين وأضاع الثورة والدولة.. معاً"!

2. حتى يأتي المهدي المنتظر..

عبد الناصر هو الأقرب للكمال

علاقة الرئيس "بن بلة" بالرئيس "جمال عبدالناصر" هي في شقها الأول أساس لدخول "بن بلة" نادي الزعماء التاريخيين في العالم، وهي في شقها الثاني أساس الحساسية المفرطة لدى خصوم "بن بلة" من ميوله الناصرية وولائه القومي لعاصمة العرب في القاهرة!

يشعر "بن بلة" بالامتنان لدور "عبدالناصر" في دعم الثورة الجزائرية، ويحمل مشاعر ذاتية قوية تجاه "عبدالناصر" شخصاً وحكماً.

ويذكر "بن بلة" لـ"عبدالناصر" أول حديث معه حيث قال له "ناصر": "إننا مستعدون لدعمكم بكل ما نستطيع، هذه إمكاناتنا ونحن معكم" ، كما يذكر له وقفته إلى جانبه حين أطاح به إنقلاب "بومدين"، فقد طلب "عبدالناصر" من "بومدين" تسليمه "بن بلة"، ورغم رفض "بومدين" فإن عبد الناصر بقي على موقفه الوفي لـ"بن بلة".. إلى أن كان أسوأ يوم في حياة "بن بلة" حسب قوله "يوم موت الزعيم".. حين أبلغه ضباط الحراسة أن صديقه "عبدالناصر" قد مات.

حين سألت الرئيس "بن بلة" عن عصر الرئيس "عبدالناصر".. لم يستمع إلى بقية السؤال ولم ينتبه إلى ما كنت سأصل إليه.. وقاطع قائلاً: "لماذا أضعتم عبدالناصر؟ إنكم مخطئون في مصر.. هذا الرجل لا يتكرر، ولا تجود به الأمة إلا كل قرن أو يزيد وأنتم أضعتموه.."

قلت له: "ربما أضاعه الناصريون أنفسهم، فهم الذين أداروا أخطاءه في حياته وأداروا البلاد بعد مماته".. قال: "لا.. بل أضاعه الجميع، لقد أضعتم عبدالناصر"..

وأضاف: " لولا عبدالناصر لما خرجت فرنسا من الجزائر تحت أى ظرف، وبأى حال".

قلت: "إنك قلت كلاماً كهذا لخروشوف في مصر أثناء إحتفال السد العالي".. قال: "نعم وأكررها.. لولا هذا الرجل لما نجحت ثورة الجزائر".. قلت: "ربما يأخذ معارضو الرئيس عبدالناصر على الرجل سياساته في الداخل لا في الخارج".. قال: "أى عمل إنساني هو عمل ناقص، وسيظل عدم الكمال موجوداً باستمرار، ولكن حتى يأتي المهدي المنتظر سيظل عبدالناصر هو الأقرب للكمال، لا كمال لأحد.. لكن عبدالناصر كان عظيماً بالمقارنة بالآخرين.. كانت أخطاؤه مقبولة ومفهومة.. لقد كانت التحديات ضخمة ومقاومتها مستحيلة.. ومع ذلك فعلها عبدالناصر.. لقد عملنا في هذا الوقت أشياء كبيرة وعظيمة.. إن إنتصارنا في معركة التحرير وحدها.. هو عمل عملاق ينبغي احترامه على الدوام".

ويعود "بن بلة" إلى محاولات الاستعمار القضاء على "عبدالناصر" وقادة الثورات ويذكر شهادته على حرب 1956 في مصر.

يقول "بن بلة": "كنت مسجوناً في فرنسا، وفي أكتوبر 1956 وقبل أسبوع من العدوان الثلاثي على مصر، جاءني رئيس الأركان الفرنسي في السجن وقال لي: إن الجيش الفرنسي لن يقبل استقلال الجزائر، إن الهند الصينية بعيدة عنا "12" ألف كيلومتر، لكن الجزائر بعيدة عنا "800" كيلومتر فقط. يوجد "2.5" مليون مستوطن وعسكري ولن يقبل الجيش الفرنسي استقلال الجزائر.. وبالنسبة لصديقك عبدالناصر فإنه سيسقط بعد أسبوع..

لقد قال لي رئيس الأركان الفرنسي: إن أيام عبدالناصر معدودة، وقد فهمت فوراً أن هناك عدواناً، ولكن لم أتوقع أن تكون محاولة إسقاط عبدالناصر هى حرب بهذا الجحيم. وقد دخلت بريطانيا وإسرائيل الحرب وكان لكل طرف غرضه..

وفشلت جميع الأغراض. وقد تفهم الأمريكان هـذا الموقـف، وكـان الإنـذار الـسوفيتي الشهير: "إذا كان الإنجليز سيرمون القاهرة بالقنابل، فعلـيهم ألا ينـسوا أن القرميـد الإنجليزي الجميل يمكـن أن تـصيبه الـصواريخ الروسـية".. وقـد وجـدها الأمريكـان فرصة لإنهاء الاستعمار التقليدي.."

وحول النكسة والوفاة وفقـدان "بـن بلـة" لـ"عبدالناصـر" وهـو داخـل سـجنه يقـول: "في يـوم 5 يونيـو 1967 كنـت في الـسجن – في الجزائـر – وفي 28 سـبتمبر 1970 كنت لا أزال في مكاني داخـل الـسجن، والله إن الـسجن لم يـؤلمني، ومـا آلمـني طيلة مقامي فيه إلا هذان الخبران.. النكسة ورحيـل عبدالناصـر، وبالإضـافة إلى يـوم موت أمي، هذان هما اليومان الأسوأ في حياتي.. لقـد قـالوا لـي مـات صـاحبك.. ومـن وقتها لايزال في القلب حزن على ناصر".

* * *

ولما سألت الرئيس "بن بلة" عن إدارتـه للعلاقـة مـع "عبدالناصـر"، فقـد كـان واضحاً فيها الحميمية الشديدة.. وكان "عبدالناصر" زعيماً كبيراً، كما كان "بـن بلـة" رمزاً لكبرى ثورات العرب والعـالم الثالـث.. ثـم إن "بـن بلـة" .."جزائـري الطبـاع" حسب تعبيره، يعشق استقلاله وعلى أهبة الاستعداد للثورة والقتال.

يقول "بن بلة": "كان عبدالناصر سـهلاً ومرنـاً، وكـان يـسمع كلامـي في أمـور عديدة، وذات مـرة كـان هنـاك إجتمـاع لمجموعـة عـدم الإنحيـاز في القـاهرة، وكـان تشومبي رئيس حكومة الكونجو سيحضر هذا الإجتماع، وتشومبي حينئذ كان المـتهم الرئيسي باغتيـال الثـائر لوممبـا، وحـين اجتمعـت في الجزائـر مـع أعـضاء المكتـب السياسي لجبهـة التحرير، قـالوا لـي: يـا أحمـد.. إذا أصر عبدالناصـر علـى حـضور تشومبي إلى القمة لا تحضر.

ذهبت إلى مصر، وهنا قلـت لعبدالناصـر: تـشومبي.. وإلا سـأرجع إلى المطـار.

قال لي: إيه تشومبي.. ماله؟.. قلت: سآخذ طائرة وسأرجع إلى الجزائر. قال لي: عايز إيه.. قلت له: تشومبي مايحضرش.. قال لي: خلاص ما يحضرش.

والله الذي لا إله إلا هو.. فوراً قال لي خلاص، قلت له كلمة واحدة: تشومبي ما يحضرش. قال: مايحضرش. وبعدها قال لي: شوف تيتو يا أحمد، قلت له: هذا سهل أنا أتفاهم مع تيتو جيداً، وقلت لزميلي تيتو: تشومبي ما يحضرش، قال لي: عندك حق".

وقد كان "بن بلة" مسموع الكلمة عن "عبدالناصر" في مدى أوسع من ذلك، ومن بين تدخلاته المقبولة لدى قائد الثورة المصرية.. هو تدخله للإفراج عن الكاتب الصحفي "لطفي الخولي" حين اعتقل ما بين عامي 1959 و 1961. فقد تدخل "بن بلة" و"هيكل" معاً لدى "عبدالناصر" وأسهمت جهودهما في الإفراج عنه.

وكان "لطفي الخولي" هو من شارك في تأسيس العلاقة بين المثقفين المصريين وبين قادة الثورة الجزائرية الوليدة، وهو ما جعله بعد ذلك يسهم بدور في الوفاق الجزائري كلما نشب خلاف بين قيادات الثورة. ولم يكن مدهشاً أن يكون "لطفي الخولي" هو أول من يزور العاصمة الجزائرية للقاء "بومدين" بعد ساعات فقط من إنقلابه على "بن بلة"!

وقد سألت الرئيس "بن بلة" عما بقي في موقفه تجاه "لطفي الخولي" الذي كان صديقاً حميماً له، ثم صديقاً أكثر قرباً لمن انقلب عليه.

قال "بن بلة": "كنت معجباً في البداية بلطفي الخولي، فقد كان من أوائل الذين فهموا الثورة الجزائرية، كنت وقتها في مصر، وكنت متخفياً، فقد حاولوا اغتيالي مرتين، ومن أوائل المصريين الذين عرفتهم وقتئذ لطفي الخولي، وحين اعتُقل توسّطتُ لدى عبدالناصر للإفراج عنه، ولكنه أدهشني فيما بعد بوقوفه مع بومدين بعد إقصائي، وكان يحضر احتفالات يسبُّون فيها عبدالناصر. لقد جرحني ذلك في

العمق، وأنا لا أغفر له أبداً وقوفه مع بومدين.. لقد كان لطفي الخولي موضع حـبي.. ولكن تغير موقعه الآن".

وقد تدخل "أحمد سويسي" في الحوار مضيفاً: "إن لطفي كان يبحث عـن دور، كان في قلب اليسار، ثم كتب عن مدرسة السادات السياسية،وكان في موقـع نـضالي ثـم دخل لعبة كوبنهاجن.. ثم أدرك أنه ليس أكثر من حجر شطرنج في لعبـة أكـبر منـه. لقد أفّسَدَت علاقتُه بالرئيس عرفات الكثير من علاقاته الأخرى".

وبالطبع فإن صداقة "لطفي الخولي" للخصمين الثـوريين تـثير الانتبـاه، غـير أنه إذا كان ذلك عملاً بائساً من الناحية السياسية.. يظل مفهومـاً مـن جهـة الـصحافة ومتطلبات المهنة. وأما اختيـاره لحركـة كوبنهـاجن.. مـن الفكـرة إلى الحركـة.. فقـد جاءت نتيجة تحولات فكرية أكثر منها فساداً في السعى أو انحرافاً في الممارسة.

* * *

3. بن بلة لخروشوف:

الشيوعيون الجزائريون أيدوا الاستعمار الفرنسي

كان "خروشوف" الرجل الاستثناء في تاريخ القادة السوفييت، بمثل ما كان "جون كينيدي" في الولايات المتحدة الأمريكية.

وكان بإمكان العالم العربي أن يستفيد كثيراً لو بقى أيٌّ من الرجلين في موقعه، غير أن "خروشوف" سرعان ما تم إقصاؤه، و"جون كينيدي" جرى اغتياله.

وربما لو لم يوجد الرجلان في ذلك العصر معاً، لفقد الزمن السياسي وقتها الكثير من جاذبيته وحضوره.

يذكر السفير "مراد غالب" سفير مصر الأسبق في الإتحاد السوفيتي والصديق العائلي لأسرة "خروشوف"، أن الزعيم السوفيتي جاء ليمثل ثورة جديدة في الإتحاد السوفيتي وفي الحزب الشيوعي الحاكم، فهو أول من كشف أخطاء "ستالين" والجرائم البشعة التي ارتكبها، وعمل على إرساء شكل جديد من العلاقة بين الحزب والشعب السوفيتي، وكان حريصاً على لقاء العلماء السوفييت بانتظام ومقيماً لعلاقات شخصية معهم، يلتقيهم في غداء أو عشاء يستمع إليهم ويتبادل الرأى معهم. إذ كان "خروشوف" يرى أن التكنولوجيا هى المخرج للاقتصاد السوفيتي من التخلف إلى التقدم.

ويكمل السفير "مراد غالب" في مذكراته: حين أتأمل ما جرى للإتحاد السوفيتي بعد ذلك بسنوات فإنني أتذكر ما كان خروشوف يردده باستمرار عن اقتناعه بأهمية العلم والتكنولوجيا في أن تلحق بلاده بالولايات المتحدة من حيث التقدم، وكان لخروشوف مقولته الشهيرة للأمريكان: "سوف ندفنكم"، وقد فهم

الأمريكيون المقولة على أنه يقصد فناءهم لكنه كان يقصد أنه سيحقق تقدماً اقتصادياً وعلمياً يدفن النموذج الأمريكي. وكان الرئيس الأمريكي نيكسون أكثر الرؤساء الأمريكيين فهماً لخروشوف وإعجاباً به، ويعتبره أذكى من تولى الحكم في الإتحاد السوفيتي خاصة بالنسبة لمن جاءوا بعده.

وحدث أن قال لي – يحكي مراد غالب – علماء في أكاديمية العلوم السوفيتية أن لدينا أبحاثاً خطيرة للغاية لكنها حبيسة أدراج المكاتب، منها أبحاث عن أجهزة تصيب كل معدات الرادار وأجهزة التوجيه بالشلل التام. لكننا ليست لدينا القوة التكنولوجية التي تملكها أمريكا والتي تساعدنا على تحويل ما لدينا من اكتشافات نظرية إلى أجهزة ومعدات عملية. ومرة سألت – يستطرد غالب – أستاذاً للرياضيات بجامعة موسكو عن انطباعه بعد عودته من زيارة للولايات المتحدة فقال الي كلمة واحدة: التكنولوجيا.

إلى جانب رؤيته للعلم كان "خروشوف" جاداً في الإفادة من دروس السياسة، وينقل "مراد غالب" عن "خروشوف" في حديث جرى بينهما في عقب أزمة الصواريخ الشهيرة قلقه على مستقبل العالم إذا ما تهورت القوى العظمى وافتقدت المسئولية..

قال "خروشوف" لـ"غالب": "إن الموقف الدولي يحمل عناصر إيجابية وعناصر سلبية، فلقد كان العالم على وشك مواجهة حرب نووية تدمر كل شئ، واستخلصنا من هذه المواجهة درساً بأن علينا ألا ندفع بالعالم إلى حافة الدمار الكلي لكوكب الأرض.

إن الولايات المتحدة من جانبها قد وعت هذا الدرس جيداً والبعض من السياسيين الأمريكيين الكبار قالوا لي لقد كنت حكيماً لأن أى خطأ كان يمكن أن يدمر الكرة الأرضية. أما عن العناصر السلبية فمازال في العالم الكثير من القنابل الهيدروجينية والذرية ولا أحد يعلم الظروف التي قد تأتي في المستقبل وربما يقع ما

يسبب توتر العلاقات الدولية بدرجة مخيفة".

* * *

سألت الرئيس "بن بلة" عن الزعيم السوفيتي "خروشوف" فقال: "كان شخصية خصبة، كان أخصب من كينيدي، وكان عفوياً، ولم يكن عنده كلام المتحذلقين، وكانت عفويته مفرطة ومذهلة وكانت تركيبته الشخصية طبيعية وجذابة".

ويكمل "بن بلة": "إننا نقدر لخروشوف تهديده دول العدوان الثلاثي باستخدام السلاح النووي إذا لم يخرجوا من مصر، واضطرهم بذلك للركوع، كما نقدر له دوره العظيم في بناء السد العالي في مصر، وفي تسليح ودعم حركات التحرر الوطني".. "لكنني كنت ذات مرة سأتركه وأذهب إلى المطار، لأنه هاجم عبدالناصر بسبب اعتقال عبدالناصر للشيوعيين".

وكان رأى "خروشوف" أن "عبدالناصر" يحصل على دعم موسكو لكنه يعتقل الشيوعيين في بلاده، وهذا نكران وجحود، واتهم "خروشوف" العرب عموماً بعدم الوفاء.

ويسرد السفير "مراد غالب" ما جرى بين "خروشوف" و"بن بلة" قائلاً: "في أول مايو 1964 كان خروشوف في مصر لافتتاح المرحلة الأولى من السد العالي، وكان في الاحتفال أحمد بن بلة وعبدالسلام عارف. وقد دارت أحاديث متنوعة بيننا ونحن نسير على السد.. عبدالناصر وخروشوف وبن بلة وأعضاء مجلس قيادة الثورة وأنا.

تحدث خروشوف عن الحركة الشيوعية ودافع عن دورها في حركات التحرير ومساعدته لها ودور الشيوعيين في تحرير الشعوب. ولكن بن بلة استوقفه ليرد عليه وأشار بيده ناحية جمال عبدالناصر وقال: أقول لك بكل صراحة: لولا هذا الرجل ما كنا استطعنا أن نقوم بالثورة في الجزائر. إن الحزب الشيوعي الجزائري كان يدافع

عن ضم الجزائر إلى فرنسا، لأن هذا كان رأى الحزب الشيوعي الفرنسي. وأنا لا أنكر مساعدتكم لنا والتي كانت تأتينا عن طريق مصر، لكن أريد أن أؤكد أن هذا الرجل وأشار مرة أخرى إلى عبدالناصر هو صاحب الفضل في قضيتنا".

ويتابع "مراد غالب" الرواية منتهياً: "لقد دارت بعد ذلك أحاديث كثيرة عن السد العالي واستصلاح الأراضي ومشكلة الإسكان.. ولاحظ عبدالناصر أن خروشوف كان محتضناً بن بلة برغم ما قاله عن دور الشيوعية!"

على أى حال لم يمكث "خروشوف" في السلطة طويلاً.. فقد اجتمعت اللجنة المركزية في جلستها الشهيرة لمحاسبة "خروشوف" على ما اعتبرته سياسات خطيرة غير مقبولة وقررت عزله عن منصبه، وبادرت القيادة الجديدة التي خلفته في الحكم بتصفية جميع إصلاحاته، ودخل الإتحاد السوفيتي مرحلة الجمود..

سألت "بن بلة" عن المشهد الختامي في حياة "خروشوف" سياسياً.. قال: "يوم أقالوه كان غائباً، فقد اجتمعوا وأقالوه، وجاءت الترويكا لتحكم.. وفي ذلك الوقت كنت لا أزال في السلطة، ورفضنا مقررات الحزب الشيوعي بإقصائه ورفضنا الترويكا التي جاءت بعده في الحكم".. "حين أنظر الآن إلى خروشوف أشعر.. كم كان الرجل إيجابياً وفعالاً.. وكم خدمنا كثيراً في العالم العربي".

* * *

4. بن بلة

يقابل كينيدي ويزور كاسترو ويستقبل جيفارا

في هذا الجانب من الحوار يشعر المرء بالغيظ، فكم كانت آراء ورؤى الثوريين العرب إنفعالية وإرتجالية إلى حد بعيد. كان الصخب الثوري والصراخ الوطني هو الغالب على حكمة الرأى وحقائق العالم.. والطريق إلى تحقيق المصالح.

ولكم يبدو خللاً جسيماً ذلك اللاوعى الثوري العربي بحجم وأخلاقية رئيس قوى عظمى مثل "جون كينيدي"، وكم يبدو مؤلماً ذلك الغرور غير المبرر الذي انتاب السياسيين العرب في تلك الأثناء إزاء واشنطن وإزاء الرئيس الاستثناء في تاريخ الولايات المتحدة، والمؤكد أنه كان بالإمكان الإفادة من عصر "جون كينيدي" المحدود، لو أن السياسة غلبت الخطابة ولو أن تعظيم المنافع غلب هتاف الجماهير.

ولما سمعت من الرئيس "بن بلة" أنه أحرج الرئيس "كينيدي"، اعتقدت أنه انفعال طارئ من "بن بلة"، غير أنه قال: "كان لدى أمر واضح ومباشر من جبهة التحرير بأن أذهب من الولايات المتحدة إلى كوبا للقاء كاسترو.. أيا كان الأمر".

وهو الأمر الذي لم يكن موفقاً بأى حال، وقد خسرت الجزائر وخسر "بن بلة" بسببه الكثير.. ولم يكن هناك ما يستحق.

كان "بن بلة" في هذه الأثناء رئيساً للوزراء، ولم يكن بعد رئيساً للجمهورية، ولكنه كان زعيم الثورة ووجهها لدى العالم. وفي أثناء زيارة له إلى الأمم المتحدة في نيويورك، وجه الرئيس "كينيدي" الدعوة للثائر الجزائري لزيارته في البيت الأبيض، واستقبله "كينيدي" استقبالاً رسمياً فاخراً، وعامله معاملة رؤساء الدول.. فوضع له البساط واستعرض معه حرس الشرف.. الأمر الذي يصفه "أحمد سويسي"

بأنه خرق للبروتوكول من أجل "بن بلة".

وبعد إنتهاء اللقاء، قال "بن بلة" إنه سيقوم بزيارة كوبا إنطلاقاً من الولايات المتحدة، وهو ما يمثل أمراً إستفزازياً لواشنطن وإحراجاً كبيراً للرئيس "كينيدي" الذي خرج للتو من إحتمالات حرب عالمية من جراء الأزمة الكوبية، ولكن "بن بلة" فعلها واتجه إلى هناك ضارباً عرض الحائط بحسابات الرئيس "كينيدي" وملتقياً في هافانا بصديقه "فيدل كاسترو".

سألت الرئيس "بن بلة" عن ذلك قال: "عاملني كينيدي معاملة طيبة، واستقبلني كرئيس جمهورية مع أني كنت رئيسًا للحكومة المؤقتة. وكان كينيدي مصراً على استقلال الجزائر، كان رائعاً وطيباً في داخله. ولكني قلت له: سوف أذهب من هنا إلى كوبا، فذهل كينيدي وقال لي: من هنا؟!.. لو فعلتها لضربتك الدفاعات الجوية الأمريكية، فهي تضرب كل طائرة تذهب إلى كوبا، قلت له: نحن ثوار.. لا نخاف، وأنا عندي قرار من الحزب "جبهة التحرير" بالسفر من هنا إلى كوبا لزيارة كاسترو، وهذا قرار مقدس لابد من تنفيذه. قال: اذهب إلى المكسيك ومن هناك إلى كوبا، قلت له الأمم المتحدة ليست أرضاً أمريكية وقد سببت له إحراجاً كبيراً بذلك.. ولكنه في النهاية قال لي: اذهب.. ذهبت إلى كوبا وكان استقبالي هناك عظيماً، فلم يكن هناك من يجرؤ على زيارة كوبا في ذلك الوقت".

سألت "بن بلة" عن صديقه "كاسترو" والذي لأجله أحرج "كينيدي" وسافر إلى هافانا قال: "علاقتي بكاسترو كانت ممتازة، كان هناك تبادل وتعاون اقتصادي بيننا بدون حساب أو تسوية بين وزيري التجارة، كان يرسل لنا حاجات ونرسل له حاجات ولا نعرف من يربح فينا، وقد عملت هذا مع نيريري وعبدالناصر وكينياتا.. بدون حساب".

* * *

استمرت العلاقة الوطيدة بين "بن بلة" و"كاسترو" إلى أن استضاف "بن بلة" الثائر العالمي "جيفارا" عنده في الجزائر، بعد خلاف "كاسترو" و"جيفارا" في كوبا. وفيما بعد أصبح "كاسترو" صديقاً لـ"بومدين".. وأساس الجفوة التي حصلت بين "بن بلة" و"فيدل كاسترو" اعتقاد "كاسترو" التام بأن "بن بلة" قد احتضن "جيفارا" حين اختلف مع "كاسترو".. نكاية في "كاسترو" ودعماً وتقديراً لـ"جيفارا".

كان "جيفارا" قد جاء إلى الجزائر بعد خلافه مع "كاسترو".. وقال لـ"بن بلة": "إن كاسترو يريد بناء دولة وأنا لا أريد قضاء عمري وزيراً" وبقى "جيفارا" في الجزائر ستة أشهر في عام 1964، وقد كتب "بن بلة" مقالاً لصحيفة "لوموند"، وألقى محاضرة في جامعة "لوفان الحرة" في بلجيكا حول صداقته بـ"جيفارا".

* * *

إن "بن بلة" يكن تقديراً كبيراً لـ"جيفارا" و"عبدالناصر" معاً.. وهما الاسمان الأكثر تكراراً واحتراماً لديه.. يقول: "عبد الناصر لديه ثورة عميقة وجيفارا لديه نضوج ثوري كبير".. كان "عبدالناصر" ذكياً وإستراتيجياً أما "جيفارا" فلم يكن إستراتيجياً بل كان ثورياً دائماً وقد دفع حياته مقابل رأيه في أن الثوار لا يقيمون دولة، بل يثورون دائمًا.

كان "جيفارا" يندهش كيف يبيع الإتحاد السوفيتي سلاحه لحركات التحرر، ويعلق "بن بلة": "على أى حال فإن حركات التحرر لم تدفع مقابلاً في النهاية.. وكان الأجدى أخلاقياً ألا يطلب السوفييت مالاً".

وفي هذا السياق يمكن القول بأن السلاح السوفيتي عموماً لم يكن يباع غالياً أو بأسعار الغرب، بل كان رخيصاً وبلا عمولة.. أى بسعر التكلفة.

ويقول السفير "مراد غالب": "كنا نشتري الطائرة الميج بما يتراوح بين "175" ألفاً و"200" ألف دولار، وهو مبلغ زهيد بالمقارنة بأى طائرة على هذا

المستوى في الغرب، ويتراوح سعرها ما بين عشرة وخمسة عشر مليوناً من الدولارات.

وكان من رأى رئيس الوزراء السوفيتي كوسيجين – مثلاً – أنه ليس من مصلحة مصر تصنيع الأسلحة باعتبار ذلك شيئاً لا جدوى منه. وكان يقول لعبدالناصر: إن الطائرة التي ستنتجها ستساوي طائرة من الذهب لكثرة تكاليفها، وما إن تنطلق وتحلق في الفضاء حتى تكون قد تخلفت عن إنتاج آخر جيل متطور".

على أى حال فقد جاء "جيفارا" إلى الجزائر.. ثائر جاء إلى ثورة، سألت الرئيس "بن بلة" عن "جيفارا" في الجزائر قال: "تعود علاقتي بجيفارا إلى ما قبل ذلك، التقيت به لأول مرة بعد الاستقلال في حفل رمزي لرفع العلم الجزائري في مبنى الأمم المتحدة. ولما ذهبت من هناك إلى كوبا متحدياً كينيدي، استقبلوني هناك أعظم استقبال.

إنني أتحدث الأسبانية، قلت لكاسترو: كينيدي كان يريد ضربي، وكان جيفارا موجوداً، ولكنه كان ساكتاً لا يتكلم ورأى جيفارا وقتها أن عليه ألا يقضي حياته وزيراً، واتفق مع كاسترو على ترك وزارة الاقتصاد.. كان يرى أن برنامجه الأهم هناك.. في كل العالم.. إشعال الألف نار.. أى إشعال ألف ثورة حول العالم".

"بقى جيفارا عندنا في الجزائر ستة أشهر، وكان يسافر ويعود عدة مرات، وقد أحب بلادنا كثيراً وكاد يتزوج جزائرية. وكان جيفارا يحكي لوالدته عن إقامته عندي، وهى قالت ذات مرة إن هناك شيئاً بين "جيفارا" وبين "كاسترو" وهو عند بن بلة.. وأنا كنت متكفِّلاً بوالدة جيفارا".

"كان جيفارا عنده الربو، وكانت نوبة السعال إذا جاءته خرج فوراً إلى الجبل، كانت هناك سيارة ودراجات نارية تفتح له الطريق ليصل إلى مكان جاف على وجه السرعة. وقد أصابه الربو في الطفولة وبقى معه إلى أن مات، وكان يحتاج إلى تغيير الجو باستمرار.. وكان ضيق التنفس هذا يجعله متمرداً أكثر وأكثر.."!

"خرج جيفارا من عندنا إلى أنجولا والكونجو وغيرهما من أجل نقل الثورة العالمية إلى أفريقيا.. قلت له: احذر فإن الأفارقة سيجدونك رجلاً أبيض تريد أن تستأسد عليهم ثم إن أفريقيا ومناخها الإستوائي لن تناسب أبداً حالتك الصحية، وقد عرفت لاحقاً أن عبدالناصر قال له إنك لا تستطيع كأمريكي لاتيني أن تكون جزءً من النسيج الأفريقي".

"حين التقى جيفارا بكابيللا الأب في الكونجو، رفض كابيللا أن يمضي معه في فكرة تصدير الثورة ومفهومه للثورة العالمية، فقد كان لكابيللا هدف واحد هو استعادة الكونجو من أعداء لومومبا وليس أكثر، لم يكن له رأى نظري، ولم يكن ثورياً طموحاً لديه أفق سياسي مثل لومومبا.. وقد اعتبر جيفارا كابيللا رجلاً غير ثوري، ومتخلياً عن أفكار لومومبا ويحب الكافيار والشمبانيا والسيجار ويأكل كالغربيين وأصبح سميناً من الترف!"

* * *

مرّت السنون ليرحل "جيفارا" ويسجن "بن بلة" وتنجح الولايات المتحدة في إقصاء قادة الثورات في ذلك العصر منتهزة فرصة المشكلات التي يواجهها هؤلاء الثوار. ويذكر "ميرل ميلر" في كتابه "السيرة الذاتية لجونسون" أن "جونسون" كان وطيد الصلة باللوبي اليهودي وإسرائيل.. وأنه حين قال "عبدالناصر" في بورسعيد محتفلاً بذكرى النصر "ديسمبر 1964" عبارته الاستفزازية "من لا يعجبه البحر الأبيض فليشرب من البحر الأحمر" قاصداً الرئيس الأمريكي "جونسون"، قرر "جونسون" وقتها التخطيط لتجويع مصر عام 1965.

وينقل "ميلر" عن السفير "ريتشارد كيرتس" الذي كان نائباً لرئيس هيئة الإعلام الأمريكية أن "جونسون" كان معادياً لمصر وموالياً لإسرائيل، وأنه عارض وهو في الكونجرس سياسة الرئيس "دوايت أيزنهاور" التي أدانت العدوان الثلاثي على

مصر عام 1956. وقد بقى على مواقفه إلى أن بدأ حملة واسعة فيما بعد للإطاحة بثوار العالم الثالث "المزعجين".. وقد استطاعت الولايات المتحدة التخلص منهم واحداً واحداً.. من "سوكارنو" في أندونيسيا إلى "موديبو كيتا" في مالي، إلى "نكروما" في غانا إلى "سيكوتوري" في غينيا إلى "عبدالناصر" في مصر.. وهو ما يحصيه الرئيس "بن بلة" باثنين وعشرين إنقلاباً أطاحت باثنين وعشرين رئيسًا ثائراً..!

لقد مرت سنون أخرى حتى دخل العالم عصراً آخر، وسيطر على مقاليده أناس آخرون.. ومنذ ذلك الحين لم يلتق "بن بلة" رموز عصره رأىْ العين.. إلا في عام "2002" حين التقى "فيدل كاسترو" في المؤتمر العالمي لمناهضة العنصرية الذي انعقد في مدينة ديربان بجنوب أفريقيا.. كانت المصافحة بينهما بعيدة كثيراً عن المصافحة السابقة بينهما قبل عقود.. ولم يكن في العالم ثابتًا غير تلك القبضتين المتصافحتين!

5. بن بلة

يدرب نيلسون مانديلا ويرقص مع شافيز

على الرغم من أن "بن بلة" يبدي اندهاشه إزاء فكرة "تشي جيفارا" في الثـورة الدائمة، أى ضرورة إشعال ألف ثورة في العالم وإيقاد ألف نار في جنباته الأربع. فـإن "بن بلة" نفسه هو ثوري دائم.. فهو مؤيد لكـل ثـورة ومعـارض تقريبـاً لكـل نظـام.. ومنذ صداقته لـ"جيفارا" و"كاسترو" ولـ"عبدالناصر" و"خروشوف" و"تيتو" واستقباله لـ"مانديلا" و"كاوندا" و"سامي نجوما" لتدريبهم في الجزائر.. وهو لايزال يرى نفسه في الثوريين الجدد في العالم.. وبالطبع فإن الفنزويلي "شافيز" يتصدر القائمة.

سألت الـرئيس "بـن بلـة" عـن الثـوريين القـدامى والثـوريين الجـدد.. قـال: "كثيرون تدربوا عندنا، نيلسون مانديلا وكينيث كاوندا من زامبيا وسامي نجومـا مـن ناميبيا ورئيس موزمبيق.. وغيرهم كثيرون.. كانت ثورتنا يومئـذ في الـسماء، وكنـت أنا وجيفارا نشرف على تـدريبهم وقـد أعطيـت كاونـدا سـلاحاً، وأرسـلت سـلاحاً إلى الكونجو بالإتفاق مع الأخ عبدالناصر، كنت أرسل مـن الجزائـر يوميـاً طـائرة مملـوءة بالسلاح. كانت فرنسا أسبق وأقـوى منـا هنـاك، وقـد ذهبنـا نحـن متـأخرين، لكننـا أرسلنا، وكانت الطائرة تخرج من الجزائر إلى المناطق الحدودية وتفرغ السلاح".

قلت له: "وماذا لو كان أحد قد اعترضها؟".. قـال ضـاحكاً: "والله كنـا نمـشي على طول واللي يحصل يحصل!".. "كنا نرسل ذلك وقت لومومبا، كنا نعرفه ونعرف من يعمل معه، ولم أكن أعرف كابيللا جيداً في ذلك الوقت، وعندما قتلوه، عملنـا مـن أجل بقاء رسالته.. فأرسلنا السلاح".

"كان مانديلا وقتها شاباً ثائراً يتـدرب عنـدنا، وكـان أول لقـاء بيننـا حـسبما

ذكرني فيما بعد.. حين ذهب إلى المغرب لاستقبالي عندما خرجت من السجون الفرنسية، وقد قابلته ثلاث مرات في السنوات الأخيرة".. "وأما زميلي نيريري فقد أرسلت له السلاح لدعمه حين وقع إنقلاب ضده، كما أرسلت له رجالاً لمساعدته، وقد التقيته هو الآخر في ليبيا عام 2000".

"وعن زميلي تيتو، فهو شخص رائع، ومقاتل عظيم، إنه من أروع الشخصيات التي التقيتها، وكانت العلاقة بيننا متميزة جداً.. وقد أعاننا كثيراً كثيراً".. "ولكني لم ألتق نهرو، فكل ما مكثته في الحكم عامين ونصف عام.. وفي آسيا فإنني التقيت صديقي شواين لاي السياسي الصيني العظيم عدة مرات، كان عظيماً عظيماً عظيماً.. كان عظيماً للغاية، وقد زارنا في الجزائر أكثر من مرة. كان بارعاً في إدارة الشئون الخارجية وممسكاً للأمر وبشكل مذهل.. كان بحراً.. ولم أر في حياتي مثله".

قلت: ألم تخلق علاقتكم بالصين حرجاً لكم مع موسكو؟.. قال: "لا.. لقد كانت الجزائر مدخل الجميع إلى أفريقيا ولا غنى لأحد عنها".

* * *

سألت "بن بلة" عن الثائرين العرب.. قال: "أعظمهم عبدالناصر.. إنه لن يتكرر، تستطيع أن تقول إنني ناصري".

"كان المهدي بن بركة في المغرب عبقرياً.. كان بالغ العبقرية بل كامل العبقرية، وقد اخترته الممثل لي – وليس وزير الخارجية الجزائري – في المؤتمر الأفريقي الآسيوي اللاتيني "مؤتمر القارات الثلاث" وكان هو السكرتير العام لهذا المؤتمر، وراح وألقى كلمتي نيابة عني في هافانا. وبعد ذلك تم اختطافه بينما كنا نستعد لمؤتمر آخر لتجمع القارات الثلاث.

"لقد بقيت على صلة فيما بعد خروجي من السجن بالثوريين القدامى والجدد، والتقيت مانديلا ونيريري وكاوندا.. والتقيت القذافي وشافيز وسألتقي غداً صدام

حسين. قال لي القذافي إنه أخذ تجربته مني إعجاباً بهـا، وعـن شـافيز فقـد انـدهش الرجل أنني مازلت حياً، كان يعتقد بأنني رحلت عن الحياة منـذ أيـام جيفـارا، وقـد دعاني إلى هناك في خريف 2001 "قبل الإنقلاب عليه بدعم أمريكي ثم عودتـه بـدعم شعبي" وأعطاني أعلى وسام في فنزويلا".

ويضيف "أحمد سويسي": "أرسل لنا شافيز طـائرة خاصـة لنـذهب لزيارتـه، وقد عمل لنا حفلاً كبيراً قام فيه بالغناء، فهـو يحـب الموسيقى والغنـاء، وطلـب مـن الرئيس بن بلة أن يغني، فاعتذر، قال له شافيز: حاول، لقد غنى معـي كاسـترو ولم يكن صوته جيداً بأى حال!".

* * *

سألت الرئيس "بن بلة" عن علاقته أو مواقفه من اليمين العربي.. "بورقيبـة" مثلاً أو "أنور السادات".. قـال: "لا أود أن أتحـدث عـن الـسادات، لم يكـن الـسادات امتداداً للثورة، وحرب أكتوبر لم تكن وليدة السنتين اللتين حكم فيهما الـسادات بـل هى جهد ما بعد النكسة.. من الذي أدخل الفلاحين إلى الجامعة ثم إلى الجـيش؟.. ثـم إلى النصر والبنـاء؟.. إنـه عبدالناصـر، وعلـى العمـوم فأنـا لا أرغـب في الحـديث عـن السادات"..

"وأما الـرئيس التونـسي الحبيـب بورقيبـة.. فقـد كـان في واد ونحـن في واد، بورقيبة شيء وأنا شئ، إننا لا نلتقي في أي شئ، هو شيء وأنا ضد هذا الشئ، هو مع النظام العالمي وأنا أبحث عن نظام عالمي آخر.. لقد التقيت بورقيبة شخـصياً ولكـني لا أعتبره زميلاً لي. لكنه كان يوافق على مرور طائرتنا من فوق أراضيه حاملـة الـسلاح إلى أفريقيا، كنا نحـرج بورقيبـة بـذلك، وهـو كـان يوافـق.. ولم نـضع في حـسابنا أن يرفض".

"لقد أقنعت عبدالناصـر بـالمجئ إلى تـونس، قـال لـي: يـا أحمـد نعمـل إيـه

هناك.. قلت له: معلش، عشان العلاقة بين الجزائر وتونس تتحسن. قال لي: ماشي سأذهب عشان خاطرك.. أنا الذي اقترحت على عبدالناصر زيارة تونس وأنا الذي أتيت به.. وهو لم يكن راغباً في زيارة بورقيبة أبداً.. وعموماً فقد جاء عبدالناصر إلى تونس، والتقى بورقيبة.. وكانت الطامة الكبرى.. ولا أحكيها!".

6. لا أثق بالشقيري ولا أعرف عرفات وقدمت "أبوجهاد" لجيفارا

يملك الرئيس "بن بلة" رؤية واضحة إزاء الصراع العربي – الإسرائيلي وعلى الرغم من ثوريته فهو واضح في الفصل بين اليهود وإسرائيل، وبين اليهودية والصهيونية، وهو إذ يرى إسرائيل آخر ظاهرة استعمارية، وأنها إلى زوال، يرى الفيلسوف الفرنسي "روجيه جارودي" مثقفاً عنصرياً لا يفصل بين العداء لإسرائيل والعداء لليهود.

سألت الرئيس "بن بلة" عن إسرائيل قال: "إذا عدنا إلى الوراء.. فإن العرب في شمال أفريقيا هم الذين قاتلوا ألمانيا وإيطاليا وحرروا فرنسا في الحرب العالمية الثانية. وكان اليهود وقتذاك فرقتين، وعادوا هم بجيش قوى حديث بعد الحرب.. ولكننا لم نعد بشئ".. قلت: لماذا؟.. قال: "بعض العسكريين العرب بقوا هناك، والذين عادوا هم الذين خاضوا معركة التحرير في الجزائر. وبالنسبة لبورقيبة في تونس فهو لم يشأ تكوين جيش حديث من الأساس، وهكذا بدأت إسرائيل بمقاتلين محترفين خاضوا حرباً عالمية".

"أنا اعتبر اليهود أقاربنا، وقد عشت معهم، عشت مع يهودي في بيت واحد، كان يعيش مثلي ويأكل مثلي ويستمتع بوقته مثلي، وكنت آكل من ذبائحهم، وعندي زملاء يهود من أيام الدراسة، هم من أفضل أصدقائي إلى الآن، حوالي عشرة من أصدقائي اليهود.. هؤلاء هم اليهود الذين نعرفهم.. لكن أن يأتوا بكيان صهيوني إلى هنا هذا غير مقبول".

"إن إسرائيل ترى ضرورة السيطرة على المنطقة، ليس لمصلحتها فحسب، بل

لمصلحة النظام العالمي، بوش في العالم هو شارون في الشرق الأوسط".. "الحديث عن التسوية السلمية غير مقبول، لا إمكانية لبقاء كيان صهيوني في المنطقة العربية، هذا استعمار.. إسرائيل آخر ظاهرة استعمارية، وهى في النهاية إلى زوال".. "لقد عاش اليهود عندنا أكثر مما عاشوا في إسرائيل، لم نطردهم ولم نضطهدهم كما فعلت أوروبا.. الصهيونية ليست اليهودية بل هى شكل استعماري غربي بعيد عن الدين وعن التاريخ.. اليهود كانوا يعيشون في العالم لكنهم جروا الخصومة إليه. إسرائيل أسسها يهود أوروبيون من أجل الصراع لا من أجل التعايش. إنهم لم ينجحوا في السيطرة ولم يقبلوا التعايش ولم يجمعوا يهود العالم إلى هنا، هنا يصنعون القنبلة الذرية حلاً لمأزق وجودهم وبقائهم".

"الذين يريدون منا أن نغلق الملف هم أناس عايزين يبيعونا والله، إن إسرائيل لن تستمر بغض النظر عن الأداء العربي، الوقت وحركة التاريخ سينهيان وجودها. لن ينتهي النضال أبداً حتى لو زاد الفقر والبؤس، وحتى لو بسطت أمريكا سياساتها ورؤيتها"

* * *

سألت الرئيس "بن بلة" عن الجانب الآخر.. عن الثورة الفلسطينية وعن ثوارها، قال "بن بلة": "لم أكن استريح إلى أحمد الشقيري أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية، لم أكن أثق فيه ولا أرتاح له أبداً، وكنت أثق واستريح إلى "أبوجهاد" الذي أعرفه جيداً وكنت أشم فيه ريحاً طيبة، وأنا الوحيد الذي استقبلته في الجزائر وأنا رئيس، كما أنني أول من فتح مركزاً لحركة فتح في الجزائر وقد كان لـ"أبوجهاد". ولكن الجامعة العربية كانت تعترف بالشقيري.. وحتى الأخ عبدالناصر قال لي: أنت ماشي فين يا أحمد.. الجامعة العربية مع الشقيري وأنت رايح فين؟!.

لم أكن أرغب في "تبويظ" الأشياء بعد اعتراف الجامعة بالشقيري، لكنني استقبلت "أبو جهاد" وأعطيته مقراً رسمياً ومساعدات، كان "أبو جهاد" يقنعني تماماً، أنه رجل عظيم، وكان تقديري أنه ينبغي ألا نفرط في هذا الرجل، وقد طلب مني أبوجهاد أن يتعرف إلى تشي جيفارا، وقمت بتعريفهما ببعضهما وتفاهما للغاية، لقد صارا صديقين وتوثقت العلاقة بينهما، وكانا يتزاوران باستمرار ويتحدثان باعجاب عن صحبتهما.. كنت شديد الإيمان بقيمة "أبو جهاد" لكن عبدالناصر قال لي وقتها: أنت بتعمل إيه يا أحمد؟!".. "وأما ياسر عرفات فلا أعرفه جيداً"!

7. التاريخ ينتقل من أمريكا إلى أوروبا والعالم الحالي يحكُمه الرسُّل

أين يقع "بن بلة" الآن.. أين هو من الماركسية التي بدأ فيها.. ومن العولمة التي عصفت بها، ومن التاريخ الذي تصدره ذات يوم ثائراً.. ثم رأى نفسه خارج التاريخ؟

سألت الرئيس "بن بلة" عن اليسار وعن اليمين وعن الإشتراكية والعولمة.. قال: "أنا لست ضد الشيوعية، وقد أعاننا الاتحاد السوفيتي كثيراً، لكن الشيوعية ظاهرة ترمي إلى نفس المقاصد الليبرالية، يعني أفكار مادية بحتة، والعلم الآن هو الذي لا يقر بأن الأفكار المادية وحدها هى الحقيقة".

"الاتحاد السوفيتي أعطانا السلاح وأعطى ناصر السلاح، وإلى الآن معظم أسلحتنا روسية، ولكن كأطروحة للتغيير.. فالماركسية تقع داخل النسق الغربي، مقاييس مادية فقط، نحن ما يحركنا المقاييس الروحية خلافاً للمصلحة المؤقتة، اليوم العلم نفسه يعطي أهمية للحدس أكثر من العقل، ذلك الذي يدور في أنفسنا. هذا أينشتاين نفسه يفضل الحدس على العقل، المحبة والتضامن والدفء في العلاقات. هذه الروح تناقض النظام الشيوعي.

الثورة الماركسية لم تأخذ الروح في الاعتبار، هذه الروح التي جاء بها الرسل، غياب الروح في الرأسمالية أكبر، ولكن الروح تظل غائبة في الشيوعية أيضاً. إن الذي غير حركة التاريخ ليس الاقتصاد، فأنا لا أرى الاقتصاد مركزياً في التاريخ. له دور كبير هذا صحيح، لكن من الذي غير وجه الأرض؟.. إنهم الرسل، مِمَّا يتكوّن العالم الآن؟.. من محمد وعيسى وموسى وبوذا.. من الأديان". "لقد دخلت الرأسمالية مرحلة

العولة، وهى أكثر مادية من المراحل السابقة، إنني مؤسس في المنتدى الإجتماعي الدولي "البرتو اليجري"، إنني ضد العولمة، وأعمل مع سمير أمين ومسئول تحرير لوموند ديبلوماتيك من أجل مناهضة العولمة. وقد زرت مصر عام 2001 مع سمير أمين في هذا السياق".

ثم أخرج "بن بلة" أجندته الخاصة التي يحملها معه أينما ذهب وقال: "هناك "400" شركة غير حكومية تملك نصف رزق العالم، دخل "15" من هذه الشركات الـ"400" أكبر من كل دول جنوب الصحراء، ودخل "32" شركة منها أكبر من دخل آسيا الجنوبية، ودخل "84" منها أكبر من دخل الصين التي يعيش فيها أكثر من مليار نسمة. وهناك "3" شخصيات دخلها أعلى من دخل "48" دولة فقيرة. وهناك بالمقابل "35" مليون شخص يموتون جوعاً كل عام، وسوف تجعل العولمة متوسط عمر الفرد في أفريقيا "35" سنة. هذه هى العولمة، إنها ليست الخير أو مكارم الأخلاق إنها المديونية والفقر والمرض".

"في ظل هذا النظام العالمي البرلمانات والشعوب لا تقرر مصيرها، البرلمان يقرر شبكة طرق ومواصلات أو محطة كهرباء ريفية، أما تقرير مصير الوطن والمواطن.. فليس البرلمان بالطبع.. القرارات الكبرى في أيدي الشركات الكبرى. وحين يأتي الغرب عندنا فهو لا يأتي من أجل الديمقراطية بل من أجل الاقتصاد.. الغاز لا الديمقراطية، هذه هو ما يهم الغرب عندنا".. "ما يحكم الملف العراقي هو ما يحكم الملف الأفغاني.. النفط، وقد زرت العراق أكثر من عشر مرات، وبعض الزائرين معنا عندما شاهدوا مستشفى صدام لم يتمكنوا من مواصلة السير، فقد تقيأوا من الرائحة".

"هذا النظام العالمي الذي بدأ عام 1492 والذي جاء بالاستعمار ثم بالعولمة هو هلاك، هلاك للإنسان، للحرث والنسل، بلد صغير مثل هولندا فيه "15" مليون نسمة يعيش على دخل أكبر من دخل "250" مليوناً في أندونيسيا.. إن الرئيس

الأمريكي ليس المشكلة، إنه أداة في نظام عالمي".

"لم أتابع جيداً أفكار الطريق الثالث، ولكن ينبغي ألا يكون هناك نظام واحد في العالم حتى لا يسيطر على الآخرين، حتى لو كان نظاماً مسلماً، لا أقبل.. لأن هذا سيكون على حساب الثقافات الأخرى".. "لم يحدث تصحيح داخل الرأسمالية لصالح الروح، لأن المشروع الرأسمالي – بنيوياً – ضد الروح".

* * *

سألت الرئيس "بن بلة" عن الاشتراكية العربية التي حكم باسمها ذات مساء قال: "أخذنا من الماركسية ملف الفقر والفقراء والمال والسلطة والطبقات، في الإشتراكية العربية رافد ماركسي بالطبع. إنني أخاف من المال المتراكم، الفقر الذي يقضي على الكرامة مرفوض، وكاد الفقر يكون كفراً، فالفقر يؤدي إلى فقدان الأمل ونهاية الحياة. لقد قمت بالتأميم في الجزائر، أنا أممت كل شئ.. ولست نادماً، لم تكن هناك مقاييس لما قمت به من تأميم، لكنني لم أندم لأنني ضد تراكم المال بأي حال"

"لقد اجتهد البعث إلى جوار النموذج الناصري، ولكن عبدالناصر ترك بصمات أكبر، وكان ناقوس خطر للجميع، عبدالناصر وأنا ارتكبنا بعض الأخطاء، ولكننا عملنا تراكمات، كنا نحارب شيئاً أكبر منا".

* * *

عند الخاتمة سألت الرئيس "بن بلة" سؤالاً إفتتاحياً جديداً.. ماذا عن المستقبل؟.. قال: "أرى الصين في مكانة كبيرة، فالصين واحدة من أكبر ثلاث ثقافات في العالم، وقبل مائتي عام كانت الصين تتجاوز أوروبا بخمسمائة عام في مجال العلم. ولكن الصين لم يكن لديها في أى لحظة مشروع استعماري، رغم أنها كثيراً ما كانت الأقوى في العالم، بل كانت هى نفسها عرضة للإعتداءات. لذا فإن نجاح الصين القادم

ينبغي أن يبعث على الأمل. وأما بقية العالم.. فقد مثلت أحداث 11 سبتمبر 2001 بداية لتغيير كبير.. سوف ينتقل صنع التاريخ من أمريكا إلى أوروبا.. ثم من أوروبا إلى آسيا.. خلال خمسين عاماً".

* * *

لقد طاف الحوار بعد ذلك في أروقة أخرى ومجالات متناثرة، ولما قلت للثائر الكبير: هل لديكم أقوال أخرى؟.. قال الرئيس الجزائري الأسبق "أحمد بن بلة": "إذا كنت قد أخطأت فقد قضيت في السجن خمسة عشر عاماً وهذا يكفي، وإذا كانوا قد أخطأوا.. سامحهم الله"!

الفصل العاشر



الثورة والدولة..

محاورة مع السيد الصادق المهدي

ربما يكون "السيد الصادق المهدي" زعيم حزب الأمة ورئيس وزراء السودان الأسبق، السياسي الأفضل بين المثقفين العرب، والمثقف الأفضل بين السياسيين العرب.

فـ"الصادق المهدي" الذي يجيد الحديث فيما وراء السياسة، من نظرية وتاريخ وعلوم اجتماعية، هو في الوقت ذاته سياسي بارز.. وصل إلى السلطة وخرج منها ويستعد لها. وفي رحلته الكثير من تجارب السياسة وصروف الزمان.

* * *

التقيت "الصادق المهدي" في القاهرة خريف عام 2003، ثم التقيته في الخرطوم في مطلع صيف 2004، أثناء حضوره محاضرة للعالم المصري الدكتور "أحمد زويل" في قاعة الصداقة بالخرطوم.

في لقاء القاهرة، طرحت على "المهدي" أسئلتي بشأن الثورة والدولة، على خلفية ما جرى تاريخياً في الثورة المهدية، وما جرى لاحقاً في العالم العربي.

والحادث أن الثورة المهدية.. لا تحظى بالمكانة المناسبة في الوعى العربي، وهى لا تكاد تكون حاضرة في دوائر التفكير السياسي النظري في العالم العربي.

ربما لأنها بعيدة بحكم المكان.. فهى في السودان الذي تبدو أحداثه بعيدة عن الشرق العربي وكذلك المغرب.

وربما لأنها بعيدة بحكم الزمان.. فهى من جيل الثورة العرابية في مصر. وبين زماننا وزمانها.. الكثير من الأحداث والخرائط.

وربما – أيضاً – لأنها بدأت بعيداً، وبقيت بعيداً، فهى رغم طموحاتها الكبرى في التصدير لم تحقق شيئاً في ذلك، بل إنها لم تمكث في السودان نفسه إلا قليلاً.

وربما – كذلك – لأنها كانت في طموحها غير عاقلة.. ففي مرة أرسلت الثورة المهدية جيشاً لإخضاع "النجاشي" ملك الحبشة لسلطانها، ومرة ثانية تطمح في تحوّل الإمبراطورية البريطانية إلى الإسلام.. حتى لقد أرسلت حكومة الثورة المهدية إلى ملكة بريطانيا رسالة جاء فيها "إن تسلمي تسلمي، وزوجناك محمود ولد أحمد"!

وكان "محمود ولد أحمد" واحداً من فرسان الثورة المهدية، ورأت حكومة الثورة أن في ذلك مكافأة للملكة على إسلامها!

وربما لأن الذين ورثوا الثورة المهدية ومن بينهم "عبدالله التعايشي" الذي صار الخليفة من بعد "محمد أحمد المهدي" لم يكونوا أهلاً لما ورثوا، فقد كان "التعايشي" رجلاً ضعيف الحنكة والحكمة. وربما – أخيراً – لأن جيل الثورة العرابية وفي الطليعة منها الثورة المهدية قد غاب تماماً، بعد أن جاءت ثورة 1919 في مصر، ثم ثورة 1952 وبدء زمن جديد وجيل جديد من الثورات العربية.

* * *

يعود تاريخ السودان الحديث إلى حملة نابليون على مصر عام 1897، حيث غادر عدد من المماليك المصريين إلى السودان، ثم جاء نظام "محمد علي" باشا في مصر الذي أرسل حملة إلى السودان بقيادة "إسماعيل" ومعه أحد عشر ألفاً من رجاله.

وفي عام 1821 كان معظم السودان يخضع لحكم "محمد علي" في مصر.

وأما زعيم الثورة المهدية والذي يمثل المرحلة الأهم في تاريخ السودان الحديث، فهو "محمد أحمد" من مواليد دنقلة عام 1844، وقد انتقل لتعلم القرآن في جزيرة آبا، وكان يعمل في صناعة المراكب، ثم أعلن نفسه المهدي المنتظر، وبدأ حركة إصلاحية دينية كبرى.

جاءت ثورة "المهدي" في بداياتها حركة إصلاحية ضد التصوف المنحرف وشيوع الأساطير في الممارسات الإسلامية، ثم تحولت إلى ثورة ضد حكم الأتراك،

وخاض "المهدي" عدة معارك ضد الأتراك في السودان.

في عام 1884 أصبح "المهدي" سيّداً على السودان ما عدا الجنوب. ثم أسس المهدي دولته في 26 يناير عام 1885.

نجح "المهدي" في إقامة دولته، وأدخل فيها العنصر الأسود، وبعد مرحلة الإصلاح الديني، ثم مرحلة النضال ضد الأتراك، جاءت مرحلة الصراع مع بريطانيا.

وتتمتع وقائع الثورة المهدية وحروبها بالإثارة، وقد حظيت باهتمامات أدبية واسعة، ويشتهر في ذلك العمل الشهير لـ"ونستون تشرشل".. "حرب النهر"، وهناك "سلاطين" باشا وهو نمساوي ألف كتاباً شهيراً في نقد الثورة المهدية بعنوان: "السيف والنار".

وفي عام 2003 أنتجت هوليوود فيلماً سينمائياً للمخرج الأمريكي "شكور كابور" باسم "الريشات الأربع"، حول التدخل البريطاني ضد الثورة المهدية نهاية القرن التاسع عشر. وهو فيلم يظهر الثوار المسلمين وهم منظمون تحت قيادة ضابط إنجليزي، ثم يغرقون في الفوضى فور توليهم قيادة أنفسهم!

* * *

في عام 1898 فشلت الثورة المهدية وبلغت نهايتها، فقد دخل الجنرال البريطاني "هربرت كيتشنر" في حرب مع ستين ألفاً من قوات الثورة المهدية في شمال أم درمان، وقتل منهم عشرة آلاف وجرح ستة عشر ألفاً، ودخل "كيتشنر" أم درمان.. وفي يناير 1899 وقّعت بريطانيا مع مصر الاتفاقية الثنائية لحكم السودان.

لقد لاقت الثورة المهدية تقدير بعض تيارات الفكر الإسلامي، وقد اعتبرها جمال الدين الأفغاني"هَبَّة الشرق في وجه الاستعمار"، ووصفها "عبدالودود شلبي" بأنها قد مثلت كل حركات الإصلاح الإسلامي في عصرها.. وأنها أيقظت حالة إسلامية راكدة.

* * *

فشلت الثورة المهدية، وخضع السودان للحكم الثنائي البريطاني المصري، وهو ليس احتلالاً بالمعنى القانوني، بل هو حكم إداري مشترك.. واستمر ذلك نحو سبعين عاماً.

وهكذا.. في يناير 1885 قامت الدولة السودانية المستقلة على أثر الثورة المهدية، وفي يناير 1956 استقل السودان في شكله الحديث.

استقل السودان ليبحث عن طريق، وتعاقب على حكمه أكثر من نظام إلى أن بدأت تجربة ديمقراطية في السودان، وقد بقيت هذه التجربة حتى عام 1958 حيث نجح إنقلاب عسكري بقيادة "إبراهيم عبود" في القضاء عليها، وقد رحل نظام "عبود" في ثورة أكتوبر عام 1964.

عادت التجربة الديمقراطية عام 1964 ليتولى "الصادق المهدي" رئاسة الحكومة وكان عمره ثلاثين عاماً، وفي مايو 1969 نجح الشيوعيون في الإنقلاب على التجربة، وتقدم "جعفر نميري" السلطة، ثم سرق "نميري" الثورة من الشيوعيين وأطاح بهم وقد حكم "نميري" السودان من عام 1969 وحتى عام 1985.

جاء "نميري" ليغازل بالإسلام الجميع، ويعلن تطبيق الشريعة. وحين التقيت الرئيس "نميري" في التسعينات، وكان قبل عودته إلى السودان يستقبل ضيوفه في مكتب له في منطقة الظاهر بيبرس بالقاهرة، توقعت أن أجد في الرجل الذي حكم السودان طويلاً، وصديق مصر في عهدي "السادات" و"مبارك"، والمساهم في عملية التكامل وإنشاء مشروع جونجلي البالغ الفائدة لدولتي الوادي العربيتين. والمؤلف الإسلامي صاحب النظريات في الشرع والشريعة، وعدو الشيوعية اللدود ومهندس هجرة اليهود الإثيوبيين إلى إسرائيل "قضية الفلاشا الشهيرة"، توقعت أن يكون الرجل الذي أجلس أمامه.. زعيماً من طراز خاص.. ولكني وجدت رجلاً عادياً من الطراز الشائع. ليس فيه من الذكاء ما يلفت الانتباه، ولا من خبرة الحياة ما يوجب التقدير، ولا من رجاحة الرأى ما يتطلب الصمت!

ولما زرت السودان عام 2004، سألت عن الرئيس "نميري"، وقلت.. ربما كان الرجل اليوم أكثر حكمة وأفضل قولاً، ولكني وجدته على فراش المرض.. وقد قيل لي إنه لا يقوى على استقبال أحد.

وبدا لي أن الرجل الذي رأيته قبل سنين، وهو يتحدث كثيراً عن آراء وأشياء كلها على هامش العصر، قد امتد به الزمن إلى حيث لا قدرة له على تحريك اللسان أو صناعة اللفظ.. إنها رحلة بائسة من هامش العصر إلى هامش العمر!

* * *

أطاح الجيش بحكم الرئيس "جعفر نميري" في عام 1985، وترك المشير "عبد الرحمن سوار الذهب " الفرصة للتجربة الديمقراطية الثانية، ومنذ عام 1986 إلى عام 1989.. تولى الصادق المهدي رئاسة الحكومة في السودان.

وجاءت ثورة الإنقاذ في يونيو عام 1989 وهى ليست ثورة بل هي انقلاب عسكري قاده "عمر البشير" ودعمه "حسن الترابي"، ولأن راية الإسلام لها من المؤيدين الكثير، فقد التف قطاع واسع من الرأى العام حول "الترابي"، وحول سلطة الإنقاذ.

ومثّلت تجربة "الترابي" وحدها، نموذجاً لبداية ونهاية الشئ نفسه، فـ"الترابي" الذي اعتمد على رجال له من دارفور من أجل دعم الفكرة الإسلامية، قد أوصل الثورة إلى احتمال استقلال دارفور!

والرجل الذي جعل الموت في الجنوب شهادة في سبيل الله لا تعلوها شهادة، عاد ليبطل فكرة الجهاد فيه وليدعو الله بالمغفرة لمن مات هناك!

والداعية الذي طمح مثل "عبدالله التعايشي" الخليفة الثاني في الثورة المهدية، في تصدير الثورة إلى العالم الإسلامي. عاش ليرى السودان وهو يعاني انفصالاً في الجنوب وأعراض انفصال الغرب وفي الشرق..!

* * *

وحين التقيت الرئيس السوداني "عمر البشير" – كنت أحضر مع الدكتور "أحمد زويل" وقائع تسليمه وشاح النيلين المرموق – توقعت أن أسمع نفس الخطاب الاستعلائي للحركة الإسلامية، وكان "الترابي" قد دخل السجن قبل أيام. ولكني وجدت الرئيس "البشير" يتحدث عن احتمالات كلها سيئة، قال الرئيس البشير: إننا نواجه خطراً من كل مكان، من دارفور ومن الجنوب ومن الشرق، وهو خطر يتهدد العرب في السودان، ويدعمه الغرب.. الولايات المتحدة وإسرائيل.

والخطر المحيط بالسودان – حسب الرئيس البشير – يستهدف في نهاية المطاف إقامة دولة غير عربية في السودان، ثم عمل "تطهير عرقي" للعرب المقيمين في الشمال النيلي، حتى يهاجروا شمالاً كلاجئين في منطقة النوبة، ويصبح السودان بكامله بلداً زنجياً يعيش سكانه العرب كلاجئين في دولة نوبية فاصلة بين الثقافة الزنجية في السودان والثقافة العربية في مصر!

* * *

كان انقلاب "البشير" على "الترابي"، هو انقلاب رجل الدولة الذي يعرف حدود المخاطرة، على رجل الإيديولوجيا الذي لا يعرف حدوداً للمغامرة.

فقد أدرك "البشير" ومعه نائبه القوي "على عثمان طه" أن الثورة التي يريدها "الترابي" مفتوحة في الزمان وفي المكان، من شأنها أن تعصف بكل شئ، فالثورة الإسلامية التي تستهدف السيطرة على العالم، لن يكون بمقدورها السيطرة على الخرطوم بعد قليل!

وقد سمعت من الرئيس "البشير" ما يشبه المراجعة وإعادة النظر، وهى مراجعة سبق هو نفسه أن عبر عنها في يونيو عام 2003 بقوله: "إن من حق أى شخص أن يقول إن النظام شمولي وتسلطي، إلا المؤتمر الشعبي – حزب الترابي– فلا يحق له، لأننا كنا قبلاً شموليين وتسلطيين، نقبض ونجلد ونسجن، وهذا كله فعلناه

في أيامنا الأولى عندما كانت القيادة الفعلية في أيديهم.. لقد كنا شموليين وليس الآن"!

* * *

لم يكن حديثي مع السيد "الصادق المهدي" حول المشهد الراهن في السودان.. من واقعه السيئ أو احتمالاته الأسوأ، ولا عن تجربته في الحكم أو تجارب الآخرين.. بل كان عن أفكار نظرية بشأن الثورة والدولة، وبشأن ما جرى في عصور الثورة في العالم العربي.

سألت "الصادق المهدي" عن الثورة والبناء.. قال: الثورة أكثر فاعلية في الهدم، وذلك لأن البناء يحتاج دائماً لدرجة كبيرة من التخطيط والتريث. تأتي ظروف معينة تحتاج إلى الهدم وتحتاج إلى المقاومة، وتحتاج إلى "ذهنية التجديد".

في هذه المسائل الثلاث.. الثورة مطلوبة، مثل العملية الجراحية المطلوبة، لكنه من الضروري جداً أن تنتقل الذهنية من "الهدم" وما يصحبه من عنف إلى "البناء" وما يصحبه من استيعاب ومشاركة.

وأنا أعتقد أن هناك عملية تضاد، ما بين الثورة وما بين بناء الدولة، وهذا التضاد إذا كانت قيادة الثورة، واعية بالقدر الكافي، تستطيع أن تتجاوزه.

وأنا دائما أذكر ذلك البيت الشعري المعبر:

تدبيرٌ ذو حِنكٍ يفكرُ في غدٍ وهجومُ غِرٍ لا يخافُ عواقبه

فالثورة دائماً تحتاج إلى هذه الذهنية.. هجوم غر لا يخاف عواقبه، أى أن هناك فعل مطلوب إنجازه ضد عوامل كثيرة، لكنْ تدبيرٌ ذو حنك.. هذا هو المطلوب لبناء الدولة.

سألت السيد "الصادق المهدي": كيف يمكن قراءة هذا الرأي فيما جرى من وقائع الثورة المهدية.. وأنت تحمل شرعيتها وامتدادها.. قال: إن الثورة المهدية في السودان قد

جاءت على مطالب سابقة، كانت هناك مطالب خاصة بتجديد الفكر الديني في السودان، لأنه كان قد ركن إلى درجة راكدة من الفهم الصوفي الغيبي، وهذا الفهم قد علَّب الإرادة الدينية في السودان في أبنية إجتماعية تتعايش مع الواقع كما هو.

كان هناك داع كبير لتجديد الفكر الديني بصورة ثورية، وكان هناك أيضاً نظام إجتماعي متعفن، وكانت توجد سيطرة استعمارية. هذه العوامل الثلاثة كانت مبرراً كافياً لحركة ثورية تجدد الفكر الديني، وتضع حداً للتعفن الإجتماعي وتحرر البلاد.

قلت: إذا كانت هذه هى ظروف الثورة.. فما هى ظروف الدولة؟.. قال "المهدي": الفكرة المهدية في السودان لم تكن فكرة قُطرية.. لذلك لم يفكر "المهدي" أصلاً في بناء الدولة، بل كان يفكر بمنطق "الثورة المستمرة" حتى يتحرر العالم الإسلامي، ولذلك لم يضع المهدي في حسبانه أصلاً فكرة الانتقال من الثورة إلى الدولة، بل كان تفكيره.. كيف ينقل التجربة الثورية في السودان إلى مصر، ثم إلى بقية أنحاء العالم العربي، مشرقاً ومغرباً.. ثم إلى ما وراء العالم العربي في العالم الإسلامي، ولكن وفاة "المهدي" المبكرة، حالت دون هذه الثورة المستمرة، فآل مشروع بناء الدولة إلى خليفة "المهدي"، بعد أن جاءت عوامل بعد وفاته حالت دون ذلك.

* * *

استطرد "الصادق المهدي".. منتقلاً من الثورة المصرية إلى عموم الثورات.. وكيف تتأتى المشكلة من اختلاف ذهنية الثورة وذهنية الدولة.

يقول "المهدي": كل ثورة – حتى تلك التي توافرت لها مبررات كافية – تحتاج لأن تنقل نفسها من الذهنية الثورية إلى البناء، وهذه عملية صعبة جداً، ربما يستحيل أن تتحقق في نفس القيادة، لأن كثيرين جداً من القيادات الصالحة للعمل الثوري، ربما لا يكون صالحاً لعمل الدولة.. أى الإسهام في بنائها.

لذلك كانت معظم الثورات مخيبة للآمال، بل في كثير من الأحيان.. الثورات مع كل ما يبررها من مبررات تترك الوطن وهو أسوأ حالاً مما أرادت الثورة عمله!..

هذه قراءة تاريخية مطلوبة. لكن لاشك أن هناك حقائق سوسيولوجية، حقيقة أن الثورة مختلفة عن الدولة، وحقيقة أن ذهنية الثورة مختلفة عن ذهنية بناء الدولة، وحقيقة أن الكادر الثوري قلما يكون مؤهلاً لبناء البديل الذي يريد أن يطرحه، وعلى ذلك غالباً ما تكون نتائج الثورات مخيبة للآمال!

وأعتقد أنه إذا توافر هامش الحرية للتغيير المتدرج، فهو أفضل من المغامرة الثورية التي تصبح مبررة فقط عندما يغيب هامش الحرية والتغيير المتدرج.

* * *

قلت لـ"الصادق المهدي".. لكن رجال الثورة أنفسهم إذا أعادوا النظر، وأدركوا أن ذهنية البناء تختلف عن ذهنية الهدم، وأن ظروف الثورة تختلف عن شروط الدولة، ثم قرروا المواءمة وتعديل أفكارهم وبرامجهم للتكيف مع هذه الحقائق المستجدة، سوف يجدون أنفسهم وقد خسروا شرعية وجودهم، لأنهم أصبحوا يعملون بموجب فكر وخطاب سياسي وبرامج تختلف عما بدأوا به، وعما التف الناس حولهم لأجله.. وبالطبع فإن نصيبهم سيكون الاتهام بالخيانة، أو الرجعية، أو الارتداد عن مبادئ الثورة أو الثورة المضادة وما إلى ذلك.. ما الحل في هذه الإشكالية.. معضلة أن تصحح فتفقد الشرعية أو أن تبقى فتفقد الصواب؟!

يذهب "الصادق المهدي" هنا إلى التسليم بأنها معضلة.. فالقضايا الإنسانية مثل هذه، لا توجد قوانين حاسمة لها، يعني إذا أخذنا مثلاً أهم ثورتين أوروبيتين.. الثورة الفرنسية والثورة الشيوعية.. كلتاهما كانت ثورة مجيدة بالمقاييس الإنسانية، لكن النتائج التي أسفرت عنهما جاءت مخيبة للآمال!

وهذا لا يعني أن الإنسان يتمنى لو أن الثورتين لم تكونا قد وقعتا. ولكن الإنسان يقول.. على صعيد الفكر السياسي.. يجب أن نفهم هذه المفارقات، وكيف تعمل كل ثورة على أن تخط طريقها وحدها.. في تجربة خاصة بها.

في السودان – عندنا – لدينا معضلة، فكثير من الثورات التي أطلقت على نفسها ثورات هي إنقلابات، ولابد من التمييز بين الثورة الحقيقية وبين ما هو في الحقيقة إنقلاب. وفي رأيي.. أن كل تغيير يعتمد على القوات المسلحة اعتماداً كلياً بحيث تنقل السلطة من عسكرية إلى سياسية مباشرة، هذا إنقلاب. أنت أصلاً لديك سلطة عسكرية، إذا تحولت إلى سلطة سياسية هذا إنقلاب.

لكن إذا كان التغيير قد اشترك فيه الجيش، ولكنه كان معتمداً على قوى مدنية، ومتأثراً بعوامل متجذرة في المجتمع، وليس فقط أن يصبح أصحاب السلطة العسكرية أصحاب السلطة السياسية، نصبح إزاء ثورة.

* * *

ويمضي "الصادق المهدي" إلى مقولة مهمة: إنه في اليوم الذي تصبح فيه الثورة دولة، يتحول الذين في أيديهم السلطة إلى محافظين، لأنهم يريدون الحفاظ على الأمن والنظام.

وحين كان الثوار يريدون أن يصبحوا حكاماً.. كانوا لا يبالون، ولكن بعد وصولهم للسلطة، سرعان ما يحدث هذا التمييز، ينقسم الثوار أنفسهم ما بين الذين في أيديهم السلطة "المحافظين الجدد"، وما بين الذين لم يدخلوا السلطة.. أي الذين لم يستطيعوا مغادرة ترف الأفكار الثورية.

وهذا يؤدي إلى التناقض بين من بأيديهم السلطة، ومن فاتتهم السلطة فاستمروا مثاليين.

إن الواقع – في الأصل – يجر الإنسان إلى المحافظة، لذلك نجد أن الأشخاص الأكبر سناً يكونون أكثر محافظة، والأكثر شباباً أكثر مثالية.. هذه طبيعة بشرية.

لذا في الثقافة العربية.. كلمة شباب فيها معنى الانفلات، كلما شب آب، أى كلما شب رجع مرة أخرى يشب.. أى أنه متردد في عملية الشب هذه.. والثورة – بطبيعتها – ترتبط دائماً بنظرة شبابية حتى لو لم يكونوا شباباً.

فالشباب ليس فئة عمرية، بل خصلة نفسية، لذلك ممكن تتوافر للإنسان صغير السن أو كبير السن.

* * *

عاد "الصادق المهدي" ليقول: إن الثورة دائماً تخلق مشكلات بحجم المشكلات التي قامت لحلها، وهذا هو ما يؤدي إلى خلافات بين الثوريين أنفسهم بصورة كبيرة جداً، وأنا لا أعتقد أنه توجد وسيلة لحل هذه الإشكالات، لأنك إذا أردت أن تحل هذه الإشكالات تحول الثورة إلى مؤسسة، ولكن الثورة بذاتها هى خروج على المؤسسة وخلق شيء جديد..!

وهذا هو الأساس في ضرر الأسلوب الثوري، لأن الأسلوب الإصلاحي والانتقالي يمكن أن تدخله في مؤسسة.. تعمل برلمان أو آلية انتخابية. وإذا أدخلت الطرح الإصلاحي في مؤسسة يمكن أن يقبل الرأى والرأى الآخر، ويقبل التعاطي معه.

ولكن الثورة – بطبيعة الحال – تمنع أن تقيم مؤسسة للتعامل مع عملية التغيير، لأن عملية التغيير تأتي من خارج المؤسسة.

وما أراه صواباً في هذا الصدد.. أن الثورة تبقى ضرورة في ظروف معينة، لكن إذا أمكن التغيير بوسائل غير ثورية فهذا أفضل.. وفي حالة الثورة الضرورة.. يبقى الإشكال الوحيد هو.. كيف تخرج بسرعة من ذهنية الهدم إلى ذهنية البناء.

* * *

سألت "الصادق المهدي" عن تصدير الثورة.. قلت: إن بعض الثورات لا تعمل على الانتقال من ذهنية الهدم إلى ذهنية البناء، بل إنها تعمل على تصدير ذهنية الهدم إلى دول ونظم أخرى.. وقد كانت الثورة المهدية ثم المشروع العام للثورات الإسلامية نموذجاً لذلك التفكير في الثورة الدائمة.. والواسعة!

قال "المهدي": إن الأمر يتوقف على المسرح، إذا كان المسرح قابلاً لتصدير الثورة وتوحيد العالم الإسلامي.. فليكن، والعكس صحيح.

فحين تتطابق الظروف الموضوعية وتشترك فيما بين الشعوب، يفضل أن تمتد الثورة، إذا كان هناك – مثلاً – مستعمر واحد، فلا مانع من توحيد الثورة ضده.

وفيما يخص الثورة المهدية.. كان ذلك الفكر قائماً، كانت ظروف العالم الإسلامي متشابهة، وكان هناك ركود واستعمار. وقد كتب "عبدالودود شلبي" يقول: إن الثورة المهدية قد جسدت تطلعات أهل القبلة في ذلك الوقت.

كل أهل القبلة كانوا يريدون الوحدة الإسلامية وتجديد الفكر الإسلامي والتحرر من الاستعمار، وهناك "أحمد العوام" وكان أحد الثوار مع "أحمد عرابي" في مصر، وقد ألقى القبض عليه ونفى في أم درمان في السودان، وكتب "رسالة العوام" وقال فيها علينا أن نؤيد الثورة المهدية، لأنها تلبي طموحاتنا في العالم الإسلامي.

الشئ نفسه كان يتكلمه "جمال الدين الأفغاني" و"محمد عبده" في العروة الوثقى، كانوا يرحبون بالثورة لأنهم اعتقدوا أنها كانت تلبي طموحات المسلمين في تلك الفترة، بصرف النظر عن قبول أو عدم قبول المهدية.. الحاصل إذًا أن الظروف الموضوعية هى التي تجيب على سؤال تصدير الثورة.. أى هل يمكن توسيع الثورة أم لا؟

* * *

قلت لـ"الصادق المهدي".. إن الثورة الإسلامية أصبحت هى الأكثر ارتباطاً بفكرة التصدير هذه.. وقد حدث ذلك منذ الثورة المهدية في السودان، وحتى الثورة الإسلامية في إيران، والموجه الثورية المنفلتة في أفغانستان.. وربما يكون جهد الثورة الإسلامية في التصدير أكبر كثيراً من جهد التيارات الليبرالية واليسارية في تصدير أفكارها ورؤاها.. فلماذا هذا الالتصاق؟

يرى "المهدي" في الثورة الإسلامية في إيران.. ثورة ذات ظروف خاصة جداً، فالشاه والسياسات الأمريكية في إيران كانا من أهم الأسباب للثورة الإسلامية، لقد خلقا ظروفاً خاصة مهدت لذلك.

الشاه استطاع أن يستأصل كل حركة سياسية في المجتمع الإيراني.. الأحزاب والنقابات وقوى المجتمع، لذا كان دور المؤسسة الدينية الشيعية، وقد غذتها ظروف معينة قبل وبعد الشاه، وهى ظروف غير موجودة في البلدان العربية، لذلك فإن الثورة الإيرانية ألهمت مسلمين كثيرين لأنها أعطت إشعاراً بالدور الثوري للإسلام، لكن تصدير الثورة كان مستحيلاً.. لأن الظروف كانت خاصة بإيران. بل إن الثورة أصبحت داخل إيران نفسها تحتاج إلى إصلاح أساسي، لذلك اتجهت نفس العناصر التي أسست الثورة إلى "الخاتمية" كتطوير إصلاحي في الثورة.

وهكذا فإن سياسة الشاه، والسياسة الأمريكية، ودور المؤسسة الشيعية.. كانت العوامل الثلاثة الفاعلة فيما حدث.

والثورة على ذلك لها خصوصيتها التي لم تسمح بتصديرها، بل أصبحت هى بعد مرور الزمن الخاص بها تحتاج إلى إصلاح راديكالي في نظر نفس الشباب والعناصر التي أقامت الثورة.

وأما الحالة الأفغانية.. فلا يمكن أن تعتبر تلبية لأشواق إسلامية موجودة في كثير من البلدان الإسلامية، لكن هذه العملية ما كان لها أن تكون مؤثرة لولا عاملان:

العامل الأول.. الغزو السوفيتي الذي سيس المنظمات الدينية الأفغانية وشكل فصائل المجاهدين، هذا الغزو هو الذي حول هذه المنظمات الدعوية العادية إلى منظمات عسكرية. لقد شكل الغزو استفزازاً فظيعاً للمسلمين.

والعامل الثاني.. الدعم الأمريكي وظروف الحرب الباردة. فالدعم الأمريكي أعطى للمشاعر المعادية للسوفييت تمويلاً وتكنولوجيا فعالة جداً في تحقيق التغيير، ولكن هذا كله بدون أى تنظير.. لا ثوري ولا إسلامي ولا غيره.

لم يكن هناك أى تنظيم سياسي ولا رؤيا سياسية، بل هو فقط احتجاج على السوفييت دعَّمَهُ الأمريكان.. بدون أى تنظيم، لذلك سرعان ما اختلف الأمر بعد انصراف الأمريكان، فقد انقلبت فصائل المجاهدين ضد بعضها بعضًا.. في حروب أهلية.

كان هناك فراغ، ثم ملأته طالبان، وحركة طالبان تمثل فكراً إنطوائياً منكفئاً وجاهلاً، كانت لديها مشاعر وليس لديها أفكار، لذلك نظام حكم أفغانستان قام بمفاهيم خارج العصر، مما تركها فرصة للتحالف مع تنظيم القاعدة، ثم المغامرة الكبيرة جداً في القيام بعمل خارجي قام بتعريض التجربة للإطاحة.

الخلاصة.. إنني أعتقد أن ما حدث في أفغانستان هو احتجاج إسلامي على الغزو السوفيتي بدعم أمريكي بدون منهاج وبدون برنامج، إلا برنامج إجلاء السوفييت. وعندما جلا السوفييت تحول المجاهدون إلى أعداء لبعضهم بعضًا. وساد الفراغ السياسي أفغانستان، وهذا الفراغ أغرى حركة طالبان بملأ الفراغ بخيار مجلوب من خارج العصر!

*   *   *

سألت "الصادق المهدي" عن الثورتين المصرية والجزائرية.. عن الأولى التي شكلت عصراً كاملاً من تاريخ العرب، وعن الثانية التى ضحت كثيراً من أجل الاستقلال.. ثم عانت الثورتان كثيراً.. حتى أصبحت الأمور بعد عقود قليلة ليست

أحسن حالاً مما كان عليه الحال قبل الثورة.. أو أنه ليس أحسن بالقدر الكافي.

قال "المهدي".. الثورة الجزائرية كانت ضرورة، لأن الاستعمار الفرنسي كان استعماراً استيطانياً، رفض أى تعامل مع الحقائق الجزائرية لأنه فرض على الجزائر هوية باعتبارها فرنسية.. لم يكن هناك خيار غير هذه الثورة، وعلى وجه العموم فإن الثورة الجزائرية يمكن أن تعتبر نموذجاً طيباً لثورة تحريرية.

سألت "الصادق المهدي" عن الصراع بين "بن بلة" و"بومدين"؟.. قال: هو صراع ما بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية، "بن بلة" بعد الثورة تطلع إلى أهداف سياسية كبيرة، في ذلك الوقت كان "بومدين" له تركيز على أولويات أخرى.. "الجزائر" وهويتها الوطنية، أكثر من الانخراط في مفاهيم الثورة القومية التي كان يتجه نحوها "بن بلة".

وهذا سيناريو متكرر، دائماً هذا يحصل بين القيادة السياسية والعسكرية. عندما يحصل أي تغيير في المؤسسات الراسخة، توجد آليات لحل المشكلة بين السياسي والعسكري، لكن في الظروف الثورية لا يوجد غير أن يفرض العسكريون آراءهم بالقوة.

وللأسف فإن "بومدين" الذي صَفَّى المفاهيم السياسية التي كان يتجه نحوها "بن بلة"، وجد نفسه في ظروف الحرب الباردة يقتبس من الفكر الإشتراكي اقتباسات كانت سبباً في فشل الدولة الجزائرية.

"بومدين" – المقتبس – استصحب فكراً إشتراكياً مما كان سائداً في أجواء الحرب الباردة.

كانت التجربة الفرنسية لمحاولة سلخ جلد الجزائر، بالإضافة إلى تجربة "بومدين" في محاولة بناء إشتراكية سوفيتية.. سبباً كافياً في إثارة الاحتجاج الإسلامي الذي تكونت للتعبير عنه جبهة الإنقاذ الإسلامي في الجزائر.

لقد مثلت جبهة الإنقاذ احتجاجاً إسلامياً على الاستلاب الفرنسي والاستلاب السوفيتي، ولكنها لم تكن ناضجة حتى بمقياس حركة الإخوان المسلمين في مصر. فقد جاءت جبهة الإنقاذ حركة ملفقة جداً في أفكارها، لا تزيد على أنها تعبر فعلاً عن احتجاج حقيقي، ولكن كان أكبر إشكال ستواجهه لو استلمت السلطة، حيث أنها لا تملك أى أطروحة!

وأما الثورة المصرية 1952.. فقد كانت ضرورة، كان هناك احتياج لتغيير جذري في مصر، البلاط استطاع أن يدمرّ الأحزاب السياسية ويجعلها تدور في الفراغ.. جعل الإرادة الانتخابية في مصر تدور في العدم.. إذا الوفد فاز بالأغلبية يحل الملك البرلمان، وإذا أراد الملك تكليف حزب أقلية بتشكيل الحكومة يستطيع. لقد أفرغ النظام الملكي الديموقراطية من جوهرها وأفرغ دستور 1923 من محتواه!

هذه حقيقة.. والحقيقة الثانية هى الوجود البريطاني، فقد جعل الوجود البريطاني المسرح السياسي المصري كله تحت نوع من الوصاية.

ثم جاءت الحقبة المزعجة 1948.. وأداء الجيوش العربية السيئ وضياع فلسطين.. كانت هناك ضرورة قيام ثورة أو حركة راديكالية تعبر عن الرغبة في تغيير هذا كله.

لكن الثورة المصرية في مصر – على ضرورتها – قد رهنت نفسها، وفي وقت مبكر جداً، للحرب الباردة، هذا كان أخطر شئ، كانت هناك عوامل دفعت لذلك بالطبع، حيث كانت الحرب الباردة حقيقة كبيرة في العالم في ذلك الوقت.

لقد وقعت الثورة المصرية في خطأين خلقا لها في النهاية مشاكل كبرى.. وقعت في خضم الحرب الباردة، وعدم وجود مشروع واقعي للتعامل مع الملف الإسلامي. والملف الإسلامي ملف لابد من إيجاد معادلة للتعامل معه خارج نطاق الأمن، هو مشكلة ثقافة فكرية.. مشكلة هوية. يحتاج إلى قامة فكرية أكبر للتعامل معه. لكن

الـدخول في قلـب الحـرب البـاردة بالانحيـاز التـام للـسوفييت والتعامـل مـع الملـف الإسلامي كأنه ملف أمني.. قد خلقا عاملين هما أهـم ما خلقا مـن مـشكلات للثـورة المصرية.

وينتهـي "الـصادق المهـدي" للقـول.. إن "عبدالناصـر" تطلـع لقيـادة القوميـة العربية، وقد تطلع لذلك بدون ذخيرة فكرية مناسبة، وكانت هذه الـذخيرة الفكريـة موجودة عند حـزب البعـث. وهنـا عثـر "عبدالناصـر" علـى البرنـامج القـومي. أى أن البرنامج القومي لم يكن جزءًا من إستعداد "عبدالناصر" الفكري، لكنه عثر عليـه مـن البعث.

لكن البعث دخل في مزايدات مع "عبدالناصـر".. وقـد بـدا الأمـر بيـنهم كأنـه مقايضة.. هم أعطوا "عبدالناصر" فكرهم، وهو أعطاهم سياساته.

وكنـت دائمـاً أقـول للناصـريين.. أنـتم كنـتم محتـاجين للتعامـل مـع الملـف الإسلامي، ليس فقط باعتباره خطراً على الأمن.

وكنت أقول لـ"ميشيل عفلق" – في بغداد عام 1987– إن أكبر خطأ ارتكبتموه أنكم أردتم اختصار الطريق للسلطة بالانقلاب العـسكري، ووصـلتم للـسلطة وضـحيتم بالحرية وبالشعارات الأخرى.. وقد وافقني "عفلق" على ذلك.

وعنما قرر "عبدالناصر" تصفية الجهد المدني للأحـزاب الأخـرى قـام بتـصفية حزب البعث نفسه!

وتحول البعـث بـدوره مـن البعثيـة الفكريـة إلى البعثيـة العـسكرية.. والـتي وصلت أقصاها عند "صدام حسين" الذي نقل البعثية الفكرية إلى بعثية عـسكرية، ثـم نقل البعثية العسكرية إلى بعثية عشائرية.. ليكون هو ختام المشهد!

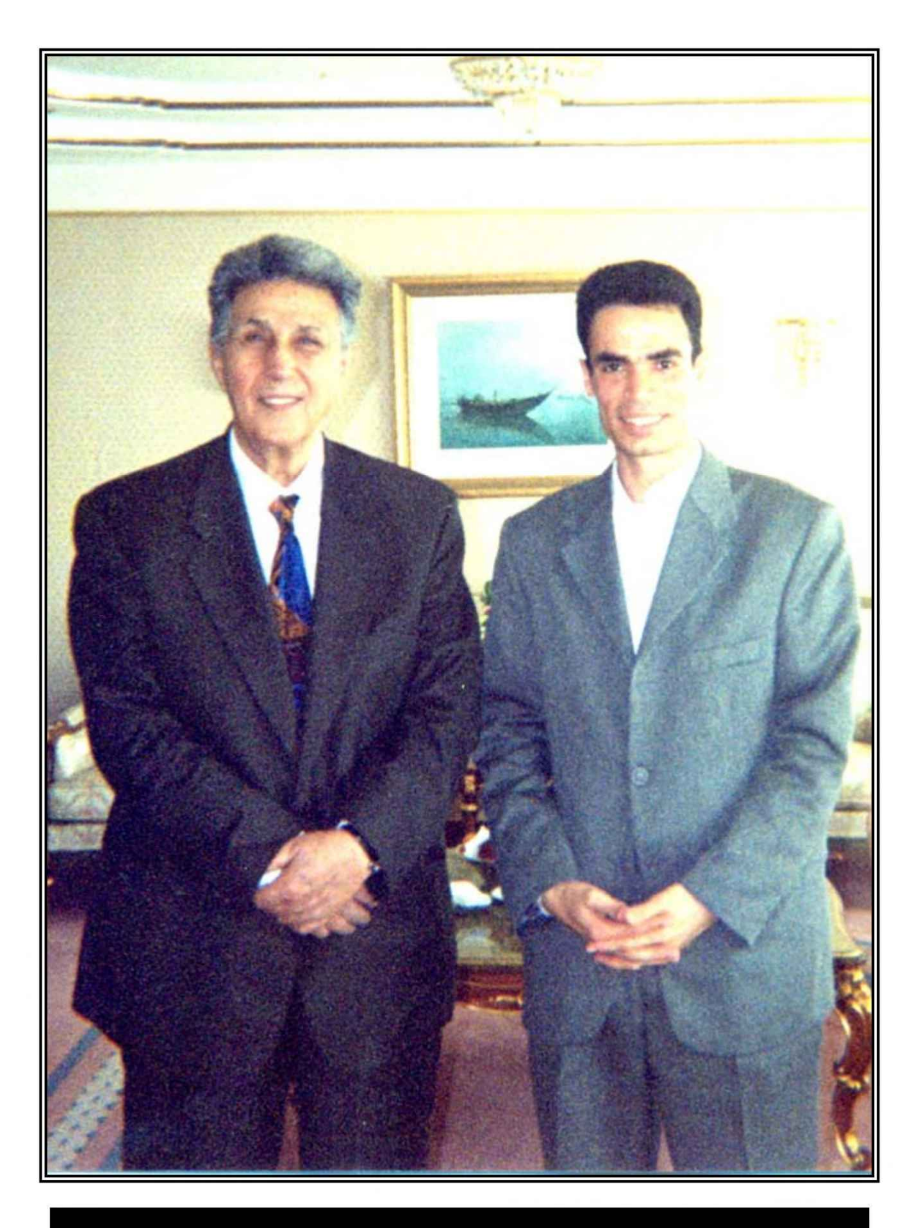
ملحق خاص



أشخاص وأحداث (ملف الصور)



كان الأستاذ محمد حسنين هيكل شاهدًا على عصر الثورات في القرنين العـشرين والحادي العشرين.. وأدت أدواره وكتاباته إلى جدل واسع.



مع الـرئيس الجزائـري أحمـد بـن بـيللا في أبـو ظـبي.. ومحـاورة عـن الثـورة الجزائرية إحدى أكبر ثورات القرن العشرين.



مع الزعيم العنصري جان ماري لوبان في باريس.. ولوبان يقول: كنت ضمن من يعتقدون باخلاص أن الجزائر يمكن أن تكون فرنسية، وأن فرنسا يمكن أن يكون لها وجود في قارتين مختلفتين.. كانت رؤيتي أن كل الجزائريين يمكن أن يصبحوا مواطنين فرنسيين بشكل كامل.



حديث مطول في قصر الأمير الحسن بن طلال في العاصمة الأردنية عمان عن الثورة العربية الكبرى التي قادها جده الشريف حسين بن علي في أوائل القرن العشرين.



مع الشريف علي بن الحسين سليل أسرة الشريف الحسين بن علي.. ورؤية نقدية للثورة العراقية 1958 التي أطاحت بعائلته من السلطة ومن الحياة. والشريف يتحدث عن أن الملكية في العراق هي الحل.



في قصر قرطاج في تونس مع الرئيس المنصف المرزوقي الذي تولى الحكم عقب إطاحة الثورة التونسية بالرئيس زين العابدين بن علي.



مع الدكتور محمد البرادعي في مقر وكالة الطاقة الذرية في العاصمة النمساوية فيينا. أراد الدكتور البرادعي أن يكون رمزًا لثورة يناير فجاء مسئولاً في ثورة يونيو، ثم غادر الثورة والدولة في لحظات عصيبة.



أثناء ندوة في كلية الإقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة، مع الفريق أول أمين هويدي. كان الوزير هويدي حاضرًا في تفاصيل الثورة العراقية، وفي مصر تولى رئاسة الجيش بعد المشير عامر ورئاسة جهاز المخابرات العامة بعد صلاح نصر.



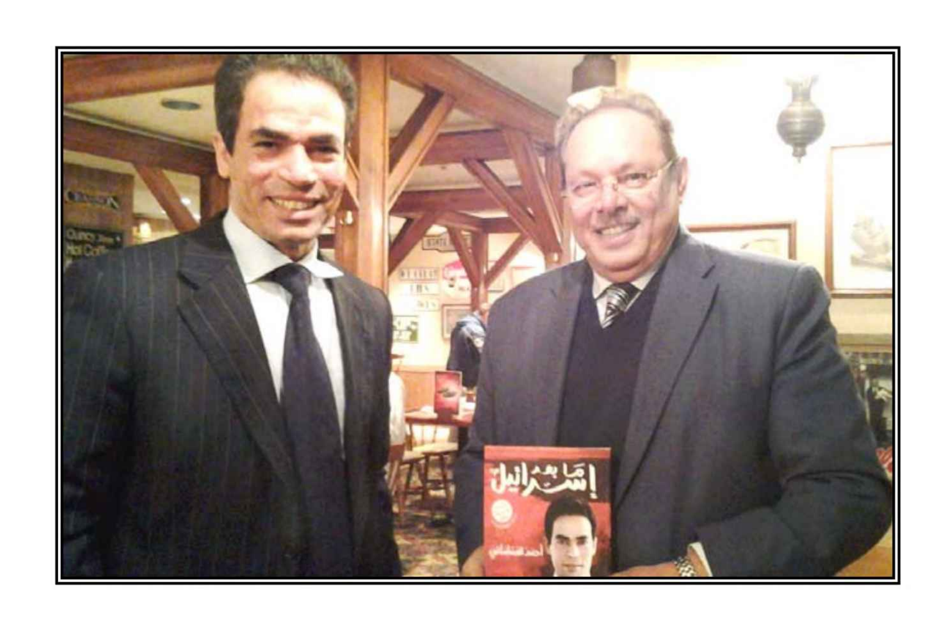
الوزير سامي شرف مدير مكتب الرئيس جمال عبد الناصر يتوسط الفريق أول محمد فوزي والمؤلف في إستراحة مطار سرت – ليبيا. كان الوزير فوزي قد تولى مسئولية إعادة بناء الجيش المصري بعد حرب 5 يونيو 1967 .. وكان ناقمًا على الأخطاء التي وقعت في اليمن حين تدخلت القاهرة لدعم الثورة اليمنية.



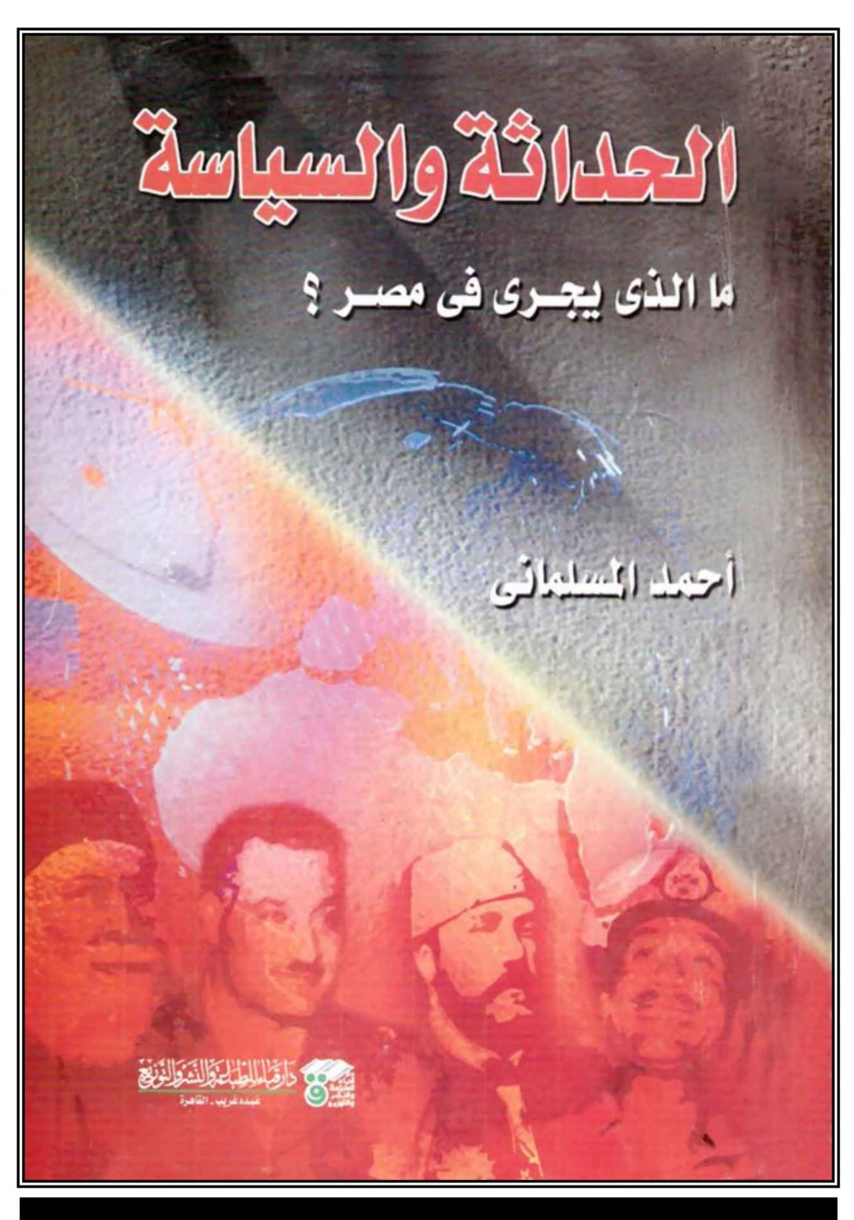
مع الأميرة فريال الابنة الكبرى للملك فاروق في فندق البرنس دوجال في باريس.. وحوار مفتوح حول ثورة يوليو التي أطاحت بعائلتها.. عمّا قبلها وعمّا بعدها.



رئيس الحكومة اللبنانية الأسبق العماد ميشيل عون يحمل نسخة من الإصدار الأول من كتاب "خريف الثورة". فندق فور سيزونز – واشنطن 2005.



الرئيس علي ناصر محمد رئيس اليمن الجنوبي الأسبق يحمل نسخة من كتاب " ما بعد إسرائيل" من إهداء المؤلف وحديث ممتد عن الثورة والدولة في اليمن.



غلاف كتاب "الحداثة والسياسة" للمؤلف صادر عن دار قباء للطباعة والنشر في القاهرة عام **2003**. وفيه يجيب المؤلف عن سؤال الإسلام أم الحداثة؟.. بالإسلام والحداثة معًا.. أو مشروع "الإسلام الحضاري".



المؤلف في أول مؤتمر صحفي في قصر الإتحادية – مقر الرئاسة المصرية، عقب نجاح ثورة 30 يونيو 2013.



مع السيد عمرو موسى الأمين العام السابق لجامعة الدول العربية ورئيس لجنة تعديل الدستور في مؤتمر صحفي.. ضمن جولة شملت شخصيات وقوى سياسية عقب ثورة 30 يونيو 2013 .



مع الـرئيس محمـود عبـاس " أبـو مـازن " في قـصر الـضيافة بمـصر الجديـدة..
وحديث متصل عن الثورة الفلسطينية وعن الدولة الفلسطينية.